

دراسات في
علوم القرآن الكريم

تأليف
أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الروي
أستاذ الدراسات القرآنية
جامعة الملك سعود
الرياض

ح) فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ، ١٤٢٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الرومي ، فهد بن عبد الرحمن

دراسات في علوم القرآن الكريم / فهد بن عبد الرحمن الرومي

الرياض ، ١٤٢٧ هـ

٦٦٦ ص ، ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٠ - ٥١٣ - ٥٦ - ٩٩٦٠

١ - علوم القرآن أ - العنوان

١٤٢٧/٥١٥١

ديوي ٢٢٥

رقم الإيداع : ١٤٢٧/٥١٥١

ردمك : ٠ - ٥١٣ - ٥٦ - ٩٩٦٠

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الخامسة عشرة

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

عنوان المؤلف: المملكة العربية السعودية - الرياض

ص.ب: ١٥١٧٦ الرياض ١١٤٤٤

هاتف: ٤٩٦٤٤١١ - ١ - ٠٠٩٦٦

جوال: ٠٥٠٠٦٥٥٤١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ، وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣).

أما بعد :

فإن خير الحديث كتابُ الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكلُّ محدثة بدعة، وكلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النار.

وإن القرآن كلام الله سبحانه، أودع فيه الهدى والنور، وأبان فيه العلم والحكمة، فأقبل العلماء ينهلون من معينه، ويعتبون من نُقَاحه، فاستنبط الفقهاء من أحكامه، واهتدى أهل البيان بنظامه، وتفكر المتفكرون في قصصه وأخباره، وتأملت طائفة في حججه وبراهينه.

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٢ .

(٢) سورة النساء : الآية ١ .

(٣) سورة الأحزاب : الآيتان ٧٠-٧١ .

وأقبلت طائفة على تاريخ نزوله، ومكيه ومدنيه، وأول ما نزل وآخر ما نزل، وأسباب النزول، وجمعه وتدوينه وترتيبه، وناسخه ومنسوخه، ومجمله ومبينه، وأمثاله وقصصه، وأقسامه، وجدله، وتفسيره، حتى أصبحت هذه المباحث علوماً واسعةً غاص في بحورها العلماء، واستخرجوا منها الدُّرر، واتسعت هذه الأبحاث حتى احتاج الناس إلى من يجمعها بإيجاز، ويتحدث عنها باختصار.

وقد ألف العلماء في كل عصر مؤلفات تناسب معاصريهم في الأسلوب والتنظيم والترتيب والتبويب وما زالوا يؤلفون، وكل منهم يبذل جهده ويتحرى ما وسعه التحري أن يبسط هذه العلوم بأسلوب ميسر يدني فيه البعيد، ويوضح فيه المستغلق، ويجلو به المبهم.

ثم رأيت أن أشارك بالتأليف في هذه العلوم بجهدى المقل وإن لم أكن من أربابها بأسلوب حرصت على أن يكون ميسراً، وبطريقة حرصت على أن تناسب الراغبين في التحصيل.

وقد تابعت طبعات هذا الكتاب وفي بعضها تصحيحات وإضافات يسيرة لا تتجاوز الصفحات المعدودة، وفي بعضها إضافة عدة أبواب، وقد اكتملت مباحثه في هذه الطبعة حتى شملت - كما أحسب - مقررات علوم القرآن الكريم في الجامعات وكليات المعلمين والمعلمات وكليات البنات في المملكة، ولا يفوتني أن أشكر الأخوة والأخوات الذين اقترحوا عليّ الكتابة في بعض مباحث علوم القرآن لتغطية المقررات التي يُدرّسونها لطلابهم وطالباتهم شاكرًا ثقتهم بأخيهم، وأسأل الله لنا ولهم وللجميع العون والتوفيق إنه سميع مجيب.

المؤلف

الرياض ٢٢/٦/١٤٢٥هـ

تمهيد^(١)

المعجزة الكبرى:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن تقويم، قال جل جلاله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٢) ورَكَّبَ خلقه من جسد وروح، وجعل للجسد غذاءه وللروح غذاءها.

أما الجسد فجسم مادي يتغذى بالماديات، وهي طعامه وشرابه، وعلى الجسد أن يسعى لتحصيلها بالزراعة أو الصيد أو غيرها. وقد أعان الله الأجساد بتقريب غذائها إليها، فليس عليها إلا أن تبذر البذرة أو تغرس الغرسة وترعاها فتنبت بإذن ربها، ولو سلب الله من النبات هذه الخاصية لما كان لهذه الأبدان من قوة للإنبات ﴿أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَخُنُ الْمُنْشُوعُونَ﴾^(٣) وأدنى إليها الماء ليسهل إخراجها ولو بعد غوره لما استطاعت إخراجها ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَنِ يَأْتِيَكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾^(٤).

أما الروح وما أدراك ما الروح فقد أعانها الله تعالى على تحصيل غذائها وأدناه إليها، وأرسل الرسل تهدي إليه، ووهب العقول تؤمن به.

(١) قد اتوسع في بعض المباحث بذكر مقدمة، أو تمهيد، أو زيادة أمثلة، أو تقسيمات، وللمعلم أو المعلمة الاختصار على ما يراه مناسباً، وحذف ما يرى عدم ضرورته أو عدم الحاجة إليه في المقرر الذي يدرسه.

(٢) سورة التين: الآية ٤.

(٣) سورة الواقعة: الآية ٧٢.

(٤) سورة الملك: الآية ٣٠.

فإذا انحرفت أمة من الأمم عن سمت الصراط المستقيم أرسل الله إليهم رسولا منهم يعيدهم إليه، ويظهر الله على يديه من المعجزات ما يظهر بها صدقه، وتقوم بها حجته.

وقد كانت سنة الله تعالى في المعجزات أن تكون المعجزة التي يظهرها الله على يد كل نبي من أنبيائه من جنس ما برع فيه قومه وتفوقوا، حتى تكون أقوى حجة، وأظهر برهاناً، وأصدق دليلاً.

والتحدي أقوى ما يكون إذا تحدت إنساناً فيما ظهر فيه وتفوق، فإذا تحدى شاب في سباق طويل رجلاً عجزواً لا يكاد يقوم من مقعده إلا بعضاً تسنده، ولا يكاد يمشي إلا ديبياً، فإن تحديه هذا يكون موضع سخرية وهزاء لا محل احترام وتقدير، ولكن التحدي يلقي التقدير إن تحدى شاباً اشتهر بسرعة عدوه وتفوق فيه.

وهكذا كانت المعجزات التي يظهرها الله على يد أنبيائه تكون في نطاق ما يعرفون، بل فيما فاقوا فيه معاصريهم.

وتدبر - مثلاً - معجزة موسى عليه السلام. أرسله الله سبحانه وتعالى إلى قوم قد نالوا في السحر درجة وشأواً بعيداً حتى امتلأت البلاد منهم، والسحر له حدّ ينتهي إليه لا يتجاوزه، فالساحر لا يستطيع أن يحول قطعة ورق إلى فئة نقدية (حقيقة) بل (يخيل) لك ذلك، فإذا غاب عنك عادت إلى الحقيقة فإذا بها قطعة ورق.

والسحرة يلقون جبالهم وعصيهم أمام موسى (فيخيل) إليه أنها تسعى ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾^(١) وذلك لأنها لم تتحول حقيقة وإنما تحولت خيالاً.

(١) سورة طه: الآية ٦٦.

وحين ألقى موسى عليه السلام عصاه لم يقل الله: يخيّل إليه أنها تسعى، وإنما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَاعِيٌّ﴾^(١).

ذلكم أنها تحولت إلى ثعبان حقاً، وهذا لا يمكن حدوثه في عالم السحر^(٢).

إذاً فمعجزة موسى عليه السلام من جنس ما برع فيه قومه فكلاهما تحويل من حال إلى حال، إلا أن السحر من حقيقة إلى خيال، وأما معجزة موسى فمن حقيقة إلى حقيقة، وإذا عجز عنه أولئك فهم عن غيره مما لم يبرعوا فيه أعجز.

ولهذا كان أول من أدرك إعجاز موسى عليه السلام هم السحرة أنفسهم، أدركوا من فورهم أن معجزة موسى عليه السلام ليست بسحر، وأن السحر لا يصل إلى درجتها، وأنها لا يمكن أن تكون من موسى، بل هي من رب موسى^(٣)، وإذا كانت من ربه فإنما أظهرها على يديه لتكون حجة على صدقه، فأذعنوا من فورهم، واستولى الإيمان على قلوبهم، ولم يستأذنوا أحداً؛ لأن ما أدركوا أقوى من أن يترك لهم فرصة للتردد والتشاور.

وانظر معجزة عيسى عليه السلام، نما وازدهر الطب في عهده، وبرع فيه قومه، والطب له حدّه الذي ينتهي عنده في علاج الأبدان، فهو يعالجها ما دامت الروح فيها لم تخرج، أما إذا خرجت فقد عجز الطب والأطباء،

(١) سورة طه: الآية ٢٠.

(٢) ينبغي أن نفرق هنا بين حقيقة السحر، وتأثير السحر، فتأثيره حقيقي، فقد يؤثر في العين فترى ما لا حقيقة له، وقد يؤثر في القلوب فيكره الزوج زوجته، وتكره الزوجة زوجها ونحو ذلك.

(٣) لذلك لم يقل السحرة: آمنا بموسى، وإنما قالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠].

ومن هنا بدأت معجزة عيسى عليه السلام حيث قال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (١).

فمعجزته عليه السلام من جنس الطب الذي برع فيه قومه، وإذا عجزوا عن الإتيان بمثل ما برعوا فيه فهم عن سواء أعجز، وبهذا تكون حجته على قومه أقوى وأظهر.

أما صالح عليه السلام فقد أرسله الله تعالى إلى قوم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً، ولا تزال آثارهم باقية بزخارفها ونقوشها. والنحات مهما بلغ في فنه يقف عند حدّ التصوير، لا يستطيع أبداً أن يبعث الحياة فيما نحت. وجاءت معجزة صالح بأن أخرج لهم بإذن الله من الصخر (٢) - الذي ينحتون منه - ناقة ذات روح تأكل وتشرب وتدر الحليب. والنحات يستطيع أن ينحت من الصخر شكل ناقة لكنه لا يستطيع أن يبعث فيها الحياة، فكانت المعجزة من جنس ما تفوقوا فيه وإن لم تكن مثله.

أما العرب وقت بعثة الرسول ﷺ فإن نظرة فاحصة إلى مجتمعهم تظهر جلياً أن المجتمع كان مجتمعاً جاهلياً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

أما السياسة فكانت الحكومات تحيط بهم: الأكاسرة في فارس، والقيصرة في الروم، والمقوقس في مصر، والنجاشي في الحبشة، أما الحجاز فلم يكن ثمّ ملك أو رئيس أو أمير، وإنما زعماء وصناديد لكل قبيلة تُفرّق أكثر مما تجمع، وتُشتّت أكثر مما تُوحّد، ولذا كان العرب أمة مستضعفة هانت على الآخرين. يذهب زعماءها إلى الشام مثلاً ويدخلونها

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري، ج ١٢، ص ٥٢٥ وما بعدها، وتفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٢٤٥.

كما يدخلها أي إنسان لا مزية له ولا مقام، ولو سافر زعيم فارس إلى الروم لاستقبل بالحفاوة، وضربت له الشُّرادق، واستقبل استقبالاً مميزاً، أما زعماء العرب فكانوا يدخلون الأسواق، ويبيعون ويشتررون لم يعرف أحد بدخولهم ولم يبال أحد بخروجهم، فأني لمثل هذه الزعامة أن يكون لها جانب مهاب.

وأما الاقتصاد فقوامه الصناعة والزراعة والتجارة. أما الصناعة فلم يكن ثمَّ صناعة، وإن وجد صناع فنجار فارسي، أو حداد رومي، أو صناعات لا تكاد تذكر.

أما الزراعة فأرضهم غير ذات زرع، وإن وجد فالمياه شحيحة، والخبرة نادرة، إلا النخيل على قَلَّتْ فهو النوع الذي يمكن تخزينه والتجارة به من بلد إلى بلد، وما سواه فإما أنه لا ينبت في أرضهم، أو لا يمكن الاحتفاظ به والاتجار لسرعة تلفه في مثل أجوائهم، فالزراعة ليست ذات جدوى اقتصادية في بلادهم.

أما التجارة فكانت تقوم على رحلتين: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام. وما ظنكم بتجارة تلكم وسائلها وإمكاناتها، وما تجدي بضاعة تحملها النوق من الشام أو من اليمن إلى مكة بعد مُضيِّ فترة طويلة بين رحلة وأخرى.

وإذا كانت الصناعة والزراعة والتجارة على هذا الحال، فكيف سيكون اقتصاد البلاد؟! وإذا كان هذا اقتصادهم فكيف ستكون حالتهم المعيشية؟!

وفي الناحية الاجتماعية كانوا قبائل شتى، تقع الحرب بين القبيلتين لأنفه سبب وأهونه، وتشعل الحرب في أيام ولا تنطفئ إلا بعد سنوات.

حتى الأسرة يبدو التفكك فيها ظاهراً، وكيف ترجو الترابط الأسري في مجتمع يمتن المرأة ويعاملها كالسلعة، تباع وتشتري، وتوهب وتكتري، وتورث كما يورث متاع الدار، ومن ثم فلا تعجب إن خمدت عاطفة الأبوة فيُقدّم الأب على قتل أولاده لا لشيء إلا خشية الإملاق، ويدفن ابنته وهي حية لا لشيء إلا خشية العار.

تأمل في هذا المجتمع حيث لا سياسة توحد صفوفهم، ولا اقتصاد يجمع كلمتهم ويوحد مصالحهم، ولا سلام يسود بينهم، ديدنهم توارث العداوات والأحقاد، ودأبهم السلب والنهب، ومعبودهم الأصنام والأوثان^(١).

وإذا كان الأمر كذلك لا سياسة تشغلهم في بحث شؤون الدولة وإصدار الأنظمة والقوانين، ويبحث العلاقات السياسية مع الدول المجاورة، ولا اقتصاد يجمعهم للتداول في أمره والتماس السبل الاقتصادية والمعاملات التجارية، أو صناعة تشغل وقتهم، أو زراعة تملأ فراغهم، إذا كان الأمر كذلك فإن الفراغ عندهم كبير لم يجدوا ما يملؤوه به إلا الاجتماع في الأسواق والدور، وأهون ما تملأ به هذه المجالس هي المحادثة، فلا عجب أن برع هؤلاء في أساليبها، وتذوقوا بليغها، وطربوا لبيانها وبديعها.

ولا عجب أن عقدوا للكلمة أسواقاً^(٢) يعرضون فيها قصائدهم وخطبهم، وأن ترسل كل قبيلة وفدها، يلتف حول شاعرها، يمدح قبيلته ويمجد مآثرها، ويعلن محاسن قومه، والناس يصدقون الشاعر وإن كانوا يعلمون كذبه، ويرددون أبياته وإن كانوا يعرفون مبالغتها أو افتراءها.

(١) هذا لا يعني تجردهم من الأخلاق السامية، فقد كانوا أهل حمية وأنفة، وعِزة وكرامة، ووفاء بالعهود، وإكرام للضيف.

(٢) مثل سوق المُشعر بالبحرين، وسوق الشَّحر بين عمان وعدن، وسوق ذي المجاز في عرفة بمكة، وسوق مجنة، وسوق عكاظ بالطائف، وسوق حباشة بمكة.

ولا عجب ما دامت هذه مكانة الكلمة أن تهون قبيلة إذا هُجيت بقصيدة وإن كانت كاذبة، وأن يرفع أتباع القبيلة رؤوسهم فخراً إن مُدحوا بقصيدة، وما ذاك إلا لسلطة الكلمة بينهم فالكلمة في تلك الفترة لها سلطتها ترفع فيهم وتضع.

وحين أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمة خيراً، واقتضت حكمته أن يبعث إليهم رسولاً يخرجهم من الظلمات إلى النور، جاءت المعجزة وفق سنة الله في إظهار المعجزات التي جاءت على أيدي الأنبياء من قبله. فكانت معجزته ﷺ من جنس ما تفوقوا فيه، وملك ألبابهم، وسيطر على عقولهم. جاءت معجزته قرآناً يُقرأ ويُسمع، ويمسك البلاغة من أطرافها، ويملك الإعجاز من مجامعه.

وحين ناووه وحاربوه وطاردوه هو وأهله وعشيرته وأصحابه، وبذلوا كل ما يستطيعون للقضاء على دعوته، أظهر لهم سبيلاً واحداً لذلك إن استطاعوا بأن يأتوا بمثل هذه القرآن، أو بمثل عشر سور، أو بمثل سورة، أو بمثل حديث منه، وكان هذا العرض أشد عليهم مما هم عليه من حربه، لأنهم في حربه يؤملون القضاء على دعوته، أما فيما تحداهم فيه فإنهم يعرفون سلفاً عجزهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن، ومن ثم لم يحاول أحد منهم - مجرد محاولة - أن يأتي بمثل هذا لأنه يعرف - سلفاً - أن لا سبيل إلى ذلك، وأن مجرد المحاولة سيجعله مثار هزء وسخرية أمام مجتمعه، تماماً كمثل محاولة ذاك الذي يحاول أن يقفز بقدميه ناطحة من ناطحات السحاب. إن مجرد محاولته مثار هزء وسخرية، فاخترأوا سبيل الحرب مع شدته على الإتيان بمثل هذا القرآن.

فإن قلت: إذا كان القوم يدركون إعجاز القرآن فلم لم يؤثر في قلوبهم ويدعون له؟

قلتُ: إن القوم أدركوا هذا التأثير ولم يقفوا منه موقف المتفرج، وإنما سعوا بكل ما في وسعهم لمحاصرته.

فكانوا يحذرون من مجالسة الرسول ﷺ، وكانوا يستقبلون القوافل القادمة إلى مكة، ويحذرونهم أول ما يحذرونهم من مجالسة محمد ﷺ أو الاستماع إليه. فإن صدع ﷺ في مجتمع بالقرآن وجهر به ضجوا بأصواتهم حتى لا يصل صوته إلى الأذان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١) لأنهم يعرفون أن مجرد السماع له تأثيره القوي.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا آمَرَ﴾^(٢).

لكن هذا التأثير عند سماع القرآن لا يجدي إذا كان هناك عناد واستكبار؛ لأن العناد لا تجدي معه حجة، ولا ينفع معه البرهان.

وكان العناد هو المانع لكثير من أهل مكة عن الإسلام، وحين لا يكون ثمَّ عناد نرى التأثير القرآني، فأهل المدينة مثلاً أرسل إليهم الرسول ﷺ رجلين هما مصعب بن عمير وعبد الله ابن أم مكتوم^(٣) - رضي الله عنهما - فجلسا هناك يقرآن القرآن والناس يستمعون، ولم يلبثوا إلا يسيراً حتى دخلت المدينة في الإسلام وفتحت أبوابها لرسول الله ﷺ، ولهذا قيل: «فتحت البلاد بالسيف وفتحت المدينة بالقرآن»^(٤).

(١) سورة فصلت: الآية ٢٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ٦.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٧٧-٧٩، والكمال في التاريخ: ابن الأثير، ج ٢، ص ٦٧-٦٨.

(٤) تهذيب الكمال: المزي، ج ٢٥، ص ٦٥، ومجمع الزوائد: الهيثمي، ج ٣، ص ٢٩٨.

فإن قلت: ما الدليل على أن العناد هو المانع من التأثر بالقرآن؟

قلت: الأدلة كثيرة يكفي منها اعتراف صريح لزعيم من زعماء قريش هو أبو جهل، فقد روى ابن هشام أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا... وحصل في الليلة الثانية ما حصل في الأولى... وحين التقوا في الليلة الثالثة قال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا. وسأل الأخنس بن شريق أبا جهل عن رأيه فيما سمعه من محمد، فقال: ماذا سمعت! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الرُّكْب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذا!! والله لا نؤمن أبداً ولا نصدقه^(١).

والتقى الأخنس بن شريق، وأبو جهل بن هشام، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا أحد يسمع كلامك غيري. فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجاجة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟^(٢).

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٣٧-٣٣٨.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص ٢١٨ في الآية: ٣٣ الأنعام.

حتى أبو طالب عم الرسول ﷺ أدرك صدق الرسول ﷺ ولم يمنعه من الإسلام إلا خشية الملامة من قومه والمسبة فهو يقول:

فوالله لولا أن أجيء بسببة تجرّ على أشياخنا في المحافل
لكنّا اتبعناه على كل حالة من الدهر جدّاً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يُعنى بقول الأباطيل
إلى أن قال:

فأيّده ربّ العباد بنصره وأظهر ديناً حقّه غير باطل^(١)
وقال أيضاً:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً
كما حكى القرآن الكريم اعتراف الكفار بسلامة القرآن وإعجازه،
واعترافهم أن المانع لإسلامهم واقتناعهم ليس الضعف في حجج القرآن
وبراهينه، وإنما هو الحسد أن ينزل هذا القرآن على محمد ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا
الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٢).

ويظهر هذا في قول الوليد بن المغيرة حين قال: «أينزل على محمد
وأترك وأنا كبير قريش وسيدها!»^(٣).

وبلغ عنادهم أقصاه حين أعلنوا رفضهم لقبوله حتى وإن كان حقاً حين

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ص ٢٩٩.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٣١.

(٣) سيرة ابن هشام، ج١، ص ٣٨٧.

قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ
أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

ولعل في هذا دليلاً ظاهراً على أن المانع من إيمان أولئك كان العناد.
أما طالبوا الحق فقد ملك القرآن أفئدتهم، وهيمن على قلوبهم،
وزادهم خشوعاً، فأذعنوا وأسلموا وأقبلوا على رسول الله ﷺ يتلو عليهم
الآيات ويزكيهم.

وقد كان أصحابه - رضوان الله عليهم - عرباً خالصاً، يفهمون القرآن
الكريم بمقتضى اللغة والسليقة العربية، فإن اشتبه عليهم لفظ أو غمض
عليهم معنى سأل بعضهم بعضاً وإلا سألوا الرسول ﷺ فبينه لهم.

وما زالوا يقرؤون القرآن ويتدبرون معانيه ويتدارسون أحكامه حتى
حفظه كثير منهم، واشتهر آخرون بدقة تفسيره، واشتهرت طائفة بإحكام
تلاوته، وبهذا نشأت علوم القرآن الكريم في وقت مبكر.



(١) سورة الأنفال: الآية ٣٢.

تعريف علوم القرآن الكريم

علوم القرآن مركب إضافي يتكون من كلمتين (علوم) و(القرآن)، والمقام يقتضي أن نعرّف كل كلمة وحدها لغةً واصطلاحاً، ثم نعقب على ذلك بتعريفهما معاً مركبتين تركيباً إضافياً، ثم التعريف الاصطلاحي لهما.

تعريف العلوم:

العلوم جمع علم، والعلم نقيض الجهل، وهو مصدر مرادف للفهم والمعرفة، ويراد به إدراك الشيء بحقيقته أو اليقين، أو هو نور يقذفه الله في القلب.

ويطلق العلم على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة، مثل علم النحو، وعلم الطب، وعلم الكيمياء.

ويجمع على (علوم)، وقد تسمى به المباحث التي تتناول موضوعاً واحداً مثل: علوم العربية، والعلوم الطبيعية، والعلوم التجريبية.

تعريف القرآن لغة:

اختلف العلماء - رحمهم الله تعالى - في لفظ القرآن لكنهم اتفقوا على أنه اسم فليس بفعل ولا حرف. وهذا الاسم شأنه شأن الأسماء في العربية إما أن يكون جامداً أو مشتقاً.

فذهب جماعة من العلماء إلى أنه اسم جامد غير مهموز قال الشافعي: «وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين وكان يقول: القرآن اسم وليس بمهموز،

ولم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت لكان كل ما قرئ قرآنًا، ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل، يَهْمَزُ قرأت ولا يَهْمَزُ القرآن ﴿وإذا قرأت القرآن﴾ وبه قرأ ابن كثير.

وذهبت طائفة إلى أن هذا الاسم مشتق ثم افترقوا إلى فرقتين:

فقال فرقة منهم: إن النون أصلية وعلى هذا يكون الاسم مشتقاً من مادة (ق ر ن) ثم اختلفوا:

١ - فقالت طائفة منهم الأشعري^(٢): إنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممت إليه ومنه قولهم: قرن بين البعيرين إذا جمع بينهما، ومنه سُمِّي الجمع بين الحج والعمرة في إحرام واحد قران.

٢ - وقالت طائفة منهم الفراء^(٣): إنه مشتق من القرائن جمع قرينة لأن آياته يشبه بعضها بعضاً.

وقالت فرقة منهم: إن الهمزة أصلية ثم افترقوا أيضاً إلى فرقتين:

١ - فقالت طائفة منهم اللحياني^(٤): إن القرآن مصدر مهموز بوزن الغفران مشتق من قرأ بمعنى تلا، سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلَيَعَ قُرْآنُهُ ﴿٥﴾ أي: قراءته.

٢ - وقالت طائفة منهم الزجاج^(٦): إنه وصف على وزن فُعْلان مشتق من القُرء بمعنى الجمع، ومنه: قرأ الماء في الحوض إذا جمعه.

(١) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، ج ٢، ص ٦٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج ١، ص ٢٧٨.

(٣) الإتيقان، ج ١، ص ٨٧.

(٤) المرجع السابق: نفس الموضع.

(٥) سورة القيامة: الآيتان ١٧-١٨.

(٦) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج ١، ص ٢٧٨.

قال ابن الأثير: «وسمي القرآن قرآناً؛ لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض، وهو مصدر كالغفران والكفران»^(١).

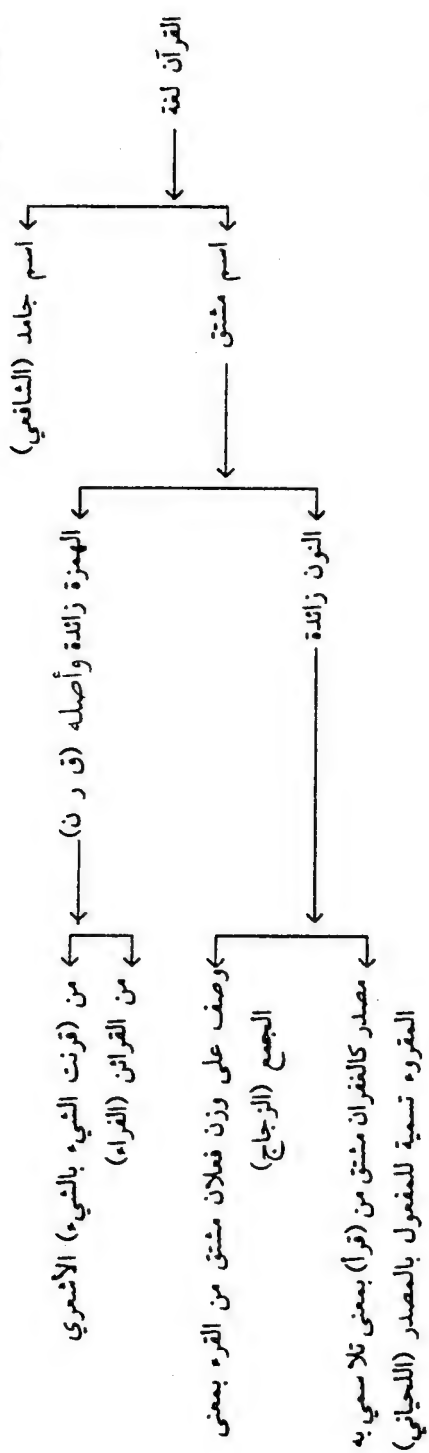
ولعل الراجح هو ما ذهب إليه اللحياني والزجاج أن الهمزة أصلية وأن لفظ القرآن مهموز وصف أو مصدر، وأما ترك الهمز فيه في بعض القراءات فهو من باب التخفيف ونقل حركتها إلى ما قبلها، وهو كثير شائع، ثم نقل من المصدرية أو الوصفية وجعل علماً كما ذهب إليه محققو الأصوليين^(٢).

تلكم خلاصة الأقوال في تعريف القرآن لغة، ولعل الرسم التوضيحي يزيدها بياناً، ونستطيع أن نصور هذه الأقوال بطريقتين:

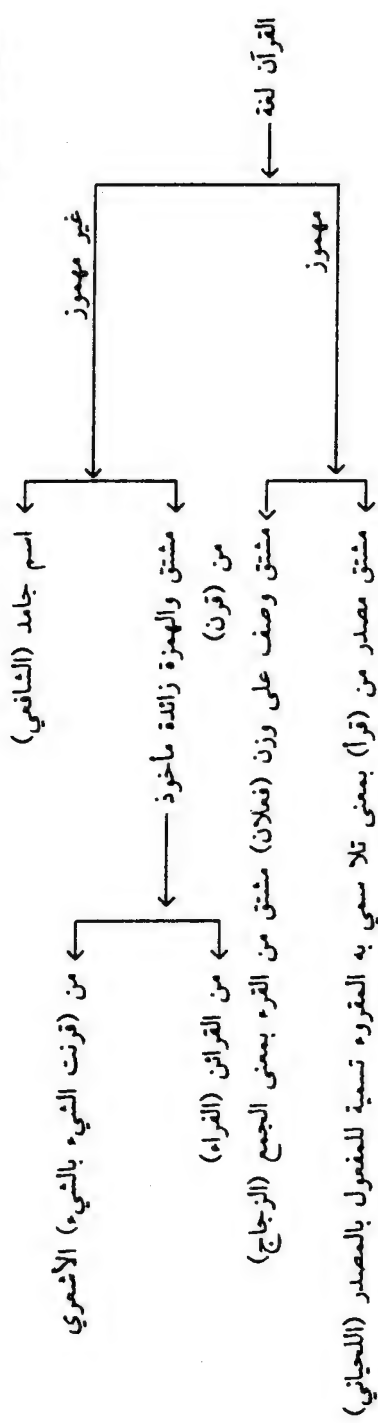
(١) النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، ج٤، ص ٣٠.

(٢) منهج الفرقان في علوم القرآن: محمد علي سلامة، ص ١٦.

الطريقة الأولى:



الطريقة الثانية:



تعريف القرآن اصطلاحاً:

اختص القرآن الكريم بخصائص كثيرة، ولعل هذه الخصائص سبب الاختلاف في تعريف القرآن بين العلماء، فكل تعريف يذكر خاصية للقرآن يعرفه بها لا يذكرها الآخر، ولهذا تعددت التعريفات.

فإذا كان هناك رجل طويل ويلبس ثوباً أبيض ورداءً أحمر، وحوله أشخاص أقصر منه قامة ويلبسون ثياباً ملونة وأردية بيضاء، فإن قلت: فلان هو الطويل فقد عرفته، وإن قلت: إنه الذي يلبس الثوب الأبيض فقد عرفته، وإن قلت: الذي يلبس الرداء الأحمر فقد عرفته. والمقصود في الكل واحد وإن اختلفت التعريفات.

وللعلماء في تعريف القرآن الكريم صيغ متعددة بعضها طويل، ولعل أقربها تعريفهم للقرآن بأنه:

«كلام الله تعالى المُنَزَّلُ على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته».

شرح التعريف:

فقولنا: كلام الله: خرج به كلام الإنس والجن والملائكة.

وقولنا: المنزل: خرج به ما استأثر الله بعلمه أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر. ذلكم أن من كلام الله ما ينزله إلى الناس، ومنه ما يستأثر بعلمه ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جَنَّا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(١).

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾^(٢).

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٧.

وقولنا: على محمد ﷺ، خرج به المنزل على غيره من الأنبياء كالتوراة المنزل على موسى عليه السلام، والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، والزبور المنزل على داود عليه السلام، والصحف المنزل على إبراهيم عليه السلام.

وقولنا: المتعبد بتلاوته، خرجت به الأحاديث القدسية. ونريد بالمتعبد بتلاوته أمرين:

الأول: أنه المقروء في الصلاة، والذي لا تصح الصلاة إلا به، لقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^(١).

الثاني: أن الثواب على تلاوته لا يعادله ثواب، أي تلاوة لغيره، فقد ورد في فضل تلاوة القرآن من النصوص ما يميزها عن غيرها، فقد روى ابن مسعود رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: آلم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(٢).

وليس هذا الثواب لغير التعبد بتلاوة القرآن الكريم.

الفروق بين القرآن الكريم والأحاديث القدسية:

لعل من المناسب أن نذكر بعض الفروق بين القرآن الكريم والأحاديث القدسية، حتى لا يتوهم أحد أن الفرق بينهما مقصور على التعبد بتلاوة القرآن دون الحديث القدسي.

(١) صحيح البخاري، ج١، ص ١٨٤، وصحيح مسلم، ج١، ص ٢٩٥.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ج٥، ص ١٧٥، والدارمي، ج٢، ص ٤٢٩.

إذ إن هناك فروقاً كثيرة ذكر العلماء منها:

١ - أن القرآن الكريم تحدى الله الناس أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، أو بحديث مثله، فعجزوا، أما الحديث القدسي فلم يقع به التحدي والإعجاز.

٢ - أن القرآن الكريم منقول بطريق التواتر، ويكفر من جحد شيئاً منه، فهو قطعي الثبوت كله، سوره وآياته وجمله ومفرداته وحروفه وحركاته وسكناته، أما الحديث القدسي فأغلبه أحاديث آحاد ظني الثبوت، ولا يكفر من جحد غير المتواتر منه.

٣ - أن القرآن الكريم من عند الله لفظاً ومعنى، أما الحديث القدسي فمعناه من الله باتفاق العلماء، أما لفظه فاختلف فيه.

٤ - أن القرآن الكريم لا ينسب إلا إلى الله تعالى، أما الحديث القدسي فينسب إلى الله تعالى نسبة إنشاء فيقال: قال الله تعالى، ويروى مضافاً إلى الرسول ﷺ نسبة إخبار فيقال: قال رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه.

٥ - أن القرآن الكريم لا يمسّه إلا المطهرون، أما الحديث القدسي فيمسّه الطاهر وغيره.

٦ - أن القرآن الكريم تحرم روايته بالمعنى، أما الحديث القدسي فلا تحرم روايته بالمعنى.

٧ - أن القرآن الكريم تسمى الجملة منه آية، والجملة من الآيات سورة، والأحاديث القدسية لا يسمى بعضها آية ولا سورة باتفاق.

٨ - أن القرآن الكريم يشرع الجمع بين الاستعاذة والبسملة عند تلاوته دون الحديث القدسي.

٩ - القرآن الكريم يكتب برسم خاص هو رسم المصحف دون الحديث القدسي^(١).

أسماء القرآن الكريم وصفاته:

للقرآن الكريم أسماء وصفات كثيرة وردت في بعض الآيات والأحاديث النبوية.

ولكثرة هذه الأسماء والصفات فقد أفردها بعض العلماء بمؤلفات مستقلة منهم:

١ - علي بن أحمد بن الحسن التجيبي الحرّالي المتوفي سنة (٦٤٧هـ).

٢ - ابن قيم الجوزية المتوفي سنة (٧٥١هـ) واسم كتابه «شرح أسماء الكتاب العزيز».

٣ - صالح بن إبراهيم البليهي (معاصر) واسم كتابه «الهدى والبيان في أسماء القرآن» وهو مطبوع.

٤ - محمد جميل أحمد غازي (معاصر) واسم كتابه «أسماء القرآن في القرآن». مطبوع.

٥ - د. خمساوي أحمد الخمساوي (معاصر) واسم كتابه «أسماء القرآن الكريم في القرآن». مطبوع.

(١) لعله من المناسب أن نذكر هنا تعريف الحديث القدسي في الاصطلاح وهو - كما قال العلماء -: ما يضيفه النبي ﷺ إلى الله تعالى، ولروايته صيغتان: الأولى أن يقول الراوي: قال رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه عز وجل، والثانية: أن يقول: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى، أو يقول الله تعالى.

عدد أسماء القرآن الكريم:

وقد وقع الاختلاف بين العلماء رحمهم الله تعالى في عدد أسماء القرآن الكريم، فذكر الزركشي أن الحرّالي أنهى أساميّه إلى نيف وتسعين اسماً^(١).

لكن الزركشي نفسه لا يورد إلا خمسة وخمسين اسماً نقلها عن أبي المعالي عزيزي بن عبد الملك المعروف بشيدله^(٢).

أما الفيروزآبادي فقد قال في كتابه «بصائر ذوي التمييز»: «ذكر الله تعالى للقرآن مئة اسم نسوقها على نسق واحد»^(٣) لكنه - رحمه الله تعالى - لم يذكر إلا تسعة وثمانين اسماً وزادها أربعة أسماء فتكون جملتها ثلاثة وتسعين اسماً في القرآن للقرآن.

وذكر الدكتور خمساوي تسعة وتسعين اسماً مشتقة كما يقول من اثنين وسبعين مادة لغوية^(٤).

ولم يورد الشيخ صالح البليهي - رحمه الله تعالى - إلا ستة وأربعين اسماً لاعتقاده أن بعض هذا العدد - إن لم يكن أكثره - أوصاف للقرآن وليست بأسماء^(٥).

ومن أسماء القرآن الكريم:

١ - القرآن: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾^(٦).

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج١، ص ٢٧٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) بصائر ذوي التمييز: الفيروزآبادي، ج١، ص ٨٨.

(٤) أسماء القرآن الكريم في القرآن: د. خمساوي الخمساوي، ص ٥.

(٥) الهدى والبيان في أسماء القرآن: صالح البليهي، ص ٤٤.

(٦) سورة الواقعة: الآية ٧٧.

٢ - الكتاب: في قوله تعالى: ﴿الْمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

٣ - الذكر: في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢).

٤ - الفرقان: في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾^(٣).

٥ - النور: في قوله تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾^(٤).

ومن صفات القرآن الكريم:

١ - المبارك: في قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾^(٥).

٢ - هدى، ورحمة: في قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾^(٦).

٣ - الكريم: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾^(٧).

٤ - الحكيم: في قوله تعالى: ﴿الرَّتِّكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾^(٨).

٥ - الفصل: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾^(٩).

حكمة تعدد أسماء القرآن الكريم:

وقد بين العلماء - رحمهم الله تعالى - حكمة تعدد الأسماء للقرآن الكريم
فقال الفيروزآبادي - رحمه الله تعالى -: «اعلم أن كثرة الأسماء تدل على

(١) سورة البقرة: الآيتان ١-٢.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

(٣) سورة الفرقان: الآية ١.

(٤) سورة التغابن: الآية ٨.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٩٢.

(٦) سورة لقمان: الآية ٣.

(٧) سورة الواقعة: الآية ٧٧.

(٨) سورة يونس: الآية ١.

(٩) سورة الطارق: الآية ١٣.

شرف المسمى أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكائتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي ﷺ دلت على علو رتبته، وسمو درجته. وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه وفضيلته»^(١).

الاشتراك والامتياز بين أسماء القرآن الكريم:

وبين أسماء القرآن الكريم الكثيرة اشتراك وامتياز، فهي تشترك في دلالتها على ذات واحدة هي القرآن الكريم نفسه، ويمتاز كل واحد منها عن الآخر بدلالته على معنى خاص، فكل اسم للقرآن يدل على حصول معناه فيه، فتسميته مثلاً بالهدى يدل على الهداية فيه، وتسميته بالتذكرة يدل على أن فيه ذكرى، وهكذا^(٢).

كما قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى - عن لفظ السيف والصارم والمهند.. فإنها تشترك في دلالتها على الذات، فهي من هذا الوجه كالمواطئة، ويمتاز كل منها بدلالته على معنى خاص فتشبه المتباينة. وأسماء الله وأسماء رسوله وكتابه من هذا الباب^(٣).

مصدر أسماء القرآن الكريم:

وأسماء القرآن الكريم وصفاته توقيفية، لا نسبيه ولا نصفه إلا بما جاء في الكتاب أو في السنة النبوية الشريفة.

(١) بصائر ذوي التمييز: الفيروزآبادي، ج١، ص ٨٨.

(٢) خصائص القرآن الكريم: فهد الرومي، ص ١٢٣.

(٣) مجموع فتاوي ابن تيمية، ج ٢٠، ص ٤٩٤.

الفرق بين المصحف والقرآن الكريم:

فإن قلت: أرايت تسميته بالمصحف هل وردت في الكتاب أو السنة؟

قلت: إن المصحف ليس اسماً للقرآن ذاته، وإنما هو اسم للمصحف التي كتب عليها القرآن، ولم يطلق عليه (المصحف) إلا بعد جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في صحف ضم بعضها إلى بعض فسميت مصحفاً.

ولهذا نرى العلماء يتحدثون عن حكم بيع المصحف، ولم يقل أحد منهم: بيع القرآن، فالقرآن كلام الله تعالى، أما المصحف فهو من عمل البشر وصناعتهم التي يبتغون بها الرزق والكسب الحلال^(١).

ولهذا أيضاً لا يصح أن يجمع لفظ القرآن؛ لأن القرآن واحد لا يختلف في كل المصاحف، أما المصحف فيصح جمعه فيقال: «مصحف»؛ لأن كل واحد منها أو مجموعة تختلف عن الأخرى.

ولهذا - أيضاً - لا يقال: قرآن عثمان، أو قرآن عليّ، أو قرآن أبيّ، وأما المصحف فيصح أن يقال: مصحف عثمان، ومصحف عليّ، ومصحف أبيّ ابن كعب، ومصحف ابن مسعود رضي الله عنهم؛ لأن هذه المصاحف من عملهم دون القرآن.

فائدة في تسميته بالقرآن والكتاب:

وهناك إشارة دقيقة استنبطها بعض العلماء من تسميته بالقرآن والكتاب فقال: روعي في تسميته قرآناً كونه متلوّاً بالألسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه.

(١) خصائص القرآن الكريم: فهد الرومي، ص ١٢٤.

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور، والسطور جميعاً. أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز^(١).

وفيه إشارة - أيضاً - إلى أن يظل القرآن مقروءاً بالعين من (الكتاب)، ومسموعاً بالأذن من (القرآن)، وفي ذلك قوة حجة على العباد بشهادة السمع والبصر.

تعريف علوم القرآن:

لعلوم القرآن معنيان: معنى إضافي، ومعنى عَلمٌ على الفن المدون. وإليك بيان ذلك:

المعنى الإضافي:

اعلم أن الإضافة بين «علوم» و«القرآن» تشير إلى أنواع العلوم والمعارف المتصلة بالقرآن الكريم، سواء كانت خادمة للقرآن بمسائلها أو أحكامها أو مفرداتها، أو أن القرآن دلّ على مسائلها أو أرشد إلى أحكامها. فيشمل كل علم خدم القرآن أو استند إليه، كعلم التفسير، وعلم التجويد، وعلم النسخ والمنسوخ، وعلم الفقه، وعلم التوحيد، وعلم الفرائض، وعلم اللغة، وغير ذلك.

(١) النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز، ص ١٢-١٣.

بل توسع بعض العلماء فعد منها علم الهيئة والفلك والجبر والهندسة والطب وغيرها^(١)، والحق أنه وإن كان القرآن الكريم يدعو إلى تعلمها إلا أنه لا يَجْمُلُ عَدُّها من علوم القرآن؛ لأن هناك فرقاً كبيراً بين الشيء يحث القرآن على تعلمه في عمومياته أو خصوصياته، وبين العلم يدل القرآن على مسأله أو يرشد إلى أحكامه^(٢).

وبهذا يظهر لك أن علوم القرآن بالمعنى الإضافي تشمل كل العلوم الدينية والعربية.

معناه كَفَنٌ مُدَوَّنٌ:

ثم نُقِلَ المعنى الإضافي وجعل علماً على الفن المدون، وأصبح مدلوله كَفَنٌ مدون أخص من مدلوله بالمعنى الإضافي.

وَيُعَرَّفُ علوم القرآن كفن مدون بأنه: مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وجمعه، وقراءاته، وتفسيره، وناسخه ومنسوخه، وأسباب نزوله، ومكيه ومدنيه ونحو ذلك.

ويسمى هذا العلم بـ«أصول التفسير» لأنه يتناول العلوم التي يشترط على المُفَسِّر معرفتها والعلم بها.

موضوع علوم القرآن الكريم:

هو القرآن الكريم من أية ناحية من النواحي المذكورة في التعريف^(٣).

(١) الإتقان: السيوطي، ج٢، ص ١٢٧.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، ج١، ص ١٧.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص ٢٠.

فضله وشرفه ومكانته :

علوم القرآن الكريم من أفضل العلوم وأشرفها وأسمأها، كما قال ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - : «لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم»^(١).

ثمرة علوم القرآن الكريم :

١ - تيسير تفسير القرآن الكريم، فهي مفتاح باب التفسير، ولا يصح لأحد أن يفسر القرآن الكريم قبل أن يتعلم علوم القرآن^(٢).

٢ - معرفة الجهود العظيمة التي بذلها السلف لدراسة القرآن الكريم، وعنايتهم الكبرى به وبعلمومه التي كان لها الأثر في حفظه من التغيير والتبديل.

٣ - التسلح بمجموعة من المعارف القيمة التي تمكّن من الدفاع عن هذا الكتاب العزيز ضد من يتعرض له من أعداء الإسلام، ويبث الشكوك والشبهات في عقائده وأحكامه وتعاليمه.

٤ - الثقافة العالية العامة في القرآن الكريم.



(١) زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، ج١، ص ٣.

(٢) مناهل العرفان، ج١، ص ٢٠-٢١.

نشأة علوم القرآن وتطورها

في عهد الرسول ﷺ:

حين نزل جبريل على الرسول ﷺ في غار حراء بصدر سورة اقرأ، نزل عليه الصلاة والسلام، وذهب إلى زوجته خديجة - رضي الله عنها -، وأخبرها بما حدث في الغار، وتلا عليها الآيات من حفظه.

وحين أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يصدع بما يؤمر، وأن يعلن الدعوة إلى الإسلام، امثل الرسول ﷺ الأمر، فدعا الناس إلى الإسلام، وأقبل من أسلم منهم على القرآن الكريم يتلونه حق التلاوة، ويجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم لحفظه وتدبر آياته، وكانوا عرباً خالصاً يفهمون القرآن بمقتضى السليقة العربية، فإن أشكل عليهم معنى أو غمض عليهم مرمى سأل بعضهم بعضاً، فقد يكون أحدهم أعلم من الآخر، فإن أشكل عليهم سألوا الرسول ﷺ فبينه لهم.

وبهذا ندرك أن علوم القرآن نشأت منذ وقت مبكر في الإسلام، بل منذ أشرقت شمس الإسلام. ذلكم أن حفظ القرآن، وتلاوته، وتدبره، وتفسيره من أهم علوم القرآن الكريم.

في عهد الصحابة رضي الله عنهم:

وإذا نظرنا إلى حال الصحابة رضوان الله عليهم وجدناهم يتعلمون علوم القرآن مشافهة، ولم يعرف عندهم تدوين لعلوم القرآن لعدة أسباب أهمها:

١ - أن أغلب الصحابة كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة .

٢ - أن أدوات الكتابة لم تكن متوافرة عندهم .

٣ - أن الرسول ﷺ نهاهم عن كتابة شيء غير القرآن بقوله ﷺ: « لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه »^(١) .

ويعتقد بعض الناس أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - إنما نهى الصحابة عن كتابة شيء غير القرآن خشية أن يلتبس بغيره . ويظهر لي - والله أعلم - أن هذا ليس بصحيح ، ذلكم أن القوم كانوا ذوي ذكاء في القريحة ، وتذوق للبيان ، وتقدير للأساليب ، ووزن لما يسمعون بأدق المعايير ، ويدركون إعجاز القرآن الكريم - بمجرد سماعه - إدراكاً تاماً ، يأخذ منهم بالآلئاب ، ويسيطر منهم على الأفئدة ، فأئى لهم أن يختلط عندهم بغيره من كلام البشر ، بل العلة في ذلك أنه ﷺ أراد توزيع مسؤولية التبليغ عنه على جميع الصحابة ، ولو أذن للكتاب بالكتابة لاعتقد الأميون أن مسؤولية التبليغ مقصورة على الكتاب الذين يحتفظون عندهم بالنصوص الشرعية ، وأن ذمتهم هم بريئة ، فلما نهى الرسول ﷺ من يكتب عن كتابة غير القرآن ، أصبح الصحابة كلهم سواسية في التلقي عن الرسول ﷺ ، لا يتميز من يكتب عن من لا يكتب ، وأصبحت الدعوة إلى الله يشترك فيها الجميع ، وخير للدعوة أن ينشرها كل الصحابة من أن يقتصر أمرها على عدد من الكتاب .

فإن قلت : إن كان الأمر كذلك فَلِمَ أذن لهم الرسول ﷺ بكتابة القرآن ؟

قلت : إن تبليغ القرآن لا يَرِدُ عليه ما يَرِدُ على تبليغ غيره ، فلن يعتقد الأميون منهم أن تبليغه واجب على الكتاب فحسب ، فهم يقرؤونه سراً وجهرأ في بيوتهم وفي مساجدهم في خلواتهم وفي مجتمعاتهم وفي صلواتهم ،

(١) رواه مسلم ، ج ٥ ، ص ٢٢٩٨-٢٢٩٩ .

فلتبليغه وسائل كثيرة لا تتحقق لغيره، ولا تقتصر على الكتاب دون الأميين، فالجميع يتلوه ويقوم به آناء الليل وأطراف النهار، فلن يَتَكَلَّ الأميون في تبليغه على الكتاب؛ لإدراكهم أن الجميع مكلف بتلاوته في السطور وحفظه في الصدور.

ولهذا تغلب الصحابة - رضوان الله عليهم - على الأسباب السابقة المانعة من تدوين علوم القرآن بما حققوه للقرآن، وذلك بالاعتماد على قوة الحافظة، فحفظوا علوم القرآن كما يحفظون الآيات.

أخرج الطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن^(١).

وروى أبو عبد الرحمن السلمي، قال: «حدثنا الذين كانوا يُقَرِّئوننا: أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يُخَلِّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»^(٢).

ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «والله الذي لا إله غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله، إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله، إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل، لركبت إليه»^(٣).

ويقول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو على المنبر: «سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل»^(٤).

(١) تفسير الطبري، ج١، ص ٨٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) صحيح البخاري، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، ج٦، ص ١٠٢.

(٤) الإتيقان في علوم القرآن: السيوطي، ج٢، ص ١٨٧.

والنصوص في ذلك كثيرة كلها تثبت أن الصحابة - رضوان الله عليهم - لم يكتفوا بحفظ نصوص القرآن الكريم فحسب، بل حفظوا معها علومه ومعارفه.

واشتهر كثير من الصحابة بتفسير القرآن، منهم الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن الزبير، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري، وعائشة^(١) رضي الله عنهم.

وكرث الرواية في التفسير عن علي بن أبي طالب، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب رضي الله عنهم.

ولم يتكلف الصحابة - رضوان الله عليهم - التفسير، ولم يخوضوا فيما لا فائدة كبيرة في تحصيله، ولم يكن تفسيرهم يشمل القرآن كله، فبعض الآيات من الوضوح لديهم بحيث لا تحتاج إلى بيان؛ لمعرفة لغتها، وأحوال المجتمع، وأسباب النزول وغير ذلك، وقد كانوا يهتمون بنشر علوم القرآن بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين.

في عهد التابعين رحمهم الله تعالى :

وحين اتسعت الفتوحات الإسلامية انتشر الصحابة رضوان الله عليهم في البلدان المفتوحة، يعلمون أهلها القرآن، ويفسرون لهم معانيه، وينشرون لهم علومه ومعارفه، فبذله لهم الصحابة، وفتحوا لهم صدورهم، وأفسحوا لهم مجالسهم، فنشأت ما يصح أن نطلق عليها بالمعنى الحديث (مدارس التفسير) وهي كثيرة، وأشهرها ثلاث مدارس :

(١) يقصر كثير من الباحثين مشاهير المفسرين من الصحابة على هؤلاء العشرة، وأحسب أن عائشة رضي الله عنها لا تقل مكانتها في التفسير عنهم فأضفتها إليهم.

مدرسة ابن عباس رضي الله عنهما في مكة :

وهو جبر هذه الأمة، وترجمان القرآن، وهو الذي دعا له الرسول ﷺ بقوله : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^(١).

ومن أشهر تلاميذه سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس، وعطاء بن أبي رباح.

مدرسة أبي بن كعب رضي الله عنه بالمدينة :

وقد كان - رضي الله عنه - أحد كتاب الوحي، وإمام القراء، شهد له الرسول ﷺ بقوله : «أقرؤهم أبي بن كعب»^(٢).

ومن أشهر تلاميذه زيد بن أسلم، وأبو العالية الرياحي، ومحمد بن كعب القرظي.

مدرسة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الكوفة :

وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشاً بعد الرسول ﷺ، قال عنه الرسول عليه الصلاة والسلام : «من أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»^(٣) يعني ابن مسعود. وأخبر هو عن نفسه فقال : «والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة»^(٤).

ومن أشهر تلاميذه علقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، وقتادة بن دعامة، وعمر بن شرحبيل، وأبو عبد الرحمن السلمي.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج١، ص ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥.

(٢) رواه الترمذي، ج٥، ص ٦٦٤-٦٦٥ كتاب المناقب، وابن ماجه في سننه، ج١، ص ٦٨.

(٣) سنن ابن ماجه، ج١، ص ٦٣.

(٤) صحيح البخاري، ج٦، ص ١٠٢، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ.

وأهل مكة، وأهل المدينة، وأهل الكوفة هم أعلم الناس بالتفسير، كما يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد ابن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب عبد الله بن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد ابن أسلم»^(١).

ولم يكن تفسير هؤلاء وغيرهم من الصحابة والتابعين مقتصرًا على علم التفسير بمعناه الخاص، بل كان يشمل مع هذا علم غريب القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم المكي والمدني، ونحو ذلك. كما لم يكن شاملاً للقرآن الكريم، ولا مدوناً، وإنما كان بالرواية والتلقين.

عهد التدوين:

وفي هذا العهد دوت بعض علوم القرآن الكريم كالقراءات وغريب القرآن والناسخ والمنسوخ، وأما التفسير فكان تدوينه حين بدأ تدوين الحديث النبوي، ومر بمراحل قبل أن يكون على ما هو عليه الآن.

فبدأ تدوينه أول ما بدأ على أنه باب من أبواب الحديث، وممن دَوَّنه في هذه المرحلة: يزيد بن هارون السُّلَمي (ت ١١٧هـ)، وشعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ)، ووکیع بن الجراح (ت ١٩٧هـ)، وسفيان بن عيينه (ت ١٩٨هـ)، وغيرهم، وكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبواب الحديث، ولم يكن

(١) مقدمة في أصول التفسير: شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. عدنان زررور، ص ٦١.

جمعاً للتفسير على استقلال وانفراد. وجميع ما نقلوه كان بالإسناد، ولم يصل إلينا شيء منها^(١).

ثم دَوَّنَ التفسير مستقلاً وأصبح علماً قائماً بنفسه، وأشهر من دَوَّنَه على هذا النحو يحيى بن سلام البصري^(٢) (ت ٢٠٠هـ)، وابن ماجه (ت ٢٧٣هـ)، وابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري (ت ٣١٨هـ)، وابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ)، وابن مردويه (ت ٤١٠هـ) وغيرهم وكل ما في هذه التفاسير كان بالإسناد.

ويعُدُّ تفسير ابن جرير الطبري - رحمه الله تعالى - أقدم تفسير شامل وصل إلينا كاملاً، عرض فيه صاحبه للأقوال والروايات المختلفة في التفسير، وتوجيهها والترجيح بينها، كما عرض للإعراب والاستنباط واللغة، وله في ذلك السبق^(٣).

والتفسير - كما نعلم - أحد علوم القرآن الكريم، بل هو نواة علوم القرآن الكريم، وبهذا يكون التفسير أول علم من علوم القرآن بدأت الكتابة فيه. وقد ألَّفَ العلماء في العلوم الأخرى كتباً مستقلة منها ما وصل إلينا ومنها ما هو مفقود.

(١) التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، ج١، ص ١٤١ (بتصرف). قلت: والأمر يحتاج إلى تحقيق ودراسة.

(٢) قامت بتحقيق هذا التفسير الأخت الفاضلة الدكتورة هند شلبي في تونس وهو في طريقه للطبع، وقام بتحقيقه أيضاً ثلاثة من الباحثين في رسائل علمية، والموجود من التفسير فيه سقط نحو الثلث في مواضع مختلفة ولهذا التفسير ثلاثة مختصرات «تفسير هود بن محكم» و«تفسير أبي المطرف» و«تفسير ابن أبي زمين».

(٣) فتفسير يحيى بن سلام غير كامل، وتفسير هود بن مُحْكَم غير مسند، وتفسير مجاهد ابن جبر وتفسير مقاتل بن سليمان لا تعرض للأقوال والترجيحات كابن جرير ولذا لم أعتبر أسبقيتها.

ففي القرن الثاني الهجري :

ألف الحسن البصري (ت ١١٠هـ) في (القراءة)، وعطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ) في (غريب القرآن)، وقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧هـ) في (الناسخ والمنسوخ).

وفي القرن الثالث الهجري :

ألف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) في (الناسخ والمنسوخ)، وعلي بن المديني (ت ٢٣٤هـ) في (أسباب النزول)، وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، «تأويل مُشكِـل القرآن» و«تفسير غريب القرآن».

وفي القرن الرابع الهجري :

ألف أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ) «إعراب القرآن»، وألف ابن درستويه (ت ٣٣٠هـ) في «إعجاز القرآن»، وألف أبو بكر السَّجِسْتَانِي (ت ٣٣٠هـ) «تفسير غريب القرآن»، وألف أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) «إعجاز القرآن».

وفي القرن الخامس الهجري :

ألف علي بن إبراهيم الحوفي (ت ٤٣٠هـ) في (إعراب القرآن)، وألف الماوردي (ت ٤٥٠هـ) «أمثال القرآن»، وألف أبو الحسن الواحدي (ت ٤٦٨هـ) كتابه «أسباب النزول» وألف ابن ناquia (ت ٤٨٥هـ) كتابه «الجمان في تشبيهات القرآن».

وفي القرن السادس الهجري :

ألف الكرمانلي (ت بعد ٥٠٠هـ) «البرهان في متشابه القرآن»، وألف الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) «المفردات في غريب القرآن»، وألف ابن

الباذش (ت ٥٤٠هـ) «الإقناع في القراءات السبع»، وألف السهيلي (ت ٥٨١هـ) «مبهمات القرآن».

وفي القرن السابع الهجري:

ألف علم الدين السخاوي (ت ٦٤٣هـ) «جمال القراء وكمال الإقراء»، والعز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) «مجاز القرآن»، وألف ابن أبي الأصبع (ت ٦٥٤هـ) كتابه «بديع القرآن»، وألف محمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٠هـ) «أسئلة القرآن وأجوبتها».

وفي القرن الثامن الهجري:

ألف ابن القيم (ت ٧٥١هـ) «التبيان في أقسام القرآن»، وألف الخراز (ت ٧١١هـ تقريباً) «مورد الظمان في رسم وضبط القرآن»، وألف الطوفي (ت ٧٠٦هـ) «الإكسير في علم التفسير»، وألف أبو حيان النحوي (ت ٧٤٥هـ) «لغات القرآن»، وألف ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) كتابه «فضائل القرآن».

وفي القرن التاسع الهجري:

ألف ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) «العجاب في بيان الأسباب»، وألف الكافيجي (ت ٨٧٩هـ) «التيسير في قواعد علم التفسير»، وألف السيوطي (ت ٩١١هـ) كتابه «مفحمت الأقران في مبهمات القرآن» وكتابه «لباب النقول في أسباب النزول».

وفي القرن العاشر الهجري:

ألف القسطلاني (ت ٩٢٣هـ) «لطائف الإشارات في علم القراءات»، وألف أبو يحيى زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ) كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلبس في القرآن»، وألف ابن الشُّنَّه (ت ٩٢١هـ) «غريب القرآن».

وفي القرن الحادي عشر الهجري :

ألف الشيخ مرعي الكرمي (ت ١٠٣٣هـ) «قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن»، وألف أحمد بن محمد المَقْرِي (ت ١٠٤١هـ) كتابه «إعراب القرآن»، وألف البناء (ت ١١١٧هـ) «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر».

وفي القرن الثاني عشر الهجري :

ألف عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣هـ) «كفاية المستفيد في علم التجويد»، وألف الجمزوري (ت ١١٩٨هـ) «تحفة الأطفال والغلمان في تجويد القرآن»، وألف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦هـ) «فضائل القرآن».

وفي القرن الثالث عشر الهجري :

ألف الدمياطي (ت ١٢٨٧هـ) «رسالة في مبادئ التفسير»، وألف الهوريني (كان حياً ١٢٨٦هـ) «الجوهر الفريد في رسم القرآن المجيد»، وألف ابن حميد العامري (ت ١٢٩٥هـ) «الناسخ والمنسوخ».

وفي القرن الرابع عشر الهجري :

ألف الشيخ عبد الرحمن السعدي (ت ١٣٧٦هـ) كتابه «القواعد الحسان لتفسير القرآن»، وألف د. محمد عبد الله دراز (ت ١٣٧٧هـ) كتابه «النبأ العظيم»، وألف سيد قطب (١٣٨٧هـ) «التصوير الفني في القرآن»، وكتاب «مشاهد القيامة في القرآن»، وألف محمد حسين الذهبي (ت ١٣٩٧هـ) «التفسير والمفسرون».

وفي القرن الخامس عشر الهجري :

ألف د. غانم قدوري الحمد كتابه «رسم المصحف»، وألف د. فهد بن

عبد الرحمن الرومي كتابه «اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر»، وألف
د. خالد بن عثمان السبت كتابه «قواعد التفسير».

هذه أمثلة للمؤلفات في علوم القرآن الكريم في القرون السابقة وهي
مؤلفات كثيرة، بل لا تكاد تحصى كثرة.

وحين ننظر فيما ذكرت من المؤلفات تجد كل واحد منها يتناول علماً
واحداً من علوم القرآن الكثيرة. وقد اتجهت أنظار العلماء إلى تأليف كتب
تتحدث عن هذه العلوم جميعاً، فتعرّف كل علم تعريفاً موجزاً، وتتناوله
تناولاً ميسراً، فكان هذا العلم الذي سموه (علوم القرآن) بالمعنى المدون.

ظهور اصطلاح علوم القرآن:

لم تكن علوم القرآن بخافية على العلماء المبرزين قبل التدوين، بل
كانت مجموعة في صدورهم، إلا أن اصطلاح (علوم القرآن) لم يظهر في
عناوين مؤلفاتهم إلا في فترة متأخرة. حيث ظهر هذا الاصطلاح أول ما ظهر
في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري، حين ألف محمد بن
خلف بن المرزبان (ت ٣٠٩هـ) كتابه «الحاوي في علوم القرآن»^(١).

واعتقد بعض الباحثين أن أول عهد لظهور اصطلاح (علوم القرآن) هو
بداية القرن الخامس حين ألف علي بن إبراهيم الحوفي (ت ٤٣٠هـ) كتابه
«البرهان في علوم القرآن» وهذا غير صحيح لأن اسم كتاب الحوفي «البرهان
في تفسير القرآن»^(٢)، ولأنه ظهرت كتب في القرن الذي قبله تناولت علوم
القرآن بمعناها المدون، وأسبقها ما ذكرت لابن المرزبان وغيره.

(١) الفهرست ابن النديم، ص ٢١٤، وطبقات المفسرين: الداودي، ج ٢، ص ١٤١.
(٢) مفتاح السعادة: طاش كبرى زاده، ج ٢، ص ١٠٧، ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي
ج ١٢، ص ٢٢٢، وكشف الظنون: حاجي خليفة، ج ١، ص ٢٤١.

أهم المؤلفات في علوم القرآن (كفنٌ مُدَوَّن) قديماً:

وقد ظهرت مؤلفات كثيرة بعد ذلك في علوم القرآن كفن مدون، ففي القرن الرابع الهجري^(١) ألّف أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ) كتابه «المختزن في علوم القرآن»^(٢)، وألّف عبيد الله بن جرو الأسدي (ت ٣٨٧هـ) كتابه «الأمد في علوم القرآن»^(٣)، وألّف محمد بن علي الأدفوي (ت ٣٨٨هـ) كتابه «الاستغناء في علوم القرآن»^(٤).

وفي القرن السادس الهجري ألّف ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) كتابه «فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن»^(٥)، و«المجتبى في علوم القرآن»^(٦)، و«المجتبى من المجتبى»^(٧).

-
- (١) ينسب كثير من الباحثين كتاب «عجائب علوم القرآن» لأبي بكر الأنباري (ت ٣٢٨هـ) مستندين في ذلك إلى ما ذكره الزرقاني في «مناهل العرفان» وقد ظهر لي يقيناً أن الكتاب المذكور ليس لأبي بكر الأنباري، بل هو كتاب «فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن» لابن الجوزي، وسبب وقوع هذا الوهم نسخة مخطوطة في مكتبة البلدية بالإسكندرية أخطأ فهرسو المكتبة في معرفة المؤلف فنسبها لأبي بكر الأنباري.
- (٢) طبقات المفسرين: الداودي، ج١، ص ٣٩١، وتاريخ التراث العربي: ج٢، ص ٣٧٧، ومعجم المفسرين: عجاج نويهض، ج١، ص ٣٥٤.
- (٣) طبقات المفسرين: الداودي، ج١، ص ٣٧٢، ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي، ج٢، ص ١٢، ومعجم المفسرين: عادل نهويض، ج١، ص ٣٤١.
- (٤) طبقات المفسرين: الداودي، ج٢، ص ١٩٤، ومعجم المفسرين، ج٢، ص ٥٧٨.
- (٥) طبع بتحقيق الدكتور عبد الفتاح عاشور على نسختين مخطوطتين بعنوان «عجائب علوم القرآن»، وطبع مرة أخرى بتحقيق الدكتور حسن ضياء الدين عتر على ست نسخ مخطوطة.
- (٦) الذيل على طبقات الحنابلة: ج١، ص ٤١٧.
- (٧) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن: ابن الجوزي تحقيق د. حسن ضياء الدين عتر، ص ٤٠.

وفي القرن السابع الهجري أَلَّفَ القزويني (ت ٦٢٥هـ) كتابه «الجامع الحريز الحاوي لعلوم كتاب الله العزيز»^(١)، وأَلَّفَ أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) كتابه «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز»^(٢).

وفي القرن الثامن الهجري أَلَّفَ بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) كتابه «البرهان في علوم القرآن» وطبع في أربعة مجلدات بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، وهو من أفضل المؤلفات في علوم القرآن الكريم ومن أحسنها تنظيماً وتبويباً وأسلوباً، وأَلَّفَ ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) كتابه «مقدمة في أصول التفسير» وهي مع إيجازها قيمة جداً وطبعت مراراً.

وفي القرن التاسع الهجري أَلَّفَ أبو علي الحسين بن علي بن طلحة الرجراجي الشوشاوي كتابه «الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة» طبع في جزء بتحقيق إدريس عزوزي.

وفي القرن العاشر الهجري أَلَّفَ جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) كتابه «التحبير في علوم التفسير»^(٣) ذكر فيه ١٠٢ نوعاً من علوم القرآن ثم أَلَّفَ كتابه القيم «الإتقان في علوم القرآن» ذكر فيه ثمانين نوعاً من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والدمج، ثم قال بعد سردها: «ولو نوعت باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت على الثلاث مئة»^(٤) وقد طبع الكتاب عدة مرات^(٥).

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية: أبو محمد بن أبي الوفاء، ج١، ص ١٣٣، طبقات المفسرين: الداودي، ج١، ص ٣٣.

(٢) طبع سنة ١٣٩٥هـ بتحقيق طيار آلي قولاج.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ج١، ص ٣.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص ٧.

(٥) كما قام بتحقيقه عدد من الباحثين في عدة رسائل للدكتوراه في كلية أصول الدين في القاهرة - جامعة الأزهر.

ويعد هذا الكتاب أصل من الأصول المؤلفة في هذا العلم، ولئن قيل: إن المفسرين عيال على تفسير الطبري، فإن علماء علوم القرآن عيال على «الإتقان» وقد استفاد السيوطي كثيراً من كتاب «البرهان» للزركشي.

وفتت همة التأليف بعد ذلك، بل قال بعض العلماء: إن التأليف في تلك الفترة توقف أو كاد^(١)، وظهرت مؤلفات معدودة مثل «الفوز الكبير في أصول التفسير» تأليف ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦هـ)^(٢)، وألف ابن عقيلة (ت ١١٥٠هـ) كتابه «الزيادة والإحسان في علوم القرآن»^(٣).

المؤلفات في علوم القرآن بمعناه المدون في العصر الحديث:

وقد نشط التأليف في العصر الحديث فصدرت مؤلفات كثيرة وأبحاث عديدة ليس المقام مقام إيرادها ولا حصرها ولعل من أشهرها:

١ - «مناهل العرفان في علوم القرآن»: للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني وطبع في مجلدين، وهو بحق من أفضل المؤلفات في هذا العلم، فهو إضافة إلى اشتماله على كثير من علوم القرآن، فقد اعتنى صاحبه بالرد على الشبهات الواردة في كل علم قديماً أو حديثاً، وهو حين يوردها يسوق حججها وبراهينها ثم يكر عليها فلا يُبقي لها أثراً، وإضافة إلى هذا فإنه يقدم هذه العلوم بأسلوب أدبي يشدك إليه شداً حتى لتحسب نفسك - وأنت تخوض عويص القضايا - تقرأ قطعة أدبية، ولست أعني بهذا سلامته من كل

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم: محمد أبو شهبه، ص ٤١.

(٢) طبع عدة مرات.

(٣) مخطوط قام بتحقيقه بعض طلبة الدراسات العليا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وهو في سبيله إلى النشر.

عيب ففيه أخطاء علمية وانحرافات عقدية تتبعها أحد الباحثين^(١) في رسالة علمية إضافة إلى تقريره المذهب الأشعري.

٢ - «المدخل لدراسة القرآن الكريم»: للدكتور محمد أبو شهبة أُلّفه لطلبة الدراسات العليا في الجامعة الأزهرية، ويقع في مجلد تبلغ صفحاته نحو خمس مئة صفحة.

٣ - «مباحث في علوم القرآن»: للدكتور صبحي الصالح، أُلّفه لطلبة كلية الآداب بجامعة دمشق ويقع في نحو ثلاث مئة صفحة.

٤ - «مباحث في علوم القرآن»: للشيخ مناع القطان، ويقع في نحو ثلاث مئة صفحة، وقال في مقدمته: «كانت طبعته الأولى استجابة لرغبة بعض إخواننا في تقديم أبحاث مختصرة عن أهم مباحث علوم القرآن، يستطيع شبابنا المسلم الذي لا يتيسر له التعمق في الدراسات الإسلامية أن يجد فيها من الثقافة اللازمة له ما يكفيه مؤنة البحث في مراجع هذا العلم، ويجنبه عناء فهم أساليبها^(٢). وقد أصاب وفقه الله، فقد سدّ كتابه هذا ثغرة في حاجة طلبة العلم.

٥ - «التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتيان»: تأليف الشيخ طاهر الجزائري، وهي مباحث انتخبها الجزائري انتخاب العالم الذواقة والمحقق المتقن، اعتنى بنشرها الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

٦ - «منهج الفرقان في علوم القرآن»: تأليف الشيخ محمد علي سلامة لطلابه في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر. وطبع في جزءين صغيرين بتحقيق د. محمد سيد أحمد المسير تبلغ صفحاتهما نحو ٣٦٠ صفحة.

(١) هو الدكتور خالد بن عثمان السبت، وعنوان رسالته «كتاب مناهل العرفان للزرقاني دراسة وتقويم» وطبعت في مجلدين.

(٢) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص ٥.

٧ - «علوم القرآن» للدكتور عدنان زررور وهو محاضرات ألقاها على طلابه، ويقع في مجلد تبلغ صفحاته ٤٦٠ صفحة.

هذه بعض المؤلفات في العصر الحديث في علوم القرآن كَفَنَ مُدَوَّن والمؤلفات غيرها كثيرة، ولعلك تلاحظ أن أغلبها قد ألفها أصحابها لطلابهم، وأحسب أن هذا يؤدي إلى الإجمال في الحديث، وتيسير المادة، وعدم الخوض في دقائق المسائل ووعر المسالك، واختيار السبيل الأسهل والأيسر، وهذا المنهج يحرم الباحثين المتخصصين من نيل مرادهم، والحصول على بغيتهم، كما يحرم المؤلفين من الإبداع في القول ومن إعمال الذهن والتجديد في الآراء، بل أدى بهم إلى التسليم في كثير من المسائل والقضايا، ونقلها كما هي من غير تمحيص خشية من الدخول في تفاصيل تخرج به عن هدفه من التأليف.

والحق أن كثيراً من المباحث في علوم القرآن لا تزال بحاجة إلى النظر في مسائلها، وإعادة الكتابة فيها، وعدم الاكتفاء والتسليم بما قاله فلان وفلان من غير دليل. وعلوم القرآن أوسع من أن يحيط بها أبناء جيل أو أجيال من البشر.

ومما لا شك فيه أن التاريخ كله لا يعرف كتاباً درسه الدارسون، وألف في علومه المؤلفون، وصنف فيه المصنفون مثل القرآن الكريم، ولا تزال المؤلفات تُدَوَّن، ولا يزال العلماء يبحثون ويتدبرون، ولا يزال القرآن نقياً لم تكدره الدلاء، وفائضاً لم تنقصه كثرة الواردين، وسيظل نوراً يستضيء به طلاب الحقيقة، وهدى يهتدي به الناس إلى يوم القيامة.



فضائل القرآن الكريم

لا شك أن فضل القرآن الكريم فضلٌ كبير وعظيم، فهو كتاب أخرج الله به هذه الأمة من جاهلية جهلاء وضلالة عمياء.

وهو كتاب ختم الله به الكتب، وأنزله على نبيٍّ ختم به الأنبياء، وبدين ختم به الأديان. وهو كلام الله العظيم، وصراطه المستقيم، ونظامه القويم، ناط به كلّ سعادة. هو رسالة الله الخالدة، ومعجزته الدائمة، ورحمته الواسعة، وحكمته البالغة، ونعمته السابغة، نهل منه العلماء، وشرب من مشربه الأدباء، وخشعت لهيئته الأبصار، وذلت له القلوب، وقام بتلاوته العابدون والراكون والساجدون، وهو «كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه»^(١).

هو كتاب الإسلام في عقائده، وعباداته، وحكمه، وأحكامه، وآدابه، وأخلاقه، وقصصه، ومواعظه، وعلومه، وأخباره، وهدايته، ودلالته، وهو أساس رسالة التوحيد، والرحمة المسداة للناس، والنور المبين، والمحجة البيضاء التي لا يزيف عنها إلا هالك.

وقد ورد بيان فضل القرآن في آيات كثيرة وأحاديث عديدة.

(١) الموافقات: الشاطبي، ج٣، ص٣٤٦.

فضائله العامة :

- فضل القرآن في القرآن :

في أول جملة بعد الفاتحة ورد وصف القرآن بأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(١) ولك أن تدبر في استنباط المعاني العديدة في ذلك .

ومن فضل القرآن في القرآن أن عُدَّ إنزاله في شهر مزية لهذا الشهر ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾^(٢) ، وبركة لليلة التي أنزل فيها ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ﴾^(٣) .

ومن فضله في القرآن: نزول الرحمة عند سماعه ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٤) .

ووصفه بالعظمة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(٥) وبالهداية ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٦) ، وأقسم الله به ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٧) ، وأمر بتلاوته ﴿وَأْمُرْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾^(٨) ، وبتدبره ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(٩) ، وشهد له بالسلامة من العوج ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾^(١٠) .

(١) سورة البقرة: الآية ٢ .

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٥ .

(٣) سورة الدخان: الآية ٣ .

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٠٤ .

(٥) سورة الحجر: الآية ٨٧ .

(٦) سورة الإسراء: الآية ٩ .

(٧) سورة يس: الآيتان ٢-٣ .

(٨) سورة النمل: الآيتان ٩١-٩٢ .

(٩) سورة محمد: الآية ٢٤ .

(١٠) سورة الزمر: الآية ٢٨ .

ولكثرة فضائله تعددت أسماؤه وصفاته، وقد وردت في القرآن أسماء وصفات للقرآن كثيرة تنبئ كثرتها وتعددتها عن مكانة القرآن العظيمة، ومنزله السامية.

- فضل القرآن في السنة النبوية :

وقد وردت في السنة النبوية أحاديث كثيرة في بيان فضل القرآن الكريم، ومن أجمعها حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : أما إني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ألا إنها ستكون فتنة» فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال : «كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾»^(١) من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»^(٢).

وفي حديث آخر رواه ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إنَّ هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إنَّ هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين، والشفاء النافع. عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه،

(١) سورة الجن : الآيتان ١-٢.

(٢) رواه الترمذي، ج ٥، ص ١٧٢، وقال : «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول وفي الحارث مقال» وتعبه ابن كثير في فضائل القرآن : ص ١١ فقال : «... بل قد رواه محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي عن الحارث الأعور... ثم قال... وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله بن مسعود».

لا يزيغ فيُستعْتَب ولا يعوجُّ فيَقُومُ، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلُقُ عن كثرة الرَّدِّ. فاتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: أَلَمْ ولكن بألف ولام وميم»^(١) ويكفي في بيان فضله قول الرسول ﷺ: «خيركم من تَعَلَّمَ القرآن وعَلَّمه»^(٢).

فضائل بعض سورة وآياته:

وردت أحاديث في فضل بعض سور القرآن الكريم، وقد اختلق بعض الوضّاعين أحاديث في فضائل سور القرآن سورة سورة^(٣). وفي بعض سور القرآن وقع وترع بعض أصحاب الطرق المبتدعة في مثل هذه الأحاديث، ولنا فيما صح عن الرسول ﷺ غنى عن ذلك، ونذكر مما صح في فضائل بعض السور والآيات ما يلي:

- سورة الفاتحة:

ما رواه أبو سعيد بن المُعلّى أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» فأخذ بيدي، فلما أردنا أن

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ٥٠، والحاكم في «المستدرک» ١/ ٧٤١-٧٤٢ (٢٠٤٠) ورواه الدارمي، ج ٢، ص ٤٣١ وأورده ابن كثير في «فضائل القرآن» بعد حديث علي السابق وقال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ويشبه أن يكون من كلام ابن مسعود». العلل المتناهية، ج ١، ص ١٠٢.

(٢) رواه البخاري، ج ٦، ص ١٠٨.

(٣) وأشهرها الحديث المكذوب على أبي بن كعب رضي الله عنه عن الرسول ﷺ في فضل سور القرآن سورة سورة وقد فرق هذا الحديث الثعلبي والواحدي والزمخشري في تفاسيرهم على السور. وقال ابن الجوزي عن هذا الحديث: «إنه حديث محال» وروى عن ابن المبارك قوله: «أظن الزنادقة وضعت» الموضوعات: ابن الجوزي، ج ١، ص ٢٣٩.

نخرج، قلت: يا رسول الله، إنك قلت: ألا أعلمك أعظم سورة من القرآن، قال: «الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١).

- سورة البقرة:

ورد في فضلها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إنَّ الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»^(٢).

- سورة قل هو الله أحد:

ورد في فضلها أحاديث كثيرة بأنها تعدل ثلث القرآن، ومنها حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن»، قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»^(٣).

- فضل المعوذتين:

ورد في فضلها حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل أو أنزلت عليَّ آيات لم يُر مثلهن قط: المعوذتين»^(٤).

- فضل آية الكرسي:

ورد في فضلها حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر! أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت:

(١) صحيح البخاري، ج٦، ص١٠٣.

(٢) صحيح مسلم، ج١، ص٥٣٩.

(٣) صحيح مسلم، ج١، ص٥٥٦.

(٤) رواه مسلم، ج١، ص٥٥٨.

الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري وقال: «والله ليهنك العلم أبا المنذر»^(١).

- فضل الآيتين في آخر سورة البقرة:

ورد في فضلهما حديث أبي مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه»^(٢) أي: دفعنا عنه الشر والمكروه.

- فضل عشر آيات من أول الكهف أو آخرها:

روى أبو الدرداء أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال»^(٣). وفي رواية قال شعبة: «من آخر الكهف»^(٤).

فضل تلاوته:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّن تَبُورَ ۚ لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾^(٥).

وردت في السنة أحاديث كثيرة في ثواب التلاوة، منها حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران» رواه البخاري ومسلم^(٦).

(١) رواه مسلم، ج١، ص ٥٥٦.

(٢) رواه مسلم، ج١، ص ٥٥٥.

(٣) رواه مسلم، ج١، ص ٥٥٥.

(٤) رواه مسلم، ج١، ص ٥٥٦.

(٥) سورة فاطر: الآيتان ٢٩-٣٠.

(٦) صحيح البخاري، ج٦، ص ٨٠، وصحيح مسلم، ج١، ص ٥٤٩-٥٥٠.

وبينت السنة أن القرآن يشفع لأصحابه يوم القيامة. عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» رواه مسلم^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار» رواه البخاري ومسلم^(٢).

ولو لم يرد في فضل تلاوة القرآن إلا حديث ابن مسعود رضي الله عنه لكفى به داعياً للتنافس بين المسلمين في تلاوة القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار، فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(٣).

تالله لولا ما ران على قلوبنا ما انفك أحدنا عن تلاوة هذا القرآن، وما فرطنا في تلاوته هذا التفريط، ساعات تلو الساعات تنقضي من أعمارنا لا نحسب لها حساباً. أرايتم لو أخذ أحدنا المصحف في ساعة من ساعاته الضائعة، وتلا فيها آيات من القرآن الكريم، فكم سيقراً فيها من حرف؟ وإذا كان بكل حرف عشر حسنات، فكم سيثاب في هذه الساعة من حسنة؟ إنه لثواب كبير وأجر عظيم لا ينبغي لذي لب أن يفرط فيه.

(١) صحيح مسلم، ج١، ص ٥٥٣.

(٢) صحيح البخاري، ج٩، ص ٦٥، وصحيح مسلم، ج١، ص ٥٥٨.

(٣) سنن الترمذي، ج٥، ص ١٧٥، وسنن الدارمي، ج٢، ص ٤٢٩. وقال الترمذي:

«هذا حديث حسن صحيح، غريب إسناداً» وقال الألباني في المشكاة ج١، ص ٦٥٩

(وهو صحيح).

فضل استماعه :

وكما ورد الوعد بالثواب على تلاوة القرآن فقد ورد أيضاً الوعد بالثواب لمستمع التلاوة بخشوع وتدبر وإنصات. قال الليث بن سعد رحمه الله تعالى : يقال : ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن لقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١) و«لعل» من الله واجبة^(٢).

ومما جاء في السنة في ثواب استماع القرآن الكريم حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من استمع إلى آية من كتاب الله تعالى كتب له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»^(٣).

فضل الاجتماع لدرسه :

من أجمع الأحاديث التي وردت في بيان ثواب الاجتماع لتلاوة القرآن الكريم وتدارسه حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه : «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(٤) فجمع هذا الحديث أربعة أنواع من ثواب تلاوة القرآن ومدارسته.

١ - تنزل عليهم السكينة.

٢ - تغشاهم الرحمة.

٣ - تحفهم الملائكة.

٤ - يذكرهم الله فيمن عنده.

(١) سورة الأعراف : الآية ٢٠٤.

(٢) التذكار في أفضل الأذكار : القرطبي، ص ٧٩.

(٣) مسند الإمام أحمد، ج ٢، ص ٣٤١.

(٤) صحيح مسلم، ج ٤، ص ٢٠٧.

ومن منا لا يحرص على كل واحدة منها فضلاً عنها كلها، كيف وقد اجتمعت كلها في عمل واحد ميسر، وفي هذا ندب لتعلم القرآن الكريم ومعرفة علومه وأحكامه ومعانيه.

آداب التلاوة والاستماع:

لا ريب أن لتلاوة هذا الكتاب آداباً ينبغي العمل بها ففي ذلك أيضاً زيادة لثواب التلاوة.

وآداب التلاوة كثيرة لعل أهمها:

١ - الطهارة وتشمل طهارة البدن، وطهارة المكان، وطهارة اللباس، وطهارة الفم، وفوق هذا كله طهارة القلب ونقاؤه من الشرك والشك والرياء.

أما طهارة البدن فقد اتفق العلماء - رحمهم الله تعالى - على أن الجنب لا يجوز له مس المصحف أو قراءة القرآن حتى يغتسل، أما الطهارة من الحدث الأصغر فقد اشترطها بعض العلماء لقوله تعالى: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(١).

ولم يشترطها آخرون، ومما لا شك فيه أن الأفضل والأولى هو الطهارة من الحدث الأصغر أيضاً.

وأما طهارة المكان فلا يجوز أن يقرأ القرآن في الأماكن النجسة، سواء كانت نجاسة حسية كالحمائم ونحوها، أو نجاسة معنوية كالملاهي وحانات الخمر والفسق والفجور.

وطهارة اللباس والتطيب عند التلاوة من الآداب المحمودة، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام بالليل يتعبد اغتلف بالغالية^(٢)، وهي أخلاط من

(١) سورة الواقعة: الآية ٧٩.

(٢) التذكار في أفضل الأذكار: القرطبي، ص ١٠٨.

الطيب كالمسك والعنبر. وكان ابن مسعود رضي الله عنه تعجبه الثياب الحسنة النظيفة والريح الطيب إذا قام إلى الصلاة، وكان رضي الله عنه إذا قرأ اعتمّ ولبس ثيابه وارتمى، واستقبل القبلة^(١).

حتى طهارة الفم حرص الإسلام عليها عند تلاوة القرآن. روى علي رضي الله عنه حديثاً عن رسول الله ﷺ وفيه: «فطهروا أفواهكم للقرآن»^(٢)، وعنه رضي الله عنه، قال: «إن أفواهكم طرق للقرآن فطيبوها بالسواك»^(٣) وكان رسول الله ﷺ إذا قام في الليل يشوص فاه بالسواك^(٤).

٢ - ومن آداب التلاوة أن يستوي قاعداً في غير صلاة تأدباً مع القرآن.

٣ - ومنها أن يستعيز بالله من الشيطان الرجيم عند ابتداء قراءة القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٥).

٤ - ومنها أن يقرأ البسملة بعد الاستعاذة بأن يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم» وقد أجمع العلماء على مشروعية البسملة عند تلاوة كل سورة من سور القرآن الكريم سوى براءة.

٥ - يستحب إذا ثأب أن يمسك عن القراءة؛ لأنه مخاطب ربّه ومناج له.

(١) المرجع السابق.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، ج١، ص ٢٤٢. وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٢١٣.

(٣) سنن ابن ماجه، ج١، ص ١٢٥. وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٣٦) ولعله تبين له ضعفه بعد ذلك. فقد ضعفه جداً في ضعيف الجامع (١٤٠١). والصواب أنه ضعيف.

(٤) صحيح البخاري، ج١، ص ٦٦، وصحيح مسلم، ج١، ص ٢٢١.

(٥) سورة النحل: الآية ٩٨.

٦ - وإذا شرع في القراءة فينبغي أن لا يشتغل عنها، ولا يقطعها، ولا يخللها بكلام الأدميين إلا لضرورة.

٧ - أن يقرأ على تؤدة، وأن يرتل القرآن ترتيلاً، ولا يهذه هذا.

٨ - أن يقف عند آية الوعد فيسأل الله من فضله، وعند آية الوعيد فيستجير بالله من عقابه.

٩ - أن يرفع المصحف بيده أو على شيء مرتفع أمامه، ولا يضعه على الأرض لما في ذلك من الامتهان.

١٠ - أن يقرأ بتدبر وتمعن وفهم لما يتلوه، ولا يكون كلُّ همهم كم قرأ؟! فقد قال أبو حمزة: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث. قال: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إليَّ من أن أقرأ كما تقول^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: لأن أقرأ سورة أرتلها أحب إليَّ من أن أقرأ القرآن كله^(٢).

١١ - ومن آداب استماع القرآن الإنصات والإصغاء للتلاوة، وترك الكلام والضحك.

١٢ - ومنها أن لا يعبت ولا يكثّر من الحركة لغير حاجة.

١٣ - ومنها الخشوع عند سماع القرآن، واستحضار القلب، والتفكير والتدبر فيما يسمع من الآيات.



(١) أخلاق أهل القرآن: الأجرى، تحقيق محمد عمرو بن عبد اللطيف، ص ١٦٩.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن: النووي، تحقيق عبده الكوشك، ص ١١٩.

خصائص القرآن الكريم

أنزل الله تعالى هذا القرآن على الرسول ﷺ ليخرج به هذه الأمة من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام حتى أصبحت خير أمة أخرجت للناس.

وتميزت هذه الأمة بخصائص كثيرة ليست في الأمم كلها، واختص أيضاً نبيها ﷺ بخصائص كثيرة، وتميز دينها الدين الإسلامي بخصائص عديدة ليست في الأديان الأخرى، وتميز الكتاب الذي أنزل عليها بخصائص دون سائر الكتب المنزلة.

وقد كتب كثير من العلماء في خصائص الإسلام^(١)، وفي خصائص الأمة الإسلامية^(٢) وفي خصائص الرسول ﷺ^(٣). فلا عجب أن يهتم العلماء أيضاً بخصائص القرآن الكريم^(٤)، وقد أورد العلماء هذه الخصائص في بطون مؤلفاتهم عن علوم القرآن، وأفردوا بعضهم، وفي هذا الموضوع مجال خصب يمرح فيه بعض المشعوذين والدجالين فيوردون فيه بعض الخرافات والشعوذة. وبالتحقيق والتدقيق يذهب زغل المبطلين.

وسأذكر هنا بعض هذه الخصائص:

(١) مثلاً الخصائص العامة للإسلام: د. يوسف القرضاوي.

(٢) ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتابه «فنون الأفنان» ثلاثين نوعاً منها.

(٣) مثلاً: الخصائص الكبرى: السيوطي.

(٤) جمعت كثيراً من هذه الخصائص في كتابي: «خصائص القرآن الكريم».

أولاً: خصائص تتعلق بفضله وشرفه ومكانته:

وهي خصائص كثيرة منها:

١ - فضله:

لا يخفى فضل القرآن عمن لديه أدنى علم شرعي. ذلكم أن القرآن الكريم «كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه»^(١).

هو كلام الله العظيم، وصراطه المستقيم، ودستوره القويم، ناطق به كلّ سعادة. هو رسالة الله الخالدة، ومعجزته الدائمة، ورحمته الواسعة، وحكمته البالغة، ونعمته السابغة.

هو حجة الرسول ﷺ الدامغة، وآيته الكبرى، شاهدة برسالته، وناطقة بنبوته.

هو كتاب الإسلام في عقائده، وعباداته، وحكمه وأحكامه، وآدابه، وأخلاقه، وقصصه، ومواعظه، وعلومه، وأخباره، وهدايته، ودلالته.

هو أساس رسالة التوحيد، والمصدر القويم للتشريع، ومنهل الحكمة والهداية، والرحمة المسداة للناس، والنور المبين للأمة، والمَحَجَّة البيضاء التي لا يزيف عنها إلا هالك.

فضله لا يدانيه فضل، ولا تسمو إليه مكانة، وسبق الحديث عن فضله في القرآن، وفضله في السنة، بما يغني عن إعادته.

(١) الموافقات: الشاطبي، ج٣، ص٣٤٦.

٢ - شفاعته لأهله :

ومن خصائص القرآن الكريم أنه يشفع لأهله يوم القيامة، ومن الأدلة على ذلك حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»^(١).

٣ - أنه شفاء :

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٢)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾^(٣)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

وتدبر وصفَ الله للقرآن بأنه شفاء ولم يصفه بأنه دواء؛ لأن الشفاء هو ثمرة الدواء والهدف منه، أما الدواء فقد يفيد وقد يضر، فكان وصف القرآن بأنه شفاء تأكيد وأي تأكيد لثمرة التداوي به.

وقد ضرب رسول الله ﷺ المثل بنفسه بالتداوي بالقرآن، فقد روت عائشة رضي الله عنها، قالت: «إن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات، فلما ثَقُلَ كنت أنفث عليه بهن، وأمسح بيد نفسه لبركتها»^(٥).

(١) صحيح مسلم، ج١، ص ٥٥٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

(٣) سورة فصلت: الآية ٤٤.

(٤) سورة يونس: الآية ٥٧.

(٥) صحيح البخاري، ج٧، ص ٢٢.

وأقر أصحابه رضي الله عنهم على الاستشفاء به، فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حيٍّ من أحياء العرب فلم يقرؤهم، فبينما هم كذلك، إذ لدغ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راقٍ؟ فقالوا: إنكم لم تقرونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جُفلاً، فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء، فجعل يقرأ بأمّ القرآن، ويجمع بُزاقه ويَتَفَل، فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ، فسألوه فضحك وقال: «وما أدراك أنها رُقِيّة، خذوها واضربوا لي بسهم»^(١).

والقرآن شفاء للأمراض النفسية. وما أحوج مجتمعاتنا المعاصرة إلى التداوي بالقرآن؛ لهذا الداء الوبيل في عالم تتنازعه الأهواء المادية، والشهوات الجسدية، والملذات الدنيوية، وإنما تحدث الأمراض النفسية حين يعرض الإنسان عن القرآن وعن ذكر الله ﷻ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً^(٢)، وقال سبحانه وتعالى: ﷻ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ^(٣)، أما العلاج والشفاء فهو قرين الذكر ﷻ أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ^(٤).

ولكن ينبغي أن نعلم أن الاستشفاء بالقرآن يستدعي كمال اليقين، وقوة الاعتقاد وسلامته، ولذا قال الزركشي - رحمه الله تعالى - عن الاستشفاء بالقرآن: «لن ينتفع به إلا من أخلص لله قلبه ونيته، وتدبر الكتاب في عقله

(١) صحيح البخاري، جـ ٧، ص ٢٣.

(٢) سورة طه: الآية ١٢٤.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٣٦.

(٤) سورة الرعد: الآية ٢٨.

وسمعه، وعمر به قلبه، وأعمل به جوارحه، وجعله سميره في ليله ونهاره، وتمسك به وتدبره^(١).

ومن خصائصه التي تتعلق بفضله وشرفه ومكانته: التعبد بتلاوته، وتعدد أسمائه وصفاته، والثواب لقارئه ومستمعه، وأن له نزولين، ونزوله مُنْجِماً دون سائر الكتب السابقة وغير ذلك.

ثانياً: خصائص تتعلق بأسلوبه ولغته:

١ - أنه لا يعلو عن أفهام العامة، ولا يقصُر عن مطالب الخاصة.

وهذان مطلبان لا يدركهما الفصحاء والبلغاء من الناس، فلجؤوا إلى قاعدة يعتدرون بها فقالوا: «لكل مقام مقال» أما أن يأتي كلام واحد يُخاطَبُ به العلماء والعامة، والملوك والسوقة، والأذكىاء ومَن دونهم، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، ويرى فيه كلُّ منهم مطلبه، ويدرك من معانيه ما يكفيه، فذلك ما لا نجده على أتمه وأكملة إلا في القرآن الكريم وحده.

يقرأ فيه العامي فيشعر بجلاله، ويدوق حلاوته، ولا يلتوي عليه فهمه، فتدركه هيمنته، ويستولي عليه بيانه، وتغشاه هدايته، فيخشع قلبه، وتدمع عيناه، فينقاد له، ويدعن.

ويقرأ فيه العالم فيدرك فصاحته، وتهيمن عليه بلاغته، ويملكه بيانه، وتنجلي له علومه ومعارفه، وتدهشه أخباره وأنباؤه، فيجد فيه زمام فكره، وقيادة عقله، ومنهج علمه، ومحار فكره، ورفعة شأنه^(٢) فيدعن ﴿رَبَّنَا

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج ٣، ص ٤٣٦.

(٢) قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا^(١) ثم يرفع يديه: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٢)
فتدركه الخشية^(٣)، ويدعن لربه، ويؤمن بشرعه.

والآيات هي هي هنا وهناك لم تتغير ولم تتبدل.

٢ - ومن خصائص أسلوب القرآن الكريم: تصوير المعاني:

ويراد بها إظهار المعاني بكلمات تكاد أن تجعلها بصورة المحسوس،
حتى، تهم بلمسها بيدك، وحتى تلج إلى ذهنك مترابطة متكاملة، لا تكلف
ذهنك مشقة تركيبها، ولا تثقله بمهمة تجميعها، فتفسره قسراً على الفهم
والإدراك، بل تفجؤه بانطباعها فيه بمجرد توجهه إليها.

وتفسير سيد قطب - رحمه الله تعالى - له عناية خاصة بهذا المعنى،
وتميز فيه بين سائر المفسرين.

وتصوير المعاني يكون أحياناً بطريقة التجسيم، أي: بجعلها في صورة
مجسمة قابلة للوزن والكثافة، فقد وصف الله سبحانه العذاب بأنه غليظ في
قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ وَرَّأَيْهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾^(٤) واليوم بأنه ثقیل ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ
يَوْمًا ثَقِيلًا﴾^(٥) فنقل العذاب من كونه معنى مجرداً إلى شيء ذي غلظ وسمك،
كما نقل اليوم من زمن لا يمسك إلى شيء ذي كثافة ووزن^(٦).

(١) سورة غافر: الآية ٧.

(٢) سورة طه: الآية ١١٤.

(٣) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

(٤) سورة إبراهيم: الآية ١٧.

(٥) سورة الإنسان: الآية ٢٧.

(٦) لمزيد بيان عن إسهام المفردة القرآنية في التجسيم انظر كتاب الأستاذ أحمد ياسوف
«جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير».

وهناك خصائص أخرى كثيرة لأسلوب القرآن منها: نظمه، ووقعه وجودة السبك، وإحكام السرد، وتعدد الأساليب، واتحاد المعنى، والجمع بين الإجمال والبيان، وإيجاز اللفظ مع وفاء المعنى وغير ذلك.

ثالثاً: خصائص عامة:

وهي كذلك خصائص كثيرة عديدة منها:

١ - حفظه في الصدور:

من أشرف خصائص القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى كَلَّفَ الأمة بحفظه كله بحيث يحفظه عدد كثير يثبت به التواتر وإلا أئمت الأمة كُلُّها، وليس هذا لكتاب غير القرآن، فالتوراة والإنجيل ترك لأهلها أمر الحفظ فاكتفوا بالقراءة دون الحفظ، إلا قلة لا تكاد تذكر، ولم تتوافر الدواعي لحفظهما كما توافرت لحفظ القرآن الكريم، فلم يكن لهما ثبوت قطعي كما هو للقرآن، فسهل تحريفهما وتبديلهما.

ولم يترك الرسول ﷺ سبيلاً فيه حث على حفظ القرآن إلا وأرشد إليه وحث عليه، فحفظه عدد كبير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وما زالت المسيرة مستمرة، يحفظ المسلمون القرآن في صدورهم، ونجد إقبالاً لا يخطر ببال، ولا يحلم بمثله أهل كتاب. انظروا - إن شئتم - مدارس تحفيظ القرآن العديدة منذ نزول القرآن إلى عصرنا هذا ثم التفتوا يسرة، فكم من مدرسة لتحفيظ الإنجيل أو التوراة فلن تجدوا منها شيئاً، بل ستجدون قلة القلة تحفظ هذا أو ذاك مما لا يذكر - أبداً - في مقابل مدارس تحفيظ القرآن.

تقول المستشرقة لورا فاغليري: «إن في مصر وحدها عدداً من الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأنجيل عن ظهر قلب في أوروبا كلها»^(١)

(١) دفاع عن الإسلام: لورا فاغليري، ص ٥٩.

ويقول جيمي متشيز: «لعل القرآن هو أكثر الكتب التي تُقرأ في العالم، وهو بكل تأكيد أيسرها حفظاً»^(١).

٢ - اتصال السند :

من المعلوم أن أغلب الذين يتعلمون تلاوة القرآن إنما يتعلمونها عن طريق السماع، ولا يكتفون بتعلمه من المصاحف وحدها، ونعلم أن أساتذتهم تلقوه أيضاً بالسماع عن طريق مشايخهم، وهكذا لا تنقطع هذه الطريقة إلى أن تصل طبقة التابعين ثم الصحابة ثم الرسول ﷺ.

وبهذا يكون سند القرآن في كل عصر وفي كل حين متصلاً برسول الله ﷺ، وليس هذا لكتاب غير القرآن الكريم، فقد شَرَفَ الله هذه الأمة باتصال سندها برسولها ﷺ.

قال محمد بن حاتم المظفر: «إن الله تعالى قد أكرم هذه الأمة، وشَرَفَهَا وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسناد موصول، وإنما هو مصحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل، مما جاءهم به أنبيأؤهم وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوها عن غير الثقات»^(٢).

٣ - أنه لا يمسّه إلا المطهرون :

أنزل الله القرآن بواسطة أفضل الملائكة على أفضل الأنبياء لخير أمة أخرجت للناس، فأخرجهم به من الظلمات إلى النور، ومن رجس الجاهلية إلى طهارة الإسلام، فحقّ لهذا الكتاب أن يتهياً المسلمون لتلاوته، وأن

(١) في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك، ص ٢٨.

(٢) توضيح الأفكار: محمد بن إسماعيل الصنعاني، ج ٢، ص ٣٩٩، فتح المغيث: للسخاوي، ج ٣، ص ٤.

يستعدوا لها بالطهارة، ليست الطهارة الصغرى كما يفهمها بعض الناس، ولكنها الطهارة الكبرى بكل معانيها.

طهارة القلب من الكفر والشرك، فلا يمس القرآن كافر ولا يُمكن من ذلك، ولا يسافر بالمصحف إلى بلاد الكفر، وطهارة القلب أيضاً من الرياء والنفاق، أو أن يريد بالتلاوة غير وجه الله، كمن يقرؤه للرياء والسمعة أو ليقال هو قارئ، أو كمن يقرؤه للتكسب أو لينال به شيئاً من حطام الدنيا.

وطهارة البدن من الحدثين: الأكبر والأصغر، فيجب الاغتسال من الجنابة ونحوها بلا خلاف، ويسن الوضوء من الحدث الأصغر، بل أوجبه بعض العلماء.

وطهارة اللباس فينبغي أن تكون ثيابه طاهرة نظيفة نقية، وأن يتطيب، وأن يلبس من الثياب أحسنها، وأن يستعد لها كما يستعد لملاقاة الملوك فإنه مناج ملك الملوك.

وطهارة الفم فينبغي أن ينظف فاه، ويستاك، ويخلل أسنانه اقتداء بسنة رسول الله ﷺ وسنة أصحابه من بعده.

وهذه الطهارة خاصة بتلاوة القرآن لا يشترك معه فيها كتاب آخر.

٤ - إن الله تعهد بحفظه :

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(١) وقد مرت بالقرآن أحداث عظيمة، وأهوال جسيمة، وعوامل خطيرة، وتكالب عليه الأعداء، وتداعت عليه الأمم، ولو مر بعض ذلك على غير القرآن لأصابه ما أصاب الكتب السابقة من التحريف والتغيير والتبديل. أما القرآن فقد مر بهذه

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

الأحوال المتماوجة، والدواعي المتكالبة، ولم تنل منه بغيتها، بل وصل إلينا كما أنزله الله لم يتبدل ولم يتغير. ما طالته الأفواه النافخة، ولا نالته الأصوات اللاغية؛ ليلم الله نوره ولو كره الكافرون.

وقد كانت هذه الآية بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم خبراً، ولكنها الآن خبر ومعجزة، معجزة أن مر خمسة عشر قرناً ولم يقع ما يخالفها؛ وخبر بأن الحفظ مستمر إلى يوم القيامة.

أما الكتب السابقة فلم يتعهد الله بحفظها، بل أوكل أمر حفظها إلى أهلها فقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً ۚ ﴾ (١).

وخصائص القرآن العامة كثيرة، ومنها إجمالاً: معارفه، إعجازه، أنه لا ينسب إلا إلى الله، والجمع بين البسمة والاستعاذة عند تلاوته، وحرمة تفسيره بمجرد الرأي، وتيسير حفظه وتلاوته، وأن قارئه لا يمله، وتحريم روايته بالمعنى، وأنه يتفقت من حافظه، ورسمه، وهيمته على الكتب السابقة، والأحرف المقطعة في أوائل السور وغير ذلك (٢).



(١) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٢) اقتبست هذا المبحث من كتابي «خصائص القرآن الكريم».

جمع القرآن الكريم

المراد بجمع القرآن :

يطلق جمع القرآن الكريم ويراد به أحد ثلاثة أنواع :

الأول : جمعه بمعنى حفظه في الصدور واستظهاره .

الثاني : جمعه بمعنى كتابته وتدوينه كله حروفاً وكلمات وآيات وسوراً .

الثالث : جمعه بمعنى تسجيله تسجيلاً صوتياً .

ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة تاريخ وخصائص ومزايا، ولذا فسنناول كل نوع على حدة .

النوع الأول : جمعه بمعنى حفظه في الصدور واستظهاره :

١ - الدليل :

ويشهد لهذا النوع قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قُرَأَتْهُ فَأَنْعِقْ قُرْآنَهُ ۚ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ ﴿١٩﴾ ۝ ﴾ (١) .

فالمراد بالجمع هنا الحفظ في الصدور، ويفسره حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال : «كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، كان يحرك شفثيه فأنزل الله تعالى ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ ﴿١٧﴾ ۝ ﴾ قال : جَمْعُهُ في صدرك ثم تَقْرَأُهُ . ﴿ فَإِذَا قُرَأَتْهُ فَأَنْعِقْ قُرْآنَهُ ۚ ﴿١٨﴾ ۝ ﴾ قال : فاستمع وأنصت . ثم إِنَّ عَلَيْنَا أن تقرأه، قال : فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما أقرأه (٢) .

(١) سورة القيامة : الآيات ١٦-١٩ .

(٢) رواه البخاري، ج ١، ص ٤، ورواه مسلم، ج ١، ص ٣٣٠-٣٣١ .

٢ - حكمه :

حفظ القرآن كله واجب على الأمة، بحيث يحفظه عدد كثير يثبت به التواتر وإلا أئمت الأمة كلها، وليس هذا لكتاب غير القرآن، وأما الأفراد فيجب على كل فرد أن يحفظ من القرآن ما تقوم به صلاته.

٣ - فضله :

لم يترك الرسول ﷺ أمراً فيه حث على حفظ القرآن إلا وسلكه وأمر به، فكان يفاضل بين أصحابه بحفظ القرآن، ويعقد الراية لأكثرهم حفظاً للقرآن، وإذا بعث بعثاً جعل إمامهم في صلاتهم أكثرهم قراءة للقرآن، ويُقدّم للحد في القبر أكثرهم أخذاً للقرآن، ويزوج الرجل المرأة ويمهرها ما مع الرجل من القرآن، فضلاً عن الأحاديث الكثيرة الداعية لحفظ القرآن وتعلمه وتعليمه.

٤ - حفظ الرسول ﷺ القرآن :

إدراكاً من الرسول ﷺ للأمانة الكبرى التي كُلف بها، وهي أن يبلغ الناس القرآن ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(١).

وإدراكاً منه عليه الصلاة والسلام أن تبليغ القرآن يجب أن يكون كما سمعه بلا زيادة ولا نقصان، ولا استبدال لحرف بحرف، أو حركة بحركة، لذا فقد كان عليه الصلاة والسلام يشعر بحرج شديد، وخوف عظيم أن ينسى شيئاً من القرآن، مما جعله يحرك لسانه بالقرآن لحظة نزول الوحي مع شدة وطأة الوحي، وما يعانيه من الجهد والكرب عند نزوله، وما زال ﷺ كذلك حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّبِعَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ

(١) سورة الأنعام: الآية ١٩.

وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَمِسْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ ﴿١٩﴾ . وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ ﴿٢٠﴾ . فكان ﷺ بعد هذا إذا أتاه الوحي أطرق، فإذا ذهب جبريل وجد الرسول ﷺ القرآن مجموعاً في صدره كما وعده الله .

وقد حفظ الرسول ﷺ القرآن كله، وحفظه أصحابه، وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة، في شهر رمضان، وعارضه إياه في العام الذي توفي فيه مرتين، كما في حديث عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي» ﴿٢١﴾ وكان ﷺ يقوم بالقرآن ويتلوه آناء الليل وأطراف النهار حتى كادت أن تتشقق قدماه .

٥ - حفظ الصحابة رضي الله عنهم للقرآن الكريم:

اشتد التنافس بين الصحابة رضي الله عنهم في حفظ القرآن الكريم وتلاوته وتدبره، وتسابقوا إلى مدارسته وتفسيره والعمل به، وكانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، وكانوا يهجرون لذيق المنام ودفء الفراش، ويؤثرون قيام الليل والتهجد بالقرآن، حتى كان يُسمع لبيوتهم دَوِيٌّ كدوي النحل لتلاوتهم القرآن .

وكان رسول الله ﷺ يحثهم على ذلك، ويحرص على سماع تلاوتهم، فقد قال لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أوتيت زمزماً من مزامير آل داود» ﴿٢٢﴾ .

(١) سورة القيامة: الآيات ١٦-١٩ .

(٢) سورة طه: الآية ١١٤ .

(٣) رواه البخاري، ج٤، ص ١٨٣ .

(٤) رواه مسلم، ج١، ص ٥٤٦ .

واستمع لتلاوة سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما فقال له: «الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك»^(١).

وقال لابن مسعود رضي الله عنه: «اقرأ عليّ القرآن» فقال ابن مسعود: يا رسول الله اقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «إني أحب أن أسمع من غيري» فقرأ عليه سورة النساء حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(٢) قال: «حسبك الآن» قال ابن مسعود: فالتفت فإذا عيناه تذرفان^(٣).

وقال ﷺ: «إنني لأعرف أصوات رفقة الأشعرين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار»^(٤).

والأخبار الكثيرة تشهد على عناية الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن الكريم وتلاوته، وحفظه، وعلى حث الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابه على ذلك.

فلا عجب أن يكثر عدد حفاظ القرآن من الصحابة، إذ حفظه في حياة الرسول ﷺ الجم الغفير من الصحابة رضي الله عنهم.

فمن المهاجرين الذين حفظوا القرآن كله أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، وسعد، وابن مسعود، وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وابن عباس، وعمر بن العاص، وابنه

(١) مسند الإمام أحمد، ج٦، ص ١٦٥.

(٢) سورة النساء: الآية ٤١.

(٣) رواه البخاري، ج٦، ص ١١٣.

(٤) رواه مسلم، ج٤، ص ١٩٤٤.

عبدالله، ومعاوية، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن السائب، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة^(١) رضي الله عنهم أجمعين.

ومن الأنصار عبادة بن الصامت، وأبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد ابن ثابت، وفَضَّالَة بن عُيَيْد، ومَسْلَمَة بن مَخْلَد، وأبو الدرداء، وأنس بن مالك، وأبو زيد بن السَّكَن رضي الله عنهم أجمعين.

(إشكال)

روى البخاري في صحيحه ثلاثة أحاديث:

الأول: عن قتادة، قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه: مَنْ جمع القرآن على عهد النبي ﷺ؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد^(٢).

الثاني: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غيرُ أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت وأبو زيد، قال: ونحن ورثناه^(٣).

الثالث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب»^(٤).

وقد يستدل بهذه الأحاديث على أن الذين يحفظون القرآن هم: عبد الله ابن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكَن، وأبو الدرداء.

(١) الإتيان: السيوطي، ج١، ص ٧٢.

(٢) رواه البخاري، ج٦، ص ١٠٢-١٠٣.

(٣) رواه البخاري، ج٦، ص ١٠٣.

(٤) رواه البخاري، ج٦، ص ١٠٢.

وهذا يخالف ما هو معلوم أن الذين يحفظون القرآن من الصحابة جمٌ غفير وليس محصوراً بهذا العدد.

والجواب عن هذا الإشكال من وجوه:

الأول: أنه لا يراد بهذه الأحاديث الحصر وإنما يراد به ضرب المثل، ويشهد لهذا أن أنساً نفسه ذكر في حديث «أبي بن كعب» وفي حديث آخر «أبا الدرداء» فلو كان المراد الحصر لاتفقت الأسماء في الحديثين.

الثاني: أن المراد بالجمع الكتابة لا الحفظ.

الثالث: أن المراد بالجمع حفظه بوجوه القراءات كلها.

الرابع: أن المراد بالجمع تلقيه كله من فم الرسول ﷺ.

الخامس: أن المراد أنهم هم الذين عرضوه على النبي ﷺ واتصلت بنا أسانيدهم، وأما من حفظه ولم يتصل بنا سنده فكثير^(١).

قال المازري رحمه الله تعالى: «وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ولا متمسك لهم فيه، فإننا لا نسلم حمله على ظاهره، سلمناه، ولكن من أين لهم أن الواقع في نفس الأمر كذلك؟ سلمناه، لكن لا يلزم من كون كل من الجَمِّ الغفير لم يحفظه كله ألا يكون حَفِظَ مجموعَه الجَمُّ الغفير، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فردٍ جميعه، بل إذا حفظ الكلُّ الكلُّ ولو على التوزيع كفى»^(٢).

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج١، ص ٢٤٢.

(٢) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ٧٢، وفتح الباري، ج٩، ص ٥٣، والمرشد الوجيز،

ص ٤٠ عن المعلم شرح صحيح مسلم للمازري (مخطوط).

٦ - حفظ التابعين ومن بعدهم - رحمهم الله تعالى - للقرآن الكريم :

مر بنا أن الصحابة رضي الله عنهم انتشروا في الآفاق الإسلامية والبلدان المفتوحة يعلمون الناس أمور دينهم، ويعقدون حلقات التعليم والتدريس في مساجد تلك البلدان، وأقبل عليهم كثير من الناس يتحلقون حولهم، ويتلقون العلم منهم، وصار لبعض هذه المدارس شهرة كبيرة حملت كثيراً من التابعين على الرحلة إليها، وتلقى العلم من أهلها، كمدرسة ابن مسعود رضي الله عنه في الكوفة، ومدرسة أبي بن كعب رضي الله عنه في المدينة، ومدرسة ابن عباس رضي الله عنهما في مكة وغيرها من مدارس الصحابة رضي الله عنهم.

وكان الصحابة يعلمونهم القرآن الكريم ويحفظونهم إياه، ويفسرون لهم معانيه، ويبينون لهم أحكامه، وقد أقبل التابعون على هذه المدارس، فكثرت حفاظ القرآن الكريم، ولم يقتصرُوا على تلاوته، بل حفظوا أوجه قراءته، واشتهر عدد كبير من الحفاظ بالقراءة والرواية.

وتجرد بعض التابعين رحمهم الله تعالى للعناية بضبط القراءات وإتقانها، ووضع القواعد لها والأصول حتى صاروا أئمة يقتدى بهم.

٧ - حفظ القرآن الكريم في العصر الحديث :

أما في العصور الحديثة فما زالت المسيرة - والحمد لله - مستمرة، يحفظ المسلمون القرآن في صدورهم مع تكالب الأحوال على المسلمين، واضطراب المعيشة، ومغريات الحضارة، وتوافر الموانع، وانحسار الدوافع، وما زلنا نرى كثرة حفاظ القرآن الكريم، ونجد إقبالاً لا يخطر ببال، ولا يحلم بمثله أهل كتاب.

فقد انتشرت مدارس تحفيظ القرآن الكريم العديدة وأنشئت معاهد للقراءات وكلليات القرآن في العديد من الدول الإسلامية، والحمد لله.

٨ - خصائص جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور:

ولهذا النوع من الجمع مزايا وخصائص منها:

١ - أنَّ جمع القرآن بمعنى حفظه هو أول علم نشأ من علوم القرآن الكريم، وذلك أنه حين نزل الوحي على الرسول ﷺ في غار حراء، وجرى ما جرى، تلا عليه الصلاة والسلام ما نزل عليه من القرآن على خديجة، وذلك من حفظه، فهو أول علم نشأ من علوم القرآن.

٢ - أنه دائم لا ينقطع إن شاء الله تعالى، فقد حفظ الرسول ﷺ القرآن، وحفظه أصحابه والتابعون ومن بعدهم، وما زال المسلمون يحفظونه إلى أن يأذن الله برفعه بخلاف جمعه بمعنى كتابته، فقد مرَّ بثلاث مراحل، آخرها في عهد عثمان رضي الله عنه.

٣ - أن الحفظ في الصدور خاصٌّ بالقرآن، وليس هناك كتاب يحفظه أهله غير القرآن.

٤ - أنه يجب على كل مسلم أن يحفظ من القرآن ما يؤدي به الصلوات بخلاف جمعه بمعنى كتابته وتدوينه، فلا يجب على كل مسلم.

٥ - الوعيد لمن حفظ شيئاً من القرآن ثم نسيه.

النوع الثاني: جمعه بمعنى كتابته وتدوينه:

جُمِعَ القرآن الكريم بهذا المعنى ثلاث مرات:

- الجمع الأول: في عهد الرسول ﷺ.

- الجمع الثاني: في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

- الجمع الثالث: في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

المراد بالجموع الثلاثة :

وقد يُشكّل على الذهن كيف يُجمع الشيء الواحد ثلاث مرات ، فإذا كان جُمعَ في عهد الرسول ﷺ فكيف يجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، وإذا جمع في عهد أبي بكر ثانية فكيف يُجمع ثالثة .

والجواب : أنه لا يُراد بالجمع معناه الحقيقي في جميع المراحل . فالمراد بجمع القرآن في عهد الرسول ﷺ (كتابته وتدوينه) ، والمراد بجمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه (جمعه في مصحف واحد) ، والمراد بجمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه (نسخه) في مصاحف متعددة .

ويظهر بهذا أن الجمع بمعناه الحقيقي كان في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وستحدث عن كل مرحلة من مراحل هذا الجمع :

أولاً : جمع القرآن بمعنى كتابته وتدوينه في عهد الرسول ﷺ :

كُتَابُ الْوَحْيِ :

اتخذ الرسول ﷺ عدداً من الصحابة وكان إذا نزل عليه شيء من القرآن أمر أحدهم بكتابته وتدوينه ، ويعرف هؤلاء الصحابة بـ «كُتَابُ الْوَحْيِ» ومنهم :

الخلفاء الأربعة ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ويزيد بن أبي سفيان ، وخالد بن سعيد بن العاصي ، وحنظلة بن الربيع ، والزبير بن العوام ، وعامر بن فهيرة ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله

ابن الأرقم، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد،
وثابت بن قيس وغيرهم^(١).

صفة هذا الجمع:

وصف هذا الجمع صحابيان جليلان، فقال زيد بن ثابت رضي الله عنه:
«كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرِّقَاع»^(٢) أي: نجمعه لترتيب آياته
من الرقاع.

وروى عثمان بن عفان رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل
عليه الشيء يدعو بعض من كان يكتبه فيقول: «ضعوا هذه في السورة التي
يذكر فيها كذا وكذا». الحديث^(٣).

أدوات الكتابة:

لم تكن أدوات الكتابة ميسرة للصحابة في ذلك الوقت فكانوا يكتبونه
على كل ما تناله أيديهم من العُسْب (وهي جريد النخل).

واللِّخَاف: (وهي الحجارة الرقيقة).

والرِّقَاع: (وهي القطعة من الجلد أو الورق).

والكرانيف: (وهي أطراف العُسْب العريضة).

والأقْتَاب: (جمع قَتَب وهي الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب
عليه).

(١) انظر جوامع السيرة لابن حزم، ص ٢٦-٣٧، وزاد المعاد لابن القيم، ج ١، ص ٢٩،
وكتَّابُ الوحي للدكتور: أحمد عبد الرحمن عيسى، وكتَّابُ النبي ﷺ: للدكتور محمد
مصطفى الأعظمي.

(٢) رواه الحاكم في المستدرک، ج ٢، ص ٢٢٩.

(٣) رواه الحاكم في المستدرک، ج ٢، ص ٢٢١.

والأكتاف: (جمع كتف وهي عظم عريض للإبل والغنم).

وكان كُتَابُ الوحي - رضي الله عنهم - يضعون كُلَّ ما يكتبون في بيت رسول الله ﷺ وينسخون لأنفسهم منه نسخة.

مميزات جمع القرآن في عهد الرسول ﷺ:

١ - كتب القرآن في عهد الرسول ﷺ على الأحرف السبعة، فقد ثبت في السنة نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف، ومما ورد في ذلك حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه»^(١).

٢ - أجمع العلماء على أَنَّ جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ كان مرتب الآيات، أما ترتيب السور ففيه خلاف.

٣ - بعض ما كتب في عهد الرسول ﷺ نُسخَتْ تلاوته وظلَّ مكتوباً حتى توفي رسول الله ﷺ. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن: «عشر رضعات معلومات يُحرَّمْنَ» ثم نسخن «بخمسة معلومات» فتوفي رسول الله ﷺ وهنَّ فيما يُقرأ من القرآن^(٢).

٤ - لم يكن القرآن الكريم في عهد رسول الله ﷺ مجموعاً في مصحف واحد، بل كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والخفاف وغيرها، ولهذا قال زيد

(١) رواه البخاري، ج٦، ص ١٠٠، ورواه مسلم، ج١، ص ٥٦٠.

(٢) رواه مسلم، ج٢، ص ١٠٧٥. قال النووي - رحمه الله تعالى - ومعناه «أن النسخ بخمس رضعات، تأخر إنزاله جداً حتى إنه ﷺ توفي وبعض الناس يقرأ خمس رضعات، ويجعلها قرآناً متلوّاً؛ لكونه لم يبلغه النسخ؛ لقرب عهده، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك، وأجمعوا على أن هذا لا يتلى» صحيح مسلم بشرح النووي ج٥ ص ٢٨٥.

ابن ثابت رضي الله عنه: «قُبِضَ النبي ﷺ ولم يكن القرآن جمع في شيء»^(١) وقال أيضاً لما أُمِرَ بجمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه: «فتبعتُ القرآن أجمعه من العُسْب واللَّخاف وصدور الرجال»^(٢).

ولعلك تسأل بعد هذا لماذا لم يُجمع القرآن في عهد الرسول ﷺ في مصحف واحد؟

وقد أجاب العلماء - رحمهم الله تعالى - على ذلك، وذكرُوا أسباباً منها:

١ - أن الله تعالى قد أَمَّنَ نبيّه عليه الصلاة والسلام من النسيان بقوله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (١) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ^(٣)، أي: ما شاء أن يرفع حكمه بالنسخ، فلا خوف إذن أن يذهب شيء من القرآن الكريم، وأما بعد وفاته ﷺ فإن النسيان قد يقع، فبادر المسلمون إلى جمعه في مصحف واحد^(٤).

٢ - قال الخطابي: «إِنَّمَا لَمْ يَجْمَعْ ﷺ القرآن في المصحف لِمَا كَانَ يَتَرَقَّبُهُ مِنْ وَرُودِ نَاسِخٍ لِبَعْضِ أَحْكَامِهِ أَوْ تَلَاوَتِهِ، فَلَمَّا انْقَضَى نَزْوُلُهُ بِوَفَاتِهِ أَلْهِمَ اللَّهُ الْخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ ذَلِكَ وَفَاءً بِوَعْدِهِ الصَّادِقِ بِضِمَانِ حِفْظِهِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ»^(٥).

وقال الزركشي: «وإنما ترك جمعه في مصحف واحد لأن النسخ كان يَرِدُ عَلَى بَعْضٍ، فَلَوْ جُمِعَ ثُمَّ رُفِعَتْ تَلَاوَةُ بَعْضٍ لَأَدَّى إِلَى الْاِخْتِلَافِ

(١) فتح الباري، لابن حجر، ج٩، ص٩، الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، ج١، ص٥٧.

(٢) صحيح البخاري، ج٦، ص٩٨ باب جمع القرآن الكريم.

(٣) سورة الأعلى: الآيتان ٦-٧.

(٤) البرهان: الزركشي، ج١، ص٢٣٨.

(٥) الإتيان: السيوطي، ج١، ص٥٧، وانظر شرح السنة: للبغوي، ج٤، ص٥١٩.

واختلاط الدين، فحفظه الله في القلوب إلى انقضاء زمان النسخ ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين»^(١).

٣ - أن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة، بل نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة.

٤ - أن ترتيب آيات القرآن وسوره ليس على حسب ترتيب نزوله، ولو جُمع القرآن في مصحف واحد حينذاك لكان عرضة للتغيير كلما نزل شيء من القرآن^(٢).

ولم يكن الصحابة رضي الله تعالى عنهم إذا اختلفوا في شيء من القرآن يرجعون إلى ما هو مكتوب، بل كانوا يرجعون إلى الرسول ﷺ فيعرضون عليه قراءتهم ويسألونه عنها.

وبعد وفاة الرسول ﷺ ومقتل بعض القراء من الصحابة دعت الحاجة إلى جمع القرآن في مصحف واحد، فكان ذلك في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ثانياً: جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:
سببه:

بعد وفاة الرسول ﷺ ارتدت بعض قبائل العرب، فأرسل أبو بكر رضي الله عنه خليفة رسول الله ﷺ الجيوش لقتال المرتدين، وكان قوام هذه الجيوش هم الصحابة رضوان الله عليهم وفيهم حُفَظ القرآن، وكانت حروب الردة شديدة، قُتِل فيها عدد من القراء الذين يحفظون القرآن الكريم، فخشي

(١) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٢٣٥.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، ج١، ص ٢٤١-٢٤٢.

بعض الصحابة أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظه^(١)، فأراد أن يجمع القرآن في مصحف واحد بمحضر من الصحابة.

وقصة ذلك رواها البخاري في «صحيحه» عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: أرسل إليّ أبو بكر - مَقْتَلَ أهل اليمامة - فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إِنَّ عمر أتاني فقال: إِنَّ القتل قد استحر^(٢) يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبع القرآن أجمعه من العُسْب واللَّخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدّها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾^(٣) حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه^(٤).

(١) شرح السنة: البغوي، ج٤، ص ٥٢١.

(٢) يعني: اشتد وكثر.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

(٤) صحيح البخاري، ج٦، ص ٩٨-٩٩.

تاريخ هذا الجمع:

هو كما جاء في الحديث بعد معركة اليمامة، وفي السنة الثانية عشرة من الهجرة.

أسباب اختيار زيد بن ثابت رضي الله عنه لهذا الجمع:

ترجع أسباب اختيار زيد بن ثابت لأمر منها:

١ - أنه كان من حُفَظ القرآن الكريم.

٢ - أنه شهد العرضة الأخيرة للقرآن الكريم، وقد روى البَغَوِيُّ عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ أنه قال: قرأ زيد بن ثابت على رسول الله ﷺ في العام الذي توفاه الله فيه مرتين، إلى أن قال عن زيد ثابت: إنه «شهد العرضة الأخيرة، وكان يُقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه، وولاه عثمان كَتَبَةَ المصاحف رضي الله عنهم أجمعين»^(١).

٣ - أنه من كُتَّاب الوحي للرسول ﷺ.

٤ - خصوبة عقله، وشدة ورعه، وكمال خلقه، واستقامة دينه، وعظم أمانته، ويشهد لذلك قول أبي بكر رضي الله عنه له: «إنك رجل شاب، عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ» وقوله نفسه رضي الله عنه: «فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن».

منهج زيد في هذا الجمع:

من المعلوم أنَّ زيد بن ثابت رضي الله عنه كان يحفظ القرآن كلَّه في صدره، وكان القرآن مكتوباً عنده، ومع هذا فلم يعتمد على ما حفظه، ولا

(١) شرح السنة: البغوي، ج٤، ص ٥٢٥-٥٢٦، والبرهان للزركشي، ج١، ص ٢٣٧، والإتقان للسيوطي، ج١، ص ٥٠.

على ما كتب بيده، وذلك أنَّ عمله ليس جمع القرآن فحسب، وإنما التوثيق والتثبت فيما يكتب، ولهذا يقول الزركشي - رحمه الله تعالى - عن زيد: «وتتبعه للرجال كان للاستظهار لا لاستحداث العلم»^(١) وقال ابن حجر رحمه الله تعالى: «وفائدة تتبع المبالغة في الاستظهار، والوقوف عند ما كُتِبَ بين يدي النبي ﷺ»^(٢). ويظهر لي أن من حَكَمَ ذلك أن زيد بن ثابت لا يكتب القرآن هنا لنفسه، وإنما يكتبه للأمة، وما دام كذلك فلا بد أن يكتبه بمشهد من الأمة وحضورها، بل ومن صدورها مما تلقته عن نبيها عليه الصلاة والسلام. وثبت في العرضة الأخيرة للقرآن على الرسول ﷺ. والله أعلم.

وقد رسم أبو بكر رضي الله عنه لزيد المنهج لهذا الجمع فقال له ولعمر ابن الخطاب رضي الله عنه: «اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه»^{(٣)(٤)}.

وقد امتثلا ذلك فقد قام عمر في الناس فقال: «من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأتنا به»^(٥).

وقد بينَّ زيد نفسه المنهج الذي سلكه بقوله رضي الله عنه: «فتبعت القرآن أجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال»^(٦).

(١) البرهان، الزركشي، ج١، ص ٢٣٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ج٩، ص ١٥.

(٣) المصاحف، ابن أبي داود، ص ١٢. وجمال القراء، ج١، ص ٨٦.

(٤) قال ابن حجر: «ورجاله ثقات مع انقطاعه» فتح الباري، ج٩، ص ١٤.

(٥) المصاحف: ابن أبي داود، ص ١٧.

(٦) صحيح البخاري، ج٦، ص ٩٨-٩٩.

وعلى هذا فإنَّ منهج زيد في جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه يقوم على أسس أربعة:

الأول: ما كُتِبَ بين يدي رسول الله ﷺ وأنه مما ثبت في العرضة الأخيرة.

الثاني: ما كان محفوظاً في صدور الرجال.

الثالث: أن لا يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان على أنه كُتِبَ بين يدي الرسول ﷺ، قال السخاوي معناه: «من جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله الذي كتب بين يدي رسول الله ﷺ»^(١).

وقال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: «وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ لا من مجرد الحفظ»^(٢). وكذا مما ثبت في العرضة الأخيرة.

الرابع: أن لا يقبل من صدور الرجال إلا ما تلقَّوه من فم الرسول ﷺ، فإن عمر رضي الله عنه ينادي: «من كان تلقَّى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأتنا به» ولم يقل من حفظ شيئاً من القرآن فليأتنا به.

مميزات جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

١ - جمع القرآن الكريم في هذا العهد على أدقِّ وجوه البحث والتحري والإتقان، وظفر هذا الجمع بإجماع الأمة عليه وتواتر ما فيه.

٢ - أُهْمِلَ في هذا الجمع ما نُسخَت تلاوته من الآيات.

٣ - أن هذا الجمع كان على ما ثبت في العرضة الأخيرة من الأحرف

السبعة.

(١) جمال القراء: السخاوي، ج١، ص ٨٦.

(٢) فتح الباري: ابن حجر، ج٩، ص ١٥، وانظر المرشد الوجيز: لأبي شامة، ص ٥٧.

٤ - أن هذا الجمع كان مرتب الآيات باتفاق، واختلف العلماء في السور، هل كانت مرتبة في هذا الجمع أم أن ترتيبها كان في عهد عثمان رضي الله عنه؟

٥ - اتفق العلماء على أنه كُتِبَ نسخة واحدة من القرآن في هذا الجمع حفظها أبو بكر لأنه إمام المسلمين.

٦ - أن أبا بكر - رضي الله عنه - لم يلزم الناس باتباع المصحف الذي كتبه، ولم يكن هذا من مقاصده لما أمر بكتابة المصحف، لذا بقي الصحابة يُقرئون بما سمعوه من الرسول ﷺ، وكان في ذلك بعض المنسوخ في العرصة الأخيرة.

مكانة هذا الجمع :

ظفر هذا الجمع باتفاق الصحابة رضي الله عنهم على صحته ودقته، وأجمعوا على سلامته من الزيادة أو النقصان، وتلقَّوه بالقبول والعناية التي يستحقها، حتى قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، فإنه أول من جمع ما بين اللوحين»^(١).

ومع هذا التصريح من علي - رضي الله عنه - فقد زعم قوم أن أول من جمع القرآن هو علي - رضي الله عنه - وقد رد عليهم الألوسي فقال: وما شاع أن علياً - كرم الله وجهه - لما توفي رسول الله ﷺ تخلف لجمعه. فبعض طرقه ضعيفة، وبعضها موضوع، وما صح فمحمول كما قيل على الجمع في الصدر، وقيل: كان جمعاً بصورة أخرى لغرض آخر، ويؤيده أنه قد كتب فيه الناسخ والمنسوخ فهو ككتاب علم^(٢).

(١) المصاحف: أبو داود السجستاني، ص ١١.

(٢) روح المعاني: الألوسي، ج ١، ص ٢٢.

ولهذا روي أن أول من جمعه عمر رضي الله عنه، كما روي أن أول من جمعه سالم مولى أبي حذيفة، أقسم أن لا يرتدي برداء حتى يجمعه، وكل ذلك محمول على ما حمل عليه جمع علي رضي الله عنه، بل ذكر ابن حجر وغيره أن جمع علي - رضي الله عنه - كان حسب ترتيب النزول. وذكر النهاوندي - أحد مفسري الشيعة - «أن الكتاب الذي جمعه أمير المؤمنين عليه السلام كان فيه بيان شأن نزول الآيات، وأسماء الذين نزلت فيهم، وأوقات نزولها، وتأويل متشابهاتها، وتعيين ناسخها ومنسوخها، وذكر عامها وخاصها، وبيان العلوم المرتبطة بها، وكيفية قراءتها»^(١).

وإن صح هذا - مع استحالة - فليس هو بجمع للقرآن وإنما هو كتاب في علوم القرآن. وإنما قلت: مع استحالة، فلأن جمعه حسب ترتيب النزول غير ممكن، فقد سأل محمد بن سيرين عكرمة مولى ابن عباس فقال: «قلت لعكرمة: ألقوه كما أنزل الأول فالأول؟ قال: لو اجتمع الإنس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا»^(٢).

تسميته بالمصحف:

لم يكن (المصحف) يُطلق على القرآن قبل جمع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وإنما عُرِفَ هذا الاسم بعد أن أتمَّ زيد جمع القرآن، فقد روى السيوطي عن ابن أخته في كتابه «المصاحف» أنه قال: «لما جمعوا القرآن فكتبوه في الورق قال أبو بكر: التمسوا له اسماً فقال بعضهم السُّفْر، وقال بعضهم المصحف، فإنَّ الحبشة يسمونه المصحف. وكان أبو بكر أول من جمع كتاب الله وسماه المصحف»^(٣).

(١) نفحات الرحمن، ج١، ص ٨-١٢. عن كتاب «علوم القرآن عند المفسرين». إصدار مركز الثقافة والمعارف القرآنية في إيران، ج١، ص ٣٦٧.

(٢) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ٧٧.

(٣) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ٥١.

خبر هذا المصحف :

بعد أن أتمَّ زيد جمع القرآن في المصحف سلَّمَه لأبي بكر الصديق رضي الله عنه فحفظه عنده حتى وفاته، ثم انتقل إلى أمير المؤمنين من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبعد وفاته انتقل المصحف إلى حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، لأن عمر رضي الله عنه جعل أمر الخلافة من بعده شورى، فبقي عند حفصة إلى أن طلبه منها عثمان - رضي الله عنه - لنسخه بعد ذلك، ثم أعاده إليها - لما سيأتي - ولما توفيت حفصة رضي الله عنها أرسل مروان ابن الحكم إلى أخيها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ساعة رجعا من جنازة حفصة بعزيمة ليُرسلَنَّ بها، فأرسل بها ابنُ عمر إلى مروان فمزقها مخافة أن يكون في شيء من ذلك خلاف ما نسخ عثمان رضي الله عنه^(١).

ثالثاً: جمع القرآن بمعنى نسخه في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه :

سببه :

عندما اتسعت الفتوحات الإسلامية انتشر الصحابة رضي الله عنهم في البلاد المفتوحة يعلمون أهلها القرآن وأمور الدين، وكان كلُّ صحابي يقرئ بما سمعه من الرسول ﷺ وفي بعضه ما لم يثبت في العرصة الأخيرة، وكان أهل الشام يقرؤون بقراءة أبي بن كعب رضي الله عنه، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيُكفَّر بعضهم بعضاً^(٢). وعندما اتجه جيش المسلمين لفتح «أرمينية» و«أذربيجان» كان الجنود من أهل العراق وأهل الشام، فكان الشقاق والنزاع يقع بينهم، ورأى حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه -

(١) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص ٥٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج ٩، ص ١٨.

اختلافهم في القراءة، وبعض ذلك مشوب باللحن، مع إلف كل منهم لقراءته، واعتياده عليها، واعتقاده أنها الصواب؛ وما عداها تحريف وضلال، حتى كَفَّرَ بعضهم بعضاً، فأفزع هذا حذيفة - رضي الله عنه - فقال: والله لأركبَنَّ إلى أمير المؤمنين - يعني عثمان بن عفان رضي الله عنه - وكان عثمان قد رأى نحو هذا في المدينة، فقد كان الْمُعَلِّمُ يُعَلِّمُ بقراءة، والمعلم الآخر يعلم بقراءة، فجعل الصبيان يلتقون فينكر بعضهم قراءة الآخر، فبلغ ذلك عثمان رضي الله عنه، فقام خطيباً وقال: «أنتم عندي تختلفون فيه فتَلَحُّنُون، فمن نأى عني من الأمصار أشدَّ فيه اختلافاً، وأشدَّ لحنًا، اجتمعوا يا أصحاب محمد، واكتبوا للناس إماماً»^(١).

فلَمَّا جاء حذيفة إلى عثمان رضي الله عنهما وأخبره بما جرى، تحقَّق عند عثمان ما توقعه، وقد روى البخاري في «صحيحه» قصة ذلك الجمع في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «إِنَّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يُغازي أهل الشام في فتح «أرمينية» و«أذربيجان» مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان»^(٢).

تاريخ هذا الجمع:

كان ذلك في أواخر سنة ٢٤ وأوائل سنة ٢٥ كما قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى^(٣).

(١) المصاحف: ابن أبي داود، ص ٢٩.

(٢) صحيح البخاري، ج ٦، ص ٩٩.

(٣) فتح الباري: ابن حجر، ج ٩، ص ١٧.

فكرة الجمع :

لما سَمِعَ عثمان رضي الله عنه ما سمع ، وأخبره حذيفة رضي الله عنه بما رأى ، استشار الصحابة فيما يفعل ، فقد روى ابن أبي داود بإسناد صحيح - كما يقول ابن حجر^(١) - من طريق سويد بن غفلة قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «يا أيها الناس لا تغلُّوا في عثمان ، ولا تقولوا له إلا خيراً في المصاحف . . فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ مثلاً جميعاً ، قال : ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أنَّ بعضهم يقول : إن قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يكاد أن يكون كفرًا ، قلنا : فما ترى؟ قال : نرى أن نجمع الناسَ على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا يكون اختلاف . قلنا : فنعم ما رأيت . . قال علي : والله لو وُلِّيت لفعلت مثل الذي فعل^(٢) .

اللجنة المختارة :

اختار عثمان رضي الله عنه أربعة لنسخ المصاحف هم :

زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام^(٣) ، وهؤلاء الثلاثة من قريش .

فقد سأل عثمان رضي الله عنه الصحابة : من أكتب الناس؟ قالوا : كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت قال : فأَيُّ الناس أعرب؟ وفي رواية أفصح . قالوا : سعيد بن العاص ، قال عثمان : فليُملِّ سعيد ، وليكتب زيد^(٤) .

(١) فتح الباري : ابن حجر ، ج٩ ، ص ١٨ .

(٢) المصاحف : ابن أبي داود ، ص ٣٠ .

(٣) الإبانة : مكِّي بن أبي طالب ، ص ٦٤ .

(٤) فتح الباري : ابن حجر ، ج٩ ، ص ١٩ .

المنهج في هذا الجمع:

بعد أن اتفق عثمان مع الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - على جمع القرآن على حرف، سلك منهجاً فريداً، وطريقاً سليماً، أجمعت الأمة على سلامته ودقته.

١ - فبدأ عثمان رضي الله عنه بأن خطب في الناس فقال: «أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن وتقولون: «قراءة أبي» و«قراءة عبد الله»، يقول الرجل: «والله ما تقيم قراءتك!! فأعزمُ على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شيء لَمَّا جاء به، وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن، حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدتهم، لسمعت رسول الله ﷺ وهو أملاه عليك؟ فيقول: نعم»^(١).

٢ - وأرسل عثمان - رضي الله عنه - إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر - رضي الله عنهما - أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نعيدها إليك، فأرسلت بها إليه. ومن المعلوم أن هذه الصحف هي التي جُمِعَتْ في عهد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - على أدق وجوه البحث والتحري.

٣ - ثم دفع ذلك إلى زيد بن ثابت والقرشيين الثلاثة، وأمرهم بنسخ مصاحف منها، وقال عثمان للقرشيين: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم»^(٢).

(١) المصاحف ابن أبي داود، ص ٣١. وانظر جمال القراء، ج ١، ص ٨٩.

(٢) صحيح البخاري، ج ٦، ص ٩٩.

٤ - إذا تواتر في آية أكثر من قراءة تكتب الآية خالية من أية علامة تقصرُ النطق بها على قراءة واحدة فتكتب برسم واحد يحتملُ القراءتين أو القراءات فيها جميعاً مثل :

أ - ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾^(١) التي قرأت أيضاً ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾^(٢).

ب - ﴿نُنَشِّرُهَا﴾^(٣) قرأت أيضاً ﴿نُنَشِّرُهَا﴾^(٤).

أما إذا لم يمكن رسمها بحيث تحتمل القراءات فيها فتكتب في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة، وفي مصاحف أخرى برسم يدل على القراءة الأخرى مثل :

أ - ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمُ﴾^(٥) هكذا كتبت في بعض المصاحف وفي بعضها ﴿وَأَوْصَى﴾^(٦).

ب - ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(٧) بواو قبل السين في بعض المصاحف وفي بعضها بحذف الواو^(٨).

(١) سورة الحجرات : الآية ٦ .

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف (النشر في القراءات العشر، ابن الجوزي، ج٢، ص ٢٥١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .

(٤) الأولى قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بالزاي والباقون بالراء المهملة (اتحاف فضلاء البشر : البناء، ص ١٦٢) .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٣٢ .

(٦) وهي قراءة نافع وابن عامر (اتحاف فضلاء البشر، ص ١٤٨) .

(٧) سورة آل عمران : الآية ١٣٣ .

(٨) هي قراءة نافع وابن عامر (اتحاف فضلاء البشر، ص ١٧٩) .

وبعد الفراغ من نسخ المصاحف بعث عثمان بنسخ منها إلى الأمصار الإسلامية، حيث نشط المسلمون في نسخ مصاحف منها للأفراد، وكان زُيِّد ابن الحارث في المدينة يتفرغ في رمضان من كل سنة لعرض المصاحف فيعرضون مصاحفهم عليه وبين يديه مصحف أهل المدينة^(١).

مزاياء جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه :

تميّز هذا الجمع بمزاياء عديدة منها :

١ - كتب القرآن على حرف واحد من الأحرف السبعة هو حرف قريش، وقد كتب مجرداً حتى يحتمل أحرفاً أخرى^(٢) فإن لم يحتمل إلا حرفاً واحداً كتب بلسان قريش. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «جمع عثمان رضي الله عنه الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التي أطلق لهم رسول الله ﷺ القراءة بها لما كان ذلك مصلحة»^(٣).

٢ - إهمال ما نسخت تلاوته.

فقد كان قصد عثمان رضي الله عنه جمع الناس على مصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كُتِبَ مع مُثَبَّت رسمه، ومفروض قراءته وحفظه، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد^(٤).

(١) المصاحف: ابن أبي داود، ص ١٧٥. وقال المحقق: «في الأصل ربيد، ولعل الصواب زيد» يعني زيد بن ثابت وهو خطأ والصواب ما أثبتته وهو زبيد بن الحارث بن عبد الكريم اليامي. انظر تهذيب الكمال ١٥٧/١١ و ٢٩١/٩.

(٢) انظر ما كتبناه عن القول الراجح فيما بقي من الأحرف السبعة ص ٣٩٦-٣٩٧.

(٣) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم، ص ١٦.

(٤) الإنشاق: السيوطي، ج ١، ص ٦٠.

٣ - الاقتصار على ما ثبت في العرضة الأخيرة وإهمال ما عداه .

فقد روى ابن أبي داود في «المصاحف» عن محمد بن سيرين، عن كثير ابن أفلاح، قال: لَمَّا أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار، فيهم أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، قال: فبعثوا إلى الرُّبْعة التي في بيت عمر فجيء بها، قال: وكان عثمان يتعاهدهم، فكانوا إذا تدارؤوا في شيء أخروه، قال محمد: فقلت لكثير - وكان فيهم فيمن يكتب -: هل تدرون لم كانوا يؤخرونه؟ قال: لا، قال محمد: فظننتُ ظناً أنما كانوا يؤخرونها لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة، فيكتبونها على قوله^(١).

٤ - الاقتصار على القراءات الثابتة المعروفة عن الرسول ﷺ وإلغاء ما لم يثبت^(٢). وقد كان الهدف من جمع القرآن الكريم في عهد عثمان - رضي الله عنه - تجريده مما لم يثبت من القراءات في العرضة الأخيرة للقرآن على الرسول ﷺ، وقد كان بعض الصحابة يقرأ بقراءة كان قد سمعها من الرسول ﷺ ولم تثبت في العرضة الأخيرة^(٣).

٥ - كان مرتب الآيات والسور على الوجه المعروف الآن .

قال الحاكم في «المستدرک»: «إن جمع القرآن لم يكن مرة واحدة، فقد جُمِعَ بعضه بحضرة الرسول ﷺ، ثم جمع بعضه بحضرة أبي بكر الصديق، والجمع الثالث هو في ترتيب السور وكان في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين»^(٤).

(١) المصاحف: ابن أبي داود، ص ٣٣.

(٢) البرهان: الزركشي، ج ١، ص ٢٣٥.

(٣) يحسن النظر إلى ما كتبناه عن الأحرف السبعة والراجع فيما بقي منها ص ٣٧٨-٣٧٩.

(٤) المستدرک: الحاكم، ج ٢، ص ٢٢٩.

الفروق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان رضي الله عنهما:

كان معنى (الجمع) ظاهراً في جمع القرآن في عهد أبي بكر، فقد كان القرآن مفروقاً فأمر بجمعه، كما قال المحاسبي: «كان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشر، فجمعها جامع، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء»^(١).

إذاً فمعنى الجمع فيه ظاهر لا يحتاج إلى تفريق بينه وبين الجمع في عهد الرسول ﷺ، لكن الإشكال واللبس هو في الجمعين الثاني والثالث، إذ كيف يأمر عثمان بجمع القرآن وهو مجموع في عهد أبي بكر رضي الله عنهما؟! ولذا فإن العلماء يُؤلُون التفريق بين جمع القرآن في عهد أبي بكر وجمعه في عهد عثمان عنايتهم لإزالة هذا اللبس، ويذكرون فروقاً.

قال القاضي أبو بكر في «الانتصار»: «لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع القرآن بين لوحين، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ وإلغاء ما ليس كذلك»^(٢).

وقال ابن التين وغيره: «الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته، لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد، فجمعه في صحائف مرتباً لآيات سُورِهِ على ما وقَّفه عليه النبي ﷺ، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرؤوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدَّى ذلك ببعضهم إلى تخطئة بعض، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مُرتباً لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم»^(٣).

(١) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٢٣٨.

(٢) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٢٣٥.

(٣) الإتقان: السيوطي، ج١، ص ٥٩-٦٠.

ونستطيع أن نستخلص أهم الفروق وهي:

١ - أنَّ الباعث لجمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه خشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته، وذلك حين استحرَّ القتل بالقراء في حروب الرِّدة، أمَّا جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه فلكثرة الاختلاف في وجوه القراءة.

٢ - أنَّ جمع أبي بكر رضي الله عنه يشمل ما بقي من الأحرف السبعة في العرصة الأخيرة، أمَّا جمعه في عهد عثمان فقد كان على حرف واحد هو حرف قريش مع تجريده حتى يحتمل أحرفاً أخرى.

٣ - أن أبا بكر رضي الله عنه لم يلزم الناس باتباع المصحف الذي كتبه، أمَّا عثمان رضي الله عنه فالزمهم باتباعه بمشورة الصحابة وإجماعهم، لذا منعت القراءة بما نسخ من الأحرف السبعة ولم يثبت في العرصة الأخيرة، وظهر بذلك ما يُعرف بالقراءة الشاذة، ولو صحَّ سندها وثبت قراءة النبي ﷺ بها، وبهذا يظهر أن ضابط القراءة الشاذة التي صحَّ سندها ولم يقرأ بها الأئمة كونها نسخت في العرصة الأخيرة^(١).

٤ - أنَّ جمع أبي بكر رضي الله عنه كان مرتب الآيات وفي ترتيب السور خلاف، أمَّا جمع عثمان فقد كان مرتب الآيات والسور باتفاق.

٥ - أنَّ الجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه بمعنى الجمع في مصحف واحد، وأمَّا الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه فبمعنى نسخه في مصاحف متعددة.

(١) انظر في هذا ما كتبه د. مساعد الطيار في ملتقى أهل التفسير في الانترنت عن الأحرف السبعة ص ٧ من ١٧، وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٣، ص ٣٩٣-٣٩٤.

بعد أن أتممت اللجنة نسخ المصاحف أنفذ عثمان إلى آفاق الإسلام بنسخ منها، وأرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته، فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدني، وبعث عبد الله بن السائب مع المكي، والمغيرة بن أبي شهاب^(١) مع الشامي، وأبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي، وعامر بن عبد القيس مع البصري، وتلقى التابعون في كل قطر قراءة إمامهم، وتفرغ قوم منهم لضبط القراءات حتى صاروا أئمة يُرحل إليهم^(٢).

موقف الصحابة من هذا الجمع:

وبعد أن أنفذ عثمان المصاحف أمر بما سوى مصحفه أن يُحرق، وبعث «إلى أهل الأمصار أنني قد صنعت كذا وكذا، ومحوت ما عندي فامحوا ما عندكم»^(٣).

وقد رضي الصحابة رضي الله عنهم ما صنع عثمان، وأجمعوا على سلامته وصحته. وقال زيد بن ثابت: «فرأيت أصحاب محمد يقولون: أحسن والله عثمان، أحسن والله عثمان»^(٤).

وروى ابن أبي داود عن مصعب بن سعد، قال: «أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، وقال: لم يُنكر ذلك منهم أحد»^(٥).

(١) انظر غاية النهاية: ج ٢، ص ٣٠٥ حيث قال: «الصواب ابن أبي شهاب» وهو عند بعضهم المغيرة بن شهاب.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، ج ١، ص ٣٩٦-٣٩٧.

(٣) فتح الباري: ابن حجر، ج ٩، ص ٢١.

(٤) غرائب القرآن: النيسابوري، ج ١، ص ٢٧.

(٥) المصاحف: ابن أبي داود، ص ١٩.

وروى سويد بن غفلة، قال: قال علي - رضي الله عنه -: «لا تقولوا في عثمان إلا خيراً، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منّا»^(١) وعند ابن أبي داود قال: قال علي في المصاحف: «لو لم يصنعه عثمان لصنعه»^(٢).

ولم يُنقل عن أحد من الصحابة خلاف أو معارضة لما فعل عثمان رضي الله عنه، إلا ما روي من معارضة عبد الله بن مسعود، وينبغي أن نعلم أن معارضته - رضي الله عنه - لم تكن بسبب حصول تقصير في الجمع، أو نقص أو زيادة، وإنما جاءت معارضته لعدم تعيينه مع أعضاء لجنة النسخ للمصاحف، ولهذا قال «أُعْزِلَ عن نسخ المصاحف وتَوَلَّأَهَا رجل، والله لقد أسلمت وإنه لفي صُلب رجلٍ كافرٍ»^(٣).

وروى الترمذي عن ابن شهاب، قال: «فبلغني أن ذلك كَرِهَهُ مِنْ مَقَالَةِ ابن مسعود رجالٌ مِنْ أَفَاضِلِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ»^(٤).

وقد دافع أبو بكر الأنباري عن اختيار زيد بقوله: «ولم يكن الاختيار لزيد... إلا أن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله، إذ وعاه كله ورسول الله ﷺ حيٌّ، ولا ينبغي أن يظنَّ جاهل أنَّ في هذا طعنًا على عبد الله بن مسعود، لأن زيدا إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجباً لتقدمته عليه، لأن أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيراً منهما، ولا مساوياً لهما في الفضائل، والمناقب، وما بدا عن عبد الله بن مسعود من نكير فشيء نتجَه الغضبُ، ولا يعمل به ولا يؤخذ به، ولا يُشكَّ

(١) فتح الباري، ابن حجر، ج٩، ص ١٨.

(٢) المصاحف: ابن أبي داود، ص ١٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٤-٢٥، وتفسير القرطبي، ج١، ص ٥٢-٥٣.

(٤) جامع الترمذي، ج٥، ص ٢٨٥.

في أنه رضي الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حُسْنَ اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله ﷺ، وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم»^(١).

وأكد ذلك الذهبي فقال: «وقد ورد أنَّ ابن مسعود رضي وتابع عثمان والله الحمد»^(٢) وقال ابن كثير: «وإنما روي عن عبد الله بن مسعود شيء من الغضب بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف. إلى أن قال... ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق»^(٣).

فإن قيل كيف جاز للصحابة ترك ما لا يحتمله الرسم من الأحرف التي أمر الرسول ﷺ بقراءة القرآن بها؟

قيل: إنَّ أمره إياهم بالأحرف السبعة لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة... وإذا كان ذلك كذلك لم يكن القوم بتركهم بقية الأحرف تاركين ما عليهم نقله، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما يؤدون به الواجب، وهو أحد هذه الأحرف، فإذا حفظوه ونقلوه فقد فعلوا ما كلفوا به^(٤).

وقد علَّل ابن القيم رحمه الله تعالى جمع الناس على حرف واحد، وهو أيضاً تعليل حسن للاقتصار على ما يحتمله الرسم منها حيث قال: «فلما خاف الصحابة رضي الله عنهم على الأمة أن يختلفوا في القرآن، ورأوا أن جمعهم على حرف واحد أسلم وأبعد من وقوع الاختلاف، فعلوا ذلك، ومنعوا الناس من القراءة بغيره، وهذا كما لو كان للناس عدَّة طرق إلى

(١) تفسير القرطبي، ج١، ص ٥٣.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، ج١، ص ٤٨٨.

(٣) فضائل القرآن: ابن كثير، ص ٢٠.

(٤) انظر تفسير ابن جرير الطبري، ج١، ص ٦٤، وما بعدها.

البيت، وكان سلوكهم في تلك الطرق يوقعهم في التفرُّق والتشتيت، ويطمع فيهم العدو، فرأى الإمام جمعهم على طريق واحد، فترك بقية الطرق جاز ذلك، ولم يكن فيه إبطال لكون تلك الطرق موصلة إلى المقصود، وإن كان فيه نهى عن سلوكه لمصلحة الأمة»^(١).

عدد المصاحف التي أمر عثمان رضي الله عنه بنسخها:

اختلف في عدد النسخ التي كتبها عثمان إلى خمسة أقوال:

١ - قيل: إنها أربع نسخ:

قال أبو عمرو الداني: «أكثر العلماء على أنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه لمَّا كتب المصحف جعله على أربع نسخ، وبعث إلى كلِّ ناحية من النواحي بواحدة منهن، فوجه إلى الكوفة إحداهن، وإلى البصرة أخرى، وإلى الشام الثالثة، وأمسك عند نفسه واحدة»^(٢).

٢ - قيل: إنها خمس نسخ:

قال السيوطي: «المشهور أنها خمسة»^(٣).

٣ - قيل: إنها سبع نسخ:

فقد روى ابن أبي داود عن أبي حاتم السجستاني، قال: لمَّا كتب عثمان المصاحف حين جمع القرآن كتب سبعة مصاحف، فبعث واحداً إلى مكة، وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وآخر إلى البصرة،

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: ابن القيم، ص ١٦.

(٢) المقنع: لأبي عمرو الداني، ص ٩.

(٣) الإتقان: السيوطي، ج ١، ص ٦٠.

وآخر إلى الكوفة، وحبس بالمدينة واحداً^(١). ونقل ذلك أبو شامة^(٢) والمهدوي^(٣) وقال مكّي: «ورواته أكثر»^(٤).

وقيل: إنها ثمانية، وهو قول ابن الجزري^(٥)، وقيل: إنها ستة وعلى هذا القول بنى ابن عاشر منظومته في اختلاف الحروف^(٦).

خبر هذه المصاحف:

ذكر بعض المؤرخين القدامى رؤيتهم لبعض هذه المصاحف، ومن ذكر رؤيته لبعضها ابن جبير (ت ٦١٤هـ) حين زار جامع دمشق رأى في الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان رضي الله عنه، وهو المصحف الذي وجه به إلى الشام كما قال^(٧). وقد زار المسجد أيضاً ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) فقال: «وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يؤم فيها إمام الشافعية، وفي الركن الشرقي منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الشام»^(٨) ورأى النسخة نفسها ابن كثير (٧٧٤هـ) رحمه الله تعالى حيث قال: «وأما المصاحف العثمانية

(١) المصاحف: ابن أبي داود، ص ٤٣.

(٢) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص ٧٣.

(٣) السبب الموجب لاختلاف القراءات: المهدوي، ص ١٤٧.

(٤) الإبانة: مكّي بن أبي طالب، ص ٦٥.

(٥) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج ١، ص ٧.

(٦) الإعلان بتكميل مورد الظمان: ابن عاشر، ص ٤٣٦ بذيّل كتاب دليل الحيران شرح

مورد الظمان: إبراهيم المارغني.

(٧) رحلة ابن جبير: ص ٢١٧.

(٨) رحلة ابن بطوطة: ج ١، ص ٥٤.

الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كان قديماً في طبرية، ثم نقل منها إلى دمشق في حدود ثمانى عشرة وخمس مئة، وقد رأيت كتاباً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوي بحبر محكم، في رِقِّ أظنه من جلود الإبل، والله أعلم^(١). كما ذكر ابن بطوطة أنه رأى في مسجد علي رضي الله عنه في البصرة المصحف الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لما قُتل، وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْكَلِيمُ﴾^(٢)^(٣). ويبدو كذلك أن ابن الجزري وابن فضل الله العمري قد رأيا كلاهما هذا المصحف الشامي نفسه^(٤). ورأى ابن الجزري مصحفاً في مصر^(٥).

ويبدو - كذلك - أن المصحف الشامي ظلَّ محفوظاً في الجامع الأموي إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري حيث قيل: إنه احترق، فقد قال الأستاذ محمد كرد علي في حديثه عن الجامع الأموي: حتى إذا كانت سنة ١٣١٠هـ. سرت النار إلى جذوع سقوفه فالتهمتها في أقل من ثلاث ساعات فدثر آخر ما بقي من آثاره ورياشه، وحرق فيه مصحف كبير بالخط الكوفي كان جيء به من مسجد عتيق في بُصرى، وكان الناس يقولون: إنه المصحف العثماني^(٦). وقيل: إن هذا المصحف أُمسى زمناً في حوزة قياصرة الروس في دار الكتب في لينينجراد ثم نقل إلى إنجلترا^(٧).

(١) فضائل القرآن: ابن كثير، ص ٢٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٧.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ج ١، ص ١١٦.

(٤) مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ص ٨٨-٨٩.

(٥) مناهل العرفان: الزرقاني، ج ١، ص ٣٩٧.

(٦) خطط الشام، محمد كرد علي، ج ٥، ص ٢٦٢.

(٧) مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ص ٨٩.

كما أن هناك مصاحف أثرية تحتويها خزائن الكتب والآثار في مصر، ومنها المصحف المحفوظ في خزائن الآثار بالمسجد الحسيني، ويقال عنها إنها مصاحف عثمانية، وقد شكك كثيراً الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني بهذا معللاً بأن فيها زركشة ونقوشاً موضوعة كعلامات للفصل بين السور وليبان أعشار القرآن، ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا^(١).

وفقد هذه المصاحف لا يقلل من ثقتنا اليقينية بما تواتر واستفاض نقله من المصاحف ثقة عن ثقة وإماماً عن إمام، وسواء وجدت هذه المصاحف أو فقدت فإننا على يقين تام لا يزاوله شك ولا يعتريه ريب بسلامة هذه المصاحف من الزيادة أو النقصان، وقد اعترف بذلك غير المسلمين من العلماء المحققين يقول المستشرق موير: «إنَّ المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يُذكر، بل نستطيع أن نقول: إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها، والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يُعدّ أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا^(٢).

(١) مناهل العرفان: الزرقاني، ج١، ص ٣٩٧. وانظر ما كتبه الدكتورة سعاد ماهر عن المصاحف الأثرية في مصر والمنسوبة إلى عثمان رضي الله عنه، وذلك في كتابها (مخلفات الرسول في المسجد الحسيني)، ص ١٠٩-١٣٤.

(٢) مدخل إلى القرآن: د. محمد عبد الله دراز، ص ٤٠.

النوع الثالث : جمعه بمعنى تسجيله صوتياً :

من المعلوم أنَّ للتلاوة أحكاماً ينبغي أن يأخذ بها تالي القرآن الكريم كالقلقلة، والرَّوْم، والإشْمام، والإخفاء، والإدْغام، والإقْلَاب، والإظهار، ونحو ذلك . وليس من السهل بل قد تتعذر كتابة مثل هذا .

ولهذا قرر العلماء - رحمهم الله تعالى - أنه لا يصح التعويل على المصاحف وحدها، بل لا بُدَّ من التلقِّي عن حافظٍ متقنٍ، وكانوا يقولون: «من أعظم البليَّة تشييع الصحيفة»^(١). ويقولون: «لا تأخذوا القرآن من مصحفي، ولا العلم من صحفي»^(٢) وهو الذي يُعلِّمُ الناس وينظر إلى رسم المصحف . وكان الشافعي - رحمه الله تعالى - يقول: «من تفقه من بطون الكتب ضيَّعَ الأحكام»^(٣).

بل إنَّ أعلام حُفَاط القرآن يَميزون الحفظ بالتلقي، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة»^(٤) ويبين عَمَّن أخذ باقيه فيقول في رواية أخرى: «وأخذت بقية القرآن عن أصحابه»^(٥) ولإدراكه - رضي الله عنه - مكانة التلقي بالمشافهة كان إذا سُئِلَ عن سورة لم يكن تلقاها عن رسول الله ﷺ صرح لهم بذلك،

(١) تذكرة السامع والمتكلم: ابن جماعة، ص ٨٧. الفقيه والمتفقه، ج ٢، ص ٩٧.

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، العسكري، ص ١٠.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم: ابن جماعة، ص ٨٧، وشرح المذهب: النووي، ج ١، ص ٦٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ ج ٦، ص ١٠٢، واللفظ له، ورواه مسلم بلفظ آخر كتاب فضائل الصحابة، ج ٤، ص ١٩١٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر، ج ٩، ص ٤٨.

وَدَلَّهِمْ عَلَى مَنْ تَلَقَّاها بِالمِشافَةِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، فَعَنْ مَعْدٍ يَكْرِبُ قَالَ: أَتَيْنَا عَبْدَ اللَّهِ، فَسَأَلْنَاهُ أَنْ يَقْرَأَ (طُسم) الْمُثْنَيْنِ، فَقَالَ: مَا هِيَ مَعِيَ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ مَنْ أَخَذَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَبَّابُ بْنُ الْأَرْتِ، قَالَ: فَأَتَيْنَا خَبَابَ بْنَ الْأَرْتِ، فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا^(١).

وَمَا قَالَه ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ مِنْ أَعْلَامِ الْحِفَافِ فِي وَجُوبِ التَّلْقِي لِلْقُرْآنِ مِشافَةً لَمْ يَتَدَعَوْهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا أَخَذُوهُ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ نَفْسُهُ يَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ مِنْ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيُشَافِهِ بِهِ مِشافَةً، وَيُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ عَامٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَعَارِضُهُ عَامَ وَفَاتِهِ بِالْقُرْآنِ مَرَّتَيْنِ، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ يُجَهِّرُ فِي ثَلَاثٍ مِنْهَا، وَكَذَا فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَالِاسْتِسْقَاءِ، وَالْخُسُوفِ، وَالْكَسُوفِ، وَالتَّرَاوِيحِ، وَالْعِيدَيْنِ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى تَعَلُّمِ النَّاسِ لِلتَّلَاوَةِ الصَّحِيحَةِ فِي الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ ثُمَّ تَطْبِيقِهَا فِي الصَّلَاةِ السَّرِيَّةِ.

وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَبْعَثُ الْقُرَّاءَ إِلَى مَنْ يَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ لِتَعْلِيمِهِمُ التَّلَاوَةَ، وَكَانَ بِإِمْكَانِهِ ﷺ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ، وَاقْتَدَى بِسُنَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِ الْبُلْدَانِ الْمَفْتُوحَةِ قُرَّاءَ يَعْلَمُونَ الْقُرْآنَ، وَلَمَّا نَسَخَ عُثْمَانُ الْمَصَاحِفَ أَرْسَلَ مَعَ كُلِّ مَصْحَفٍ قَارِئًا يُعَلِّمُ النَّاسَ عَلَيْهِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى أَنَّ مِنْ أَحْكَامِ الْقِرَاءَةِ مَا لَا يُمْكِنُ إِتْقَانُهُ إِلَّا بِالتَّلْقِي الشَّفْهِِي.

وَلَمْ يَكُنْ مِنْ وَسِيلَةٍ لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْقُرَّاءِ وَقَدْ جَدَّتْ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ وَسَائِلُ وَأَلَاتُ تَسْجِلِ الصَّوْتِ، ثُمَّ تَعْيِيدُهُ.

(١) مسند الإمام أحمد، ج٦، ص٣٤، بتحقيق أحمد شاكر، رقم (٣٩٨٠)، وقال: إسناده صحيح. وطسم المثنين: هي سورة الشعراء، آياتها ٢٢٧.

ولا شك أنَّ هذه الآلات، والاستفادة منها في نشر القرآن الكريم وبثه في العالم الإسلامي خاصة في البلدان التي تفتقد المُعلِّم الضابط، من خير الوسائل لحفظه وتعليمه.

وقد أدرك هذا الأمر بعضُ الغيورين على الإسلام والحريصين على نشره، فتداعوا لجمع القرآن في أشرطة صوتية كما جُمِعَ على الورق في الصحف.

وتبنَّت الجمعَ الجمعيةُ العامة للمحافظة على القرآن الكريم بمصر، وكان ذلك سنة ١٣٧٩هـ باقتراح من رئيسها الأستاذ لبيب السعيد^(١)، وقد اتفقوا على تسمية المشروع بـ«المصحف المرتل» أو «الجمع الصوتي».

تعريف المصحف المرتل:

أما المصحف: فمثلاثة الميم، والأصل والأشهر الضمُّ، وهو مأخوذ من «أَصْحَفَ» أي: جعلت فيه الصحف^(٢).

واصطلاحاً: هو مجموعة صحائف القرآن مرتبة الآيات والسور على الوجه الذي تلقته الأمة الإسلامية من النبي ﷺ.

والفرق بين المصحف والقرآن أنَّ المصحف اسم لمجموع الصحائف المدوَّن فيها القرآن، أمَّا القرآن الكريم فهو الألفاظ ذاتها.

وأما المرتَّل لغة: فمأخوذ من رَتَلَ الثَّغَرُ، إذا استوى نباته، وحسن تنزيده، وكان مُفْلِجاً.

(١) اعتمدت فيما أوردت عن قصة هذا الجمع على ما كتبه الأستاذ لبيب السعيد في كتابه «الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم أو المصحف المرتل».

(٢) القاموس المحيط، ص ١٠٦٨، ولسان العرب، ج ٩، ص ١٨٦.

واصطلاحاً: القراءة بتؤدة واطمئنان، وإخراج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه ومستحقه ومع تدبر المعاني، وقيل: هو رعاية مخارج الحروف، وحفظ الوقوف.

والترتيلُ أفضل مراتب القراءة الأربع وهي:

١ - التحقيق: وهو أكثرها اطمئناناً، وأكثر ما يُستعمل في التعليم لرياضة الألسن.

٢ - الترتيل: القراءة بتؤدة واطمئنان.

٣ - التدوير: وهي مرتبة بين الترتيل والحدرد.

٤ - الحدرد: وهو الإسراع بالقراءة مع مراعاة الأحكام. قيل لابن مجاهد: من أقرأ الناس؟ قال: من حقق في حدرد^(١).

المراد به: المصحف المرتل هو التسجيل المسموع للقرآن الكريم.

أدواته: أجهزة التسجيل الحديثة وأشرطته وأسطواناته ونحوها.

سببه: أما بواعث التفكير في الجمع الصوتي للقرآن الكريم فكثيرة منها:

١ - اقتضاء المحافظة على القرآن الكريم وذلك عن طريق:

أ - تعليم النطق الصحيح الذي لا محيص عنه لطالب القرآن، والذي بغيره لا يؤمن التصحيف.

ب - المحافظة على القراءات التي نزل بها القرآن، وأجمع عليها المسلمون، وثبت تواترها.

ج - المنع من القراءة بالشواذ التي تعلق بها أفراد من القراء.

(١) التمهيد في معرفة التجويد: أبو العلاء الهمداني، ص ١٨٩.

٢ - تيسير تحفيظ القرآن الكريم وتعليمه .

أ - لأنّ المصاحف المُرثَلة نماذج صوتية ممتازة للترتيل الصحيح .

ب - لأنها تُيسّر القرآن للحفظ والتعليم خاصة في البلدان التي تفتقد المعلم الضابط .

ج - لأنها طُبِّ اختلاف الرسم العثماني عن الرسم الإملائي المعروف .

٣ - ضرورة الذود عن القرآن الكريم ضد الطاعنين عليه وضد كل محاولة لتحريفه ، وكل عقبة تُوضع أمام وحدة أتباعه أو أمام نشره وتوزيعه بين المسلمين ، وذلك بأن يُبَثَّ في الإذاعات ونحوها .

٤ - معاضدة المصحف العثماني الذي أجمع المسلمون عليه .

٥ - درء أيّ تحريف عن القرآن الكريم .

٦ - نشر لغة القرآن الكريم وتوطيد الوحدة بين المسلمين .

تاريخ المصحف المرتل :

عُقِدَ أولُ اجتماع في الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم برئاسة الأستاذ لبيب السعيد لدراسة الموضوع في مساء ١٤/رمضان/ ١٣٧٨هـ في القاهرة وتمت الموافقة عليه ووضعت الشروط والمواصفات .

بدء الطبع :

لاقى المشروع في بدايته عقبات كثيرة مادية وعلمية وغيرها ، وقد تجاوز بحمد الله كل هذا ، وبدأ الطبع لأول مرة سنة ١٣٧٩هـ في ذي القعدة ، وانتهت الطبعة الأولى في المحرم من عام ١٣٨١هـ وذلك بقراءة الشيخ محمود خليل الحصري برواية حفص عن عاصم ، وأعقب هذا سنة ١٣٨٢هـ تسجيل قراءة أبي عمرو برواية الدوري .

كيفية التسجيل :

لم يكن التسجيل شيئاً هيناً فمع امتياز القارئ وكونه قد أصبح آنئذ شيخ المقارئ المصرية فقد كانت اللجنة تستوقفه كثيراً ليعيد التسجيل على النحو النموذجي المطلوب .

القراء وهم :

- ١ - محمود خليل الحصري ويقرأ برواية حفص عن عاصم .
- ٢ - مصطفى المَلَوَّاني ويقرأ برواية خلف عن حمزة .
- ٣ - عبد الفتاح القاضي ويقرأ برواية ابن وردان عن أبي جعفر .
- ٤ - فؤاد العروسي ، ومحمد صديق المنشاوي ، وكامل البهتيمي برواية الدوري عن أبي عمرو .

ولم يتم تسجيل شيء من هذا كله لغير الحصري وتوقف المشروع .

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف :

وقد أدركت حكومة المملكة العربية السعودية - وفقها الله تعالى إلى كل خير - الحاجة الماسة للعناية بطباعة المصحف وتسجيله ، فأنشأت (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف) وتم افتتاحه في السادس من شهر صفر عام ١٤٠٥ . ومن أهداف هذا المجمع :

١ - طباعة المصحف الشريف :

طباعة تنأى به عن الأخطاء المطبعية ، حيث أنشأت مطبعة تعد من أضخم المطابع في العالم وأحدثها . ويسمى المصحف الذي تصدره (مصحف المدينة النبوية) وتبلغ طاقة المطبعة ثلاثين مليون نسخة سنوياً ، أي : بمعدل مصحف كامل كل (ثانية) بدون توقف .

٢ - ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات المختلفة :

وقد أصدر المجمع حتى نهاية عام ١٤٢٤هـ (٤٤) ترجمة لمعاني القرآن الكريم . وهناك ترجمات أخرى ستصدر قريباً بإذن الله تعالى .

٣ - تسجيل القرآن الكريم :

يضم المجمع استديو للتسجيلات الصوتية، مجهز بأحدث الآلات والمعدات ذات التقنية العالية، حيث يتم تسجيل تلاوة القرآن الكريم بأصوات كبار القراء بالمملكة والعالم الإسلامي تحت إشراف لجنة من كبار العلماء تراقب أعمال التسجيل .

ويسعى المجمع في خطته المستقبلية إلى إنتاج إصدارات صوتية لترجمة معاني القرآن الكريم باللغات المختلفة .

وتبلغ الطاقة الإنتاجية من أشرطة الكاسيت في المجمع أكثر من مليونين وأربع مئة ألف شريط سنوياً .

وحتى نهاية رجب عام ١٤٢٣هـ تم تسجيل القرآن الكريم كاملاً برواية حفص عن عاصم بأصوات كل من :

١ - الشيخ علي بن عبد الرحمن الحذيفي إمام المسجد النبوي الشريف .

٢ - الشيخ الدكتور محمد أيوب محمد يوسف .

٣ - الشيخ الدكتور عبد الله بن علي بصفر .

٤ - الشيخ إبراهيم الأخضر علي القيم .

٥ - الدكتور عماد بن زهير حافظ ، برواية حفص عن عاصم بقصر

المنفصل وتوسط المتصل .

كما تم تسجيل القرآن الكريم كاملاً بصوت الشيخ علي الحذيفي برواية قالون عن نافع . وتسجيل (المصحف المعلم) بصوته أيضاً .

ويجري حالياً التسجيل لفضيلة الدكتور، إبراهيم بن سعيد الدوسري، برواية ورش من طريق الشاطبية والشيخ خالد بن سليمان المهنا، برواية حفص بقصر المد المنفصل وتوسط المتصل .

وتم تسجيل معاني القرآن الكريم مترجمة إلى اللغة الأورمية وهناك خطة لتسجيل معاني القرآن الكريم بلغات أخرى .

٤ - الوفاء باحتياجات الحرمين الشريفين والمساجد والعالم الإسلامي من الإصدارات الخاصة بالقرآن الكريم .

٥ - خدمة السنة والسيرة النبوية الشريفة .

وذلك بجمع وحفظ الكتب والمخطوطات والوثائق والمعلومات المتعلقة بالسنة والسيرة، وإعداد موسوعة في الحديث النبوي إلى جانب ترجمة بعض أمهات كتب السنة والسيرة .

٦ - إجراء البحوث والدراسات المتعلقة بالقرآن والسنة^(١)

(١) رجعت فيما كتبت عن المجمع إلى :

١ - التقرير السنوي للمجمع لعام ١٤٢١-١٤٢٢هـ .

٢ - كتيب تعريف بالمجمع ١٤١٨هـ .

٣ - مطوية أصدرتها إدارة العلاقات العامة بالمجمع عام ١٤٢٥هـ .

٤ - اتصال هاتفي بأمين عام المجمع . وانظر ص ٥٠٥-٥٠٦ من هذا الكتاب .

٥ - كتابة المصحف الشريف وطباعته وتاريخها وأطوارها وعناية المملكة العربية السعودية بطبعه، ونشره، وترجمة معانيه، إعداد، أ.د، محمد سالم بن شديد العوفي الأمين العام لجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، بالمدينة المنورة . من مطبوعات المجمع ١٤٢٤هـ .

ترتيب سور القرآن الكريم وآياته

وهذا مبحث مهم من المباحث الجلية، أولاه العلماء اهتمامهم وعنايتهم، وزادت قيمته ومكانته حين ظهر الاتجاه الحديث في الدراسات القرآنية بتناول السور القرآنية مستقلة بناء على الوحدة الموضوعية، وأنَّ كلَّ سورة ذات هدفٍ مُعيَّنٍ وغرض أساس أنزلت لأجله، وأكَّدُوا على هذا المعنى باعتباره مدخلاً لفهم معانيها وكشف أسرارها وحِكَمِها، ثم بنوا على ذلك الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم وبيان المناسبات بين الآيات والسور.

وتقسيمُ القرآن إلى سور وآيات من خصائصه التي لا يشاركه فيها كتاب آخر. قال الجاحظ: «سمى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سَمَّى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل. سَمَّى جُمْلَتَهُ قرآناً، كما سَمَّوْا ديواناً، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت، وآخرها فاصلة كقافية»^(١).

أولاً: سور القرآن الكريم:

السور: جمع سورة، وفي نطق (السورة) لغتان:

أولاهما: (السورة) بالهمزة مشتقة من (أسأر) أي: أبقى (والسُور): البقية التي تبقى من شرب الشارب في الإناء، وسُمِّيت سُورَةً كأن السورة بقية جملة القرآن وقطعة منه.

ثانيهما: (السورة) بدون همز ومعناها في اللغة المنزلة والشرف وما طال من البناء وحسن، والعلامة، وسُمِّيت السورة سورة لارتفاعها وشرفها

(١) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ٥٠.

وكونها علامة على صدق من جاء بها، ودليلاً على أنَّ هذا القرآن من عند الله، وهي تشبه الشُّورَ من وجهين:

الأول: أنَّ الشُّورَ له عُلُوٌّ حَسِّيٌّ، والسورة لها علو معنوي.

الثاني: أنَّ السور يقوم بناؤه على لِبَنَات بعضها فوق بعض، والسورة يقوم بناؤها على آيات يتبع بعضها بعضاً.

أما في الاصطلاح: فهي طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع.

طريق معرفة السورة:

معرفة سور القرآن الكريم من حيث بداية كل سورة ونهايتها توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه.

عدد سور القرآن:

قال الزركشي رحمه الله تعالى: «اعلم أنَّ عدد سور القرآن العظيم باتفاق أهل الحلِّ والعقد مئة وأربع عشرة سورة كما هي في المصحف العثماني، أولها الفاتحة وآخرها الناس، وقال مجاهد: وثلاث عشرة بجعل الأنفال والتوبة سورة واحدة لاشتباه الطرفين وعدم البسملة، ويردُّه تسميةُ النبي ﷺ كلاً منهما»^(١).

أسماء السور:

تنقسم سور القرآن من حيث تعدد الاسم وعدمه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما له اسم واحد: وهو أكثر سور القرآن، مثل: النساء، الأعراف، الأنعام، مريم، وغيرها.

(١) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٢٥١.

الثاني: ما له أكثر من اسم: ويشمل هذا النوع سوراً لها اسمان كسورة (محمد) ﷺ حيث تسمى (القتال)، وسورة (الجاثية) تسمى (الشرعية)، وسورة (النحل) تسمى (النعم) لما عدد الله فيها من النعم على عباده^(١).

ويشمل سوراً لها ثلاثة أسماء مثل (المائدة) وتسمى (العقود) و(المنقذة)^(٢) ومثل سورة غافر وتسمى (الطول) و(المؤمن)^(٣).

ويشمل سوراً لها أكثر من ثلاثة أسماء مثل سورة التوبة، ومن أسمائها (براءة) و(الفاضحة) و(الحافرة) وقال حذيفة: هي سورة (العذاب) وقال ابن عمر: كنا ندعوها (المُشْقِشَقَة) وقال الحارث بن يزيد: كانت تدعى (المُبْعَثِرَة) ويقال لها: (المُسَوَّرَة) ويقال لها: (البَحُوث)^(٤).

وكسورة الفاتحة فقد ذكر السيوطي لها خمسة وعشرين اسماً منها (أُمُّ الكتاب) و(أُمُّ القرآن) و(السبع المثاني) و(الصلاة) و(الحمد) و(الوافية) و(الكنز) و(الشفافية) و(الشفاء) و(الكافية) و(الأساس)^(٥).

الثالث: أن تُسمَّى عدة سورٍ باسم واحد: ومن ذلك تسمية البقرة وآل عمران بـ(الزهاوين) وتسمية سورتي الفلق والناس بـ(المعوذتين) وتسمية السور المبدوءة بـ(حم) بـ(الحواميم).

(١) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٢٦٩.

(٢) روى أنها تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب، تفسير القرطبي، ج٦، ص ٣٠.

(٣) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٢٥١.

(٤) المرجع السابق.

(٥) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ٥٢-٥٣، وانظر البرهان: الزركشي، ج١، ص ٢٦٩-

مصدر التسمية :

اختلف العلماء في مصدر أسماء سور القرآن الكريم .

١ - قيل : إنها اجتهادية ، واستبعد الزركشي ذلك^(١) .

٢ - قيل : إنها توقيفية ، وهو الراجح ، قال السيوطي : «وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار»^(٢) .

أقسام السور :

روى واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال : «أعطيت مكان التوراة السبع ، وأعطيت مكان الزبور المثين ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفضلت بالمفصل»^(٣) . وعلى هذا فإن سور القرآن تنقسم إلى أربعة أقسام :

- الأول : الطوال وهي سبع :

البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، واختلف في السابعة ف قيل : (الأنفال والتوبة) معاً لأنهم كانوا يعدونهما سورة واحدة لعدم الفصل بينهما بالبسملة ، وقيل : إنَّ السابعة هي سورة يونس . والصواب أن سورة التوبة وحدها أول من سورة يونس .

- الثاني : المئون :

وهي ما يلي السبع الطوال ، سميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مئة آية أو تقاربها .

(١) البرهان : الزركشي ، ج١ ، ص ٢٧٠ .

(٢) الإتيقان : السيوطي ، ج١ ، ص ٥٢ .

(٣) مسند الإمام أحمد ، ج٤ ، ص ١٤٩ قال الألباني : «الحديث بمجموع طرقه صحيح ، والله أعلم» الصحيحة ، ج٣ ، ص ٤٦٩ .

- الثالث : المثنائي :

وهي ما يلي المئين ، وسميت بذلك لأنها تُثْنَى في الصلاة وتُكْرَر أكثر من الطوال والمئين .

- الرابع : المُفَصَّل :

وهو ما يلي المثنائي من قصار السور إلى آخر القرآن ، وسُمِّي بالمُفَصَّل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة ، وقيل : لقلّة المنسوخ منه ، ولهذا يُسمى بالمُحْكَم أيضاً ، كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال : «إن الذي تدعونه المُفَصَّل هو المُحْكَم»^(١) .

وقد اختلف العلماء في أوله ف قيل : من أول سورة (ق) ، وقيل : من أول (الحجرات) ، وقيل : من أول (القتال) . وذكر الزركشي والسيوطي اثني عشر قولاً في ذلك^(٢) .

وينقسم المفصل إلى ثلاثة أقسام :

أ - الطوال : من أوله إلى سورة (البروج) .

ب - وأوسطه : من سورة (الطارق) إلى سورة (البينة) .

ج - وقصاره : من (الزلزلة) إلى آخر القرآن .

وفي سورة الفاتحة خلاف ف قيل : من أوله ، وقيل : من المفصل^(٣) .

(١) مسند الإمام أحمد، ج١، ص٢٥٣، وقال الأستاذ أحمد شاکر: إسناده صحيح ج٤، ص٧٧ .

(٢) البرهان: الزركشي، ج١، ص٢٤٥-٢٤٦، والإتقان: للسيوطي، ج١، ص٦٣ .

(٣) فتح الباري: ابن حجر، ج٨، ص٦٥٩ .

ترتيب السور:

للعلماء في ترتيب السور في القرآن الكريم ثلاثة أقوال:

الأول: أنَّ ترتيب السور على ما هو عليه في المصحف الآن توقيفي، وأَنَّهُ لم توضع سورة في مكانها إلا بأمر من الرسول ﷺ عن جبريل عليه السلام عن ربه عز شأنه كترتيب الآيات سواء بسواء.

قال أبو بكر الأنباري: «اتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كُلُّهُ عن النبي ﷺ، فمن قَدَّمَ سورة أو أَخَّرَهَا فقد أَفسدَ نَظْمَ القرآن»^(١).

وقال الكرمانى في «البرهان»: «ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب»^(٢).

وقال الطيبي: «أُنزِلَ القرآن أولاً جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفزقاً على حسب المصالح، ثم أُثبت في المصاحف على التأليف والنظم المُثبت في اللوح المحفوظ»^(٣).

وقال أبو جعفر النحاس: «إنَّ تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ»^(٤).

وقال ابن الحَصَّار: «ترتيب السور ووضع الآيات موضعها إنّما كان بالوحي»^(٥).

(١) الإِتقان: السيوطي، ج١، ص ٦٢.

(٢) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٢٥٩، والإِتقان للسيوطي، ج١، ص ٦٢.

(٣) الإِتقان: السيوطي، ج١، ص ٦٢.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص ٦٢.

(٥) المرجع السابق، ج١، ص ٦٣.

وغير هؤلاء من العلماء ومن أدلتهم:

١ - إجماع الصحابة - رضي الله عنهم - على ترتيب السور في مصحف عثمان رضي الله عنه، ولو كان ترتيبه بالاجتهاد لَتَمَسَّكَ أصحابُ المصاحف المُخالفة في الترتيب بمصاحفهم.

٢ - قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: «ومما يدل على أنَّ ترتيب المصحف كان توقيفياً ما أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما عن أوس ابن أبي أوس حذيفة الثقفي، قال: كنتُ في الوفد الذين أسلموا من ثقيف.. وفيه.. فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ، قلنا: كيف تُحزَّبون القرآن؟ قالوا: نُحزِّبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من (ق) حتى تختم». ثم قال ابن حجر: «فهذا يدل على أنَّ ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان في عهد النبي ﷺ»^(١).

وإذا جمعت أعداد السور المذكورة هكذا $٣ + ٥ + ٧ + ٩ + ١١ + ١٣$ كان المجموع ٤٨ سورة قال الزركشي: «وحينئذٍ فإذا عددت ثمانياً وأربعين سورة كانت التي بعدهن سورة (ق)»^(٢). وهذا يدل على أنَّ السور كانت مرتبة في عهد الرسول ﷺ.

٣ - قال السيوطي رحمه الله تعالى: «ومما يدل على أنه توقيفي كونُ الحواميم رُتِّبَتْ وَلَاءً (يعني متوالية) وكذا الطواسين، ولم تُرتَّبِ المُسَبِّحات

(١) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، ج٩، ص ٤٢-٤٣.

(٢) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٢٤٧. قلت: هذا إذا لم نعد الفاتحة، أما إذا عددناها فإن التي بعدهن سورة (الحجرات) ولهذا وقع الاختلاف في أول المفصل، ومن لم يعد الفاتحة من الطوال فقد عدها من المفصل.

ولاء، بل فصل بين سورها وفصل بين (طسم) الشعراء و(طسم) القصص بـ(طس) مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المُسَبِّحات ولاء، وأُخِّرَت (طس) عن القصص»^(١).

القول الثاني: أنَّ ترتيب السور اجتهادي من فعل الصحابة رضي الله عنهم.

وهذا قول جمهور العلماء، قال ابن فارس: جَمْعُ القرآن على ضربين: أحدهما: تأليفُ السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا هو الذي تولَّته الصحابة، وأمَّا الجمعُ الآخر وهو جمع الآيات في السور، فهو توقيفي تولاه النبي ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر به^(٢). ومما استدلوا به على ذلك:

١ - اختلاف ترتيب السور في مصاحف الصحابة قبل أن يجمع القرآن، فلو كان توقيفياً لاتفقت مصاحفهم كما اتفقت في ترتيب الآيات، فقد كان مصحف عليٍّ مُرتباً على النزول، وأول مصحف ابن مسعود البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ومصحف أبي الفاتحة، ثم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران.

٢ - ما رواه مسلم في «صحيحه» عن حذيفة رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ صَلَّى بالبقرة، ثم النساء ثم بآل عمران في ركعة^(٣). قال عياض: هو دليل لكون ترتيب السور وقعَ باجتهاد الصحابة حين كتبوا المصحف^(٤).

القول الثالث: أنَّ ترتيب بعض السور كان توقيفياً وبعضها كان باجتهاد الصحابة.

(١) الإتيان: السيوطي، ج١، ص ٦٣. والمقصود بـ(طس) سورة النمل.

(٢) الإتيان: السيوطي، ج١، ص ٦٢.

(٣) صحيح مسلم: ج١، ص ٥٣٦-٥٣٧.

(٤) إجمال البيان: عبد الله بن أحمد، ص ١٢٨.

قال الزركشي: مَالَ ابْنُ عطية إلى أَنَّ كثيراً من السور كان قد عُلِمَ ترتيبُها في حياته ﷺ، كالسبع الطوال والحواميم والمفصل وأنَّ ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فَوَّضَ الأمر فيه إلى الأمة بعده، وقال أبو جعفر بن الزبير: الآثار تشهد بأكثر مما نصَّ عليه ابن عطية، ويبقى منها قليل يُمكن أن يجري فيه الخلاف^(١).

مناقشة الأدلة:

١ - استدل القائلون بالتوقيف في ترتيب السور بإجماع الصحابة على ترتيب عثمان رضي الله عنه، وهذا لا يدلّ على ما ذهبوا إليه؛ لأنَّ إجماعهم على ترتيب عثمان لا يشترط له أن يستند إلى التوقيف عن الرسول ﷺ، فقد وافقوا عثمان على هذا الترتيب توحيداً لكلمة الأمة، وقطعاً لأسباب الاختلاف، كما وافقوا على الاقتصار على حرف واحد.

أما استدلالهم بحديث حذيفة فإنَّ ذكر العدد لا يلزم منه ترتيب السور، بل قال ابن حجر نفسه الذي استدل بهذا الحديث: «ويحتمل أنَّ الذي كان مرتباً حينئذ حزب المفصل خاصة بخلاف ما عده»^(٢).

وأما استدلال السيوطي فإنَّ ما أورده لا يلزم منه أنَّ ترتيب السور توقيفي، فعدم ترتيب المُسَبَّحات ولاء قد يكون لمراعاة مناسبات أخرى أهم من مناسبة فواتح السور، ولهذا مال السيوطي نفسه إلى رأي آخر.

٢ - وأما القائلون بأن الترتيب كان كله بطريق الاجتهاد، فإنَّ من أدلتهم اختلاف ترتيب السور في مصاحف الصحابة، ولا يصلح هذا دليلاً على ما

(١) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٢٥٧-٢٥٨، وانظر الإتيان: السيوطي، ج١، ص ٦٢.

(٢) الإتيان: السيوطي، ج١، ص ٦٣.

ذهبوا إليه، فقد يكون ترتيب الصحابة قبل أن يعلموا بالتوقيف، فلما بلغهم ذلك رجعوا عن ترتيب مصاحفهم.

وأما استدلالهم بأن الرسول ﷺ قد صَلَّى بالبقرة والنساء وآل عمران في ركعة فلا يدل على ما ذهبوا إليه كما قال السيوطي، وَعَلَّلَ ذلك بقوله: «لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب، ولعله فعل ذلك لبيان الجواز»^(١).

٣ - وأما الرأي الثالث فإنه يستند إلى أدلة الرأي الأول، وهو أن ترتيب السور توقيفي، أما القسم الاجتهادي فإن أدلته ضعيفة لا تستند إلى دليل قوي. **الرأي الرابع:**

إن استعراض الأدلة يوقفنا على ثبوت التوقيف في ترتيب أكثر سور القرآن الكريم، وما لم يَرِدْ دليل على ترتيبه لا يعني أنه رُتِبَ بطريق الاجتهاد، فقد يكون ترتيبه بدليل لم يصل إلينا.

وعلى هذا فإن الرأي الرابع أن ترتيب سور القرآن الكريم كترتيب آياته بالتوقيف عن الرسول ﷺ، عن جبريل عليه السلام، عن ربه سبحانه وتعالى مع ما في أدلة هذا الرأي من الاحتمال كما ذُكِرَ، إلا أنه أقوى الآراء. **الموقف من هذا الترتيب:**

وعلى كل حال، ومهما يكن من أمر، سواء أكان هذا الترتيب الذي نجده في المصاحف بطريق التوقيف أم بطريق الاجتهاد، ثم أجمع الصحابة عليه، ومضت الأمة على قبوله، فيجب التمسك به، والإعراض عن الدعوات الزائفة لإعادة ترتيب المصاحف حسب النزول أو الموضوع أو غير ذلك؛ لأن في ترتيب سوره معاني لا تقل عن معاني الترتيب في آياته، جدًّا

(١) الإتيان: السيوطي، ج١، ص ٦٣.

كثير من العلماء في استنباطها وتحصيلها. فضلاً عن مخالفة الإجماع وما في ذلك من مفسد عظيمة.

أمّا ترتيب السور في التلاوة فليس بواجب وإنما هو مندوب، إلا في تعليم الصبيان، فالأولى أن يبدأ بهم من آخر المصحف إلى أوله، والله أعلم.
حكمة تسوير القرآن:

لتقسيم القرآن الكريم إلى سورٍ حَكَمٌ عديدة منها:

١ - التيسير والتشويق لمدارسة القرآن الكريم وحفظه، إذ لو كان سبيكة واحدة لشقَّ حفظه، وصعبت مدارسته.

٢ - الدلالة على موضوع السورة وأهدافها، إذ إن لكل سورة موضوعاً خاصاً، وأهدافاً معينة، فسورة يوسف تُترجم لقصته، وسورة التوبة تتحدث عن المنافقين وتكشف أسرارهم. . . وهكذا.

٣ - التنبيه إلى أن الطول ليس شرطاً من شروط الإعجاز والتحدّي، فسورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة.

٤ - التدرج في تعليم الأطفال من السور القصار إلى السور الطوال تيسيراً من الله لعباده لحفظ كتابه.

٥ - أن الكتاب إذا انطوت تحته أنواع وأصناف وأبواب وفصول كان أحسن وأفخم من أن يكون باباً واحداً.

٦ - أن القارئ إذا ختم سورة أو جزءاً كان أنشط له وأبعث على التحصيل والاستمرار في التلاوة منه لو استمر على الكتاب بطوله، كالمسافر إذا قطع ميلاً نفس ذلك عنه وتجدد نشاطه، ولذا جُزئ القرآن أجزاءً وأحزاباً وأرباعاً وأخماساً وأعشاراً.

٧ - أَنَّ الحافظ إذا حذق سورة اعتقد أَنَّهُ أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها، فيعظم عنده ما حفظه، ويحرص على معاهدته وتكرار تلاوته، ومنه حديث أنس رضي الله عنه «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا»^(١).

٨ - أَنَّ التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم^(٢).

ثانياً: آيات القرآن الكريم:

تعريف الآية:

الآية في اللغة تطلق على عدة معان منها:

١ - المعجزة، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾^(٣).

٢ - العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٤).

٣ - العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

(١) مسند الإمام أحمد، ج ٣، ص ١٢٠-١٢١، وشرح السنة، البغوي ج ١٣، ص ٣٠٦.
(٢) تفسير الكشاف: الزمخشري، ج ١، ص ٢٤١، وقال الجرجاني في حاشيته على الكشاف: «وكون التفصيل سبب تلاحق الأشكال من حيث إنه يورد في كل منها الأمور المتلائمة، فتتلاحظ حينئذ المعاني، ويتجاوب أطراف النظم وجوانبه» الكشاف ج ١، ص ٢٤١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢١١.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٤٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٤٨.

٤ - البرهان والدليل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

٥ - الأمر العجب، تقول العرب: «فلان آية في العلم وفي الجمال».

٦ - الجماعة، تقول العرب: «خرج القوم بأيّتهم» أي، بجماعتهم^(٢).

والآية في الاصطلاح:

طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن.

المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي:

لأن الآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها، وهي علامة على صدق من جاء بها، وفيها عبرة وعظة لمن أراد أن يعتبر، وهي دليل وبرهان على أن هذا القرآن من الله تعالى، وهي من الأمور العجيبة لسموها وبلاغتها وإعجازها، وهي جماعة من الحروف، فمعانيها في اللغة موجودة في معناها الاصطلاحي^(٣).

إطلاق الآية:

تطلق الآية ويراد بها:

١ - الآية، ومثاله قول ابن مسعود رضي الله عنه: أعظم آية في القرآن:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(٤).

(١) سورة الروم: الآية ٢٢.

(٢) البرهان: للزركشي، ج١، ص ٢٦٦.

(٣) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، ج١، ص ٣٣١-٣٣٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

٢ - وقد يطلق لفظ الآية على ما هو أكثر منها، كقول ابن مسعود رضي الله عنه أخوف آية في القرآن: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(١) ^(٢) فإنهما آيتان باتفاق^(٣).

عدد آيات القرآن الكريم:

أجمع العلماء على أن عدد آيات القرآن لا يقل عن ستة آلاف آية ومئتي آية ثم اختلفوا في الزيادة^(٤):

- فمنهم من لم يزد على ذلك.
- ومنهم من قال: ومئتا آية وأربع آيات. (٦٢٠٤) آية.
- ومنهم من قال: وأربع عشرة آية. (٦٢١٤) آية.
- ومنهم من قال: وسبع عشرة آية. (٦٢١٧) آية.
- ومنهم من قال: وتسع عشرة آية. (٦٢١٩) آية.
- ومنهم من قال: وخمس وعشرون آية. (٦٢٢٥) آية.
- ومنهم من قال: وست وثلاثون آية. (٦٢٣٦) آية.
- وغير ذلك.

سبب الاختلاف وأثره:

سببه أن النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف؛ ليعلم أصحابه أنها رأس آية، حتى إذا علموا ذلك صار يصل الآية بما بعدها لتمام المعنى، فيحسب من لم يسمعه أولاً أنها ليست فاصلة فيعُدّ الآيتين آية واحدة، ولذا يختلف العدد.

(١) سورة الزلزلة: الآيتان ٧-٨.

(٢) الدر المنثور: السيوطي، ج١، ص ٣٢٣.

(٣) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، ج١، ص ٣٣٥-٣٣٦.

(٤) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ٦١.

وليس لهذا أثر يُذكر ما دام القرآن الكريم سالماً من الزيادة أو النقصان. فالقطعة من القماش إذا قاسها إنسان بذراعه الطويلة، ثم قاسها إنسان آخر بذراعه القصيرة، فسيكون هناك اختلاف في العدد سببه اختلاف المقياس مع سلامة القطعة من الزيادة أو النقصان في الحالين.

ترتيب الآيات في القرآن الكريم:

قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: «الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك. أمّا الإجماع فنقله غير واحد منهم الزركشي في «البرهان»، وأبو جعفر بن الزبير في «مناسباته» وعبارته: «ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين»^(١)، ثم ذكر عدداً من النصوص والآثار الشاهدة على ذلك.

فقد كان جبريل عليه السلام ينزل بالآيات على الرسول ﷺ ويُخبره بموضعها من السورة، ثم يقرؤها الرسول عليه الصلاة والسلام على أصحابه، ويأمر كتاب الوحي بكتابتها بعد أن يبين لهم موضعها من السورة.

وكان عليه الصلاة والسلام يتلو آيات القرآن الكريم مرتبة في الصلوات المفروضة والنافلة، وفي مواعظه فيسمعها أصحابه ويحفظونها كما سمعوها، وكانوا يَعْرِضُونَ على الرسول ﷺ ما كتبوه على الترتيب المعروف، وشاع ذلك وملاً البقاع، والأمة يتدارسون فيه فيما بينهم ويقرؤونه في صلواتهم، ويأخذ بعضهم عن بعض بالترتيب القائم، فليس لأحد من الصحابة يدٌ في ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم^(٢).

(١) الإتيان: السيوطي، ج١، ص ٦٠.

(٢) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، ج١، ص ٣٣٩-٣٤٠.

وقد نقل السيوطي عدداً من نصوص العلماء في ذلك منها قول مكّي وغيره ترتيب الآيات في السور بأمر من النبي ﷺ، وقال القاضي أبو بكر في «الانتصار»: «ترتيب الآيات أمر واجب، وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: «ضعوا آية كذا في موضع كذا» وقال ابن الحصار: «ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنّما كان بالوحي، كان رسول الله ﷺ يقول: «ضعوا آية كذا في موضع كذا» وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف»^(١).

طريق معرفة بداية الآية ونهايتها:

للعلماء في طريق معرفة بداية الآية ونهايتها قولان:

القول الأول: أنه لا سبيل إلى معرفة بدايات الآيات ونهاياتها إلا بتوقيف من الشارع؛ لأنه ليس للقياس والرأي مجال فيه، وإنّما هو محض تعليم وإرشاد من الرسول ﷺ، واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

١ - النصوص الواردة عن الرسول ﷺ بتحديد عدد الآيات في بعض السور أو تحديد مواضعها، كقوله عليه الصلاة والسلام عن الفاتحة: «هي السبع المثاني»^(٢)، وقوله ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»^(٣)، وقوله ﷺ: «تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء»^(٤).

وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة، مما يدل على أنه لولا أنّ الرسول ﷺ هو الذي بيّن الآيات من حيث بداياتها ونهاياتها لما عرفنا بداية الآيتين في آخر سورة البقرة مثلاً، ولا آية الصيف ولا الآيات السبع في الفاتحة.

(١) الإتيان: السيوطي، ج١، ص ٦١-٦٢.

(٢) رواه البخاري، ج٦، ص ١٠٣.

(٣) رواه البخاري، ج٦، ص ١٠٤، ومسلم، ج١، ص ٥٥٥.

(٤) مسند الإمام أحمد، ج١، ص ٢٦.

٢ - أن العلماء^(١) عدوا (الْمَ) آية ولم يعدوا نظيرها (الر) آية، وعدوا (الْمَصَّ) آية ولم يعدوا نظيرها وهو (الْمَر) آية، وعدوا (يسَ) آية ولم يعدوا نظيرها (طسَ) آية، وعدوا (حَمَّ عَسَقَ) آيتين، ولم يعدوا نظيرها (كَهَيْعَصَ) آيتين، بل آية واحدة، فلو كان الأمر مبنياً على القياس لم يفرقوا بين المثلين.

القول الثاني: وقيل: إنَّ معرفة بداية الآيات ونهاياتها منه ما هو سداعي، ومنه ما هو قياسي، ومرجع ذلك إلى الفاصلة للآية.

فما ثبت أنَّ الرسول ﷺ وقف عليه دائماً تحققنا أنه رأس آية، وم وصله دائماً علمنا أنه ليس بآية، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الأمرين، وهذا مجال للقياس ولا محذور فيه؛ لأنه لا يُؤدِّي إلى زيادة ولا نقصان في آيات القرآن، وإنَّما غايته تعيين محلَّ الفصل أو الوصل^(٢).

والرأي الراجح:

أنَّ معرفة بداية الآيات ونهاياتها توقفي لا مجال للقياس فيه، قال الزركشي: «قال بعضهم: الصحيح أنَّها إنما تُعلمُ بتوقيف من الشارع لا مجال للقياس فيه كمعرفة السورة»^(٣) وقال الزمخشري: «علم الآيات توقفي لا مجال للقياس فيه»^(٤).

(١) وهم الكوفيون فقد عدَّوا كلَّ الفواتح بالأحرف المقطعة في أوائل السور آيات إلا (ح) عسق فقد عدَّوها آيتين، و(طس) و(الر) و(المر) وما كان مفرداً وهي (ق) و(ن) و(ص) فلم يعدوا شيئاً من ذلك آية.

(٢) انظر البرهان: للزركشي، ج١، ص ٢٦٧-٢٦٨، وانظر مناهل العرفان: للزرقاني، ج١، ص ٣٣٣-٣٣٥.

(٣) البرهان: للزركشي، ج١، ص ٢٦٧.

(٤) الكشف: الزمخشري، ج١، ص ١٨.

فوائد معرفة الآيات :

ذكر العلماء لتقسيم السورة إلى آيات حِكْماً كثيرة منها :

١ - العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للنبي ﷺ وفي حُكمها الآية الطويلة ، وبيان ذلك أَنَّ الله سبحانه وتعالى تحدَّى الناس أن يأتوا بسورة من مثل القرآن ، وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر ، وهي ثلاث آيات قصار ، فدلَّ على أَنَّ كل ثلاث آيات قصار معجزة .

٢ - يرى بعض العلماء أَنَّ الوقف على رأس الآية سُنَّة ، وتحديد رأس الآية مُعِين على اتباع السُنَّة .

٣ - هناك بعض الأحكام الفقهية المترتبة على معرفة الآي ، ذكرها السيوطي ^(١) - رحمه الله تعالى - ومنها :

أ - اعتبارها فيمن جهل الفاتحة فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات عند الشافعي .

ب - اعتبارها في خطبة الجمعة ، فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة من القرآن ، ولا يكفي شطرها إلا أن تكون طويلة .

ج - اعتبارها في طول الصلاة فقد ورد أنه ﷺ كان يقرأ في الصبح بالسنتين إلى المئة آية ، وكذا اتخاذها مقياساً زمنياً للفارق بين الأذان والإقامة .

د - اعتبارها في قراءة قيام الليل وعدد الآيات للقيام .

فوائد :

اعلم أَنَّ العلماء رحمهم الله تعالى قد اختلفوا في عدد آيات القرآن الكريم ، وعدد كلماته وعدد حروفه ، وسبب ذلك أَنَّ النبي ﷺ كان يقف

(١) الإتقان : السيوطي ، ج١ ، ص ٦٩ ، وانظر مناهل العرفان : الزرقاني ، ج١ ، ص ٣٣٧ -

على رؤوس الآي للتوقيف، فإذا عَلِمَ محلُّها وَصَلَ للتمام فيحسب السامع أنَّها ليست فاصلة.

وسبب الاختلاف في عدد الحروف أنَّ بعضَ العلماء يعدُّ البسملة آية في أوَّل كل سورة، وبعضهم لا يعدُّها، وأحرف المَدِّ ونحوها، منهم من يعدُّها ومنهم من لا يعدُّها.

وسبب الاختلاف في عدد كلمات القرآن أنَّ الكلمة لها حقيقة ومجاز ولفظ ورسم واعتبار كلُّ منها جائز، وكلُّ من العلماء اعتبر أحدَ الجوائز^(١). وأطول سورة في القرآن الكريم هي البقرة، وأقصر سورة هي الكوثر، وهي ثلاث آيات.

وأطول آية: آية الدِّين، وهي الآية ٢٨٢ من سورة البقرة، وأقصر آية ﴿وَالضُّحَى﴾ و﴿وَالْفَجْرِ﴾.

وأطول كلمة فيه لفظاً وكتابة ﴿فَأَسْقَيْنَكُمُوهُ﴾^(٢).

أما أنصاف القرآن فثمانية:

- فنصفه بالحروف (النون) من قوله: ﴿تُكْرَأُ﴾ [٧٤] في سورة الكهف، والكاف من نصفه الثاني، وقيل عين ﴿سَتَطِيعُ﴾^(٣) وقيل: اللام الثانية من ﴿وَلَيَسْتَطَفَّ﴾^(٤).

- ونصفه بالكلمات الدال من قوله: ﴿وَالْجُلُودُ﴾ [٢٠] في سورة الحج، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ﴾ [٢١] من نصفه الثاني.

(١) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٢٥٢.

(٢) سورة الحجر: الآية ٢٢.

(٣) سورة الكهف: الآية ٦٧.

(٤) سورة الكهف: الآية ١٩.

- ونصفه بالآيات ﴿يَأْفِكُونَ﴾ [٤٥] من سورة الشعراء، وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ﴾ [٤٦] من نصفه الثاني.

- ونصفه على عدد السور، فالأول (الحديد) والثاني من (المجادلة)^(١).

أكثر ما اجتمع في القرآن من الحروف المتحركة متوالية ثمانية أحرف في سورة يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ من الآية الرابعة.

وفي القرآن آيتان تجمع كل واحدة منهما حروف المُعْجَم وهما قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ الآية ٢٩ من سورة الفتح، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا﴾ الآية ١٥٤ من سورة آل عمران.

وفي القرآن سورة في كل آية منها اسم لله تعالى هي سورة المجادلة.

وفي القرآن آية فيها ١٦ ميماً هي ﴿قِيلَ يَنْبُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ...﴾ الآية ٤٨ من سورة هود، وفي آية الدين ٣٣ ميماً.

وليس في القرآن حاء بعدها حاء إلا في موضعين:

- الأول في البقرة (٢٣٥) ﴿عُقْدَةَ الذِّكَاكِ حَتَّى﴾.

- الثاني في الكهف (٦٠) ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى﴾.

وعدد كلمات القرآن الكريم (٧٧٤٣٩) كلمة وقيل: (٧٧٤٣٧) وقيل: (٧٧٢٧٧) وقيل: غير ذلك.

وعدد حروفه ٣٢٣٠١٥ حرفاً وقيل: ٣٢١٠٠٠ وقيل: ٣٤٠٧٤٠ حرفاً.

قال السيوطي: والاشتغال باستيعاب ذلك مما لا طائل تحته^(٢).

قلت: فيه رياضة للنفس وترويح للذهن في أطهر ميدان، والله أعلم.

(١) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٢٥٣.

(٢) الإتقان: السيوطي، ج١، ص ٧٠، وقد نقلت أغلب هذه الفوائد من البرهان:

للزركشي، ج١، ص ٢٤٩-٢٥٦.

المكي والمدني

من المعلوم أن الرسول ﷺ قضى فترة من حياته في مكة قبل البعثة وبعدها، ثم هاجر إلى المدينة النبوية، وأقام فيها إلى وفاته ﷺ.

وقد نزل عليه القرآن الكريم في الأمصار، والقرى، والجبال، والوهاد، والأودية، والسفوح، والدور، والبراري، وفي أوقات مختلفة في الليل، والنهار، والسفر، والحضر، والصيف، والشتاء، والسلم، والحرب.

وقد اعتنى العلماء عناية فائقة في معرفة مكان النزول وزمن النزول لما في معرفة ذلك من فوائد عديدة لفهم النصوص القرآنية، واستيفاء معانيها، واستقصاء مدلولاتها.

وعندما كان القرآن ينزل في مكة أول البعثة كان المسلمون قلة، وكان المشركون كثرة، وللحديث مع الكفار أسلوبه، ولمخاطبة المسلمين طريقته.

فالقرآن في مكة يدافع عن القلة من المسلمين، ويرفق بهم، وينافح عنهم وسط هذه البيئة من الأعداء المشركين، وهم بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم، ويثبت قلوبهم.

والقرآن في مكة يقارع الخصوم، ويحطم معتقداتهم الزائفة بالحجة والدليل، ويدفع الشبهات، ويبطل الخرافات، ويكشف الأباطيل والترهات، وهم أهل لجاج وعناد، وإصرار واستكبار، وظلَّ القرآن ينافحهم حتى أقام الحجة عليهم، وأنشأ جماعة إسلامية كانت نواة الدولة الإسلامية.

وهاجر الرسول ﷺ بهذه الجماعة، والتقى بجماعة أخزى من المسلمين في المدينة، وأخى بين الجماعتين، ومزج بينهما مزجاً كان نتاجه نشأة الدولة الإسلامية الصالحة، والمؤهلة لتلقي ما بقي من قواعد الإسلام، وأحكام التشريع.

ونزل القرآن على المسلمين في المدينة يسط أحكام الدين، ويُرسي قواعده، ويبني المجتمع الإسلامي، ويؤسس صرح الدولة.

وبلا ريب أنَّ معرفة ما نزل بمكة في تلك الظروف وتلك الأهداف والأغراض، ومعرفة ما نزل في المدينة كذلك، يُعطي منهجاً سليماً للدعوة الإسلامية، ودروساً للدعاة في مختلف العصور والأمكنة.

عناية العلماء بالمكي والمدني:

فلا عَجَبَ إذاً أن يعتني العلماء بذلك، وأن يولوه اهتمامهم، فهذا عليُّ ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمتُ فيم أنزلت، وأين أنزلت. إنَّ ربِّي وهبَ لي قلباً عقولاً، ولساناً سؤولاً»^(١).

وهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»^(٢).

وقد اهتم العلماء من بعدهم بمعرفة المكي والمدني، وأفرده جماعة بالتأليف منهم - كما يقول السيوطي - مكي، والعزُّ الديريني^(٣)، وفي العصر

(١) حلية الأولياء: لأبي نعيم، ج١، ص ٦٧-٦٨.

(٢) صحيح البخاري، ج٦، ص ١٠٢، وصحيح مسلم: ج٤، ص ١٩١٣.

(٣) الإنقان: السيوطي، ج١، ص ٨.

الحديث صدرت دراسات كثيرة عن خصائص السور المكية، وخصائص السور المدنية.

كما اعتنى به العلماء في مؤلفاتهم، فلا تكاد تجد كتاباً يتناول علوم القرآن إلا وكان المكي والمدني أحد أبوابه. وفَصَّلَ القولَ فيه السيوطي، وأشبع الكلام على أوجهه، وأفرد بعضها بمباحث خاصة في كتابه «الإتقان»^(١).

أنواع المكي والمدني:

وهي كثيرة منها:

ما نزل في مكة، وما نزل في المدينة، وما اختلف فيه، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلاً، وما نزل نهاراً، وما نزل صيفاً، وما نزل شتاءً، وما نزل في الحضر، وما نزل في السفر، وما نزل مشيعاً، وما نزل مفرداً، والآيات المدنية في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة^(٢).

السور المكية والسور المدنية:

اختلف العلماء في عدد السور المدنية، وقد نقل السيوطي عن ابن الحَصَّار أنَّ المدنيَّ عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكي^(٣).

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج١، ص ١٩٢.

(٣) الإتقان: السيوطي، ج١، ص ١١.

السور المدنية: عشرون هي:

- | | | | |
|-----------------|---------------|----------------|--------------|
| ١ - البقرة. | ٢ - آل عمران. | ٣ - النساء. | ٤ - المائدة. |
| ٥ - الأنفال. | ٦ - التوبة. | ٧ - النور. | ٨ - الأحزاب. |
| ٩ - محمد. | ١٠ - الفتح. | ١١ - الحجرات. | ١٢ - الحديد. |
| ١٣ - المجادلة. | ١٤ - الحشر. | ١٥ - الممتحنة. | ١٦ - الجمعة. |
| ١٧ - المنافقون. | ١٨ - الطلاق. | ١٩ - التحريم. | ٢٠ - النصر. |

واختلفوا في اثنتي عشرة سورة هي:

- | | | | |
|--------------|---------------|-------------|-------------|
| ١ - الفاتحة. | ٢ - الرعد. | ٣ - الرحمن. | ٤ - الصف. |
| ٥ - التغابن. | ٦ - المطففين. | ٧ - القدر. | ٨ - البينة. |
| ٩ - الزلزلة. | ١٠ - الإخلاص. | ١١ - الفلق. | ١٢ - الناس. |

السور المكية:

ما عدا السور المذكورة فهو مكّي وعددها اثنتان وثمانون سورة.

طريق معرفة المكّي والمدني:

يُعرفُ المكّي والمدنيّ بأحدَ طريقين:

الطريق الأول: النقليّ السماعيّ:

وهي الآيات والسور التي عرفنا أنها مكّية أو مدنية بطريق الرواية عن أحد الصحابة الذين عاشوا فترة الوحي وشاهدوا التنزيل، أو عن أحد التابعين الذين سمعوا ذلك من الصحابة.

أما النبي ﷺ فلم يَرِدْ عنه بيان للسور المكّية والسور المدنية؛ لأنّ هذا مما يشاهده ويحضره الصحابة رضي الله عنهم، فكيف يخبرهم عن شيء يعلمونه! فالمكّي والمدني يُعرفُ بغير نصّ من الرسول ﷺ.

قال الباقلاني: «إنما يُرجعُ في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول، لأنه لم يُؤمر به، ولم يجعل الله عِلْمَ ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، فقد يعرف ذلك بغير نص من الرسول»^(١).

ومن أمثلة ما عرف أنه مكي أو مدني عن طريق الصحابة رضي الله عنهم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

فقد أخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت لمّا أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن المعلوم أن عمر قد أسلم في مكة فالآية إذاً مكية، وسورة الحج روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مكية^(٣).

ومنها ما رواه مسلم، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: أَلِمَنْ قَتَلَ مؤمناً متعمداً من توبة؟ قال: لا. قال: فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى آخر الآية^(٤). قال: هذه آية مكية نسختها آية مدنية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾^{(٥)(٦)}.

(١) الإيتقان: السيوطي، ج١، ص٩.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٤.

(٣) الإيتقان: السيوطي، ج١، ص١٣.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٦٨.

(٥) سورة النساء: الآية ٩٣.

(٦) صحيح مسلم، ج٤، ص٢٣١٨.

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها وفيه: «لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب ﴿بِئْسَ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾»^(١) وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»^(٢).

الطريق الثاني: القياسي الاجتهادي:

نظر العلماء رحمهم الله تعالى في الآيات والسور التي عرفوا أنها مكية أو مدنية بالطريق الأول (السماعي النقلي) واستنبطوا خصائص وضوابط للسور المكية، وخصائص وضوابط للسور المدنية، ثم نظروا في السور التي لم يرد نصوص في بيان مكان نزولها، فإن وجدوا فيها خصائص السور المكية قالوا: إنها مكية، وإن وجدوا فيها خصائص السور المدنية قالوا: إنها مدنية، وهذا يكون بالاجتهاد والقياس، فسُمِّيَ هذا الطريق بالقياسي الاجتهادي.

نقل الزركشي عن الجعبري قوله: «لمعرفة المكي والمدني طريقان: سماعي، وقياسي، فالسماعي ما وصل إلينا نزوله بأحدهما، والقياسي قال علقمة: عن عبد الله: كل سورة فيها «يا أيها الناس» فقط، أو «كلا»، أو أولها حرف تَهَجَّ سوى الزهراوين، والرعد في وجه، أو فيها قصة آدم وإبليس سوى الطولى فهي مكية، وكل سورة فيها قصص الأنبياء، والأمم الخالية، مكية، وكل سورة فيها فريضة، أو حد، فهي مدنية»^(٣).

تعريف المكي والمدني:

اختلف العلماء في المراد بالمكي والمدني، ومتى تُسمى السورة أو الآية مكية أو مدنية إلى ثلاثة أقوال:

(١) سورة القمر: الآية ٤٦.

(٢) صحيح البخاري، ج٦، ص ١٠١.

(٣) البرهان: الزركشي، ج١، ص ١٨٩، وانظر الإتقان: السيوطي، ج١، ص ١٧.

ويرجع اختلافهم إلى المعتبر في النزول، فمنهم من اعتبر مكان النزول، ومنهم من اعتبر زمن النزول، ومنهم من اعتبر المخاطبين بالآيات أو السورة، وعلى هذا:

القول الأول: لطائفة اعتبرت مكان النزول فقالت: ما نزل في مكة وما حولها ولو بعد الهجرة، فهو مكّي، وما نزل في المدينة وما حولها، فهو مدني. وهذا القول غير ضابط ولا حاصر إذ إنه لا يشمل ما نزل من الآيات في غير مكة، والمدينة، وما حولهما، فقد نزلت آيات قرآنية في تبوك وفي بيت المقدس، وفي الطائف، فالتعريف غير ضابط.

والقول الثاني: لطائفة اعتبرت المُخاطَب بالآية أو السورة، وهذه الطائفة نظرت إلى أهل مكة وقت التنزيل، فوجدت أنَّ الغالب على أهلها الكفر، والمناسب لمخاطبتهم النداء بـ«يأيها الناس» أو «يا بني آدم» وبما أن الغالب على أهل المدينة هو الإيمان، فإنَّ المناسب نداؤهم بـ«يأيها الذين آمنوا» وعلى هذا فالمكي عندهم ما كان فيه «يأيها الناس» أو «يا بني آدم» والمدني ما كان فيه «يأيها الذين آمنوا».

نقل السيوطي عن أبي عبيد في «الفضائل» عن ميمون بن مهران قال: ما كان في القرآن «يأيها الناس» أو «يا بني آدم» فإنه مكّي وما كان «يأيها الذين آمنوا» فإنه مدني.

وهذا القول أيضاً غير ضابط ولا حاصر من وجهين:

الأول: ضَعَفَ هذا القول ابنُ الحصار فقال: «اتفق الناس على أن «النساء» مدنية وأولها «يأيها الناس» وعلى أن «الحج» مكية وفيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾^(١)، وقال غيره هذا القول إن أخذ على إطلاقه

(١) سورة الحج: الآية ٧٧.

فيه نظر. فَإِنَّ سورة البقرة مدنية وفيها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾^(١).
 ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) وسورة النساء مدنية وأولها ﴿يَتَأْتِيهَا
 النَّاسُ﴾^(٣). وبهذا يكون هذا القول غير ضابط وغير مُطَرَّد.

الثاني: أَنَّ هناك آيات كثيرة وسور عديدة ليس فيها نداء بـ«يأتياها الناس»
 أو «يأتياها الذين آمنوا» وهذا القول لا يشملها فلا يكون ضابطاً ولا حاصراً.

القول الثالث: لطائفة اعتبرت الزمان، ورأت أَنَّ الهجرة هي الحد
 الفاصل بين المكي والمدني، فما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد
 الهجرة فهو مدني وإن نزل في مكة، قالوا: «وما نزل في طريق المدينة قبل
 أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي»^(٤).

وهذا التعريف ضابط وحاصر لا تخرج عنه آية من آيات القرآن الكريم
 وعليه فَإِنَّ قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
 الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٥). مدنية مع أنها نزلت في عرفات بمكة، بل إِنَّ قوله تعالى:
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٦). مدنية مع أنها نزلت في جوف
 الكعبة لأن هاتين الآيتين نزلتا بعد الهجرة عام الفتح.

ضوابط السور المكية:

نظر العلماء في السور المكية فوجدوا أَنَّ لها ضوابط، وأنَّ لها مميزات،
 ونظروا في السور المدنية فوجدوا أيضاً أَنَّ لها ضوابط ومميزات.

(١) سورة البقرة: الآية ٢١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٨.

(٣) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ١٧.

(٤) البرهان: الزركشي، ج١، ص ١٨٨.

(٥) سورة المائدة: الآية ٣.

(٦) سورة النساء: الآية ٥٨.

ونعني بالضوابط خصائص الألفاظ، ونعني بالميزات خصائص الأسلوب والمعاني والأغراض للسور المكية أو المدنية.

فمن ضوابط السور المكية:

١ - كل سورة فيها «كلا» فهي مكية.

وردت في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن قال الشيخ الديريني^(١) رحمه الله تعالى:

وما نزلت كلا يشرب فاعلمن ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى وحكمة ذلك أن «كلا» للردع والزجر، وهذا إنما يكون للمعاند المستكبر، فهو مناسب لمخاطبة المشركين في مكة.

٢ - كل سورة فيها سجدة تلاوة فهي مكية^(٢). وهي أربع عشرة سجدة، هي الأعراف، والرعد، والنحل، والإسراء، ومريم، وفي الحج سجدتان، والفرقان، والنمل، والسجدة، وفصلت، والنجم، والانشقاق، وقرأ باسم ربك، وأما سورة ص فيستحب السجود، وليست من عزائم السجود، وزاد بعضهم آخر الحجر^(٣) وفي الرعد خلاف.

٣ - كل سورة مبدؤه بقسم وهي خمس عشرة سورة، هي الصفات، الذاريات، الطور، النجم، المرسلات، النازعات، البروج، الطارق، الفجر، الشمس، الليل، الضحى، التين، العاديات، العصر.

٤ - كل سورة مفتتحة بأحرف التهجي مثل (الْمَ) (حَمْ) وغيرها سوى البقرة وآل عمران، فإنهما مدينتان بالإجماع، وفي الرعد خلاف.

(١) البرهان: للزركشي، ج١، ص ٣٦٩.

(٢) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ١٧.

(٣) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ١١٠.

- ٥ - كل سورة فيها «يأياها الناس» وليس فيها «يأياها الذين آمنوا» فهي مكية إلا سورة الحج فإنها مكية مع أن في آخرها «يأياها الذين آمنوا».
- ٦ - كل سورة مفتوحة بـ(الحمد) فهي مكية، وهي خمس سور.
- ٧ - كل سورة فيها قصص الأنبياء ما عدا البقرة.

مميزات السور المكية:

من المعلوم أن ما نزل من القرآن في مكة كان يُخاطب مجتمعاً وثنياً فشا فيه الشرك، وانتشرت فيه الأصنام، ولم يتلق الدعوة الإسلامية بالقبول والتسليم، بل أخذ يُناوئها العداء، ويضطهد أتباعها، ويحارب رسولها.

وفي المدينة كان القرآن الكريم غالباً يخاطب أتباعه المؤمنين، يأمرهم فينقادون إليه، وينهاهم فينتهون عما نهى عنه.

وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن البلاغة تقتضي الاختلاف في الأسلوب، والاختلاف في المعاني والموضوعات بين ما نزل في مكة، وما نزل في المدينة، فمن مميزات السور المكية:

١ - تأسيس العقيدة الإسلامية في النفوس بالدعوة إلى عبادة الله وحده، والإيمان برسالة محمد ﷺ، وباليوم الآخر، وإبطال المعتقدات الوثنية الجاهلية، وعبادة غير الله، وإيراد الحجج والبراهين على ذلك.

٢ - تشريع أصول العبادات والمعاملات والآداب والفضائل العامة، ففي مكة فرضت الصلوات الخمس مثلاً، وحُرِّمَ أكل مال اليتيم ظلماً، كما وحُرِّمَ الكِبَرُ والخيلاء ونحوها.

٣ - الاهتمام بتفصيل قصص الأنبياء والأمم السابقة، وبيان ما دعا إليه الأنبياء السابقون من عقائد، ومواقف أممهم منهم، وما نزل بالمكذابين من عذاب دنيوي جزاء تكذيبهم، وإيراد الحوار بين الأنبياء وخصومهم، وإبطال

حججهم بما يُوحى إلى أهل مكة بوجوب أخذ العبرة من هؤلاء، وفي هذا بسطٌ أيضاً للعقيدة الإسلامية الصحيحة.

٤ - قَصْرُ السور والآيات مع قوة جرسِ الألفاظ ووقعها، وإيجازُ العبارة مع بلاغة المعنى ووفائه، وذلك أن القوم في مكة كانوا معاندين مستكبرين لا يريدون سماع القرآن، بل كانوا إذا شرع الرسول ﷺ في القراءة يتنادون ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

ولا يناسب هذا المقام طول الآيات والمقاطع، بل يناسبه إيجازها وقوة معانيها.

ضوابط السور المدنية :

١ - كل سورة فيها «يأيها الذين آمنوا» وليس فيها «يأيها الناس» فهي مدنية، قال السيوطي عن علقمة عن عبد الله - يعني ابن مسعود رضي الله عنه - قال: «ما كان «يأيها الذين آمنوا» أنزل بالمدينة، وما كان «يأيها الناس» فبمكة... ثم قال: قال ابن عطية وابن الفرس وغيرهما: هو في «يأيها الذين آمنوا» صحيح، وأما «يأيها الناس» فقد يأتي في المدني»^(٢).

٢ - كل سورة فيها ذكر للمنافقين، قال مكي بن أبي طالب القيسي: «كل سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية، وزاد غيره: سوى العنكبوت»^(٣).

والصحيح أن أول العنكبوت الذي ورد فيه ذكر المنافقين مدني لما أخرجه ابن جرير في سبب نزولها^(٤).

(١) سورة فصلت: الآية ٢٦.

(٢) الإتيان: السيوطي، ج١، ص١٧.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص١٦.

(٤) جامع البيان: الطبري، ج٢٠، ص٨٦.

٣ - كل سورة ورد فيها حدٌّ أو بيان فريضة، قال عروة بن الزبير: «ما كان من حدٍّ أو فريضة فإنَّه أنزل بالمدينة»^(١). وقال محمد بن السائب الكلبي: «كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهي مدنية»^(٢).

مميزات السور المدنية:

١ - يخاطب القرآن في المدينة - غالباً - مجتمعاً إسلامياً، فكان الغالب تقرير الأحكام التشريعية للعبادات والمعاملات والحدود والفرائض، وأحكام الجهاد وغيرها.

٢ - نشأ في المجتمع المدني طائفة من المنافقين، فتحدث القرآن الكريم عن طبائعهم، وهتك أستارهم، وبيّن خطرهم على الإسلام والمسلمين، وكشف عن وسائلهم ومكائدهم وخباياهم ومخططاتهم للكيد للمسلمين، ولم يكن في مكة نفاق لأن المسلمين كانوا قلة مستضعفين، فكان الكفار يُحاربونهم جهاراً.

٣ - عاش بين المسلمين في المدينة طائفة من أهل الكتاب وهم اليهود، وكانوا يمكرون مكرّاً سيئاً، ويكيدون للإسلام وأهله، فكشف القرآن في المدينة سرائرهم، وأبطل عقائدهم، وكشف تحريفهم لديانتهم، وبيّن بطلان عقائدهم، ودعاهم إلى الإسلام بالحجة والدليل والبرهان.

٤ - الغالب على الآيات والسور المدنية طولُ المقاطع والسور لبسط العقائد الإسلامية، والأحكام التشريعية، فقد كان أهل المدينة مسلمين يُقبلون على سماع القرآن، وينصتون حتى كأنَّ على رؤوسهم الطير، فالمقام

(١) البرهان: الزركشي، ج١، ص ١٨٨-١٨٩.

(٢) المرجع السابق.

ليس مقام مقارعة ولجاجة يُناسبه الإيجاز، بل المقام مقام إقبال وإنصات وإذعان يُناسبه الاسترسال والإطناب.

فوائد معرفة المكي والمدني :

١ - تمييز الناسخ من المنسوخ فإنَّ المتأخر ناسخ للمتقدم.

٢ - الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم، فإنَّ معرفة مكان النزول يُعين على فهم المراد بالآية، ومعرفة مدلولاتها وما يردُّ فيها من إشارات أحياناً.

٣ - معرفة تاريخ التشريع وتدرجه في التكليف، ويترتب على هذا الإيمان بأنَّ هذا التدرج لا يكون إلا من عليم خبير، عزيز حكيم، رحمن رحيم.

٤ - الاستفادة من أسلوب القرآن في الدعوة إلى الله تعالى، فهو أسلوب يشتد ويلين، ويُفَصِّل ويُجَمِّل، وَيَعِدُّ وَيَتَوَعَّدُ، وَيُرَغِّبُ وَيُرْهَبُ، وَيُوجِزُ وَيُطَنِّبُ حسب أحوال المخاطبين، وهذا من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم^(١).

٥ - استخراج سيرة الرسول ﷺ وذلك بمتابعة أحواله في مكة ومواقفه في الدعوة، ثم أحواله في المدينة وسيرته في الدعوة إلى الله فيها، واقتداء الدعاة بهذا المنهج النبوي الحكيم في الدعوة.

وقد عنى بعض المؤرخين بهذا الجانب، فوضعوا المؤلفات في سيرة النبي ﷺ على ضوء القرآن الكريم^(٢).

(١) انظر مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ص ٢٣٣.

(٢) منهم الدكتور عبد الصبور مرزوق في كتابه «السيرة النبوية في القرآن الكريم»، ومنهم د. محمد علي الهاشمي في كتابه: «شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم»، والأستاذ حسن ضياء الدين عتر وكتابه «نبوة محمد ﷺ في القرآن»، والأستاذ حسن =

٦ - بيان عناية المسلمين بالقرآن الكريم واهتمامهم به، حتى إنهم لم يكتفوا بحفظ النص القرآني، بل تتبعوا مكان نزوله، ومعرفة ما نزل قبل الهجرة، وما نزل بعدها، وما نزل بالليل، وما نزل بالنهار، وما نزل في الصيف، وما نزل في الشتاء، ويتبع هذا الاقتداء بهم في دراسة القرآن وعلومه.



= الملطاوي في كتابه: «رسول الله في القرآن الكريم»، والأستاذ محمد إبراهيم شقرة في كتابه «السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة»، والشيخ جلال الحنفي البغدادي في كتابه «شخصية الرسول الأعظم قرآناً» وغيرهم.

أسباب النزول

من المعلوم أنَّ سبب نزول آيات القرآن الكريم كلها هو هداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم، لكن هناك آيات تزيد على هذا السبب العام بسبب خاص مرتبط بها وحدها دون غيرها، وهذا السبب الخاص هو الذي يبحثه العلماء تحت هذا الموضوع. وعلى هذا فإنَّ آيات القرآن الكريم تنقسم من حيث سبب النزول وعدمه إلى قسمين:

- الأول: قسم نزل من الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنَّما هو مرتبط بالسبب العام، وهو هداية الناس، وهذا القسم هو أكثر آيات القرآن الكريم.

- الثاني: قسم نزول مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة، يُسميه العلماء (سبب نزول الآية)، وآيات هذا القسم هي الأقل، ولأهميتها أفردتها العلماء بالدراسة والبيان.

عناية العلماء بأسباب النزول:

اعتنى العلماء - رحمهم الله تعالى - عناية فائقة بدراسة أسباب النزول وأفردوها بمؤلفات مستقلة، وهي مؤلفات كثيرة، وأول من أفرد، بالتأليف علي بن المديني ت (٢٣٤هـ) وممن ألف فيه عبد الرحمن بن محمد المعروف بمطرف الأندلسي ت (٤٠٢هـ) فقد ألف كتابه «القصص والأسباب التي نزل من أجلها القرآن». ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي

ت(٤٦٨هـ) واسم كتابه «أسباب النزول»، وطُبع مراراً^(١)، وقد اختصر الجعبري هذا الكتاب بحذف أسانيده^(٢)، ومنهم ابن الجوزي ت(٥٩٧هـ) واسم كتابه «أسباب نزول القرآن»، ومنهم ابن حجر العسقلاني ت(٨٥٢هـ) واسم كتابه «العُجَابُ في بيان الأسباب»، وقد ذكر السيوطي أنه اطلع على مسودة هذا الكتاب، وأن ابن حجر مات قبل أن يبيضه^(٣).

ومنهم السيوطي ت(٩١١هـ) الذي ألف كتاباً سماه «لباب النقول في أسباب النزول» وطبع في مجلد واحد.

وفي العصر الحديث:

ألف الأستاذ إبراهيم محمد العليّ كتابه «صحيح أسباب النزول» وألف د. أبو عمر نادي بن محمود الأزهرى ثلاثة كتب:

«نهاية السؤل فيما استدرك على الواحدي والسيوطي من أسباب النزول» و«المقبول من أسباب النزول» و«الدخيل من أسباب التنزيل» كما ألف الشيخ مقبل بن هادي الوادعي «الصحيح المسند من أسباب النزول».

تعريف سبب النزول:

هو «ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه» كحادثة تقع حين نزول القرآن الكريم فتنزل آية أو آيات من القرآن تبين الحكمَ فيها، أو كسؤال يُوجّه إلى الرسول ﷺ فتنزل آية أو آيات من القرآن الكريم وفيها الإجابة عليه.

-
- (١) حقق عدة مرات وممن حققه السيد أحمد صقر وأيمن صالح شعبان وكمال بسيوني زغلول وعصام الحميدان في أطروحته للماجستير في جامعة الإمام.
- (٢) وهو مخطوط ويحتاج إلى من يقوم بتحقيقه في أطروحة علمية.
- (٣) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ٢٨، وقد صدر كتاب (العجائب) بتحقيق أ. عبدالحكيم محمد الأنيس في مجلدين وهو إلى الآية ٧٨ من سورة النساء.

ويُفيد قولنا: «وقت وقوعه» أنه لا بدّ أن يكون نزول الآيات وقت وقوع الحادثة أو توجيه السؤال، فإن كانت الحادثة قبل نزول الآيات بزمان طويل خرج ذلك عن هذا الباب، وصار من باب الإخبار عن الوقائع الماضية والأمم السابقة، كآيات التي تتحدث عن خلق آدم عليه السلام، وقصته مع إبليس، وقصة ابني آدم، وقصص الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام، فإن الحديث عن ذلك ليس من هذا الباب.

ولا يلزم أن يكون نزول الآيات بعد الحادثة أو السؤال مباشرة، بل يصح أن يتأخر زمناً يسيراً، فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدًّا ۖ إِنَّمَا أَنِ شَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾^(١). قد نزل بعد خمس عشرة ليلة من الحادثة، وكذا الآيات المتعلقة بحادثة الإفك إنما نزلت بعد نحو شهر منها.

والحادثة: التي ينزل القرآن لأجلها قد تكون من الرسول ﷺ، كما حدث في سبب نزول سورة عبس حين جاء ابن أمّ مكتوم إلى الرسول ﷺ، وهو يُناجي بعض زعماء قريش ويدعوهم إلى الإسلام، فجاءه ابن أمّ مكتوم وقال: يا رسول الله علّمني مما علّمك الله، وجعل يناديه ويكرر النداء، والرسول ﷺ مشغول عنه، ومقبل على هؤلاء النفر، فنزلت سورة عبس. فكان الرسول ﷺ إذا رأى ابن أمّ مكتوم بعد ذلك يقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي»^(٢).

وقد تكون الحادثة من جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، كأولئك الصحابة الذين كانوا يُصافون المنافقين، ويواصلون رجالاً من اليهود لما

(١) سورة الكهف: الآيتان ٢٣-٢٤.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص ٢٩٧.

كان بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١)(٢).

وقد تكون الحادثة من المشركين أو من اليهود أو من المنافقين، والأمثلة على ذلك كثيرة.

كما أن السؤال قد يكون عن ماضٍ، كقوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ (٣)، أو عن حاضر، كقوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ (٤). وقوله سبحانه: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ (٥) أو عن مستقبل، كقوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ (٦)، وقوله: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ (٧).

طريق معرفة سبب النزول:

سبب النزول حادثة من أحداث التاريخ الواقعة في عهد الرسول ﷺ، ولهذا فلا طريق لمعرفته إلا طريق الرواية الصحيحة عن شاهده وحضره، ولا يمكن الاجتهاد في معرفة ذلك، بل لا يجوز، لأنه من القول في القرآن بغير علم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (٨).

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص ٧٩.

(٣) سورة الكهف: الآية ٨٣.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

(٥) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢١٥.

(٧) سورة النازعات: الآية ٤٢.

(٨) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

وقال عليه السلام: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» رواه الترمذي. وقال هذا حديث حسن^(١).

وروى الواحدي عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال: اتق الله، وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن^(٢). وقال الواحدي: «ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسمع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب»^(٣).

وإذا ورد سبب النزول عن صحابي فلا تخلو عبارته: أن تكون جازمة وصريحة في السببية فلها حكم الحديث المرفوع. وإما أن تكون العبارة غير صريحة كأن يقول: «نزلت هذه الآية في كذا» فإنها تحتل أن المراد بها سبب النزول، وتحتل أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب، بل يراد بيان حكم من الأحكام الواردة في الآية.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وقد تنازع العلماء في قول صاحب: «نزلت هذه الآية في كذا» هل يجري مجرى المسند - كما لو ذكر السبب الذي أنزلت لأجله - أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند؟ فالبخاري يدخله في المسند، وغيره لا يدخله في المسند، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره، وبخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند»^(٤).

(١) جامع الترمذي، ج٥، ص ١٩٩.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص ٥.

(٣) أسباب النزول: الواحدي، ص ٤.

(٤) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، تحقيق د. عدنان زرور، ص ٤٨، وانظر الإتيان للسيوطي، ج١، ص ٣١.

وإذا ورد سببُ النزول عن تابعي فيشترط لقبوله أربعة شروط :

١ - أن تكون عبارته صريحة في السببية : بأن يقول : «سبب نزول هذه الآية كذا» أو أن يأتي بفاء تعقيبية داخلية على مادة النزول بعد ذكر حادثة أو سؤال ، كأن يقول : حدث كذا وكذا ، أو سئل رسول الله ﷺ عن كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية أو فنزلت هذه الآية .

٢ - أن يكون الإسناد صحيحاً .

٣ - أن يكون التابعي من أئمة التفسير الذين أخذوه عن الصحابة .

٤ - أن يعتضد برواية تابعي آخر تتوافر فيه نفس الشروط ، وإذا اكتملت هذه الشروط في رواية تابعي قُبِلت وصار لها حُكْمُ الحديث المرسل .

قال السيوطي رحمه الله تعالى عن سبب النزول إذا ورد عن تابعي : إنه «قد يُقبل إذا صَحَّ السند إليه ، وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة ، كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ، أو اعتضد بمرسل آخر ونحو ذلك»^(١) .

وبهذا ندرك الحيلة الشديدة التي اتخذها العلماء رحمهم الله تعالى لصيانة تفسير القرآن من الدخيل والتحريف والتبديل .

فوائد معرفة سبب النزول :

لمعرفة سبب النزول فوائد كثيرة من أهمها :

١ - معرفة حكمة التشريع . وأنه قام على رعاية مصلحة الأمة ، ودفع الضرر عنها ، وجلب الخير لها ، والرحمة بها ، وذلك كحادثة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها حين جاءت إلى الرسول ﷺ تشتكي زوجها ، وهي تقول : يا رسول الله أبلى شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبر سني ،

(١) الإتقان : للسيوطي ، ج١ ، ص ٣١ .

وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. فنزل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾^(١) وهو أوس بن الصامت^(٢). فشرع الله تعالى الكفارة رحمة بها وبأمثالها، وصيانة للأسرة في المجتمع الإسلامي من التفكك، وحماية للأبناء من التشرذم.

٢ - معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد بالآية وتفسيرها التفسير الصحيح، ودفع اللبس والإشكال عن معناها. قال الواحدي عن أسباب النزول: «هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تُصرفُ العناية إليها، لا امتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»^(٣). وقال أبو الفتح القشيري: «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز»^(٤). وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ومعرفة سبب النزول يُعينُ على فهم الآية، فإنَّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، ولهذا كان أصح قولي الفقهاء، أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجهما وأثارها»^(٥).

ومن الأمثلة على ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَؤْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٦).

فظاهر هذه الآية يدل على أن للإنسان أن يصلي إلى أية جهة شاء، ولا يجب عليه استقبال القبلة لا في سفر ولا في حضر، ولا في فرض ولا في

(١) سورة المجادلة: الآية ١.

(٢) لباب النقول في أسباب النزول: السيوطي، ص ٢٠٦.

(٣) أسباب النزول: الواحدي، ص ٤.

(٤) البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٢.

(٥) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص ٤٧.

(٦) سورة البقرة: الآية ١١٥.

نافلة، وهذا مخالف لما هو معلوم من الأدلة الأخرى في الكتاب والسنة
 بوجوب التوجه إلى شطر المسجد الحرام. ويزول الإشكال إذا عرف سبب
 نزول هذه الآية كما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: «بعث رسول
 الله ﷺ سرية كنت فيها، فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا:
 قد عرفنا القبلة، هي ها هنا قِبَل الشمال، فصلُّوا وخطوا خطوطاً، وقال
 بعضنا: القبلة ها هنا قِبَل الجنوب، فصلُّوا وخطوا خطوطاً، فلما أصبحوا
 وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا
 سألنا النبي ﷺ عن ذلك، فسكت، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ
 فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (١)(٢).

وروى مسلم في «صحيحه» عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كان
 رسول الله ﷺ يُصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان
 وجهه قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (٣).

وبهذا ندرك أن هذه الآية خاصة بمن صلى وهو لا يعرف القبلة ثم يتبين
 له خطؤه، فإنه لا يعيد الصلاة، وكذا في صلاة النافلة على الراحلة في السفر
 لا يلزم التوجه إلى القبلة. وبمعرفة سبب النزول زال الإشكال.

٢ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ
 اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (٤).

فظاهر هذه الآية نفي الجناح عمَّن طاف بالصفا والمروة مع أن الطواف
 بهما فرض، والتعبير بنفي الإثم لا يدل على الفرضية، وإذا عرف سبب

(١) سورة البقرة: الآية ١١٥.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص ٢٣.

(٣) صحيح مسلم، ج ١، ص ٤٨٦.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٥٨.

النزول زال الإشكال، فقد كان للمشركين أصنام على الصفا والمروة، وكانوا يطوفون بهما، فلما جاء الإسلام تخرج هؤلاء عن الطواف بهما، فنزلت هذه الآية، وقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه سئل: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم، لأنها كانت من شعار الجاهلية حتى أنزل الله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^(١) (٢).

فدل سبب النزول على أن المراد بالآية نفي ما وقر في أذهان بعض الصحابة من التخرج من السعي بين الصفا والمروة، والاعتقاد بتحريم ذلك لأنه من عمل الجاهلية، فنزلت الآية نافية لهذا الإثم، ورافعة للتخرج.

٣ - ومن فوائد معرفة سبب النزول: تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية، إذا عرف سبب نزولها؛ لأنَّ رَبطَ الأسبابِ بالمسببات، والأحكامِ بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة، كل ذلك من دواعي ثبوت المعلومات في الذهن وسهولة استذكارها عند تذكر بعضها، وذلك ما يُعرف في علم النفس بقانون «تداعي المعاني»^(٣).

٤ - معرفة من نزلت فيه الآية بعينه، حتى لا يُبرأ المتهَم أو يتهم البريء، وحتى لا يزعم أحد أن المراد بالذم في تلك الآية فلان من الصحابة وهو بريء، أو ينسب إلى آخر صفات مدح في آية، والمراد بها غيره، وفي تفاسير الشيعة كثير من هذا النوع، فلا تكاد تجد آية فيها مدح وثناء على أحد

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٨.

(٢) صحيح البخاري، ج ٢، ص ١٧١.

(٣) مناهل العرفان: الزرقاني، ج ١، ص ١٠٦-١٠٧.

أَيَّا كَانَ إِلَّا وَالصَّقْوَاهَا بِأَحَدِ أُنْمَتِهِمْ، وَلَا يَدْعُونَ آيَةً فِيهَا ذِمٌّ إِلَّا وَالصَّقْوَاهَا بِمُخَالَفَتِهِمْ، أَوْ بِأَحَدِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَائِشَةُ وَغَيْرُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(١).

(١) والأمثلة على هذا كثيرة جداً، أقصر على ذكر أمثلة من تفسير واحد من تفاسيرهم وهو المسمى: «تفسير نور الثقلين» تأليف عبد علي الحويزي فمنها تفسير قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ ﴿[النبا: ١-٢]﴾ قالوا: هي في أمير المؤمنين عليه السلام، كان أمير المؤمنين عليه السلام - يقصدون علي بن أبي طالب رضي الله عنه - يقول: «ما لله عز وجل آية هي أكبر مني. ولا لله من نبأ أعظم مني» «نور الثقلين» ج ٥، ص ٤٩١، وفسروا التراب في قول الكافر يوم القيامة: ﴿يَلَيِّنَنِي كُتُّ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠] بقولهم: «أي: من شيعة علي» ج ٥، ص ٤٩٧، وزعموا أن قوله تعالى: ﴿عَسَى وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١] نزلت في عثمان، وأنه عبس في وجه ابن أم مكتوم حين رأى الرسول ﷺ يقدمه عليه ج ٥، ص ٥٠٨.

وفسروا السماء في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾ [الطارق: ١] بأنها أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، والطارق هو الروح الذي مع الأئمة و﴿النَّجْمِ الثَّاقِبِ﴾ [الطارق: ٣] رسول الله ﷺ ج ٥، ص ٥٥٠. أما الشفع والوتر في قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾ [الفجر: ٣] فالشفع: الحسن والحسين، والوتر: أمير المؤمنين عليه السلام ج ٥، ص ٥٧١، وفي قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: ٣] قالوا: أمير المؤمنين عليه السلام، وما ولد من الأئمة ج ٥، ص ٥٧٨، وزعموا أن قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتَ مَا لَا بُدَّ ﴿[البلد: ٥-٦]﴾ زعموا أنها في عثمان رضي الله عنه، والمال البلد يعني الذي جهَّز به النبي ﷺ في جيش العسرة ج ٥، ص ٥٨٠، وفي قوله تعالى: ﴿فَكَ رَقَبَةً﴾ [البلد: ١٣] قالوا: «ولاية أمير المؤمنين» ج ٥، ص ٥٨١. وقالوا: عن أصحاب الميمنة: هم أصحاب أمير المؤمنين يعني علي بن أبي طالب. ج ٥، ص ٥٨٤، وقالوا: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] الشمس: رسول الله، ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ [الشمس: ٢] أمير المؤمنين، ج ٥، ص ٥٨٥، وقوله تعالى: ﴿يَتَابَتَا أَنْفُسُ الْمُطْمِئِنَّةِ﴾ [الفجر: ٧] الآيات معلوم أنها نزلت في عثمان حين اشترى بئر رومة للمسلمين لكنهم يقولون: المراد بها الحسين بن علي عليه السلام، ج ٥، ص ٥٧٧. وكذا قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْنِبُهَا آلُكَ﴾ [الليل: ١٧] التي نزلت في أبي بكر =

وقد روى البخاري - رحمه الله تعالى - أنَّ مروان بن الحكم كان على الحجاز، استعمله معاوية، فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يُباع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إِنَّ هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِي لَكُمْ أَنْتَدَانِي﴾^(١). فقالت عائشة من وراء الحجاب ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري^(٢).

٥ - ومن فوائد معرفة أسباب النزول: معرفة أنَّ سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها.

وبيان ذلك أنَّ اللفظ قد يكون عاماً، ويقوم دليل على تخصيصه، فلا يجوز إخراج السبب من حكم الآية بالاجتهاد والإجماع، لأن دخول السبب قطعي. وإخراجه بدليل التخصيص اجتهادي، والاجتهاد ظني، ولا يجوز إخراج القطعي بالظني.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٣).

= رضي الله عنه، قالوا: إنها نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام ج٥، ص ٥٩٣. وحادثة الإفك المشهورة ونزوله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...﴾ [النور: ١١] الآيات، زعموا أنها نزلت في مارية القبطية، وزادوا افتراء فزعموا أن عائشة هي التي رمت مارية بالزنا ج٣، ص ٥٨١. والأمثلة كما قلت كثيرة جداً ومعرفة أسباب النزول تكشف تحريفهم وإلحادهم في القرآن الكريم.

(١) سورة الأحقاف: الآية ١٧.

(٢) صحيح البخاري، ج٦، ص ٤٢.

(٣) سورة النور: الآية ٢٣.

وسبب نزول هذه الآية حادثة الإفك المشهورة، ولفظ الآية عام بالوعيد يشمل التائب وغير التائب. لكن الآية الأخرى استثنت من تاب فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢).

لفظ الآية هنا عام ثم خصص بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

وبهذا التخصيص نخصص عموم الآية الأولى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الْفَافِكَةِ الآية، لكن التخصيص للآية الأولى لا يشمل سبب نزولها، وهو قذف عائشة رضي الله عنها، فيبقى على عمومها بعدم قبول توبة من قذفها، لأن دخولها في لفظ الآية الأولى العام قطعي، وإخراجه بما ورد في الآية الثانية اجتهادي ظني، والقطعي لا يخرج بالظني.

وبهذا يبقى حكم عدم قبول توبة القاذف خاصاً بقذف عائشة وأمّهات المؤمنين، ويكون قبول التوبة في قذف غيرهن، ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الْفَافِكَةِ ﴿نَزَلَتْ فِي عَائِشَةَ خَاصَةً﴾ (٢).

وفي حديث آخر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في هذه الآية: «هذه في عائشة وأزواج النبي ﷺ، ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي ﷺ التوبة، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾».

(١) سورة النور: الآيتان ٤-٥.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه، ج٤، ص ١٠-١١، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

فجعل لمن قذف امرأة من المؤمنين التوبة، ولم يجعل لمن قذف امرأة من أزواج النبي ﷺ توبة^(١).

والخلاصة أن الثانية خَصَّصَتْ عموم الآية الأولى، إلا سبب النزول فلا تَخَصُّصُهُ؛ لأنَّ دخوله قطعي، وتخصيصها ظني.

٦ - تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أنَّ العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

ومثاله قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازٍ مِنَ الْعَذَابِ لَهْمَ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢).

فقد أشكل عموم هذه الآية على مروان بن الحكم، فقال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أُوتي، وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل مُعَذَّباً، لَنُعَذِّبَنَّ أَجْمَعُونَ. فقال ابن عباس: ومالكم ولهذه إنما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء، فكتموه إيَّاه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾^(٣). كذلك حتى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾^{(٤)(٥)}.

٧ - ومن فوائد معرفة سبب النزول: كشف وجه من وجوه بلاغة القرآن

(١) مجمع الزوائد: الهيثمي، ج٧، ص ٧٩-٨٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨٧.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨٨.

(٥) صحيح البخاري، ج٥، ص ١٧٤، ومسلم، ج٤، ص ٢١٤٣.

الكريم حيث مراعاة الكلام لمقتضى الحال، وذلك بالمطابقة والمقارنة بين الحادثة والنص القرآني الذي نزل فيها.

الاستفادة من معرفة سبب النزول في مجال التربية والتعليم:

نقل المعلومات من ذهن إلى ذهن يحتاج إلى أمرين مهمين:

- أولهما: القدرة من المدرس.

- ثانيهما: الاستعداد من الطالب.

ولا نَجَاح للعملية التعليمية ما لم يكن عند مدرس المادة قدرة على التعبير الصحيح عما يُريد إيصاله إلى أذهان الطلاب.

ولا نَجَاح للعملية ما لم يكن ذهن الطالب مُهيئاً ومُشروعاً أبوابه لدخول المادة العلمية. وفتح ذهن الطالب عملية مشتركة بين الطالب والمدرس.

فالمدرس الناجح هو الذي يستطيع أن يثير مشاعر الطلاب ويجذب انتباههم، ويُهَيِّئُ نفوسهم لتقبُّل المادة العلمية، وليست هذه المهمة بالمهمة السهلة، بل تحتاج إلى جهد كبير، وفطنة لَمَاحَة.

والتمهيدُ للدرس من أهمِّ مراحلِه، وهي مرحلة تحتاج إلى خبرة ودراية:

١ - للربط بين المعلومات.

٢ - لتأسيس قاعدة يقف عليها ذهن الطالب للانطلاق من معلومة إلى معلومة، أو من الكلِّ إلى الجزء، إلى أن يُدرك عناصر الدرس ويستوعبها.

٣ - لإثارة انتباه الطلاب وجذب مشاعرهم.

وعرضُ سبب النزول سبيل ناجح لتحقيق هذه الأمور في تدريس تلاوة القرآن الكريم، وتدريس تفسير القرآن الكريم، إذ إن سبب النزول - كما أشرنا في التعريف - لا يخلو من أن يكون حادثة أو سؤالاً، ومثل هذا كاف

لجذب انتباه الطلاب وربطهم بالمادة العلمية، وتزويدهم بمعلومة عامة ينطلقون منها إلى التفصيل، ومعرفة ما يتعلق بالآية من تفسير لمفرداتها. وبيان لأحكامها، وإدراك لأسرار التشريع فيها، وتوثيق صلتهم بالآية.

وإذا كان عرضُ سبب النزول طريقة ناجحة للتمهيد لدرس التلاوة ودرس التفسير مثلاً فإنه يُمكن الاستفادة من هذا الأسلوب في سائر المواد، بأن يبدأ المدرس بعرض قصة مناسبة تلائم المادة العلمية التي يُريد عرضها، أو يوجه سؤالاً يجذب به انتباه الطلاب، ثم ينطلق إلى درسه بعد أن يطمئن إلى إقبال الطلاب عليه، وتوجه أذهانهم إليه، فيسهل حينئذ تلقيهم للدرس، واستيعابهم له.



التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي

تعريف التفسير:

اختلف علماء اللغة في لفظ التفسير:

١ - ف قيل: هو تفعيل من (الْفَسْر) بمعنى الإبانة وكشف المراد عن اللفظ المُشْكِل^(١). قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(٢) أي: تفصيلاً^(٣).

٢ - وقيل: هو مقلوب من «سَفَر» ومعناه أيضاً الكشف، يقال: سfert المرأة سفوراً إذا ألفت خمارها عن وجهها، وهي سافرة، وأسفر الصبح: أضاء. وإنما بنوا «فسر» على التفعيل فقالوا: «تفسير» للتكثير^(٤).

وقال الراغب الأصفهاني: (الْفَسْر) و(السَّفَر) يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكن جُعِلَ الفَسْر لإظهار المعنى المعقول... وجعل السَّفَر لإبراز الأعيان للأبصار ف قيل: سfert المرأة عن وجهها، وأسفر الصبح^(٥).

(١) تهذيب اللغة: الأزهرى، جـ ١٢، ص ٤٠٧.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٣.

(٣) البرهان: الزركشى، جـ ٢، ص ١٤٨.

(٤) المرجع السابق، جـ ٢، ص ١٤٧.

(٥) مقدمة جامع التفاسير: الراغب الأصفهاني، ص ٤٧، والبرهان: الزركشى، جـ ٢،

ص ١٤٨.

وفي الاصطلاح:

التفسير: علم يُفهم به كتابُ الله تعالى المُنَزَّل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه^(١).

مناهج التفسير:

لم يكن الصحابة - رضي الله عنهم - ولا الناس من بعدهم أيضاً على درجة واحدة في فهم القرآن الكريم، بل كانوا يتفاوتون في ذلك، فقد كان يُشكِّل على بعضهم ما لا يُشكِّل على بعضهم الآخر.

ويرجع ذلك إلى تفاوتهم في معرفة اللغة ومعرفة ما يحيط بنزول الآية من أحداث وملابسات كأسباب النزول، زد على ذلك تفاوتهم في القدرة العقلية شأن البشر كلهم.

ولو تساوت الأذهان في إدراك معاني القرآن لبطل التنافس، وخمدت الهمم، لزوال ما يحملهما على القدح وإعمال الذهن والتفكير والتدبر، لكن الله جلت حكمته جعل ألفاظ القرآن تحتل أحياناً معاني كثيرة، وأمر الناس بالتدبر والتفكر فيها، وحث على ذلك، فتنافس الصحابة وسائر المسلمين من بعدهم في تفسيرها لينالوا الأجر العظيم، والثواب الجزيل.

وسلك العلماء منهجين أساسيين لتحصيل معاني القرآن هما:

١ - التفسير بالمأثور.

٢ - التفسير بالراي.

(١) البرهان: الزركشي، ج١، ص ١٣ وانظر الإقتان: السيوطي، ج٢، ص ١٧٤.

التفسير بالمأثور وأهم المؤلفات فيه

تعريفه :

هو بيان معنى الآية بما ورد في الكتاب أو السنة أو أقوال الصحابة رضي الله عنهم .

فهو التفسير الذي يعتمد على صحيح المنقول، ولا يجتهد في بيان معنى من غير دليل، ويتوقف عما لا طائل تحته، ولا فائدة في معرفته .

مكانته :

هو أفضل أنواع التفسير وأعلاها؛ لأن التفسير بالمأثور إما أن يكون تفسيراً للقرآن بكلام الله تعالى، فهو أعلم بمراده، وإما أن يكون تفسيراً للقرآن بكلام الرسول ﷺ، فهو المبيّن لكلام الله تعالى . وإما أن يكون بأقوال الصحابة، فهم الذين شاهدوا التنزيل، وهم أهل اللسان، وتميزوا عن غيرهم بما شاهدوه من القرائن والأحوال حين النزول .

لكن ينبغي أن يُعلم أنَّ هذا مشروط بصحة السند عن الرسول ﷺ، أو عن الصحابة رضي الله عنهم .

وينبغي أن نتفطن إلى أن التفسير بالمأثور قد دخله الوضع، وسرى فيه الدس والخرافات، ويرجع ذلك إلى أمور منها:

١ - ما دسه أعداء الإسلام، مثل زنادقة اليهود الذين تظاهروا بالإسلام لدس الأخبار المحرفة التي يجدونها في كتبهم .

٢ - ما دسه أصحاب المذاهب الباطلة والنحل الزائفة، كالرافضة الذين افتروا الأحاديث، ونسبوها زوراً وبهتاناً إلى الرسول ﷺ، أو إلى أصحابه رضي الله عنهم.

٣ - نقل كثير من الأقوال المنسوبة إلى الصحابة بغير إسناد، مما أدى إلى اختلاط الصحيح بغير الصحيح، والتباس الحق بالباطل.

لذا فإنه ينبغي التثبت عند الرواية للتفسير بالمأثور، وعلى هذا فإن التفسير بالمأثور نوعان:

أحدهما: ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله.

ثانيهما: ما لم يصح لسبب من الأسباب السابقة، وهذا يجب رده، ولا يجوز قبوله، ولا الاشتغال به، إلا لتمحيصه، أو التنبيه إلى ضلاله، حتى لا يغتر به أحد^(١).

مصادر التفسير بالمأثور:

وتسمى (طرق التفسير بالمأثور) وهي:

١ - القرآن:

تفسير القرآن بالقرآن أفضل طرق التفسير، ومن أمثلته تفسير الكلمات في قوله تعالى: ﴿فَلَقَّحْءَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾^(٢) بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنَّ لَنَا تَغْفِيرًا وَرَحْمَةً لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣).

(١) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، ج ١، ص ٤٩٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٣.

٢ - السنة :

قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١) ، وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : «السنة تفسر القرآن وتبينه»^(٢) .

ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة : تفسير المغضوب عليهم باليهود ، والضالين بالنصارى . وتفسير الخيط الأبيض والخيط الأسود بأنه بياض النهار وسواد الليل .

٣ - أقوال الصحابة :

وإذا لم تجد تفسير القرآن في القرآن ولا في السنة فعليك بتفسير الصحابة رضي الله عنهم ، فإنهم أعلم بذلك لما اختصوا به من مجالسة الرسول ﷺ ومشاهدة القرائن والأحداث والوقائع .

٤ - أقوال التابعين :

وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في الرجوع إلى أقوال التابعين إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة ، فمنهم من عدّ أقوال التابعين مصدراً من مصادر التفسير بالمأثور ، ومنهم من عدّها كسائر أقوال العلماء .

أسباب الاختلاف في التفسير بالمأثور :

وقد وقع الاختلاف بين السلف في التفسير بالمأثور ، لكنه اختلف يسير ، ومع قلته فإن أغلبه يرجع إلى اختلاف التنوع لا إلى اختلاف التضاد ، وهو أيسر أنواع الاختلاف .

(١) سورة النحل : الآية ٤٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : القرطبي ، ج١ ، ص ٣٩ .

ومن أسباب وقوع الاختلاف بين السلف في التفسير :

١ - أن يكون في الآية أكثر من قراءة فيفسر كل منهم الآية على قراءة مخصوصة. ومثاله اختلافهم في معنى «سكرت» من قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ^(١) . فقد قال قتادة : من قرأ ﴿ سَكِرَتْ ﴾ مشددة يعني سُدَّت ومن قرأ ﴿ سَكِرَتْ ﴾ مخففة فإنه يعني سُحِرَتْ ^(٢) .

٢ - ومنها الاختلاف في الإعراب ، فإن للإعراب أثره في تفسير الآية : ومثاله اختلافهم في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْلُم تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ^(٣) . فقد اختلفوا في ﴿ وَالرَّاسِخُونَ ﴾ ف قيل : عطف نسق على لفظ الجلالة ، وقيل : مبتدأ ، والخبر في قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ ﴾ فعلى القول الأول أن الراسخين يعلمون تأويله ، وعلى القول الثاني لا يعلمون . وسبب هذا الاختلاف الاختلاف في الإعراب .

٣ - ومن أسباب الاختلاف احتمال اللفظ أكثر من معنى كالاشتراك اللغوي ، فإن بعض الكلمات لها أكثر من معنى في اللغة ، كلفظ «قسورة» الذي يُطلق على الرامي وعلى الأسد ، ولفظ «النكاح» الذي يُطلق على العقد وعلى الوطاء ، ولفظ «القرء» الذي يُطلق على الحيض وعلى الطهر ، وهناك أسباب أخرى غير ذلك ^(٤) .

(١) سورة الحجر : الآيتان ١٤-١٥ .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ، جـ ١٤ ، ص ١٠ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٧ .

(٤) انظر ما ذكرته من أسباب أخرى في كتابي «بحوث في أصول التفسير ومناهجه» وقد أفرد هذه الأسباب بالتأليف الدكتور سعود بن عبد الله الفنينان بكتابه «اختلاف المفسرين أسبابه وآثاره» والدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع في كتابه «أسباب اختلاف المفسرين» .

حكم التفسير بالمأثور:

قلنا: إن التفسير بالمأثور ينقسم إلى قسمين:

١ - ما توافرت الأدلة على صحته . فهذا يجب قبوله ، ولا يجوز العدول عنه .

٢ - ما لم يصح فيجب رده ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به إلا للتحذير منه .

أهم المؤلفات فيه:

والمؤلفات في التفسير بالمأثور كثيرة ومن أهمها:

أولاً: جامع البيان عن تأويل آي القرآن:

مؤلفه:

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ولد في (أمل) في طبرستان سنة ٢٢٤ وتوفي في بغداد سنة ٣١٠^(١).

كان عالماً بالقراءات، وإماماً في التفسير، بارعاً في الحديث، وشيخاً للمؤرخين، انفرد في الفقه بمذهب مستقل وأقاويل واختيارات، وله أتباع ومقلدون^(٢). وقال ابن خزيمة: «ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد ابن جرير»^(٣)، وله مؤلفات كثيرة منها: كتاب في القراءات و«تاريخ الرجال» في الصحابة والتابعين و«لطف القول» جمع فيه مذهبه الذي اختاره، و«تهذيب الآثار» ومن أهم كتبه «تاريخ الأمم والملوك وأخبارهم».

(١) طبقات المفسرين: الداودي، ج-٢، ص ١١٤.

(٢) طبقات المفسرين: السيوطي، ص ٩٦.

(٣) طبقات المفسرين: الداودي، ج-٢، ص ١١١.

تفسيره :

أما تفسيره «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» فلم يُؤلف قبله ولا بعده مثله في موضوعه، ولا يزال المفسرون عالة على تفسيره في التفسير بالمأثور، ويتميز تفسيره بمزايا منها :

١ - اعتماده على التفسير بالمأثور عن الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين .

٢ - التزامه بالإسناد في الرواية .

٣ - عنايته بتوجيه الأقوال والترجيح .

٤ - ذكره لوجوه الإعراب .

٥ - دقته في استنباط الأحكام الشرعية من الآيات .

وكان هذا التفسير مفقوداً إلى وقت قريب، حيث عُثر على نسخة مخطوطة منه عند أحد أمراء حائل، وهو حمود بن عبيد الرشيد^(١). وقد تم طبعه على هذه النسخة في ثلاثين جزءاً سنة ١٣١٩ .

ثم قام الشيخان الفاضلان محمود وأحمد شاکر بتحقيق الكتاب والتعليق عليه ومراجعته وتخريج أحاديثه، وصدر منه ستة عشر جزءاً إلى نهاية تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم، ثم قام د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بتحقيقه وصدر في ستة وعشرين جزءاً عام ١٤٢٢هـ، ولا يزال بحاجة إلى مزيد عناية وتصحيح .

قال الخطيب: «وكتاب التفسير لم يصنف أحد مثله»^(٢) وقال الذهبي:

-
- (١) مذاهب التفسير الإسلامي: جولد تسهر. ترجمة د. عبد الحليم النجار، ص ١٠٩ والتفسير والمفسرون: الذهبي، ج ١، ص ٢٠٧. واسمه عندهما (بن عبد الرشيد) والصحيح ما أثبتته. وفي مكتبتي نسخة من هذه الطبعة النادرة.
- (٢) تاريخ بغداد، ج ٢، ص ١٦٣ .

«وله كتاب في التفسير لم يصنف مثله»^(١) وقال النووي: «أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري»^(٢).

وقال أبو حامد الإسفراييني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً»^(٣).

وقال ابن تيمية: «وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة. وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير والكلبي»^(٤).

ثانياً: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير:

مؤلفه:

هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمرو بن كثير الدمشقي، ولد في بصرى في الشام سنة ٧٠٠، طلب العلم في صغره ورحل في طلبه، وكانت له صلة وثيقة مميزة بابن تيمية ومناضلة عنه^(٥) (ت ٧٧٤هـ) رحمه الله تعالى.

(١) سير أعلام النبلاء، ج ١٤، ص ٢٧٠.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات، ج ١، ص ٧٨.

(٣) طبقات المفسرين: الداودي، ج ٢، ص ١٠٩.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ١٣، ص ٣٨٥. أما مقاتل بن بكير فلم أجده في كتب الرجال ولعله (مقاتل بن سليمان بن بشير) وتصحف إلى بكير، ويؤيد هذا أن تفسيره وتفسير الكلبي متشابهان حتى قيل: «إنَّ مقاتلاً أخذ التفسير عن الكلبي» التهذيب ج ١٠، ص ٢٨٠ وقال إبراهيم: «تفسير الكلبي مثل تفسير مقاتل سواء» التهذيب ج ١٠، ص ٢٨١. وابن جرير لم يرو عن مقاتل هذا، أما الكلبي وهو محمد بن السائب فقد روى عنه نادراً مع وصفه له بأنه ممن لا يحتاج بنقله. ج ١، ص ٦٦ والله أعلم.

(٥) طبقات المفسرين: الداودي، ج ١، ص ١١١.

ومن مؤلفاته: «البداية والنهاية»، و«الاجتهاد في طلب الجهاد»، و«جامع المسانيد العشرة»، و«الكواكب الدراري» وغير ذلك.

تفسيره:

يُعَدُّ تفسير ابن كثير من أشهر ما دوّن في التفسير بالمأثور، ويُعتبر في المرتبة الثانية بعد تفسير ابن جرير الطبري.

قال السيوطي في ترجمة ابن كثير: «له التفسير الذي لم يؤلف على نمط مثله»^(١).

وقال الشوكاني: «هو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها»^(٢).

وطريقته في التفسير أن يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة، موجزة ويجمع الآيات المناسبة لها، ويقارن بينها، وتفسيره أكثر كتب التفسير المعروفة سرداً للآيات المتناسبة في المعنى الواحد^(٣).

ثم يورد الأحاديث المرفوعة التي لها صلة بالآية، ثم يُردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين وعلماء السلف.

وينبه إلى ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات إجمالاً أحياناً وبالتفصيل حيناً آخر^(٤).

وبالجملة يُعَدُّ تفسيره - رحمه الله تعالى - من أفضل المؤلفات في التفسير، وقد طبع مرات كثيرة مع تفاسير أخرى، ومستقلاً في أربعة مجلدات كبار، واختصره عدد كبير من العلماء، منهم الأستاذ أحمد شاكر، ومحمد نسيب الرفاعي وغيرهما.

(١) مقدمة تحقيق تفسير ابن كثير، ج١، ص ١٩ تحقيق سامي السلامة.

(٢) المرجع السابق.

(٣) التفسير والمفسرون: الذهبي، ج١، ص ٢٤٤.

(٤) التفسير والمفسرون: الذهبي، ج١، ص ٢٤٥.

ثالثاً: الدر المنثور: السيوطي:

مؤلفه:

هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ولد سنة ٨٤٩، وتوفي سنة ٩١١، وبعد أن تلقى العلوم وحَصَلَ منها حظاً وافراً انصرف إلى التأليف في وقت مبكر من حياته، ثم تجرد للتأليف في أواخر عمره، فاعتزل الناس، وترك وظائفه من تدريس وإفتاء.

تفسيره:

ألف السيوطي - رحمه الله تعالى - كتابه «ترجمان القرآن» ثم أراد أن يختصره، وعَلَّل هذا بقوله: رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله، ورغبتهم في الاختصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فلخصت منه هذا المختصر، مقتصراً فيه على متن الأثر مُصدِّراً بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر، وسميته بالدر المنثور في التفسير بالمأثور^(١).

وطبع هذا التفسير في ستة مجلدات وقام د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بتحقيقه وصدر عام ١٤٢٤هـ، في سبعة عشر جزءاً. ولا يزال بحاجة إلى مزيد عناية وتصحيح.

رابعاً: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي:

المؤلف:

محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي^(٢). ولد رحمه الله تعالى في شنقيط، وهي دولة موريتانيا الإسلامية الآن، سنة ١٣٢٥.

(١) الدر المنثور: السيوطي، ج١، ص ٢.

(٢) ترجم له تلميذه الشيخ عطية سالم في آخر تفسير الشيخ الشنقيطي.

تلقى العلوم الشرعية واللغة العربية، وحين أدى الحج اتصل بعلماء المملكة، فأعجب بهم، وعزم على البقاء في هذه البلاد، فأذن له الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى بالتدريس في المسجد النبوي، وحين افتتحت الجامعة الإسلامية بالمدينة عُيِّن مُدَرِّساً فيها، وعُيِّن عضواً في هيئة كبار العلماء، وعضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وتوفي رحمه الله تعالى سنة ١٣٩٣ بمكة. وله مؤلفات كثيرة منها «منع جواز المجاز في المُنَزَّل للتعب والإعجاز» و«دفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب» وغير ذلك.

التفسير:

وصل المؤلف رحمه الله تعالى في تفسيره هذا إلى آخر سورة المجادلة، ثم أكمل التفسير من بعده تلميذه عطية محمد سالم وصدر التفسير في عشرة مجلدات.

تميز هذا التفسير بميزتين:

إحدهما: تفسير القرآن بالقرآن، وقد التزم أن لا يُبين القرآن إلا بقراءة سَبْعِيَّة ولم يعتمد البيان بالقراءات الشاذة.

والثانية: بيان الأحكام الفقهية ودقة الاستنباط، وحسنُ التفصيل وقوة الاستدلال.

كما تضمن هذا التفسير تحقيق بعض المسائل اللغوية وما يُحتاج إليه من صرف وإعراب، وتحقيق بعض المسائل الأصولية، والكلام على أسانيد الأحاديث.

يَعُدُّ هذا التفسير بحق من خير المؤلفات في التفسير قديماً وحديثاً، ومن أتبعها للسُنَّة وأبعدها عن البدعة، والقارئ فيه يجد رائحة علماء السلف ونقاء سريرتهم، وصفاء عقيدتهم، ودقة استنباطهم، وسعة علمهم. رحم الله مؤلفه رحمة واسعة.

التفسير بالرأي وأهم المؤلفات فيه

تعريفه: هو تفسير القرآن بالاجتهاد.

أقسامه: ينقسم التفسير بالرأي إلى قسمين:

الأول: التفسير بالرأي المحمود:

وهو التفسير المُستمدُّ من القرآن ومن سنة الرسول ﷺ وكان صاحبه عالماً باللغة العربية، وأساليبها، وقواعد الشريعة وأصولها.
حكمه:

أجاز العلماء رحمهم الله تعالى هذا النوع من التفسير، ولهم أدلة كثيرة على ذلك منها:

١ - قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١) وغيرها من الآيات التي تدعو إلى التدبر في القرآن.

٢ - دعاء الرسول ﷺ لابن عباس بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» ولو كان التفسير مقصوراً على النقل، ولا يجوز الاجتهاد فيه، لما كان لابن عباس مزية على غيره.

٣ - أن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في التفسير على وجوه، فدلَّ على أنه من اجتهادهم.

وبهذا يظهر أن التفسير بالرأي المحمود جائز. والله أعلم.

(١) سورة محمد: الآية ٢٤.

الثاني: التفسير بالرأي المذموم:

هو التفسير بمجرد الرأي والهوى.

وأكثر الذين فسروا القرآن بمجرد الرأي هم أهل الأهواء والبدع، الذين اعتقدوا معتقدات باطلة ليس لها سند ولا دليل، ففسروا آيات القرآن بما يوافق آراءهم ومعتقداتهم الزائفة، وحملوها على ذلك بمجرد الرأي والهوى.

حكمه:

وهذا النوع من التفسير حرام لا يجوز، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام»^(١). والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١ - قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(٣).

٢ - حديث: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»^(٤).

وحديث: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»^(٥).

(١) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص ١٠٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٩.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٤) مسند الإمام أحمد، ج ١، ص ٢٣٣ سنن الترمذي، ج ٥، ص ١٩٩ وقال: «حديث حسن صحيح».

(٥) سنن الترمذي، ج ٥، ص ٢٠٠، وأبو داود، ج ٣، ص ٣٢٠.

أهم المؤلفات في التفسير بالرأي :

والمؤلفات في التفسير بالرأي كثيرة منها :

أولاً: الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:
للزمخشري .

المؤلف :

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري^(١) المعتزلي، الملقب بجار الله، ولد سنة ٤٦٧ في زمخشر من قرى خوارزم، بعد أن تلقى العلم رحل إلى مكة، وألّف فيها تفسيره «الكشاف» ثم عاد إلى خوارزم، وتوفي فيها سنة ٥٣٨، وهو إمام من أئمة اللغة، لا يأنف من انتمائه إلى الاعتزال بل يجاهر به، ويدعو إليه، ومن مؤلفاته: «أساس البلاغة» و«الفائق في غريب الحديث» و«المفصل» في النحو. . وغيرها.

تفسيره :

اعتنى الزمخشري في تفسيره هذا ببيان وجوه الإعجاز القرآني وإظهار جمال النظم وبلاغته، وخلا هذا التفسير من الحشو والتطويل، وإيراد الإسرائيليات إلا القليل .

والزمخشري قليل الاستشهاد بالحديث، ويورد أحياناً الأحاديث الموضوعة، خاصة في فضائل السور .

وملأ تفسيره بعقائد المعتزلة والاستدلال لها، وتأويل الآيات وفقّها، ويدس ذلك دساً لا يدركه إلا حاذق، حتى قال البلقيني: «استخرجت من الكشف اعتزالاً بالمناقش»^(٢).

(١) انظر ترجمته في طبقات المفسرين: الداودي، ج-٣، ص ٣١٤-٣١٦، وطبقات المفسرين: للسيوطي، ص ١٢٠-١٢١ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن: السيوطي، ج-٢، ص ١٩٠ .

وهو شديد على أهل السنة والجماعة، ويذكرهم بعبارات الاحتقار، ويرميهم بالأوصاف المقذعة، ويمزج حديثه عنهم بالسخرية والاستهزاء^(١).

ولهذه الأمور وغيرها نبّه كثير من العلماء إلى أخذ الحيطة والحذر عند المطالعة في تفسيره أو النقل منه، فقال الإمام الذهبي: «محمود بن عمر الزمخشري المفسر النحوي صالح، لكنه داعية إلى الاعتزال أجارنا الله. فكن حذراً من كشفه»^(٢).

وقال عليّ القاري: «وله دسائس خفيت على أكثر الناس، فلهذا حرّم بعض فقهاءنا مطالعة تفسيره لما فيه من سوء تعبيره في تأويله وتعبيره»^(٣).

وينبغي لمن أراد أن يقرأ فيه أن يرجع لكتاب «الإنصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال» لابن المنير، وهو مطبوع مع «الكشاف» وفيه كشف لاعتزالياته وضلالاته.

ثانياً: مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي:

المؤلف:

أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين^(٤). ولد في الرّي سنة ٥٤٤ وتوفي في هرة سنة ٦٠٦ جمع كثيراً من العلوم، فكان إماماً في

(١) التفسير والمفسرون: د. محمد حسين الذهبي، ج١، ص ٤٦٥.

(٢) ميزان الاعتدال: الإمام الذهبي، ج٥، ص ٢٠٣.

(٣) مناهج المفسرين: د. مساعد آل جعفر ومحيي هلال ص ٢١٦ عن طبقات الفقهاء الحنفية: عليّ القاري ورقة ٤٩ ب (مخطوط).

(٤) انظر ترجمته في طبقات المفسرين: الداودي، ج١، ص ٢١٣-٢١٧، وطبقات المفسرين: السيوطي، ص ١١٥-١١٦.

التفسير، وعلوم الكلام. وكان طبيباً حاذقاً، وقد ندم على الاشتغال بعلم الكلام، وكان يقول: ليتني لم أشتغل بعلم الكلام، ثم يبكي^(١).

ومن مؤلفاته: «مفاتيح الغيب»، و«المحصول في علم الأصول»، و«نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز»، و«مسائل الطب» وغير ذلك.

التفسير:

يُعَدُّ تفسير «مفاتيح الغيب» أوسع التفاسير في علم الكلام، فقد تأثر كثيراً بالعلوم العقلية، فتوسع فيها، وسلك في تفسيره مسلك الحكماء والفلاسفة وعلماء الكلام، واستطرد في العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والمسائل الطبية، وملاً تفسيره بهذه العلوم، حتى قيل عنه: «فيه كل شيء إلا التفسير»^(٢) ومما يعاب عليه أنه ييسط دلائل أهل البدع والفرق المخالفة لأهل السنة بسطاً لا مزيد عليه، ثم يرد عليها رداً غاية في الوهاء حتى قال بعض العلماء: إنه «يورد الشبه نقداً ويحلها نسيئة»^(٣).

ولم يتم الرازي تفسيره هذا، بل قيل: إنه بلغ في التفسير إلى سورة الأنبياء، ثم جاء تلميذه الخُوِّي فشرع في تكملته ولم يتمه، وأتمه نجم الدين القمُولي، وقيل: إن الخُوِّي أكمله، وكتب القمُولي تكملة أخرى غيرها، ولا يكاد القارئ يلحظ تفاوتاً بين أساليبهم^(٤).

وقد طبع هذا التفسير في ٣٢ جزءاً وتقع في ١٦ مجلداً كبيراً.

(١) طبقات المفسرين: الداودي ج١، ص ٢١٥.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ج٢، ص ٢٩٠.

(٣) لسان الميزان: ابن حجر، ج٤، ص ٤٢٧-٤٢٨.

(٤) التفسير والمفسرون: الذهبي، ج١، ص ٢٩٣. وذكر بعض المعاصرين أن الرازي قد أكمل تفسيره بنفسه، وليس لأحد غيره إلا تعليقات لبعض تلاميذه وقد أضيفت إلى المتن. وتابعه على ذلك آخرون مخالفين ما قرره المؤرخون والعلماء من تلاميذ الرازي =

ثالثاً: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: لابن سعدي:

المؤلف:

هو عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي^(١) ولد في عنيزة في القصيم سنة ١٣٠٧هـ، توفي والده وهو صبي فكفلته زوجة أبيه، وأدخلته مدرسة تحفيظ

= وغيرهم، فقد قال ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء» ١٧١/٢ في ترجمة الخويي: «إن له تنمة تفسير القرآن لابن خطيب الري (يعني الرازي)». وابن أبي أصيبعة تلميذ الرازي والخويي. وقال ابن خلكان في «وفيات الأعيان» ٢٤٩/٤ عن تفسير الرازي: «وهو كبير جداً لم يكمله». وقال السبكي في «الطبقات» ١٧٩/٥ في ترجمة القمولي: «وله تكملة على تفسير الإمام فخر الدين» وفي «شذرات الذهب» لابن العماد ٧٥/٦ في ترجمة القمولي: «قال الإسنوي: وكمل تفسير ابن الخطيب» يعني الرازي. وفي «الشذرات» كذلك ٢١/٥ قال ابن قاضي شهبة: «ومن تصانيفه تفسير كبير لم يتمه» وقال ابن حجر في ترجمة القمولي في «الدرر الكامنة» ٢٠٤/١: «وأكمل تفسير الإمام فخر الدين» وقال الخفاجي في «شرح الشفاء» ٢٦٧/١: «الثابت في كتب التاريخ أن التفسير الكبير وصل إلى سورة الأنبياء وكمله تلميذه الخويي»، وقد حقق هذه المسألة الشيخ عبد الرحمن المعلمي تحقيقاً علمياً قام على استقراء تفسير الرازي توصل فيه إلى أن ما فسره الرازي هو من أول الكتاب إلى آخر تفسير القصص، ومن أول تفسير الصفات إلى آخر تفسير الأحقاف ثم تفسير سورة الحديد والمجادلة والحشر، ثم من أول تفسير سورة الملك إلى آخر الكتاب. وما عدا ذلك فمن تفسير الخويي، وللخويي أيضاً تعليقات على الأصل. (سلسلة رسائل ١-٥ للعلامة عبد الرحمن المعلمي ١٠١-١٣٤) (قلت): وهذا هو الصواب، وأقوال المتقدمين في مثل هذا أقرب إلى الصواب من المتأخرين إذا فقد الدليل. قال ابن تيمية في «الفتاوى الكبرى» ٧١/٢: «وكل قول ينفرد به المتأخر عن المتقدمين ولم يسبقه إليه أحد منهم فإنه يكون خطأ» كما قال الإمام أحمد بن حنبل: «إياك أن تتكلم في السؤال ليس لك فيه إمام» أقول هذا لمن قد يظن أن التجديد ليس إلا في مخالفة ما تقرر وساد عند الأقدمين.

(١) انظر ترجمته في كتاب مشاهير علماء نجد وغيرهم، تأليف عبد اللطيف آل الشيخ.

القرآن، فحفظه في الرابعة عشرة من عمره، واشتغل في طلب العلم، فقرأ الكتب، وحفظ المتون، ثم تصدَّى للتعليم ونشر العلم حتى ذاع صيته.

ومن مؤلفاته، «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» وهو خلاصة لهذا التفسير و«القواعد الحسان لتفسير القرآن» و«التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة» و«الفواكه الشهية في الخطب المنبرية».. وغير ذلك. توفي رحمه الله تعالى في عينة سنة ١٣٧٦.

التفسير:

يقع هذا التفسير في سبعة مجلدات ثم طبع في مجلد واحد، ومع هذا فهو تفسير يميل إلى الإيجاز مع وضوح المعنى، ويعتمد المعنى الإجمالي للآيات حيث يورد مجموعة من الآيات، ثم يفسرها آية آية، وقد يتحدث عنها إجمالاً ثم تفصيلاً موجزاً. ويعرض عن الإسرائيليات، ويستطرد أحياناً في ذكر فوائد الآيات وما تدل عليه من الأحكام الشرعية والهدايات القرآنية.

رابعاً: في ظلال القرآن: سيد قطب:

المؤلف:

هو سيد بن الحاج قطب بن إبراهيم ولد سنة ١٩٠٦م تخرج في كلية دار العلوم سنة ١٩٣٣م فزاوِل مهنة التدريس سنوات، ثم موظفاً في وزارة المعارف، ثم أوفد إلى أمريكا للاطلاع على مناهج التعليم فيها لتطبيقها في مصر، وكان القصد من إيفاده التخلص من نشاطه في الدعوة، وعاد من أمريكا وقد زاد حماسه ونشاطه للدعوة، حيث انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين، وكان يُردّد (لقد ولدت عام ١٩٥١م) وهو عام انضمامه إليهم.

وحين وقع الصدام بين الإخوان وقادة ثورة يوليو في مصر كان سيد في مقدمة المعتقلين، وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً، أُلْف خلالها في السجن تفسيره «في ظلال القرآن»، وكان هذا التفسير من أسباب خروجه من السجن، حيث قرأه الرئيس العراقي عبد السلام عارف فتوسط عند جمال عبد الناصر لإخراجه بطلب من علماء العراق، وأُفرج عنه سنة ١٩٦٤م فواصل مسيرة الدعوة فأعيد إلى السجن وصدر ضده حكم بالإعدام ونفَّذَ الحكم سنة ١٩٦٦م رغم نداءات العالم الإسلامي واحتجاجاتهم.

وله مؤلفات كثيرة منها: «معالم في الطريق» وهو من أهم كتبه ومن أسباب إعدامه، ومنها «التصوير الفني في القرآن» و«مشاهد القيامة في القرآن» و«المستقبل لهذا الدين».. وغير ذلك.

التفسير:

والكتاب وصف أدبي متميز للحياة كما يرسمها القرآن الكريم، وهو منهج لم يسبق إليه سيد من قبل، فمنهج التذوق الأدبي للقرآن الكريم، والتفاعل مع المجتمع الذي ترسمه الآيات، ومطابقته مع المجتمع الحاضر للخروج بمعالم التصحيح ورسم مسار الدعوة والعودة إلى الله، ثم دراسة الإيقاع الصوتي والجرس اللفظي للكلمات القرآنية، ودراسة التراكيب منهج لم يسبق له مثيل في علم التفسير.

أما طريقته في ذلك فخلاصتها أنه يُقدِّم لكل سورة بمقدمة يبين فيها موضوع السورة ومحورها، وأهم سماتها، ثم يعرض لمقاطعها، ويربط بينها ببيان المناسبة وهكذا.. مع الإعراض عن المباحث اللغوية والنحوية وذكر الخلافات الفقهية، وتاركاً الخوض فيما أبهمه القرآن مهماً للإسرائيليات.

وطبع التفسير مرات عديدة آخرها وأشهرها في ستة مجلدات كبار.

شروط المفسر وآدابه

ورد النهي عن القول في القرآن بغير علم والوعيد الشديد على من اجترأ على ذلك، ولذلك وضع العلماء شروطاً لمن أراد أن يفسر القرآن ليخرج من هذا الوعيد ويصبح من أهل التفسير والتأويل.

ولا عجب أن يكون للمفسر شروطاً، بل العجب أن يجترئ على كلام الله كلُّ من هبَّ ودبَّ.

وكم يحز في النفس حين نرى كثيراً من الناس يجترئون على تفسير القرآن بغير علم، ولا يحسبون لذلك حساباً فلا تتلكأ ألسنتهم، ولا توجف قلوبهم، وكأنهم قد أحاطوا بالقرآن علماً، وأصبح من مداركهم القريبة، ومن معارفهم الدانية.

وكم من رجلٍ منهم فسر آية لو عرضت على أبي بكر رضي الله عنه لقال: «أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في القرآن برأيي أو بما لا أعلم»، وإن أحدهم ليفسر الآية ولو سمعه عمر رضي الله عنه لقرعه بدرته.

وقد يقول قائل لِمَ وضع العلماء هذه الشروط؟ أليس القرآن للناس كافة، وتدبره واجب على الجميع؟ ونقول لهذا وأمثاله: نعم، إن تلاوة القرآن حق لكل مسلم، لكن تفسيره للناس وبيانه لهم ليس حقاً لكل إنسان، كأبي علم آخر فالطب مثلاً حق لكل إنسان أن يدرسه، لكن علاج الناس ليس حقاً لكل إنسان، إلا إذا درس علم الطب وحذقه، فما بالنا نصرخ في وجوه أدعياء الطب ونستعدي عليهم السلطة، ولا ننهر المجترئين على تفسير كلام الله، وهم ليسوا من أهل التفسير.

ومجمل الشروط التي وضعها العلماء للمفسر هي :

أولاً: سلامة العقيدة :

فإن من انحرفت عقيدته يعتقد رأياً ثم يحمل ألفاظ القرآن عليه ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين^(١) ، فإذا فسر القرآن أول الآيات التي تخالف مذهبه الباطل ، وحرّفها حتى توافق مذهبه ، ومثل هذا لا يطلب الحق فكيف يُطلب منه ! ومن هؤلاء فرق الخوارج والروافض والمعتزلة وغلاة الصوفية وغيرهم .

ثانياً: التجرد عن الهوى :

فإنّ الهوى يحمل صاحبه على نصرته مذهبه ولو كان باطلاً ، ويصرفه عن غيره ولو كان حقاً .

ثالثاً: أن يكون المفسر عالماً بأصول التفسير :

وذلك أن أصول التفسير بمثابة المفتاح لعلم التفسير ، فلا بد للمفسر أن يكون عالماً بالقراءات والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ونحوها .

رابعاً: أن يكون عالماً بالحديث رواية ودراية :

إذ إنّ أحاديث الرسول ﷺ هي المبيّنة للقرآن ، بل قد قال الإمام الشافعي رحمه تعالى : «كلُّ ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن»^(٢) . وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : «السنة تفسر القرآن وتبينه»^(٣) .

(١) مقدمة في أصول التفسير : ابن تيمية ، ص ٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : القرطبي ، ج ١ ، ص ٣٩ .

خامساً: أن يكون عالماً بأصول الدين :

وهو «علم التوحيد» حتى لا يقع في آيات الأسماء والصفات في التشبيه أو التمثيل أو التعطيل .

سادساً: أن يكون عالماً بأصول الفقه :

إذ به يعرف كيف تستنبط الأحكام من الآيات ، ويستدل عليها ، ويعرف الإجمال والتبيين ، والعموم والخصوص ، والمطلق والمقيد ، ودلالة النص وإشارته ، ودلالة الأمر والنهي . . وغير ذلك^(١) .

سابعاً: أن يكون عالماً باللغة وعلومها :

كالنحو والصرف والاشتقاق والبلاغة بأقسامها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) .

ذلكم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين ، وهذه العلوم مما يتوصل بها إلى معرفة المعنى وخواص التركيب ووجوه الإعجاز فيه .

وهذه الشروط - كما ترى - عزيزة المنال ، ولهذا تحرّج كثير من السلف من القول في القرآن بغير علم لتمكن الإيمان من قلوبهم ، واستحضارهم الخوف من الله تعالى ، وإذا رأيت من يجترئ على القول في القرآن بغير علم فاعلم أنه من نقص إيمانه ، والله المستعان .

آداب المفسر :

وكما أن للمفسر شروطاً فإن له آداباً ينبغي عليه الالتزام بها وهي كثيرة منها :

(١) أصول التفسير وقواعده : خالد العك ، ص ١٨٧ .

١ - الإخلاص :

بأن يريد بعمله وجه الله، وأن يطلب رضاه، ولا يبتغي بذلك جاهاً ولا منصباً، فإن ابتغى غير ذلك ضلّ وأضلّ.

٢ - العمل :

فإنه إذا دعا إلى خير فعليه أن يكون أول المؤدين له حتى يلقي القبول من الناس، وإذا نهى عن أمر وجب أن يكون تاركاً له نابذاً إياه، فإن الناس إذا رأوه يأمر ولا يفعل، وينهى ولا يمثل، نفروا عنه وعن أقواله وإن كانت حقاً.

٣ - حسن الخلق :

في قوله وفي فعله وفي سمته، فإن هذا مما يجذب النفوس إليه، وإذا انجذبت إليه أقبل عليه السمع والبصر.

فعليه أن يلتزم حسن الخلق في قوله وعباراته، فيلزم الكلمة الطيبة، ويحذر الكلمات النابية التي ينفر منها السامع ويفزع. وأن يتحرى الصدق في سائر أقواله حتى يطمئن الناس إليها، فإنهم إذا جربوا عليه كذباً اضطرب عندهم سائر كلامه.

وعليه أن يلتزم حسن الخلق في فعله، فيتواضع لمن هم دونه مقاماً، ولا يتعالى فلا تطاله أيديهم، فلا يستفيدون من علمه، وأن تكون نفسه عزيزة، فيترفع عن سفاسف الأمور، والتذلل لأصحاب المال أو الجاه، فإن العامة إذا رأوا تهافتة على ذلك سقط من أعينهم. وعليه أن يجهر بالحق ولا يكتمه، فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، والساكت عن الحق شيطان أخرس.

ومن حسن الخلق أن يقدم من هو أولى منه ، وأن يوقرهم حضوراً كانوا
أو غائبين ، فلا يغمط أقوالهم حقها ، بل يظهرها ويعترف بفضلها ومزيتها ،
ولا يقدم قوله عليها ، ولا يُنكر سبقهم له إلى رأي رآه ، أو قول يقول به .

وعليه أن يلتزم حسن الخلق في سمته بأن يلبس لباس العلماء ويتزيا
بزيهم ، ويلتزم الوقار في جلوسه ووقوفه ومشيته دون تكلف ، ولا يحضر
مجالس اللهو ، وأن يتأنى في حديثه حتى يفهم الناس عنه قوله فلا يضطرهم
إلى كثرة الاستفسار ، والجرأة على قطع حديثه . والله المستعان .



الوحي

حاجة البشر إليه :

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن تقويم، وركبه أحسن تركيب، وجعله من :

١ - جسد .

٢ - روح .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ^(١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ^(٢) ۝

وحين نتأمل في غذاء كل من هذين العنصرين : (الروح والجسد) نجد أن الجسد خلق من تراب، وأن غذاءه من التراب (نبات أو حيوان يتغذى بالنبات)، وأنه إذا مات يتحلل ويعود إلى التراب ! ولذلك يتمنى الكافر يوم القيامة لو أنه بقي على أصله الترابي الأول فيقول : ﴿ يَلْتَمِسْنِي كُنتُ تُرَابًا ^(٢) ۝

أما الروح فمن الله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ^(٣) ۝

وإن كانت النسبة إضافة تشريف فلا بد أن يكون غذاؤها من الله وليس من التراب، ولا ممن خُلِقَ من التراب، فإن التَزَمَّتْ بالغذاء الرباني صعدت بعد الموت إلى عليين وفتحت لها أبواب السماء ﴿ يَتَأَيَّسُ النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ^(٤) ۝

(١) سورة ص: الآيتان ٧١-٧٢ .

(٢) سورة النبأ: الآية ٤٠ .

(٣) سورة الحجر: الآية ٢٩، وسورة ص: ٧٢ .

أَرْجِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً»^(١)، وإن حادت وأبت إلا الغذاء الترابي أغلقت في وجهها أبواب السماء، قال تعالى: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾^(٢)، قال كعب: «أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكفار في سجين في الأرض السابعة تحت جند إبليس»^(٣).

وغذاء الجسد فيه النافع والضار، فإذا غَدَّى الإنسان جسده بالغذاء الجيد صَحَّ وقوي بناؤه، وظل حياً طرياً متماسكاً، وإذا غَدَّاه بالغذاء الرديء أو أهمل غذاءه ضعف وانحرف مزاجه، وساءت صحته، وخارت قواه، وهزل وذبل.

وكذا غذاء الروح فيه النافع والضار أيضاً، فإذا غَدَّى الإنسان روحه بالغذاء السليم سمت وارتفعت، وصحت وسلمت من الأمراض. وغذاؤها صحة الاعتقاد، وسلامتها باتصالها بالله تعالى، قال تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنَّ الْقُلُوبُ﴾^(٤).

وإذا أهمل الإنسان غذاء روحه أو غذاها بالغذاء البشري بأن جعل صلتها بالمبادئ الوضعية، والمعتقدات الزائفة، أو انقادت لملذات الجسد الترابي فتغذت بغذائه، واستغنت به عن غذائها الرباني ضعفت وخارت وتاهت، وانحرف مزاجها، ولم يقر لها قرار، وضاعت عليها الأرض على سعتها.

(١) سورة الفجر: الآيتان ٢٧-٢٨.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٤٠.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية: علي بن أبي العز، جـ ٢، ص ٥٨٣. والروح: ابن القيم، ص ٩١.

(٤) سورة الرعد: الآية ٢٨.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾^(١)، ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(٢). وقد تطلب الخروج من هذا الجسد الذي ضاقت به وضاق بها، فتؤدي بصاحبها إلى الانتحار...

إذن فإن على الإنسان أن يحرص على اختيار غذاء الروح كما يحرص على اختيار غذاء الجسد، وأن يسأل أطباء الأرواح عن غذائها النافع كما يحرص على سؤال أطباء الأبدان عن غذاء الجسد الفاني، وعليه أن يعرض روحه على أهل الذكر كما يعرض جسده على أهل الطب، وأن يعالج روحه كما يعالج بدنه، وأن يتفقدتها كما يتفقد بدنه، وأن يحاسبها دورياً كما يجري الفحوص الدورية لجسده.

وإذا كان غذاء هذه الأجساد الترابية السفلية الفانية من أصلها الترابي يُستمد، فإن غذاء هذه الأرواح السامية الباقية من الله العلي الباقي الدائم يستمد^(٣).

وقد هيأ الله - عز شأنه - الطعام المناسب لكل من هذين العنصرين، فجعل غذاء هذا الجسد من التراب الذي خلق منه، يحرث الأرض ويزرعها فينبت الطعام، أو يحفرها فيخرج الماء أو يجده أقرب من ذلك فوقها.

وهذه الروح من الله، فجعل غذاءها من عنده، ينزل به الروح الأمين على الرسل، فتشره بين الناس، وتدعوا إليه، فمن اهتدى فقد اهتدى لنفسه ومن ضل فعليها.

فإذا كان الله سبحانه يهيئ الطعام لهذه الأجساد، فلا عجب أن يهيئ الطعام لهذه الأرواح. ومن الجهل كل الجهل، والضلال كل الضلال

(١) سورة طه: الآية ١٢٤.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٣٦.

(٣) من كتابي «قصة عقيدة» ص ٤٦-٤٨.

الاعتقاد أن الإنسان بعقله أصبح يعرف الحق من الباطل ، فليس هو بحاجة إلى من يخبره بذلك ، لا يصح هذا ؛ لأن الروح لا تزال بحاجة إلى غذائها العلوي ما بقيت في الجسد ، كما أن الجسد لا يزال بحاجة إلى غذائه السفلي ما بقيت فيه روح .

وإن من رحمة الله تعالى بعباده أن أنزل جبريل عليه السلام بغذاء الأرواح إلى الأنبياء عليهم السلام ، كما خلق لهذه الأجساد غذاءها ، ولا ينكر هذه الحاجة إلا مكابر معاند أو جاهل أحمق .

فالوحي من الله رحمة بعباده لتتغذى به الأرواح ، وخلق الطعام رحمة من الله بعباده لتتغذى به الأجساد ، وبقاء العنصرين يبقى الإنسان ، وبفقد أحدهما يهلك .

والقرآن وحي ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾^(١) ، وسنة الرسول ﷺ وحي ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾^(٢) .

تعريف الوحي :

الوحي لغة : أصل الوحي في اللغة إعلام في خفاء^(٣) ، وقال الحرالي : هو إلقاء المعنى في النفس في خفاء^(٣) . قال الأزهري : وكذلك الإشارة والإيماء يسمى وحيًا ، والكتابة تسمى وحيًا^(٣) . وقال الراغب الأصفهاني : أصل الوحي الإشارة السريعة ، ولتضمن السرعة قيل : أمرٌ وحيٌّ ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن

(١) سورة الشورى : الآية ٧ .

(٢) سورة النجم : الآيتان ٣-٤ .

(٣) تاج العروس : الزبيدي ، ج ١٠ ، ص ٣٨٥ مادة (وحي) .

التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتاب^(١) وقال الزبيدي: أوحى إليه: كلمه بكلام يخفيه^(٢). وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: الوحي الإعلام السريع الخفي إما في اليقظة وإما في المنام^(٣).

وبهذا يظهر أن الوحي في الأصل: الخفاء والسرعة، وعلى هذا فالوحي في اللغة: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره^(٤).

وطرقه كما أشار إليها الراغب الأصفهاني آنفاً:

١ - الكلام على سبيل الرمز والتعريض.

٢ - الصوت المجرد عن التركيب.

٣ - الإشارة ببعض الجوارح.

٤ - الكتابة.

أنواعه بالمعنى اللغوي:

للوحي أنواع بالمعنى اللغوي وأنواع بالمعنى الشرعي، وقد يشتركان في بعضها من حيث الكيفية لكنهما يختلفان من حيث الاعتبار، فالوحي بالمعنى الشرعي خاص بالأنبياء عليهم السلام. وأنواعه بالمعنى اللغوي^(٥):

(١) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص ٥٣٦ مادة (وحي).

(٢) تاج العروس: الزبيدي، ج ١٠، ص ٣٨٥ مادة (وحي).

(٣) مجموع الفتاوى: لابن تيمية، ج ١٢، ص ٣٩٨.

(٤) الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا، ص ٣٧.

(٥) انظر الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا، ص ٣٧-٣٨، والقرآن الكريم تاريخاً

وعلموه: د. محمد البديري، ص ٥٠، ومباحث في علوم القرآن: القطان، ص ٣٢-٣٣.

١ - إلهام الخواطر أو الإلهام الفطري للإنسان، وهو ما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح، كالوحي إلى أم موسى، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ...﴾ الآية (١).

ومنه الوحي إلى الحواريين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا فِي رَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٢).

٢ - الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (٣).

٣ - الأمر الكوني للجسمادات، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ (٤)، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ (٥).

٤ - ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ﴾ (٦)، وقال سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (٧) فالإيحاء الأول من جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ، والثاني من الله سبحانه وتعالى إلى جبريل عليه السلام. والمعنى: فأوحى جبريل إلى محمد ﷺ ما أوحى الله إليه (٨).

(١) سورة القصص: الآية ٧.

(٢) سورة المائدة: الآية ١١١.

(٣) سورة النحل: الآية ٦٨.

(٤) سورة الزلزلة: الآيات ١-٥.

(٥) سورة فصلت: الآية ١٢.

(٦) سورة الأنفال: الآية ١٢.

(٧) سورة النجم: الآية ١٠.

(٨) تفسير الطبري، ج ٢٧، ص ٢٨.

٥ - الإشارة السريعة بجارحة من الجوارح ، كإيحاء زكريا عليه السلام إلى قومه : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾^(١) .

٦ - وسوسة الشيطان ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخِنَ إِلَى أُولِيَ الْيَمِينِ يُجْنِدُ لَكُمْ^(٢) ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾^(٣) .

الوحي شرعاً:

اختلف العلماء في تعريف الوحي ، فمنهم من يعرفه بمعنى (الموحي) فيقول هو : كلام الله تعالى المنزل على أحد أنبيائه ، وقيل : هو ما أنزل الله على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع^(٤) .

ومنهم من يعرفه بمعنى (الإيحاء) فيقول : هو إعلام الله لأحد أنبيائه بحكم شرعي أو نحوه .

وقولنا : (إعلام) يشمل أنواع الوحي بمعناه الشرعي كما سيأتي بيانها .
وقولنا : (الله) قصر للوحي الشرعي بأنه من الله لا من غيره سبحانه . وقولنا : (لأحد أنبيائه) قصر للوحي بالمعنى الشرعي على الوحي للأنبياء . وقولنا : (بحكم شرعي) بيان للموحي به . وقولنا : (أو نحوه) يراد به القصر والأخبار ونحوها الواردة في القرآن أو السنة مما لم يرد فيها حكم شرعي فهي من الوحي أيضاً .

(١) سورة مريم : الآية ١١ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٢١ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١١٢ .

(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري : البدر العيني ، ج ١ ، ص ١٤ .

وظاهر أن الوحي بالمعنى الشرعي لا يخرج عن حد المعنى اللغوي، والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص. فالوحي بالمعنى اللغوي عام يشمل كل (إعلام في خفاء)، والوحي بالمعنى الشرعي خاص لا يتناول إلا ما كان من الله تعالى لنبي من الأنبياء، فالوحي بالمعنى الشرعي أخص من المعنى اللغوي لخصوص مصدره ومورده، فقد خص المصدر بأنه من الله وخص المورد بالأنبياء^{(١)(٢)}.

أنواع الوحي بالمعنى الشرعي:

١ - ما يكون مناماً: وهو أول مراتب الوحي كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة - وعند مسلم الصادقة - في النوم وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح الحديث»^(٣).

وليست الرؤيا خاصة بالفترة الأولى من الوحي، بل وقعت بعد ذلك كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ الآية^(٤).

(١) الوحي والقرآن: محمد حسين الذهبي، ص ٨، والمدخل لدراسة القرآن الكريم: د. محمد أبو شهبه، ص ٨٤.

(٢) ومما يؤسف له أن كثيراً من الكتب المؤلفة في علوم القرآن في العصر الحديث تنقل تعريف الوحي عن كتاب «رسالة التوحيد» للأستاذ محمد عبده من غير إدراك للأخطاء العلمية والعقدية فيه فهو يعرفه بأنه «عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت» وقد نقدت هذا التعريف في كتابي «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» ج ١، ص ٤٨٦-٤٨٩.

(٣) رواه البخاري، ج ١، ص ٣، ومسلم، ج ١، ص ١٤٠.

(٤) سورة الفتح: الآية ٢٧.

ووقع الوحي بالمنام لإبراهيم عليه السلام كما جاء في القرآن عنه قوله :
﴿يَبْقَىٰ إِلَيَّ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَالَ يَتَأَتَّىٰ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن
شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١١﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٢﴾ قَدْ صَدَّقْتَ
الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ (١).

ومبادرة إبراهيم عليه السلام للامثال وقول إسماعيل عليه السلام :
﴿أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ وقول الله تعالى : ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ دليل قاطع على أن
رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي، وأمر من الله سبحانه لهم عليهم السلام .

وفي ابتداء النبي ﷺ من الوحي بالرؤيا الصالحة في المنام تهيئة
واستعداد لتلقي الوحي في اليقظة، ويدل على هذا حديث علقمة بن قيس
صاحب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال : «إن أول ما يؤتى به الأنبياء
في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي بعد في اليقظة» (٢).

ولم ينزل من القرآن شيء عن طريق الوحي بالمنام، وقد ظن بعضهم أن
سورة الكوثر نزلت في المنام مستدلاً بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه :
بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءه ثم رفع رأسه مبتسماً،
فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله، قال : «أنزلت علي آناً سورة» فقرأ «بسم
الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك . وانحر . إن شانئك
هو الأبتر . . . الحديث» (٣).

والصحيح أن هذه الإغفاءة ليست إغفاءة نوم فقد حكى السيوطي عن
الرافعي قوله : «وقد يحمل ذلك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول

(١) سورة الصافات : الآيات ١٠٢-١٠٥ .

(٢) فتح الباري : ابن حجر، ج١، ص ١٠، وقال : رواه أبو نعيم في الدلائل بإسناد حسن
عن علقمة بن قيس صاحب ابن مسعود .

(٣) صحيح مسلم، ج١، ص ٣٠٠ .

الوحي، ويقال لها: بُرَحَاء الوحي. اهـ. قلت: - القائل هو السيوطي -:
الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه، وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف
عليه^(١). ونقل القسطلاني عن أمالي الرافعي قوله: «الأشبه أن القرآن نزل
كله يقظة»^(٢). وبهذا يظهر أنه لم ينزل قرآن على الرسول ﷺ في المنام،
والله أعلم.

٢ - ما كان مكالمة بين العبد وربّه: قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ
يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ الآية^(٣). ومن هذا النوع تكليم الله سبحانه وتعالى
لموسى عليه السلام: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾^(٥) ومنه تكليم الله
لنبينا محمد ﷺ في المعراج حيث قال: «فأوحى الله إلي ففرض عليّ
خمسین صلاة في كل يوم وليلة»^(٦).

٣ - ما يكون إلهاماً يقذفه الله في قلب نبيه على وجه من العلم الضروري
لا يستطيع له دفعاً ولا يجد فيه شكاً، ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه
أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفث في روعي^(٧) أن نفساً لن تموت
حتى تستكمل رزقها، ألا فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب»^(٨).

(١) الإتيان: السيوطي، ج١، ص ٢٣.

(٢) شرح القسطلاني على صحيح البخاري، ج١، ص ٦١.

(٣) سورة الشورى: الآية ٥١.

(٤) سورة النساء: الآية ١٦٤.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

(٦) صحيح مسلم، ج١، ص ١٤٦ كتاب الإيمان.

(٧) الرُّوع بضم الراء القلب والخَلْد والخاطر وهو المراد هنا وبالفتح الخوف والفرع.

(٨) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ١١٥١-١١٥٢ والبعوي في شرح السنة، ج ١٤،
ص ٣٠٤. وابن عبد البر في «التمهيد» ج١، ص ٢٨٤، والخطيب التبريزي في مشكاة=

٤ - ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهذا النوع أشهر الأنواع وأكثرها، وهو المصطلح عليه بـ (الوحي الجلي)، ووحي القرآن كله من هذا القبيل، ولم ينزل شيء من القرآن على الرسول ﷺ بغير هذا النوع كالإلهام أو المنام أو التكليم بلا واسطة، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَاهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٣﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿٤﴾﴾ وقوله سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٢).

والوحي بجميع أنواعه بالمعنى الشرعي يصحبه علم يقيني ضروري من النبي بأن ما ألقى إليه حق من عند الله، ليس من خطرات النفس، ولا وسوسة الشياطين، وهذا العلم اليقيني لا يحتاج إلى مقدمات، وإنما هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية كالجوع والعطش (٣).

وقد ذكرت هذه الأقسام الأربعة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ﴾ (٤). وقال الإمام البغوي رحمه الله تعالى في تفسيرها: «﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ يوحى إليه في المنام أو بالإلهام ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾»

= المصابيح، ج ٣، ص ١٤٥٨. قال ابن حجر - رحمه الله - وحديث إن روح القدس نفث في روعي أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة، وصححه الحاكم من طريق ابن مسعود (فتح الباري ج ١ ص ٢٧) وصححه الألباني في تخريجه لأحاديث مشكلة الفقر، ص ١٩.

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٩٢-١٩٥.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٢.

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم: د. محمد محمد أبو شهبة، ص ٨٧.

(٤) سورة الشورى: الآية ٥١.

حَجَابٍ ﴿ يَسْمَعُهُ كَلَامُهُ وَلَا يَرَاهُ كَمَا كَلَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴾ ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾
إما جبريل أو غيره من الملائكة»^(١).

كيفية وحي الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة عليهم السلام:

ورد ذكر إحياء الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة في قوله تعالى: ﴿ إِذْ
يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَيِّنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾^(٢) وقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ
رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾^(٣) وغير ذلك.

وقد ورد وصف وحي الله إلى الملائكة في السنة النبوية في أحاديث
كثيرة، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إذا قضى الله
الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على
صفوان، فإذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال:
الحق، وهو العلي الكبير... الحديث^(٤).

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا
أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السماوات
منه رجفة - أو قال: رعدة - شديدة خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك
أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل،
فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء
سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي

(١) معالم التنزيل: البغوي، ج٤، ص١٣٢. وانظر تفسير الطبري، ج٢٥، ص٤٥،
وابن كثير، ج٤، ص١٢٨.

(٢) سورة الأنفال: الآية ١٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٤) رواه البخاري في تفسير سورة سبأ، ج٦، ص٢٨.

الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل»^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، قال: فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا أتاهم جبريل فزع عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك؟ قال: يقول الحق، قال: فينادون الحق الحق»^(٢).

وعلى هذا فإن القرآن الكريم كلام الله، أسمع جبريل، وبلغه جبريل - عليه السلام - كما سمعه إلى الرسول ﷺ، وليس لجبريل ولا للرسول إلا البلاغ كما دلت على ذلك النصوص القرآنية، مثل قوله تعالى: مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَىٰ أَلْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾^(٣)، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِبَيِّنَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾^(٤)، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَأْتِنَا بِغَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَن أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَائِي نَفْسِي إِنِ أَتَّبِعُ

(١) رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد، ص ١٤٤، والطبري في تفسيره، ج ٢٢، ص ٩١ والبيهقي في الأسماء والصفات، ص ٢٠٣، ورواه ابن أبي حاتم، انظر تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٥٩١ وقال الألباني (إسناده ضعيف) السنة: ابن أبي عاصم، ج ١، ص ٢٢٧.

(٢) رواه أبو داود، ج ٢، ص ٥٣٦-٥٣٧، ورواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد، ص ١٤٥، والبيهقي في الأسماء والصفات، ص ٢٠١. وقال الألباني: (وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين) الصحيحة حديث ١٢٩٣، وأخرجه البخاري تعليقاً وموقوفاً على ابن مسعود، ج ٨، ص ١٩٤.

(٣) سورة النمل: الآية ٦.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٠٣.

إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ إِيَّائِي أَخَافُ إِنَّ عَصِيَّتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ^(١)، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۚ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ﴾^(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾^(٣).

فالوحي من حيث التبليغ قسمان:

١ - قسم يبلغه جبريل كما سمعه بحروفه وحركاته من غير زيادة ولا نقصان، وبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام كذلك، وهذا ما أجمع عليه العلماء.

٢ - وقسم بلغه جبريل - عليه السلام - أو الرسول ﷺ أو هما معاً بالمعنى على خلاف بين العلماء.

كيفية وحي الله - سبحانه - إلى الرسل عليهم السلام:

وحي الله سبحانه إلى رسله عليهم السلام، إما أن يكون بواسطة أو بدونها، وما يكون بدون واسطة فهو ثلاثة أنواع:

١ - ما يكون مناماً.

٢ - ما يكون كلاماً.

٣ - ما يكون إلهاماً. وسبق بيان هذه الأنواع.

وما يكون بواسطة هو النوع الرابع، وهو ما يكون بواسطة جبريل عليه السلام ويسمى الوحي الجلي.

(١) سورة يونس: الآية ١٥.

(٢) سورة الحاقة: الآيات ٤٤-٤٧.

(٣) سورة التوبة: الآية ٦.

كيفية وحي الملك إلى الرسول :

وهذا الوحي يقوم على اتصال بين جبريل عليه السلام وهو (مَلَك) وبين الرسول ﷺ وهو (بَشَر)، وحين يكون حديث بين اثنين عربي وعجمي - مثلاً - فإن التفاهم بينهما يحتاج إلى أن يتعلم أحدهما لغة الآخر، والوحي اتصال بين (مَلَك) و(بشر) فالأمر يحتاج إلى غلبة البشرية على الملك فيفهم البشرُ كلامه أو غلبة الروحانية على البشر فيسهل على المَلَك تبليغه.

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن حجر رحمه الله تعالى حيث قال: «إن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع، وهي هنا إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية وهو النوع الأول، وإما باتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية وهو النوع الثاني»^(١).

وقال الزركشي في «البرهان» والسيوطي في «الإتقان»: «وفي التنزيل طريقان: أحدهما: أن النبي ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل، والثاني: أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه، والأول أصعب الحالين»^(٢).

ووصف ابن خلدون الحالة الأولى بأنها انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية، والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية^(٣).

وبهذا يتبين أن وحي الملك جبريل عليه السلام إلى الرسول ﷺ يكون بإحدى حالتين:

(١) فتح الباري: ابن حجر، ج١، ص ٢٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج١، ص ٢٢٩، والإتقان: السيوطي، ج١، ص ٥٨.

(٣) بتلخيص من مقدمة ابن خلدون، ص ٩٥-٩٩.

الحالة الأولى:

أن يأتيه مثل صلصلة الجرس، والصلصلة في الأصل: صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، ثم أطلق على كل صوت له طنين^(١). ومن صفات هذه الحالة:

١ - أنها الأشد على الرسول ﷺ كما وصفها عليه الصلاة والسلام.

٢ - أنها شديدة على الرسول ﷺ فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: «سألت النبي ﷺ هل تحس بالوحي؟ فقال: أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض»^(٢) وفي مجمع الزوائد: «إلا ظننت أن نفسي تقبض»^(٣).

٣ - أنه ﷺ يعرق عرقاً شديداً في هذه الحالة من الوحي كما قالت عائشة رضي الله عنها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً»^(٤)، وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: «كنت أكتب الوحي لرسول الله ﷺ وكان إذا نزل عليه أخذته بـُرْحَاء»^(٥) شديدة وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان^(٦) ثم سري عنه»^(٧).

(١) فتح الباري، ج١، ص ٢٧.

(٢) مسند الإمام أحمد، ج٢، ص ٢٢٢. وقال الأستاذ أحمد شاکر: إسناده صحيح،

ج١٢، ص ٢٧. قال: والفيض: الموت.

(٣) مجمع الزوائد: الهيثمي، ج٨، ص ٢٥٦.

(٤) صحيح البخاري، ج١، ص ٣، والفصد: قطع العرق لإسالة الدم، شبه جبينه بالعرق

المفصود مبالغة في كثرة العرق. فتح الباري: ج١، ص ٢٩.

(٥) البرحاء، قال ابن الأثير في النهاية، ج١، ص ١١٢ «(البرحاء) أي: شدة الكرب من

ثقل الوحي».

(٦) الجمان، قال ابن منظور في لسان العرب، ج١٣، ص ٩٣: «هو اللؤلؤ الصغار،

وقيل: حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ».

(٧) مجمع الزوائد: الهيثمي، ج٨، ص ٢٥٧.

٤ - أن جسمه يثقل ثقلًا شديدًا كما روى البيهقي في «الدلائل» في وصفه للوحي «إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على ناقته فتضرب على جرانها من ثقل ما يوحى إلى رسول الله ﷺ، وإن كان جبينه ليطف بالعرق في اليوم الشاتي إذ أوحى الله إليه»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها»^(٢) أي: تمد عنقها من التعب.

وكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ وهو متكئ على رجل زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال زيد: «حتى تكاد رجلي تنكسر من ثقل القرآن حتى أقول: لا أمشي على رجلي أبدًا»^(٣).

٥ - أن الرسول في هذه الحالة من الوحي يغط غطيظ النائم، ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء وليست كذلك. وقد روى البخاري أن صفوان بن يعلى رضي الله عنه قد جاء إلى الرسول ﷺ وهو يوحى إليه (وعلى رسول الله ﷺ ثوب قد أظلم به، فأدخل رأسه، فإذا رسول الله محمر الوجه وهو يغط»^(٤) الحديث.

وأخرج ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يغط في رأسه، ويتردد وجهه» أي يتغير لونه^(٥).

(١) دلائل النبوة: البيهقي، ج٧، ص ٥٣.

(٢) مجمع الزوائد، ج٨، ص ٢٥٧ وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٣) مجمع الزوائد، ج٨، ص ٢٥٧ وقال: رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقات.

(٤) صحيح البخاري، ج٢، ص ١٤٤.

(٥) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ٦٠.

٦ - أن للوحي صوتاً يسمعه الرسول ﷺ مثل الصلصلة ويسمعه الصحابة رضي الله عنهم مثل دوي النحل^(١). وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل^(٢).

الحكمة من صوت الصلصلة:

قال ابن حجر - رحمه الله تعالى -: «والحكمة في تقدمه أن يقرع سمعه الوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره»^(٣).
فائدتها:

قال القسطلاني: «وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى ورفع الدرجات»^(٤).

قلت: ولعل هذه الشدة لأن الأجسام أوعية للأرواح، ولكل جسم روح تناسب كثافته وحجمه، فإذا غلبت الروحانية على الجسم فإن الجسم ينوء بها، فيعاني شدة، ويعرق نتيجة الجهد، ويثقل لأن أجسام البشر خلقت لأرواح البشر فإذا سمت الروح وعلت فإن هذا الجسد لا يكاد يحتملها، والله أعلم.
الحالة الثانية:

أن يأتي جبريل عليه السلام إلى الرسول ﷺ في صورة رجل كدحية الكلبي أو أعرابي مثلاً فيكلمه كما يكلمه البشر.

(١) فتح الباري: ابن حجر، ج١، ص ٢٧.

(٢) مسند الإمام أحمد: تحقيق أحمد شاكر، ج١، ص ٢٢٣-٢٢٤ ورواه البيهقي في الدلائل، ج٧، ص ٥٥، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) فتح الباري: ابن حجر، ج١، ص ٢٨.

(٤) إرشاد الساري: القسطلاني، ج١، ص ٥٨.

وقد ورد ذكر هاتين الحالتين في الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقاً^(١).

إمكانية وقوع الوحي:

من المعلوم أن العالم ينقسم إلى قسمين:

١ - عالم الغيب (أو ما وراء المادة).

٢ - عالم الشهادة.

وقد ضاقت عقول فئة من الناس فلم تؤمن إلا بعالم الشهادة وأنكرت عالم الغيب، وهذا بلا شك قصور في الإدراك وفي وسائله.

ولو تأمل هؤلاء لأدركوا أن فيما أنكروا ما لا يخفى على ذي لب، وأن في عالم الغيب ما هو أقوى ثبوتاً من بعض ما في عالم الشهادة.

أرأيتم ذلك العقل الذي يؤمنون به هل يستطيعون إثبات وجوده بوسائل الإدراك عندهم، وهل يجروا أحدهم على إنكار وجوده؟

وتلكم الروح التي تسري في أجسادهم هل يدعي أحدهم إنكارها ولو مجرد دعوى؟

هل يجروا أحدهم على التسوية بين الجسد الميت والجسد الذي تدب فيه الروح، وهل يستطيع بوسائل إدراكه إثبات وجودها؟

(١) صحيح البخاري، ج١، ص ٢-٣.

ألا فليراجع أولئك وسائل الإدراك عندهم، وليعلموا قصورها،
وليبحثوا عن الخلل فيها. وليعلموا - أيضاً - أن هناك عالماً آخر أوسع من
العالم الذي يعيشون فيه. هو عالم الغيب.

وللتمأمل في عالم الشهادة علامات بارزة وأدلة ثابتة لذوي الأبواب تدل
دلالة قاطعة على عالم الغيب.

والوحي من عالم الغيب الذي يجب الإيمان به ومن صفات المؤمنين
أنهم يؤمنون بالغيب، ولمن طلب الأدلة العلمية - للطمأنينة القلبية - على
إمكانية وقوع الوحي نذكر منها:

١ - الحالة الإنسانية نفسها: فالإنسان نفسه أول ما يولد لا يملك من أمر
نفسه شيئاً، فلا يملك التحكم في تحريك يده، ولا رأسه، ولا رجله، ولا
تحريك بصره يمنة أو يسرة، حتى برازه يخرج بغير إرادته، فلا حول له ولا
قدرة ولا سلطان، إلا القدرة على تحريك شفثيه للرضاعة!! لأن هناك من
كفاه الحاجة إلى كل حركة، وهي أمه التي تقوم بكل حاجته، إلا تلك
الحركة فلا يمكن أن تقوم بها، ولا يمكن أن يستغني عنها، فمن الذي ألهمه
هذه الحركة، ومن الذي علمه؟! لا ريب أن قيوم السماوات والأرض هو
الذي ألهمه وعلمه، فلا عجب إذاً أن يلهم بعض البشر ما تقوم به حياة البشر
عامة وصلاح أمرهم.

٢ - أن بعض الحشرات كالنحل والنمل وغيرهما تأتي بعجائب
الأنظمة، ودقائق الأمور مما يطول شرحه وبسطه، ويدرك المتأمل أنه من
المستحيل أن يكون ذلك صادراً عن تفكير لها، أو منبثقاً من غريزتها
المجردة، بل يوقن أنها لم تصدر في ذلك إلا عن إلهام رباني ووحي
إلهي.

فإذا اقتضت رحمة الله الإلهام إلى تلك الحيوانات والحشرات بما تقوم به حياتها، هل يستبعد أحد أن يلهم الله أحداً من البشر ما تقوم به حياتهم وسعادتهم وهم أعز وأكرم؟ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾^(١).

٣ - وفي المخترعات الحديثة والمكتشفات العلمية ما يقرب إلى الأذهان إمكانية الاتصال، فإذا كان الهاتف مثلاً - يمكن للإنسان بواسطته أن يخاطب من في أقصى الأرض، وأن يسمع حديثه لا يخفى عليه منه شيء، ولا يسمع الحاضرون إلا دويّاً كدوي النحل!! فضلاً عن الإذاعة التي تنقل الأصوات إلى ما هو أعم وأوسع، والتلفاز الذي ينقل الصوت والصورة، إذا كان هذا بعض شأن البشر وقدرتهم التي أعطاها الله، هل يجروء أحد على إنكار إمكانية اتصال الله بأحد أنبيائه وإسماعه كلامه بواسطة أو بغير واسطة؟ لا ينكر هذا إلا مكابر معاند.

أدلة وقوع الوحي:

وإذا ثبتت إمكانية وقوع الوحي فإن الأدلة على وقوعه وتحققه كثيرة:

١ - فمن الكتاب:

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٣). وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾^(٤).

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٢) سورة النجم: الآيتان ٣-٤.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٣٩.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(١). وغير ذلك من الآيات.

٢ - ومن السنة:

حديث عائشة رضي الله عنها «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة - وفي رواية - الصداقة في المنام...» الحديث^(٢).

وحديث عائشة رضي الله عنها - أيضاً - أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس...» الحديث^(٣). وغير ذلك من الأحاديث.

٣ - والدليل العقلي:

أن النبوة والرسالة ثابتة بأدلة كثيرة، وبراهين عديدة، وثبت ذلك يقتضي ثبوت الصدق والعصمة للنبي، وقد أخبر الصادق المعصوم بأنه يوحى إليه، فيلزم من ذلك ثبوت وقوع الوحي، فكل ما أخبر به الصادق المعصوم فهو حق وثابت، فلا يبقى بعد ذلك شبهة ولا نحوها في إمكانية وقوع الوحي ووقوعه، والله أعلم.



(١) سورة النساء: الآية ١٦٣.

(٢) رواه البخاري، ج ١، ص ٣، ومسلم، ج ١، ص ١٤٠.

(٣) رواه البخاري، ج ١، ص ٢-٣.

نزل القرآن الكريم

في القرآن الكريم آيات ورد فيها النص على نزول القرآن الكريم:

١ - فمنها ما يدل على نزول القرآن الكريم جملة واحدة:

١ - ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ﴾ ^(١).

٢ - ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ^(٢).

٣ - ﴿ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ ^(٣).

٢ - ومنها ما يدل على نزوله مفرقاً:

١ - ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكَبٍّ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴾ ^(٤).

٢ - ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ ^(٥).

أقوال العلماء في نزول القرآن الكريم:

ولتنوع دلالة هذه الآيات فإن للعلماء في نزول القرآن الكريم أقوال:

(١) سورة الدخان: الآية ٣.

(٢) سورة القدر: الآية ١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٤) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

القول الأول: أن للقرآن الكريم نزولين:

النزول الأول: من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا. وعلى هذا النزول تحمل الآيات التي تدل على نزوله جملة واحدة وهي:

- ١ - ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾^(١).
- ٢ - ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾^(٢).
- ٣ - ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾^(٣).

والنزول الثاني: نزوله بعد ذلك منجماً على الرسول ﷺ. وعلى هذا تحمل الآيات التي تدل على نزوله منجماً وهي:

- ١ - ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾^(٤).
- ٢ - ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾^(٥).

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

- ١ - أن عطية بن الأسود سأل ابن عباس رضي الله عنهما فقال: «إنه قد وقع في قلبي الشك في قول الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾^(٦) وقوله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾^(٧) وقوله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ

(١) سورة القدر: الآية ١.

(٢) سورة الدخان: الآية ٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٤) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٧) سورة القدر: الآية ١.

مُبَرَّكَةً ﴿١﴾ وقد أنزل في شوال وذى القعدة وذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول فقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه أنزل في رمضان وفي ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام» (٢).

٢ - ما رواه سعيد بن جبیر، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: فُصِّلَ القرآن من الذكر فوضع في بيت الغزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل عليه السلام ينزله على النبي ﷺ ويرتله ترتيلاً (٣).

٣ - وما رواه عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «أنزل الله القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، فكان الله إذا أراد أن يوحى منه شيئاً أوحاه، أو أن يحدث منه في الأرض شيئاً أحدثه» (٤).

٤ - عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال: أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسول الله ﷺ بعضه في إثر بعض...» (٥).

(١) سورة الدخان: الآية ٣.

(٢) الأسماء والصفات: البيهقي، ص ٢٣٦، والطبري في تفسيره، ج ٣، ص ٤٤٨، وقال ابن كثير في تفسيره، ج ١، ص ٢٣١: رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) المستدرک: الحاكم، ج ٢، ص ٢٢٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. (٤) رواه الحاكم في مستدرکه، ج ٢، ص ٢٢٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) رواه البيهقي في دلائل النبوة، ج ٧، ص ١٣١، ورواه الحاكم في مستدرکه، ج ٢، ص ٢٢٢، وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

٥ - وعن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، وقرأ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(١)، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾^{(٢)(٣)}.

٦ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «أنزل القرآن ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا جملة، ثم أنزل نجوماً»^(٤).

فهذه الأحاديث كلها موقوفة على ابن عباس وأغلب أسانيدھا صحيحة.

القول الثاني:

وقال به الشعبي^(٥) ومحمد بن إسحاق^(٦) وهو أن للقرآن الكريم نزولاً واحداً بدأ في ليلة القدر وهي ليلة مباركة في شهر رمضان وعلى هذا تدل الآيات الثلاث: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ﴾^(٧)، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

(٣) رواه البيهقي في الدلائل، ج٧، ص١٣٢، وأبو عبيد في فضائل القرآن، ج٢، ص٢٠٢، والحاكم في مستدركه، ج٢، ص٢٢٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير، ج١١، ص٣١٢ برقم ١١٨٣٩ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، ج٧، ص١٤٠: «فيه عمران القطان وثقه ابن حبان وغيره وفيه ضعف، وبقي رجال ثقات».

(٥) النكت والعيون: الماوردي، ج٦، ص٣١٢، والإتقان: السيوطي، ج١، ص٥٤.

(٦) تفسير الرازي، ج٥، ص٨٥.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ^(١)، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٢) ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة فليس للقرآن إلا نزول واحد منجم على الرسول ﷺ.

القول الثالث: أن للقرآن الكريم نزولين منجمين:

الأول: من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا وذلك في ثلاث وعشرين ليلة قدر ينزل في كل ليلة ما سينزل في عامها.

الثاني: نزوله منجماً على الرسول ﷺ وذلك في ثلاث وعشرين سنة.

وقد قلل بعض الباحثين المعاصرين من هذا القول وقلده آخرون وزعم أنه لا دليل عليه، والحق أن هذا القول لعدد من العلماء المعتبرين كالفخر الرازي الذي توقف في الترجيح بينه وبين القول الأول، بل أوجب التوقف^(٣) وقال بهذا القول أيضاً مقاتل بن حيان^(٤) وابن جريج^(٥).

وقال الحليمي في «المنهاج»: «إن جبريل كان يُنزل منه من اللوح المحفوظ في ليلة القدر إلى السماء الدنيا قدر ما ينزل به على النبي ﷺ في تلك السنة إلى ليلة القدر التي تليها إلى أن أنزله كله في عشرين ليلة من عشرين سنة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا»^(٦).

(١) سورة الدخان: الآية ٣.

(٢) سورة القدر: الآية ١.

(٣) تفسير الرازي، ج ٥، ص ٨٥.

(٤) تفسير القرطبي، ج ٢، ص ٢٩٧، والوسيط: الواحدي، ج ٤، ص ٥٣٢.

(٥) تفسير الطبري، ج ٣، ص ٤٤٧.

(٦) فتح الباري: ابن حجر، ج ٨، ص ٦٢٠.

القول الرابع :

ما رواه الماوردي^(١) وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما^(٢) أنه قال: نزل القرآن في رمضان وفي ليلة القدر في ليلة مباركة جملة واحدة من عند الله تعالى من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجمته السفرة على جبريل في عشرين ليلة، ونجمه جبريل على النبي ﷺ في عشرين سنة، وكان ينزل على مواقع النجوم أرسالاً في الشهور والأيام.

وقد استغرب بعض العلماء هذا القول وأنكره، فقال ابن حجر رحمه الله تعالى: «وحكى الماوردي في تفسير ليلة القدر أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة، وأن الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة، وأن جبريل نجمه على النبي ﷺ في عشرين سنة. وهذا أيضاً غريب»^(٣) بل احتد ابن العربي رحمه الله تعالى فقال: «ومن جهالة المفسرين أنهم قالوا: إن السفرة ألقته إلى جبريل في عشرين ليلة، وألقاه جبريل إلى محمد عليهما السلام في عشرين سنة. وهذا باطل ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد صلى الله عليهما واسطة»^(٤).

وأما أبو شامة المقدسي فقد وصف ما حكاه الماوردي بقوله: «وكأنه قول ثالث غير القولين المقدمين، أو أراد الجمع بينهما، فإن قوله: نزل جملة واحدة، هو القول الأول، وقوله: فنجمته السفرة على جبريل عشرين

(١) النكت والعيون: الماوردي، ج٦، ص ٣١١.

(٢) الإنقان: السيوطي، ج١، ص ٥٤.

(٣) فتح الباري: ابن حجر، ج٨، ص ٦٢٠-٦٢١.

(٤) أحكام القرآن: ابن العربي، ج٤، ص ١٩٤٩-١٩٥٠.

ليلة، هو القول الثاني. كأنه فسر قول من قال: نزل في عشرين ليلة بأن المراد بهذا الإنزال تنجيم السفارة ذلك على جبريل» إلى أن قال عن هذا القول: إنه بعيد مع ما قد صح من الآثار عن ابن عباس: أنه نزل جملة إلى سماء الدنيا^(١).

القول الرابع:

هو القول الأول أن للقرآن الكريم نزولين: الأول من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة في ليلة واحدة هي ليلة القدر، وهي ليلة مباركة في شهر رمضان. والنزول الثاني: نزوله نجماً على الرسول ﷺ وذلك في ثلاث وعشرين سنة.

قال ابن حجر عن هذا القول «هو الصحيح المعتمد»^(٢) بل حكى القرطبي الإجماع على أن القرآن أنزل جملة واحدة^(٣).

وقال في موضع آخر: «لا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر - على ما بيناه - جملة واحدة، فوضع في بيت العزة في سماء الدنيا، ثم كان جبريل ﷺ ينزل به نجماً نجماً في الأوامر والنواهي والأسباب، وذلك في عشرين سنة»^(٤). ووصف السيوطي هذا القول بأنه (الأصح الأشهر)^(٥).

قلت: وتشهد لصحة هذا القول الأحاديث المروية عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي كلها صحيحة كما قال السيوطي، ولا أثر لكونها موقوفة

(١) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص ١٩-٢٠.

(٢) فتح الباري: ابن حجر، ج ٨، ص ٦٢٠.

(٣) تفسير القرطبي، ج ٢، ص ٢٩٨.

(٤) تفسير القرطبي، ج ٢، ص ٢٩٧.

(٥) الإيتقان: السيوطي، ج ١، ص ٥٣.

على ابن عباس؛ لأن قول الصحابي في الأمور الغيبية التي لا مجال للاجتهاد فيها له حكم الرفع.

وإياك أن تفهم أن جبريل عليه السلام أخذ القرآن من اللوح المحفوظ ولم يسمعه من الله، فإن هذا القول باطل. قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «فمن قال: إنه منزل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء فهو مفتر على الله، مكذب لكتاب الله، متبع لغير سبيل المؤمنين، ألا ترى أن الله فرق بين ما نزل منه وما نزل من بعض المخلوقات كالمطر بأن قال: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾^(١) فذكر المطر في غير موضع، وأخبر أنه نزل من السماء، والقرآن أخبر أنه منزل منه»^(٢) في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾^(٣)، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(٤)، ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٥) وقال ابن تيمية أيضاً: «ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجدته مكتوباً، كانت العبارة عبارة جبريل، وكان الكلام كلام جبريل، ترجم به عن الله كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاماً ولم يقدر أن يتكلم به، وهذا خلاف دين المسلمين»^(٦).

وقد رد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي المملكة - رحمه الله تعالى - على قول أورده السيوطي بأن جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ^(٧)

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية، ج ١٢، ص ٥١٩-٥٢٠.

(٣) سورة النحل: الآية ١٠٢.

(٤) سورة الزمر: الآية ١.

(٥) سورة فصلت: الآيتان ١-٢. انظر الآيات: النحل: ١٠٢، غافر: ٢٠١، السجدة:

٢٠١، المائدة: ٦٧ وغيرها.

(٦) مجموع الفتاوى: ابن تيمية، ج ١٢، ص ٥١٩-٥٢٠.

(٧) الإتيقان: السيوطي، ج ١، ص ٥٨.

فقال: «هذه المقالة اغتر بها كثير من الجهلة وراجت عليهم والسيوطي^(١) - رحمه الله تعالى - مع طول باعه وسعة اطلاعه وكثرة مؤلفاته ليس ممن يعتمد عليه في مثل هذه الأصول العظيمة، وهذه المقالة مبنية على أصل فاسد، وهو القول بخلق القرآن؛ وهذه مقالة الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم، وهذه المقالة الخاطئة حقيقتها إنكار أن يكون الله متكلماً حقيقة» إلى أن قال: «والقائلون بخلق القرآن منهم من يقول خلقه في اللوح المحفوظ، وأخذ جبريل ذلك المخلوق من اللوح، وجاء به إلى محمد ﷺ؛ ومنهم من يقول خلقه في جبريل، ومنهم من يقول خلقه في محمد ﷺ إلى غير ذلك من أقوالهم»^(٢).

فهذا ما ينتهي إليه هذا القول ويؤول إليه، وإن لم يكن كثير من الناقلين له يقصدونه^(٣).

وإذا كان الرأي الراجح أن للقرآن الكريم نزولين فلنفصل القول في كل نزول على حدة.

النزول الأول: نزول القرآن الكريم جملة:

كيفية:

من المعلوم أن هذا من الأمور الغيبية التي لا يجوز القول فيها إلا بدليل من الكتاب أو السنة، ولا نعرف نصاً خاصاً في كيفية هذا النزول، وإنما

-
- (١) ينبغي أن ننبه إلى أن السيوطي رحمه الله تعالى أورد هذا القول ناقلاً وصرح بعد ذلك بقوله: «قلت: ويؤيد أن جبريل تلقفه سماعاً من الله تعالى ما أخرجه الطبراني من حديث النواس بن سمعان مرفوعاً: «إذا تكلم الله بالوحي...» الحديث، ج ١، ص ٥٨.
- (٢) الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم: للعلامة محمد ابن إبراهيم، ص ٢.
- (٣) نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد الرسول ﷺ. د. محمد بن عبد الرحمن الشايع، ص ٣٣.

وردت النصوص العامة في بيان كيفية وحي الله إلى ملائكته، وقد سبق بيانها في مبحث الوحي.

ومع هذا فقد نقل أبو شامة المقدسي عن بعض التفاسير كيفية ذلك فقال: ورأيت في بعض التفاسير. قال: وقال جماعة من العلماء: نزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت يقال له بيت العزة، فحفظه جبريل عليه السلام، وغشي على أهل السموات من هيبة كلام الله، فمرَّ بهم جبريل وقد أفاقوا فقالوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾^(١) يعني القرآن، وهو معنى قوله: ﴿حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾^(٢)، فأتى به جبريل إلى بيت العزة، فأملأه جبريل على السفرة الكتبة، يعني الملائكة، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۖ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾^(٣) ثم قال أبو شامة: «نقلته من كتاب «شفاء القلوب» وهو تفسير علي بن سهل النيسابوري»^(٤).

دليله:

أما الدليل على نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا فمن القرآن:

أ - قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^(٥).

ب - قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾^(٦).

ج - قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٧).

(١) سورة سبأ: الآية ٢٣.

(٢) سورة سبأ: الآية ٢٣.

(٣) سورة عبس: الآيتان ١٥-١٦.

(٤) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص ٢٣.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٦) سورة الدخان: الآية ٣.

(٧) سورة القدر: الآية ١.

والمراد بالنزول في هذه الآيات كما مرَّ بنا نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا. ومن السنة الأحاديث المروية عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد سبق بيانها.

واسطته:

وهذا أيضاً من الأمور الغيبية التي لم أجد نصاً صحيحاً صريحاً في بيانها، ومن المعلوم أن جبريل عليه السلام هو الملك الموكل بالوحي كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾^(١) وقال سبحانه وتعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(٢) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(٣).

وقد مر بنا قول ابن العربي: «ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة»^(٤) والله أعلم.

مدته:

أما المدة التي تم فيها النزول الأول نزول القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا فهي ليلة واحدة، هي ليلة القدر، وهي ليلة مباركة من شهر رمضان، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾^(٥) وقال عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^(٦).

وليس هناك دليل صحيح على تحديد وقت هذه الليلة غير أنها ليلة القدر في شهر رمضان من غير تحديد للعام الذي كانت فيه، هل كانت قبل

(١) سورة النحل: الآية ١٠٢.

(٢) سورة الشعراء: الآيات ١٩٣-١٩٥.

(٣) أحكام القرآن: ابن العربي، ج ٤، ص ١٩٥٠.

(٤) سورة الدخان: الآية ٣.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

ظهور نبوة محمد ﷺ أم بعدها؟ ومع هذا فقد قال أبو شامة: «الظاهر أنه قبلها وكلاهما محتمل»^(١) وخالفه السيوطي وقال: «الظاهر هو الثاني، وسياق الآثار السابقة عن ابن عباس صريح فيه»^(٢).

قلت: سياق الآثار المذكورة لا يدل على ذلك، ولو من بعيد فضلاً عن أن تكون صريحة فيه.

حكيمته:

ولنزول القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا حكم عديدة منها ما ذكره أبو شامة المقدسي بقوله: «فإن قلت: ما السر في إنزاله جملة إلى السماء الدنيا؟ قلت: فيه تفخيم لأمره وأمر من أنزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب، المنزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لنزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لهبط به»^(٣) إلى الأرض جملة، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله تعالى باين بينه وبينها، فجمع له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفزقاً، وهذا من جملة ما شرف به نبينا ﷺ»^(٤).

وقال السخاوي: «فإن قيل: ما في إنزاله جملة إلى سماء الدنيا؟ قلت: في ذلك تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله

(١) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص ٢٥.

(٢) الإتيان: السيوطي، ج ١، ص ٥٢.

(٣) في المرشد الوجيز (لم نهبط به) وقد صححتها من الإتيان، ج ١، ص ٥٤ الذي نقل عبارة أبي شامة.

(٤) المرشد الوجيز: أبو شامة، ص ٢٤-٢٥.

عز وجل بهم ورحمته لهم. ولهذا المعنى أمر سبعين ألفاً من الملائكة لما أنزل سورة الأنعام أن تزفها^(١) وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل عليه السلام بإملائه على السفرة الكرام البررة عليهم السلام وإنساخهم إياه، وتلاوتهم له.

وفيه أيضاً: إعلام عباده من الملائكة وغيرهم أنه علام الغيوب لا يعزب عنه شيء، إذ كان في هذا الكتاب العزيز ذكر الأشياء قبل وقوعها.

وفيه أيضاً: التسوية بينه وبين موسى عليه السلام في إنزال كتابه جملة، والتفضيل لمحمد ﷺ في إنزاله عليه منجماً ليحفظه، قال الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^(٢)، وقال عز وجل: ﴿سُنُقِرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾^(٣).

وفيه أيضاً: «أن جناب العزة عظيم ففي إنزاله جملة واحدة وإنزال الملائكة له مفرقاً بحسب الوقائع، ما يوقع في النفوس تعظيم شأن الربوبية»^(٤).

قلت: وبهذا يظهر أن لنزول القرآن الكريم جملة واحدة حكماً عديدة منها:

- ١ - تعظيم شأن القرآن الكريم وتفخيم أمره.
- ٢ - تعظيم شأن الرسول ﷺ وتشريفه وتفضيله.
- ٣ - تكريم أمة محمد ﷺ وتعريف الملائكة بفضلها ومكانتها.
- ٤ - إعلام أهل السموات أن هذا آخر الكتب، المنزل على خاتم الأنبياء.

(١) انظر المعجم الكبير: الطبراني، ج ١٢، ص ١٦٦، رقم ١٢٩٣٠ وسيأتي تخريجه.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

(٣) سورة الأعلى: الآية ٦.

(٤) جمال القراء وكمال الإقراء: السخاوي، ج ١، ص ٢٠-٢١.

٥ - إعلام الملائكة وغيرهم بأن الله يعلم ما كان وما سيكون وأنه علام الغيوب، ففي القرآن ذكر للأشياء قبل وقوعها وبيان لأحداث قبل حدوثها.

٦ - بيان منزلة محمد ﷺ وفضله على سائر الأنبياء عليهم السلام.

فإن قلت: وما أثر بيان عظمة القرآن ومكانة الرسول ﷺ وأمته عند الملائكة وما فائدة ذلك؟

قلت: إن المسلم ليفرح فرحاً شديداً بدعوة أخيه المسلم الصالحة، وتعظم مكانتها بقدر صلاح الداعي واستقامته، فإذا كانت الدعوة ممن لم يعص الله طرفة عين، وهم الملائكة، كانت من أفضل الدعاء وأحراها بالإجابة.

والملائكة يصلون على النبي ﷺ، ويستغفرون لأمة محمد ﷺ، ويدعون لهم، ويحضرون مجالس الذكر، ويكثرون في الأزمنة والأماكن الفاضلة، وحضورهم كله خير، ودعائهم حري بالإجابة، فعلمهم بمنزلة الرسول ﷺ، ومكانة أمته، وعظمة كتابه من أسباب إكثارهم ومداومتهم على ذلك، واختصاصهم بزيادة الدعاء، والله أعلم.

اختصاص القرآن الكريم بالنزول الأول:

وهو النزول من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وذلك أن الكتب السابقة كانت تنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى الأنبياء إلا القرآن الكريم، والله أعلم.

النزول الثاني: نزول القرآن الكريم منجماً:

كيفية:

سبق في مبحث (الوحي) بيان كيفية وحي الملك إلى الأنبياء عليهم السلام وأنواعه، وأن القرآن كله نزل بالوحي الجلي، ولم ينزل منه شيء بالمنام أو الإلهام أو التكليم بلا واسطة.

واسطته :

والقرآن كله نزل بواسطة جبريل عليه السلام ، كما قال سبحانه وتعالى :
﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٦٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (١) ، وقال عز وجل : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ (٢) .

دليله :

من الأدلة على نزول القرآن الكريم منجماً :

- ١ - قوله تعالى : ﴿ وَفَرَقْنَا بَيْنَهُمَا فَمَكَّنَّا عَلَى الثَّالِثِ عَلَى مَكَّنٍّ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً ﴾ (٣) .
 - ٢ - قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (٤) .
 - ٣ - ما هو معلوم بالضرورة من سيرة الرسول ﷺ من نزول القرآن عليه مفرقاً من بعثته إلى وفاته عليه الصلاة والسلام .
- مقدار ما ينزل في كل مرة :

ليس هناك مقدار ثابت لما ينزل من القرآن الكريم في كل مرة ، ونفصل الحديث على النحو التالي :

- ١ - الآيات .
- ٢ - قصار السور .
- ٣ - طوال السور .

(١) سورة الشعراء : الآيات ١٩٣-١٩٥ .

(٢) سورة النحل : الآية ١٠٢ .

(٣) سورة النحل : الآية ١٠٦ .

(٤) سورة الفرقان : الآية ٣٢ .

أما بالنسبة للآيات فقد ينزل خمس آيات أو أكثر أو أقل، بل قد ينزل بعض آية كقوله تعالى: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾^{(١)(٢)} وكقوله تعالى: ﴿غَيْرِ أُولَى الضَّرَرِ﴾^(٣)، ولعل غالب ما ينزل خمس آيات وعشر آيات لما رواه أبو نضرة، قال: كان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشي، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات^(٤). وما رواه أبو خلدة عن أبي العالية قال: قال عمر رضي الله عنه: تعلموا القرآن خمساً خمساً فإن جبريل عليه السلام نزل بالقرآن على النبي ﷺ خمساً خمساً^(٥)، وقال أبو العالية: تعلموا القرآن خمس آيات فإن النبي ﷺ كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً^(٦).

أما قصار السور فمنها ما كان ينزل جملة واحدة كالفاتحة والمعوذات، ومنها ما ينزل مفرقاً كسورة العلق والمدثر والضحى.

وأما السبع الطوال فلم ينزل منها سورة جملة واحدة إلا سورة الأنعام كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، ونزل معها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح»^(٧).

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٢) انظر صحيح البخاري، ج ٢، ص ٢٣١، وصحيح مسلم، ج ٢، ص ٧٦٧.

(٣) سورة النساء: الآية ٩٥.

(٤) رواه ابن عساكر، انظر الإتيان: السيوطي، ج ١، ص ٥٧.

(٥) شعب الإيمان: البيهقي، ج ٤، ص ٥١٣.

(٦) المرجع السابق، ج ٤، ص ٥١٢.

(٧) المعجم الكبير: الطبراني، ج ١٢، ص ١٦٦ رقم ١٢٩٣ وقال محققه الأستاذ حمدي

عبد المجيد السلفي: في سنده علي بن زيد وفيه كلام وبقي رجاله رجال الصحيح.

ورواه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن، ص ١٢٩، وفصائل القرآن: ابن

الضريس، ص ٩٤، والإتيان: للسيوطي، ج ١، ص ٥٠.

اختلف في مدة نزول القرآن منجماً على الرسول ﷺ تبعاً للاختلاف في مدة بعثة الرسول ﷺ وهو في مكة، فقليل : عشرون سنة، وقيل : ثلاث وعشرون سنة، وقيل : خمس وعشرون سنة.

فمن المعلوم أن مدة الوحي بالرؤيا الصالحة كانت ستة أشهر، ثم فتر الوحي في سنتين ونصف. قال السهيلي رحمه الله تعالى : «جاء في بعض الروايات المسندة أن مدة الفترة سنتان ونصف، وفي رواية أخرى أن مدة الرؤيا ستة أشهر، فمن قال : مكث عشر سنين حذف مدة الرؤيا والفترة، ومن قال : ثلاث عشرة أضافهما»^(١).

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين»^(٢).

وروى عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالا : «لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً»^(٣).

قال ابن حجر رحمه الله تعالى : «وهذا ظاهره أنه ﷺ عاش ستين سنة إذا انضم إلى المشهور أنه بعث على رأس الأربعين، لكن يمكن أن يكون الراوي ألغى الكسر» ثم قال : «ويمكن أن يجمع بينه وبين المشهور بوجه آخر، وهو أنه بعث على رأس الأربعين، فكانت مدة وحي المنام ستة أشهر

(١) فتح الباري : ابن حجر، ج١، ص ٣٧.

(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص ٢٥٣.

(٣) صحيح البخاري، ج٦، ص ٩٦.

إلى أن نزل عليه الملك في شهر رمضان من غير فترة، ثم فتر الوحي، ثم تواتر وتتابع فكانت مدة تواتره وتتابعه بمكة عشر سنين من غير فترة»^(١).

وعلى هذا يظهر أن القول أن مدة النزول عشرون عاماً أو ثلاثة وعشرون عاماً كالقول الواحد وهو الصواب، والله أعلم.

الحكمة في نزول القرآن الكريم منجماً:

ولنزول القرآن منجماً حكم عديدة وفوائد كثيرة منها:

أولاً: تثبيت قلب الرسول ﷺ^(٢):

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾^(٣).

حين بعث الله عز شأنه عبده ورسوله محمداً ﷺ، بعثه في أمة صلبة كصلابة أرضها، قاسية كقسوتها، شامخة كشموخ جبالها، بعثه لهذه الأمة ليس لأمر تافه، أو شأن حقير، بل في شأن عظيم، وأمر خطير، بعثه ليسفه أحلامها، ويحطم أوثانها، ويهدم أصنامها، وهي أعز ما يملكون، وأقدس ما يعتقدون. ومن ذا الذي يجروء على بعض هذا فضلاً عنه كله وأكثر منه.

تصدى محمد بن عبد الله ﷺ لهذه المهمة فكان أصلب منهم وأقوى، وأحكم منهم وأهدى، جمع بين الصلابة والهدى، والقوة والحكمة، حتى اشتكوه إلى عمه أبي طالب الذي قال له: يا ابن أخي إن بني عمك زعموا

(١) فتح الباري: ابن حجر، ج٨، ص ٦٢٠.

(٢) في هذا الموضوع كتب الشيخ عبد الرحمن هوساوي رسالته للماجستير وعنوانها «منهج القرآن الكريم في تثبيت الرسول ﷺ وتكريمه» وطبعت في مجلد سنة ١٤١٣هـ.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

أنك تؤذيهم في ناديم وفي مسجدهم فانته عن ذلك، قال: فلاحظ رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: «ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك على أن تشعلوا لي منها شعلة (يعني الشمس)»^(١).

نعم إنها قوة إيمان، وصلابة عقيدة، وهذه القوة وتلك الصلابة بحاجة إلى من يسوسها ويدعمها، ويرعاها ويحفظها، حتى لا تضعف أمام التيارات العاصفة، أو تنهار أمام الضربات المتتابة، فتعهدا الله القوي الحكيم بقوته وحكمته، وكان في إنزال القرآن منجماً دعماً لتلك القوة، وتثبيتاً لتلك الصلابة، وترسيخاً لتلك الحكمة.. ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^(٢).

والأنبياء عليهم السلام كلهم بشر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾^(٣) يأكلون كما نأكل، ويمشون في الأسواق كما يمشي البشر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٤) ويتزوجون ويولد لهم ذرية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾^(٥) ويعتريهم ما يعتري البشر، من الخوف، والحزن والهم، والفرح والسرور، والضحك، والبكاء ونحو ذلك، وهم بحاجة إلى من يواسيهم، ويثبتهم.

(١) قال الألباني: في سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث (٩٢) (إسناده حسن) وقال: وأما حديث «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»، فليس له إسناده ثابت، ولذلك أوردته في الأحاديث الضعيفة.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

(٣) سورة يوسف: الآية ١٠٩.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٢.

(٥) سورة الرعد: الآية ٣٨.

وكان لتثبيت قلب الرسول ﷺ صور متعددة منها :

١ - إخباره أن ما جرى له من الأذى والتكذيب قد جرى للأنبياء السابقين من قبله ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا ﴾^(١) ، ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾^(٢) ومن طبيعة البشر أن المصيبة تخف إذا كانت عامة ، وتكون أشد إذا كانت خاصة ، هذا في الدنيا دون الآخرة ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَٰكِن يَنْفَعُكُمْ أَيُّومَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾^(٣) .

وإعلام الله تعالى لنبيه ﷺ بأن ما جرى له قد جرى للأنبياء السابقين من أسباب تثبيت قلبه وتجدد عزمه .

٢ - أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالصبر :

فمن المعهود أن الإنسان إذا أصابته مصيبة وكان بجانبه أحد أصحابه يربت على كتفه ، ويأمره بالصبر والاحتساب ، ويواسيه ويسليه أن هذا من أقوى الأسباب لسلوانه .

فأمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بالصبر من أقوى الأسباب لتثبيت قلبه سيما أن الأمر بالصبر كان مقترناً أحياناً بإخباره أن ما جرى له قد جرى للأنبياء السابقين ، وأنهم صبروا ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا ﴾^(٤) ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾^(٥) .

(١) سورة الأنعام : الآية ٣٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨٤ .

(٣) سورة الزخرف : الآية ٣٩ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ٣٤ .

(٥) سورة الأحقاف : الآية ٣٥ .

٣ - نهيه عن الحزن والضيق :

وذلك أن حبس النفس بالحزن، والتضييق عليها بالهم من أقوى الدواعي لفتورها ويأسها، فنهى الله نبيه عن الحزن والضيق من مكرهم وما يلاقيه من أذاهم ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(٢)، وقال سبحانه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُغْلِبُونَ﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ﴾^(٤).

ولا شك أن للحزن تأثيراً على صاحبه ولو كان صابراً، فيعقوب عليه السلام حين فَقَدَ ابنه يوسف قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا فَصِفُونَ﴾^(٥) وحين فَقَدَ ابنه الآخر قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُمْ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ إلا أنه حزن وتأسف على يوسف ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يَوْسُفَ﴾ فكان أثر الحزن ﴿وَأَبْصَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٦).

وبهذا ندرك الحكمة من نهى الرسول ﷺ عن الحزن والضيق مما يمكنون، لما لهذا من أثر في إعاقه مسار الدعوة، ولما في أمره بالصبر ونهيه عن الحزن من شِدَّةٍ لأزره وتجديد لعزمه.

(١) سورة النحل: الآية ١٢٧.

(٢) سورة النمل: الآية ٧٠.

(٣) سورة يس: الآية ٧٦.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤١.

(٥) سورة يوسف: الآية ١٨.

(٦) سورة يوسف: الآيتان: ٨٣-٨٤.

٤ - إخباره بأن الله يعصمه من الناس :

وذلك أنه إذا علم أن ما جرى له قد جرى للأنبياء السابقين من قبله، وأنهم صبروا، فوطن نفسه على الصبر، واستمر في الدعوة ولم يُصِبْهُ الهَم ولا الحزن، لكنه يخشى أن يقتله قومه قبل أن يتم دعوته وهو الحريص عليهم، الرحيم بهم، فأخبره الله بالعصمة من ذلك ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(١) فكانت هذه البشرى من أعظم الدوافع إلى الاستمرار في الدعوة.

أرأيتم ذلك الرجل الذي يتردد في فعل أمر ما فيجد من يشجعه ويطمئنه بأنه لن يصيبه أي مكروه ولا ضرر، وأنه سيكون معه، ويأخذ بيده، ويشد أزره، ولا يزال به حتى يجد الطمأنينة، فكيف إذا كانت البشرى من الله، والعصمة من عنده عز شأنه.

ويجد الرسول ﷺ أثر هذه البشرى ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ في كثير من الصور والمشاهد:

أ - حين اجتمع صناديد قريش وقبائل العرب عند بابه ليضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فخرج من بين صفوفهم، وجعل فوق رؤوسهم التراب ولم يره أحد^(٢) ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

ب - ويذهب مع صاحبه إلى الغار، ويمر به المشركون يبحثون عنهما، حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال الرسول ﷺ: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»^(٣) ومع هذا القرب لم يرهما أحد ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

(١) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٢) سيرة ابن هشام، ج١، ص١٢٧، وتفسير ابن كثير، ج٣، ص٦٢٠، ودلائل النبوة: البيهقي، ج٢، ص٤٦٦-٤٧٠.

(٣) صحيح البخاري، ج٤، ص١٩٠.

ج - ويلحق بهما سراقة بن مالك ممتطياً جواده ومعه رمحه، حتى إذا اقترب منهما ساخت يدا فرسه في الأرض حتى بلغتا الركبتين، وعندما أخرجت يديها إذا لأثرهما عثان ساطع في السماء مثل الدخان، فأدرك سراقة أنه منع عنهما^(١) ﴿وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

د - ويأكل ﷺ من شاة مسمومة أهدتها إليه يهودية، فيموت صاحبه وينجو هو من الموت^(٢) ﴿وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

هـ - وحاول اليهود قتل النبي ﷺ بإلقاء حجر من جدار كان ﷺ جالساً تحته، فجاءه الوحي بذلك فقام من مجلسه^(٣) ﴿وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

والصور كثيرة والمشاهد عديدة لحفظ الله تعالى لنبه من محاولات الاغتيال^(٤)، ولا شك أن هذه البشرية^(٥) من الله سبحانه وتعالى لنبه ﷺ، ورؤية الرسول ﷺ لفشل هذه المحاولات من أقوى الدوافع للطمأنينة والاستمرار في الدعوة وتجدد العزم.

٥ - تبشيره بالنصر والتمكين:

قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٦)، وقال جل جلاله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٧)، وقال

(١) انظر صحيح البخاري، ج٤، ص ٢٥٧.

(٢) سنن أبي داود، ج٤، ص ١٧٣-١٧٥.

(٣) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ١٩٩-٢٠٠، والبداية والنهاية: ابن كثير، ج٤، ص ٧٥.

(٤) لمزيد من هذه الصور انظر كتاب «والله يعصمك من الناس» للأستاذ أحمد الجدع.

(٥) كانت ﴿وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ عند نزولها مجرد بشرى ثم أصبحت بشرى ومعجزة لثبوتها وعدم وقوع ما يخالفها وهي من الأخبار الغيبية المستقبلية.

(٦) سورة المجادلة: الآية ٢١.

(٧) سورة يوسف: الآية ٢١.

عز وجل: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(١)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا نَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾^(٢)، وقال عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٣)، ووعده سبحانه بالنصر: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾^(٤)، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥)، وقد تحقق نصر الله فقد نصر عبده، وأعز جنده ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(٦) السورة.

والوعد بالنصر والتمكين بعد الإخبار بالعصمة من أدعى الدواعي لتثبيت القلب وتجدد العزم.

تلكم بعض صور تثبيت قلب الرسول ﷺ، وهي الحكمة الأولى من حكم نزول القرآن منجماً متبوعاً مسار الدعوة ومسيرة الرسول ﷺ، ينزل عليه بين حين وآخر ما يثبت قلبه ويجدد عزمه.

وقد أشار أبو شامة إلى هذه الحكمة من نزول القرآن منجماً فقال: «إن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه. ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك عليه، وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجنب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة. ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة نزول جبريل عليه السلام عليه فيه»^(٧).

(١) سورة المائدة: الآية ٥٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٣) سورة غافر: الآية ٥١.

(٤) سورة الفتح: الآية ٣.

(٥) سورة الروم: الآية ٤٧.

(٦) سورة النصر: الآية ١.

(٧) المرشد الوجيز: أبو شامة، ص ٢٧-٢٨.

ثانياً: تيسير حفظه وفهمه:

من المعلوم أن الأمة التي بعث فيها الرسول ﷺ كانت أمية، وكان الرسول ﷺ أمياً ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾^(١)، وقال عن نبيه ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾^(٢)، وقال جل جلاله: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾^(٣).

وليس من السهل على الأمي وعلى الأميين تلقي كتاب كامل دفعه واحدة، بل الحكمة في التدرج في تنزيل القرآن، والتدرج في تعليمهم إياه، فكان ينزل كما مر بنا خمس آيات خمس آيات، أو سورة سورة. وهذا ما يناسب أحوالهم، ولو نزل عليهم جملة واحدة لشق عليهم حفظه وفهمه فضلاً عن العمل به.

قال أبو شامة المقدسي رحمه الله تعالى في بيان هذه الحكمة: «وكان النبي ﷺ أمياً لا يكتب ولا يقرأ، ففرق عليه القرآن ليتيسر عليه حفظه، ولو نزل جملة لتعذر عليه حفظه في وقت واحد على ما أجرى الله تعالى به عوائد خلقه، والتوراة نزلت على موسى عليه السلام مكتوبة، وكان كاتباً قارئاً، وكذا كان غيره، والله أعلم»^(٤).

ثم أورد سؤالاً وأجاب عليه فقال: «فإن قلت: كان في القدرة إذا أنزله جملة أن يسهل عليه حفظه دفعة واحدة. قلت: ما كل ممكن في القدرة بلازم وقوعه، فقد كان في قدرته تعالى أن يعلمه الكتابة والقراءة في لحظة واحدة، وأن يلهمهم الإيمان به، ولكنه لم يفعل، ولا معترض عليه في

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٤) المرشد الوجيز: أبو شامة، ص ٢٧-٢٨.

حكمه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾^(١) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾^{(٢)(٣)}.

ثالثاً: مسابقة الحوادث:

فمن المعلوم أن عجلة الحياة تدور، والحوادث تتجدد، وتقع الوقائع، والمسلمون في معمعة هذه الأحداث ووسط هذه الوقائع بحاجة إلى من يرشدهم إلى الحق، ويدلهم إلى الصواب.

فكان في نزول القرآن الكريم منجماً مسابقة لهذه الحوادث والوقائع، وعلاج لما يطرأ في حياة المسلمين من قضايا ومشاكل، ولهذه الحوادث والوقائع صور متعددة نذكر منها^(٤):

١ - الإجابة على ما يطرأ من أسئلة:

وهذه الأسئلة تقع من الكفار والمشركين للتثبت من رسالته وامتحانه، أو لتعجيزه بزعمهم، وتقع من المسلمين لغرض معرفة الحق والعمل به. وتكون هذه الأسئلة أيضاً عن أمور ماضية وأحداث سابقة أو حاضرة أو مستقبلية.

فمن الأسئلة عن أمور ماضية ما روي أن اليهود اجتمعوا فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن محمد وحاله: سلوا محمداً عن الروح، وعن فتية فقدوا في أول الزمان، وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغربها، فإن أجاب في ذلك كله فليس بنبي، وإن لم يجب في ذلك كله فليس بنبي، وإن أجاب

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

(٣) المرشد الوجيز: أبو شامة، ص ٢٨-٢٩.

(٤) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، ج ١، ص ٥١-٥٣.

في بعض ذلك، وأمسك عن بعضه فهو نبي، فسألوه عنها، فأنزل الله تعالى في شأن الفتية ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾^(١) إلى آخر القصة؛ وأنزل في الرجل الذي بلغ شرق الأرض وغربها ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ﴾^(٢) إلى آخر القصة، وأنزل في الروح قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾^{(٣)(٤)}.

وقد تكون الأسئلة عن أمور حاضرة ومشاهدة كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾^(٥)، وقوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾^(٦)، وقوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الثَّهْرِ الْحَرَامِ فِتَالٍ فِيهِ﴾^(٧)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾^(٨)، وقوله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾^(٩)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾^(١٠) وغير ذلك من الأسئلة.

وقد تكون الأسئلة عن أمور مستقبلية كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾^(١١) وقوله جل جلاله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾^(١٢).

-
- (١) سورة الكهف: الآية ٩.
 - (٢) سورة الكهف: الآية ٨٣.
 - (٣) سورة الإسراء: الآية ٨٥.
 - (٤) أسباب النزول: الواحدي، تحقيق عصام الحميدان، ص ٢٩٢.
 - (٥) سورة البقرة: الآية ١٨٩.
 - (٦) سورة البقرة: الآية ٢١٥.
 - (٧) سورة البقرة: الآية ٢١٧.
 - (٨) سورة البقرة: الآية ٢١٩.
 - (٩) سورة البقرة: الآية ٢٢٠.
 - (١٠) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.
 - (١١) سورة الأعراف: الآية ١٨٧.
 - (١٢) سورة طه: الآية ١٠٥.

وفي نزول القرآن منجماً تتبع لتلك الأسئلة وما يجد منها والإجابة عليها في حينها.

٢ - مجاراة الأقضية والوقائع في حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها:

وذلك أن الأقضية والأحداث لم تقع جملة واحدة، وإنما حدثت متفرقة في أوقات مختلفة وأماكن متعددة، فالمناسب أن ينزل القرآن كذلك منجماً مفرقاً في أوقات مختلفة وأماكن متعددة، معالجاً لكل قضية في حينها فمن ذلك:

أ - حادثة الإفك، وهي الحادثة التي رمى فيها نفر من المنافقين وتبعهم بعض المسلمين عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه في القصة المشهورة، فأنزل الله قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾^(١) . . . الآيات.

ب - وقصة خولة بنت ثعلبة التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، فشكت ذلك إلى النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله، أبلى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾^{(٢)(٣)}.

٣ - تنبيه المسلمين إلى أخطائهم وإرشادهم إلى الصواب والكمال:

وقد يقع ذلك من أحد أفراد الصحابة أو جماعة منهم أو من الرسول ﷺ. فيرشد ربه إلى الأكمل والأتم لمقامه ﷺ.

(١) سورة النور: الآية ١١.

(٢) سورة المجادلة: الآية ١.

(٣) رواه الحاكم في مستدركه، ج٢، ص٤٨١، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وانظر أسباب النزول: الواحدي، ص٤٠٨.

فهذا ثابت بن قيس رضي الله عنه لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾^(١) قال: أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق صوت النبي، وأنا من أهل النار، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «هو من أهل الجنة»^(٢).

ولما تزوج الرسول ﷺ زينب بن جحش دعا القوم، فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، قال: فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فما رأى ذلك قام. فلما قام، قام من قام من القوم... فقعد ثلاثة وأن النبي ﷺ جاء ليدخل فإذا القوم جلوس...^(٣) فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِزٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾^(٤).

وقد يقع من الرسول ﷺ ما يوجهه الله بعده إلى ما فيه الخير والكمال، كما وقع من الرسول ﷺ حين جاءه ابن أم مكتوم وهو يخاطب أحد عظماء المشركين، قالت عائشة رضي الله عنها: فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا. ففي هذا أنزلت عبس وتولى^(٥).

(١) سورة الحجرات: الآية ٢.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص ٣٨٦. وانظر صحيح البخاري، ج ٦، ص ٤٦، وصحيح مسلم، ج ١، ص ١١٠.

(٣) صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٠٥٠.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٥٣.

(٥) المستدرک: الحاكم، ج ٢، ص ٥١٤، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

٤ - كشف حال المنافقين وهتك أستارهم حتى يحذرهم المسلمون ويأمنوا
مكرهم وشرهم:

وذلك أن ركب الدعوة جاد في سيره في مأمن من شر عدوه الظاهر،
لكن الخطر يكمن فيمن يندس بين المسلمين يخالطهم ويخالطونه، ويسمع
حديثهم، ويعلم أسرارهم، ويكيد لهم، وهم يحسبونه منهم، فاقترضت
حكمة الله تعالى أن يكون في نزول القرآن منجماً كشف لهؤلاء المنافقين،
وهتك لأستارهم، وتشنيع عليهم.

فإذا نطق أحدهم قولاً منوئاً للرسول ﷺ نزل فيه القرآن، وكشف نفاقه
حتى يحذر المسلمون ويرتدع.

والآيات في هذا الموضوع كثيرة ففي أول سورة البقرة ثلاث عشرة آية
متتالية في المنافقين.

وسورة التوبة تسمى (الفاضحة) كما روى سعيد بن جبير، قال: قلت
لابن عباس: سورة التوبة. قال: «التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل ومنهم
ومنهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها»^(١).

ويريد ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «ومنهم ومنهم» الآيات الكثيرة
في سورة التوبة التي تحدثت عن المنافقين كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُرُ
أَتَذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾^(٢)، وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ
يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ

(١) صحيح البخاري، ج٦، ص٥٨، ومسلم، ج٤، ص٢٣٢٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤٩.

(٣) سورة التوبة: الآية ٥٨.

هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴿١﴾، وقوله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِذَا آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ﴿٢﴾ وغير ذلك . .

بل أنزل الله في المنافقين سورة كاملة سماها باسمهم سورة «المنافقون» .
وفي نزول القرآن منجماً تتبع لهذه الحالات في المجتمع الإسلامي
وتنقية لطريق الدعوة .

٥ - رد شبهات أهل الكتاب وإبطال كيدهم للإسلام والمسلمين :

فقد كان المسلمون يعيشون في المدينة، ويخالطهم اليهود، وهم أهل
كيد ومكر وخبث وحقد على الإسلام والمسلمين. بذلوا كل ما يستطيعون
لبث الفرقة بين المسلمين، وبث الشبهات والشكوك في عقائد الإسلام،
فكان في نزول القرآن منجماً تتبع لخططهم، وكشف لمآربهم، ومحق
لشبهاتهم. والآيات في هذا المعنى كثيرة كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ
لَمْ يَصْدُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبِعُونَهَا ءَوْجًا وَاتَّبَعْتُمْ شُهَدَاءَهُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٣﴾، وحذر المسلمين منهم: ﴿ يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ ءِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ ﴿٤﴾، وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿٥﴾،
﴿ وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَسْعُرُونَ ﴾ ﴿٦﴾
﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ

(١) سورة التوبة: الآية ٦١ .

(٢) سورة التوبة: الآية ٧٥ .

(٣) سورة آل عمران: الآية ٩٩ .

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٠٠ .

(٥) سورة آل عمران: الآية ٧٢ .

(٦) سورة آل عمران: الآية ٦٩ .

رَبِّكُمْ ﴿١﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ ﴿٢﴾ ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمُ﴾ ﴿٣﴾ وغير ذلك من الآيات . .

رابعاً: التدرج في التشريع وتربية الأمة:

لو تدبر الإنسان في نفسه لوجد أنه في كل شأن من شؤونه يبدأ من الأدنى إلى الأعلى بالتدرج، فحين يولد أول ما يولد لا يستطيع أن يتحكم بحركات يديه ولا رجله، ثم يبدأ التحكم باليدين، وهكذا إلى أن يبدأ بالقدرة على الجلوس ثم القيام ثم السير ثم الجري والقفز، وفي الأكل شرابه أول ما يشرب حليب أمه الخفيف، ثم تزداد كثافته ويرتقي بالأكل من السوائل إلى اللحوم وغيرها. وفي نطقه يولد لا يحسن غير البكاء ثم التسم ثم الصوت غير المركب وهكذا إلى أن يصبح متكلماً، وهكذا في التعلم وفي كل شأن من شؤونه.

والمجتمعات في رقيها تشبه إلى حد كبير حالة الأفراد، ليس من السهل تحولها من حال إلى حال دون تدرج. وقد اقتضت حكمة الله تعالى مراعاة حال الأمة في قدرتها وطاقاتها، فجاءت الأحكام والتشريعات متدرجة حسب طاقة الأمة وما تقتضيه الحكمة الإلهية، فجاء نزول القرآن الكريم منجماً مطابقاً تمام المطابقة لما فيه الحكمة.

وأخبرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن هذا حين قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٩.

الخمير لقالوا: لا ندع الخمير أبداً، ولو نزل: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً^(١).

فبدأ أولاً بتنقيتهم من أدران الشرك بنزول الأوثان والأصنام وبيان أنها لا تضر ولا تنفع، ثم غرس في قلوبهم العقيدة الصحيحة وهي توحيد الله وإفراده بالعبادة.

ثم تدرج في فرض العبادات، فبدأ بأصلها وعمودها وهي الصلاة التي شرعت في وقت مبكر، ثم الزكاة والصيام، ثم الحج، ونزل بعد ذلك مزيد تفصيل لهذه العبادات وغيرها من أنواع العبادة.

ولم يزل يتدرج بهم في معالي الأمور وسامي الآداب والأخلاق حتى أصبحت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، وحتى أصبح هذا القرن من أصحابه خير القرون.

خامساً: استمرار التحدي والإعجاز:

وتجدد ثبوت الإعجاز عند تجدد عجزهم عن الإتيان بمثل كل آية تنزل على مر الأيام والسنين مدة نزول القرآن.

وذلك أن تكرر نزول القرآن مرات عديدة في أماكن مختلفة وأزمان متغايرة ومتباعدة مدة نزول القرآن، وفي كل مرة يتحداهم أن يأتوا بمثله، فهذا دليل على تكرر الإعجاز واستمرار التحدي، ولو نزل القرآن جملة واحدة وتحداهم به عند النزول لكان وقوع التحدي مرة واحدة، والإعجاز كذلك. فكان في تنجيم نزوله وتكرره استمرار للتحدي وتكرار للإعجاز.

ولا شك أن الذي يستطيع تكرار عمل ما يعجز عنه الناس أقوى إعجازاً ممن يفعله مرة واحدة لا يعيدها أخرى.

(١) صحيح البخاري، ج٦، ص ١٠١.

سادساً: الدلالة على مصدر القرآن وأنه من الله تعالى وليس في قدرة البشر:

وقد أوضح الشيخ الزرقاني - رحمه الله تعالى - هذه الحكمة فقال: وبيان ذلك: أن القرآن تقرأه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، أخذ بعضه برقاب بعض في سورة وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك، ولا تخاذل، كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سمط وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جملة وآياته، وجاء آخره مساوqاً لأوله، وبدا أوله موافقاً لآخره.

وهنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التآلف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه لم ينزل جملة واحدة، بل تنزل آحاداً مفرقة، تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين سنة.

الجواب: أننا نلمح هنا سرّاً جديداً من أسرار الإعجاز، ونشهد سمة فذة من سمات الربوبية، ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن وأنه كلام الواحد الديان ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^{(١)(٢)}.

وبين الأستاذ حيدر قفة هذا الوجه من الإعجاز فقال: «إن القرآن نزل منجماً مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة تقريباً، وهذه مدة طويلة يعجز أي أديب أو كاتب أو بليغ أن يحتفظ بأسلوبه وبيانه، وخصائصه البلاغية والفنية هذه السنوات الطوال، ومهما كانت درجته ومقدرته البلاغية فلا بد أن نجد في أسلوبه اختلافاً ولو للأحسن والأرقى، مما يظهر الضعف والركاكة والإسفاف

(١) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، ج١، ص ٥٣-٥٤.

في بداية الأمر، والجزالة وحسن السبك في نهايته. فهل وجدوا ذلك في القرآن؟ حاشا لله، وصدق الله العظيم ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (١)(٢).

ويتحدث الشيخ الزرقاني عن الانفصال الزمني واختلاف أسباب النزول لآيات القرآن اللذين يستلزمان في مجرى العادة التفكك والانحلال، ولا يدعان مجالاً للارتباط والاتصال بين نجوم الكلام، أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضاً، فقد نزل منجماً ولكنه تم مترابطاً محكماً ثم قال: «أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القوى والقدر، ومالك الأسباب والمسببات، ومدبر الخلق والكائنات، وقيوم الأرض والسموات، العليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون».

ثم قال: «لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية أو آيات قال: ضعوها في مكان كذا من سورة كذا، وهو بشر لا يدري (طبعاً) ما ستجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث فضلاً عما سينزل من الله فيها، وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول على هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن نجماً بعد نجم، وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم، وينتظم ويتآخى، ويأتلف ويلتئم، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت، بل يعجز الخلق طراً بما فيه من انسجام ووحدية وترابط ﴿كَتَبَ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (٣)(٤).

(١) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٢) مع القرآن الكريم: حيدر قفة، ص ٥٥.

(٣) سورة هود: الآية ١.

(٤) مناهل العرفان: الزرقاني، ج ١، ص ٥٤-٥٥.

الاستفادة من نزول القرآن الكريم منجماً في مجال التربية والتعليم:

ينبغي أن يستفاد في العملية التعليمية من منهج القرآن الكريم في تربية هذه الأمة، وتهذيب أخلاقها، وتصحيح معتقداتها، وتحويلها من أمة الجاهل والجاهلية إلى أمة الكتاب والقلم.

فقد كان الناس في غاية من الجهل والانحطاط في كثير^(١) من شؤون حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فأُنزل الله عليهم القرآن، ولم يزل يرتقي بهم في سامي المبادئ وعالي الأخلاق حتى أصبحوا في أعلى الدرجات، بل صاروا خير أمة أخرجت للناس بعدما كانوا ما كانوا.

وسلك القرآن الكريم في ذلك منهجاً فريداً، ومسلكاً حميداً، فبدأ بتصحيح العقيدة وغرس المبادئ الصحيحة، ثم تدرج في أحكام العبادات حتى تمامها وكمالها.

وفي التربية والتعليم ينبغي الاستفادة من هذا المنهج الحكيم، فمن المعلوم أن العملية التربوية تقوم على أمرين أساسيين^(٢):

الأول: معرفة المستوى الذهني للطلاب:

فلا بد قبل التعليم من معرفة المستوى الذهني لديهم حيث يكون نقطة الانطلاق بهم، وإعطائهم ما يتناسب مع قدراتهم الذهنية وطاقاتهم الفكرية. فإنهم إن أُعطوا أقل من مستواهم الذهني ملوه وهجروه، وإن أعطوا ما هو فوق مستوى إدراكهم وفهمهم عجزوا عنه ونفروا منه.

(١) نعم كان عندهم بعض العادات الحميدة والأخلاق الفاضلة لكنها تضمحل في صور الجاهلية.

(٢) انظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص ١١٦-١١٧.

الثاني : تنمية قدراتهم :

أ - الذهنية .

ب - النفسية .

ج - الجسمية .

فإذا عرف مستواهم الذهني وما يناسبهم من المادة العلمية، بدأ التدرج في تلقينهم وتعليمهم ما يراد تعليمه مراعيًا النواحي الذهنية والجسمية والنفسية .

فالمنهج الدراسي الذي يوضع من غير معرفة للمستوى الذهني للطلاب، ثم تنمية مداركهم العامة ببناء الجزئيات على الكلّيات، والتفصيل بعد الإجمال منهج فاشل .

والكتاب المدرسي الذي لا يبنى على معرفة دقيقة لمستوى الطلاب الذهني وما سبق لهم من مادة علمية، وما يحتاجون إليه بعدها، وتدرج المعلومات فيه من السهل إلى الصعب مع وضوح في الأسلوب، وبساطة في العبارة بعيدة عن التعقيد والغموض في الألفاظ كتاب لا يرجى نفعه .

والمدرس، وهو العمود الأساس في العملية التعليمية، إذا لم يدرك هذين الأمرين الأساسيين في العملية التعليمية إدراكاً تاماً، فيعرف مستوى طلابه الذهني، ويضع ما يمدّهم به من معلومات على قواعد وأسس المعلومات السابقة، فإن بناءه سينهار ويسقط .

فعلى المعلم أن يدرك تماماً المستوى الذهني لطلابه، ويمدّهم بما يلائم قدراتهم الذهنية . ويخطئ من يعتقد أن مهمته التلقين أو حشو أذهانهم بالمادة العلمية فحسب، بل عليه أن يراعي مع الناحية العلمية أيضاً الناحيتين الجسمية والنفسية، فلا يستمر في شرح الدرس مثلاً والطلاب في حالة رعب

أو فزع لأمر ما، أو حين يرى أحد طلابه في حالة نفسية تستدعي تدخله وعلاجه.

المعلم الناجح يراعي الناحية الجسمية للطلاب، فيكتشف حالات من في بصره أو سمعه ضعف، فيلتمس علاجه الطبي والفصلي بتقديمه إلى الصفوف الأولى، وزيادة الاهتمام بما يناسب حاله ولا يؤثر على الآخرين.

المعلم الناجح يوازن بين الترغيب والترهيب، فلا يقسو قسوة تنفر منه الطلاب، ولا يضعف حتى يصبح العوبة بين طلابه وتسقط هيئته واحترامه.

المعلم الناجح الذي يعرف كيف يعطي طلابه القدر المناسب من الواجبات المدرسية، فلا يثقل كاهلهم بأدائها، ولا يشغل بقية نهارهم وليلهم في الحفظ أو الكتابة فهم بحاجة إلى الراحة.

المعلم الناجح هو الذي يستطيع المزج بين نظرة الأب لأبنائه ونظرة المعلم لطلابه، فيتفقد شؤونهم ويلاطفهم ويعالج مشاكلهم، فيشعرهم بعطفه، ويظهر لهم محبته، ويريههم حرصه على مصلحتهم.

ولنا في منهج القرآن الكريم في تربية الأمة والتدرج بها بلطف، ورحمة، وحكمة، أسوة حسنة.



أول ما نزل وآخر ما نزل

منذ أن نزل أول شعاع من نور القرآن الكريم والمسلمون يولونه عنايتهم واهتمامهم إلى يومنا هذا بل إلى يوم الدين، حتى بلغت عنايتهم أن عرفوا ما نزل بمكة، وما نزل بالمدينة، وما نزل بالطائف، وما نزل بالجُحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالحديبية، وما نزل في الليل، وما نزل بالنهار، وما نزل في الصيف، وما نزل في الشتاء، وما نزل في السفر، وما نزل في الحضر، ومن ذلك معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل.

ومعرفة ذلك علم توقيفي يعتمد على النقل عن الصحابة أو التابعين، ولا مجال للاجتهاد فيه إلا للترجيح بين الأدلة والنقول.

ويرجع الاختلاف في معرفة أول ما نزل ومعرفة آخر ما نزل إلى أن صاحب كل قول يخبر عن حَدِّ علمه، أو عما بلغه من الدليل، أو أنه أراد أولية مخصوصة ففهمت على غير ما أراد ونحو ذلك.

وبحث العلماء أول وآخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، وأول وآخر ما نزل في معاني خاصة، كأول وآخر ما نزل في الأُطعمة، وأول وآخر ما نزل في الأشربة، وأول وآخر ما نزل في الخمر، وأول وآخر ما نزل في القتال، وأول وآخر ما نزل في الربا، وأول وآخر سورة نزلت كاملة وغير ذلك.

أقوال العلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق :

للعلماء في ذلك أقوال كثيرة منها :

القول الأول : إن أول ما نزل من القرآن (صدر سورة اقرأ) .

وهو قوله تعالى : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ^(١) وهذا القول أصح الأقوال وأرجحها ومن أدلته :

١ - ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق ، وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال له : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده . . . » الحديث ^(٢) .

٢ - ما رواه الحاكم والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : أول سورة نزلت من القرآن ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة العلق : الآيات ١-٥ .

(٢) صحيح البخاري ، ج١ ، ص٣ ، ومسلم ، ج١ ، ص١٤١ واللفظ للبخاري .

(٣) المستدرک : الحاكم ، ج٢ ، ص٢٢٠-٢٢١ ، وص٥٢٩ ، والبيهقي في دلائل النبوة ،

ج٢ ، ص١٥٥ وقال : هذا إسناد صحيح .

٣ - ما رواه الحاكم والطبراني عن أبي رجاء العطاردي، قال: كان أبو موسى الأشعري يقرئنا فيجلسنا حلقاً وعليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. قال: هذه أول سورة نزلت على محمد ﷺ (١).

٤ - ما رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» عن مجاهد قال: إن أول ما نزل من القرآن: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿ت وَالْقَلَمِ﴾ (٢).

القول الثاني: أول ما نزل سورة المدثر:

ودليل هذا القول الحديث الذي رواه البخاري ومسلم، عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: يا أيها المدثر، فقلت: أو اقرأ. قال جابر: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ، قال: «جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري، نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحداً ثم نوديت. فنظرت فلم أر أحداً ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء - يعني جبريل عليه السلام - فأخذتني رجفة شديدة، فأتيت خديجة فقلت: دثروني، فدثروني، فصبوا علي ماء، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَيَا أَيُّهَا فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ (٣) (٤).

(١) المستدرك: الحاكم، ج ٢، ص ٢٢٠ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال السيوطي في الإتقان، ج ١، ص ٣١: (أخرجه الطبراني في الكبير بسند على شرط الصحيح).

(٢) الإتقان: السيوطي، ج ١، ص ٣١، فضائل القرآن لأبي عبيد ١٩٩/٢ رقم (٨١٠).

(٣) سورة المدثر: الآيات ١-٤.

(٤) رواه البخاري، ج ٦، ص ٧٥، ومسلم، ج ١، ص ١٤٤ واللفظ له.

وأجيب عن هذا الحديث :

١ - أن المراد بالأولية في هذا الحديث أولية مخصوصة وليست أولية مطلقة^(١) فيحتمل :

أ - أن المراد أول سورة نزلت بعد فترة الوحي ، ويشهد لهذا قول جابر في رواية أخرى «سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي... الحديث»^(٢) .

ب - أن أول ما نزل للنبوة سورة اقرأ ، وللرسالة سورة المدثر .

ج - أن المدثر أول سورة كمل نزولها ، أي : أن باقية نزل قبل نزول بقية سورة اقرأ وغيرها .

د - أن سورة المدثر أول سورة تنزل لسبب خاص ، حيث إن الرسول ﷺ قال : «دثروني دثروني فنزلت ، أما سورة اقرأ فلغير سبب خاص بل نزلت ابتداء»^(٣) . قال ابن حجر : «ولا يخفى بُعد هذا الاحتمال»^(٤) .

٢ - أن جابراً رضي الله عنه استنبط هذا الرأي باجتهاده وفهمه وليس بنص ما رواه عن الرسول ﷺ ، فتقدم عليه رواية عائشة رضي الله عنها . قال الكرمانى : استخرج جابر «أول ما نزل يأياها المدثر» باجتهاد وليس هو من روايته ، والصحيح ما وقع في حديث عائشة^(٥) .

(١) فتح الباري : ابن حجر ، ج ٨ ، ص ٥٤٦ .

(٢) رواه البخاري ، ج ٦ ، ص ٧٥ .

(٣) انظر الإتقان : السيوطي ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٤) فتح الباري : ابن حجر ، ج ٨ ، ص ٥٤٦ .

(٥) المرجع السابق .

ويشهد لهذا أن جابراً رضي الله عنه أخبر عما سمع، ولم يسمع كل ما حَدَّثَ به رسول الله ﷺ قبل فترة الوحي الذي روته عائشة، فاقصر على ما سمع ظاناً أنه ليس هناك غيره.

٣ - أن في حديث جابر رضي الله عنه ما يدل على أن الرسول ﷺ، رأى جبريل قبل ذلك، حيث جاء في حديث جابر رضي الله عنه «إِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ» وإشارته إليه بالضمير تدل على أنه سبق ذكره، وفي رواية أصرح: «إِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ...».

ولهذا فإن هذا الدليل غير كاف لإثبات أولية النزول لسورة المدثر، بل وصف النووي رحمه الله تعالى القول بأن أول ما نزل سورة المدثر بأنه «ضعيف، بل باطل، والصواب أن أول ما نزل على الإطلاق ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ كما صرح به في حديث عائشة»^(١).

القول الثالث: إن أول ما نزل سورة الفاتحة.

واستدل أصحاب هذا القول بـ:

١ - ما رواه البيهقي عن أبي مسيرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إِنِّي إِذَا خَلُوتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نَدَاءً، وَقَدْ وَاللَّهِ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ هَذَا أَمْرًا» فقالت: معاذ الله ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر... الحديث، وفيه أن خديجة قالت لأبي بكر: اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا إليه فقصا عليه، فقال: «إِذَا خَلُوتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نَدَاءَ خَلْفِي يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ، فَأَنْطَلِقُ هَارِبًا فِي الْأَرْضِ» فقال: لا تفعل، فإذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما

(١) شرح صحيح مسلم: النووي، ج ٢، ص ٢٠٧.

يقول، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه يا محمد قل: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. حتى بلغ ولا الضالين» الحديث^(١).

وقد زعم الزمخشري أن «أكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم»^(٢) ورد عليه ابن حجر: «والذي ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول، وأما الذي نسبته إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول»^(٣) ويعني بالأول صدر سورة اقرأ.

ويرد على أصحاب هذا القول بردود منها:

أ - أن هذا الحديث لا يدل على أن الفاتحة كانت أول ما نزل، بل فيه دلالة على أن جبريل خاطب الرسول ﷺ غير مرة، وليس فيه نفي بنزول شيء من القرآن في بعضها، فلا يصح الاستدلال بهذا على الأولية.

ب - أن الحديث مرسل فلا يقوى على مناهضة حديث عائشة المرفوع، وقد عقب البيهقي على هذا الحديث بقوله: «فهذا منقطع، فإن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزلت عليه ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿يَتْلُهَا الْمُدْرِكِيُّ﴾ والله أعلم»^(٤).

وأورد ابن كثير حديث البيهقي ثم عقب عليه بقوله: «هذا لفظ البيهقي وهو مرسل، وفيه غرابة، وهو كون الفاتحة أول ما نزل»^(٥).

(١) دلائل النبوة: البيهقي، ج٢، ص ١٥٧-١٥٨.

(٢) تفسير الكشاف: الزمخشري، ج٤، ص ٢٢٣.

(٣) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ٣٢، فتح الباري، ج٨، ص ٧١٤.

(٤) دلائل النبوة: البيهقي، ج٢، ص ١٥٩.

(٥) البداية والنهاية: ابن كثير، ج٣، ص ١٠.

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى: «وأما قول من قال من المفسرين أول ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يذكر، والله أعلم»^(١).

القول الرابع: إن أول ما نزل «بسم الله الرحمن الرحيم».

ولأصحاب هذا القول أدلة منها:

١ - حديث أبي ميسرة السابق، وقلنا: إنه حديث مرسل لا يقوى على مناهضة المرفوع.

٢ - ما أخرجه الواحدي عن عكرمة والحسن، قالوا: أول ما نزل من القرآن بسم الله الرحمن الرحيم، فهو أول ما نزل من القرآن بمكة، وأول سورة اقرأ باسم ربك^(٢). وهو أيضاً حديث مرسل لا يقوى على مناهضة حديث عائشة المرفوع.

٣ - ما أخرجه ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، عن الضحاك عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال: أول ما نزل جبريل على محمد. قال: «يا محمد استعذ، قل: أستعذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم» ثم قال: «قل: بسم الله الرحمن الرحيم» ثم قال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها الله على محمد بلسان جبريل^(٣) قال ابن كثير: «وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً»^(٤).

قلت: ومع ضعفه وانقطاعه فهو حجة عليهم لا لهم، إذ إن ابن عباس رضي الله عنهما صرح فيه بأولية نزول اقرأ، ولم يعتد بأولية ذكر البسملة.

(١) شرح صحيح مسلم: النووي، ج ٢، ص ٢٠٨.

(٢) أسباب نزول القرآن: الواحدي، ص ٨ تحقيق السيد أحمد صقر.

(٣) تفسير الطبري، ج ١، ص ١١٣.

(٤) تفسير ابن كثير، ج ١، ص ١٦.

ثم إن البسملة فاتحة لكل سورة تنزل فلا يعتد بأوليئها أولية مطلقة .
وبهذا كله يظهر بطلان هذا القول .

وقد جمع القاضي أبو بكر في «الانتصار» - كما نقله عنه الزركشي - بين
هذه الأقوال فقال :

وطريق الجمع بين الأقاويل أن أول ما نزل من الآيات ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ ﴾
وأول ما نزل من أوامر التبليغ ﴿ يَأْتِيهَا الْمَدِينُ ﴾ وأول ما نزل من السور سورة
الفاتحة^(١) .

أقوال العلماء في آخر ما نزل من القرآن الكريم :

اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في آخر ما نزل من القرآن .

قال البيهقي رحمه الله تعالى في بيان سبب هذا الاختلاف : «قلت : هذا
الاختلاف يرجع - والله أعلم - إلى أن كل واحد منهم أخبر بما عنده من
العلم ، أو أراد أن ما ذكر من أواخر الآيات التي نزلت ، والله أعلم»^(٢) .

وقال القاضي أبو بكر : «هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي
ﷺ ، وكل قاله بضرب من الاجتهاد ، وغلبة الظن ، ويحتمل أن كلا منهم
أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ ، في اليوم الذي مات فيه ، أو قبل مرضه
بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك ، وإن لم يسمعه هو ، ويحتمل أيضاً أن
تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها ،
فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك فيظن أنه آخر ما نزل في
الترتيب»^(٣) .

(١) البرهان : الزركشي ، ج١ ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(٢) دلائل النبوة : البيهقي ، ج٧ ، ص ١٣٩ .

(٣) الإتقان : السيوطي ، ج١ ، ص ٣٧ .

وللعلماء في آخر ما نزل من القرآن الكريم كله أقوال منها:

القول الأول: روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما: أن آخر ما نزل آية الربا، وهي قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١) ومن الأدلة على ذلك:

١ - ما رواه البخاري رحمه الله تعالى في باب «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله» عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا^(٢).

٢ - ما رواه الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه والبيهقي عن سعيد بن المسيب، قال: قال عمر رضي الله عنه: «إن آخر ما نزل من القرآن آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض ولم يفسرها، فدعوا الربا والريبة»^(٣) وفي لفظ آخر «إن من آخر ما أنزل آية الربا...»^(٤).

٣ - ما رواه ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: خطبنا عمر فقال: «إن من آخر القرآن نزولاً آية الربا»^(٥).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧٨.

(٢) صحيح البخاري، ج٥، ص١٦٤-١٦٥.

(٣) مسند الإمام أحمد، ج١، ص٣٦، سنن ابن ماجه، ج٢، ص٣٩. دلائل النبوة:

البيهقي، ج٧، ص١٣٨. وقال الأستاذ: محمود شاكِر: (وهذا الحديث على جلالة

رواته وثقتهم - ضعيف الإسناد لانقطاعه، سعيد بن المسيب لم يسمعه من عمر.

تفسير الطبري، ج٦، ص٣٨ (الهامش).

(٤) مسند الإمام أحمد، ج١، ص٤٩-٥٠.

(٥) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص٣٥، وقال الأستاذ محمود شاكِر: (إسناده صحيح)

تفسير الطبري: ج٦، ص٣٩.

٤ - ما أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» عن ابن شهاب الزهري قال :
«آخر القرآن عهداً بالعرش آية الربا وآية الدين»^(١).

القول الثاني : أن آخر ما نزل قوله تعالى : ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الآية^(٢) واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها :

١ - ما رواه النسائي^(٣) والبيهقي^(٤) من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : آخر شيء نزل من القرآن ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية، ورواه الطبري بلفظ : آخر آية نزلت على النبي ﷺ ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^(٥).

٢ - ما أخرجه ابن مردويه^(٦) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس :
آخر آية نزلت من القرآن على النبي ﷺ : ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

٣ - ما أخرجه ابن جرير الطبري عن الضحاك وعن ابن جريج كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : آخر آية نزلت من القرآن ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا﴾ الآية، قال ابن جريج : يقولون : إن النبي ﷺ مكث بعدها تسع ليالٍ، وبدئ يوم السبت، ومات يوم الاثنين^(٧).

(١) الإتيقان : السيوطي، ج١، ص ٣٦.

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٨١.

(٣) تفسير ابن كثير، ج١، ص ٣٥٧. وقال الأستاذ محمود شاكر : «يريد بها السنن الكبرى» تفسير الطبري، ج٦، ص ٤٠ (الهامش).

(٤) دلائل النبوة : البيهقي، ج٧، ص ١٣٧.

(٥) تفسير الطبري، ج٦، ص ٤٠. وقال شاكر : وهذا إسناد صحيح.

(٦) الدر المنثور، ج١، ص ٣٧٠، والإتيقان، ج١، ص ٣٦، وابن كثير، ج١، ص ٣٥٧.

(٧) تفسير الطبري، ج٦، ص ٤١ ومعنى (بدئ) يعني مرض.

٤ - ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال :
آخر ما أنزل من القرآن كله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية . وعاش
النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليالٍ ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من
ربيع الأول^(١) .

٥ - ما أخرجه الطبري عن عطية العوفي قال : آخر آية نزلت : ﴿ وَاتَّقُوا
يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية^(٢) .

٦ - ما أخرجه ابن جرير الطبري عن السدي الكبير قال : آخر آية نزلت
﴿ وَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾^(٣) .

القول الثالث : أن آخر ما نزل من القرآن آية الدين ، وهي أطول آية في
القرآن الكريم وأولها ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَاصْتَبَوْهُ... ﴾ الآية^(٤) واستدل أصحاب هذا القول بما يلي :

١ - ما أخرجه أبو عبيد في «الفضائل» عن ابن شهاب ، قال : آخر القرآن
عهداً بالعرش آية الربا وآية الدين^(٥) .

٢ - ما أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن شهاب ، قال : حدثني سعيد بن
المسيب : أنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدين^(٦) .

(١) الدر المنثور، ج١، ص ٣٧٠، والإتقان، ج١، ص ٣٦.

(٢) تفسير الطبري، ج٦، ص ٤٠-٤١ وفي سنده سهل بن عامر، قال الأستاذ محمود
شاکر: ضعيف جداً، ج٦، ص ٤١ (الهامش).

(٣) تفسير الطبري، ج٦، ص ٤١.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

(٥) الإتقان: السيوطي، ج١، ص ٣٦.

(٦) تفسير الطبري، ج٢، ص ٤١. وقال الأستاذ محمود شاکر: (هذا إسناد صحيح إلى
ابن المسيب ولكنه حديث ضعيف لإرساله إذ لم يذكر ابن المسيب من حدثه به) اهـ.

الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة :

ومن ينظر إلى هذه الأقوال الثلاثة ويتدبرها يجد أنها بمثابة قول واحد ذلك :

١ - أن هذه الآيات آيات متتابعة في سورة البقرة من الآية ٢٧٨-٢٨٢ فالقول فيها بمثابة قول واحد فكل راوٍ يذكر بعض آخر ما نزل .

٢ - أن ابن عباس رضي الله عنهما روي عنه القول بأن آخر ما نزل آية ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا﴾ وروي عنه القول بأن آخر ما نزل آية الربا . والجمع بين القولين أولى من إبطال أحدهما .

٣ - أن البخاري رحمه الله تعالى أورد بدقته وثاقب نظره قول ابن عباس آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا «في باب قوله تعالى : ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ فجعل بهذه الإشارة الموضوع واحداً والروايتين متحدتين غير متعارضتين رحمه الله^(١) .

ولهذا قال ابن حجر : «وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية يعني ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا﴾ هي ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن»^(٢) .

وقد جمع بينهما السيوطي فقال : «قلت : ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا - واتقوا يوماً - وآية الدين - لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ، ولأنها في قصة واحدة ، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر وذلك صحيح»^(٣) .

وبهذا يظهر أن هذه الأقوال الثلاثة قول واحد وهو القول الصحيح .

(١) قاله الأستاذ أحمد شاکر ، تفسير الطبري ، ج٦ ، ص ٤٠ الهامش .

(٢) فتح الباري : ابن حجر ، ج٨ ، ص ٥٣ .

(٣) الإتقان : السيوطي ، ج١ ، ص ٣٦ .

القول الرابع: أن آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية^(١).

واستدل أصحاب هذا القول بما رواه البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: آخر سورة نزلت براءة، وآخر آية نزلت يستفتونك^(٢).

ولمسلم عن البراء «آخر آية أنزلت آية الكلاله، وآخر سورة أنزلت براءة» وفي لفظ: آخر سورة أنزلت كاملة^(٣).

ويجاب عن هذا بحمل المراد على أنه آخر ما نزل في المواريث، وليس آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، فهي أخرية مقيدة لا مطلقة.

وجمع ابن حجر - رحمه الله تعالى - بين هذا القول والقول بأن آخر ما نزل آية الربا وآية ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا﴾.. الآية بأن الآيتين نزلتا جميعاً فيصدق أن كلا منهما آخرٌ بالنسبة لما عداهما. ويحتمل أن تكون الأخيرة في آية النساء مقيدة بما يتعلق بالمواريث مثلاً بخلاف آية البقرة، ويحتمل عكسه، والأول أرجح لما في آية البقرة من الإشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لخاتمة النزول^(٤).

القول الخامس: أن آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾^(٥).

(١) سورة النساء: الآية ١٧٦.

(٢) صحيح البخاري، ج ٨، ص ٥٣.

(٣) صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٢٣٦-١٢٣٧.

(٤) فتح الباري: ابن حجر، ج ٨، ص ٥٣.

(٥) سورة النساء: الآية ٩٣.

واستدلوا بما رواه البخاري ومسلم - رحمهما الله تعالى - عن سعيد بن جبير قال: آية اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسأله عنها، فقال: نزلت هذه الآية ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ هي آخر ما نزل وما نسخها شيء^(١).

قلت: ويحمل قول ابن عباس رضي الله عنهما على أنه أراد بالآخرة آخر ما نزل في قتل النفس، ويشهد لهذا المعنى قوله في الحديث: «وما نسخها شيء» كما يشهد له الحديث الذي رواه مسلم عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: ألمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة؟ قال: لا. قال: فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى آخر الآية^(٢). قال: هذه آية مكية نسختها آية مدنية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾^(٣).

قلت: فقوله عنها: إنها آخر ما نزل يعني في هذا المعنى، والله أعلم. وقد أشكل هذا القول على السيوطي رحمه الله تعالى فعد هذا القول من غريب ما ورد^(٤).

القول السادس: أن آخر ما نزل الآيتان الأخيرتان من سورة التوبة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ^(٥) ويشهد لهذا القول:

(١) صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٨٢ واللفظ له، ورواه مسلم، ج ٤، ص ٢٣١٧.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٨.

(٣) صحيح مسلم، ج ٤، ص ٢٣١٨.

(٤) الإقتان: السيوطي، ج ١، ص ٣٧.

(٥) سورة التوبة: الآيتان ١٢٨-١٢٩.

١ - ما رواه الحاكم في المستدرک عن أبي بن کعب رضي الله عنه قال :
آخر ما نزل من القرآن ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا
عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(١).

٢ - ما أخرجه ابن مروديه عن أبي أيضاً قال : آخر القرآن عهداً بالله
هاتان الآيتان ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾^(٢).

٣ - ما أخرجه أبو الشيخ^(٣) في «تفسيره» من طريق علي بن زيد عن
يوسف المكي عن ابن عباس قال : آخر آية نزلت : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ
مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾^(٤).

قلت : ويجاب عن هذا القول بأن يحمل المراد بالآخرة على آخر ما
نزل من سورة التوبة لا آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق ، ويشهد لهذا
ما روي أن أبي بن كعب رضي الله عنه قال للذين يجمعون القرآن في عهد أبي
بكر لما بلغوا قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنصَرِفُواْ صرفَ الله قُلُوبَهُمْ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَاَ
يَفْقَهُونَ﴾^(٥) : إن رسول الله ﷺ أقرأني بعدها آيتين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وقال : هذا
آخر ما نزل من القرآن ، قال : فختم بما فتح به بالله الذي لا إله إلا هو^(٦).

(١) المستدرک، ج٢، ص ٣٣٨ وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٢) الإتيقان : السيوطي ، ج١ ، ص ٣٦ .

(٣) هو عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ
ت ٣٦٩ وله كتاب (العظمة) مطبوع .

(٤) الإتيقان : السيوطي ، ج١ ، ص ٣٦ .

(٥) سورة التوبة : الآية ١٢٧ .

(٦) الإتيقان : السيوطي ، ج١ ، ص ٣٦ .

القول السابع: أن آخر ما نزل من القرآن كله قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^(١) واستدلوا بما أخرجه ابن مردويه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: آخر آية نزلت هذه الآية ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إلى آخرها^(٢).

ويجاب عن هذا بأن المراد آخر ثلاث آيات ذكرت النساء فقد روي عنها رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء، فنزلت ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾^(٣) ونزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^(٤) ونزلت هذه الآية^(٥) فلعلها أرادت إن هذه الآية آخر هذه الآيات نزولاً، ولهذا قال السيوطي: «فهي آخر الثلاثة نزولاً أو آخر ما نزل بعد ما كان ينزل في الرجال خاصة».

القول الثامن: أن آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الآية^(٦).

ودليل ذلك ما أخرجه الطبري رحمه الله تعالى عن عمرو بن قيس الكندي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وقال: «إنها آخر آية أنزلت من القرآن»^(٧).

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

(٢) الدر المنثور: السيوطي، ج ٢، ص ١١٢، والإتقان، ج ١، ص ٣٧.

(٣) سورة النساء: الآية ٣٢.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٥.

(٥) الإتقان: السيوطي، ج ١، ص ٣٧.

(٦) سورة الكهف: الآية ١١٠.

(٧) تفسير الطبري، ج ١٦، ص ٤٠ طبعة دار الفكر.

وقد ردَّ ابن كثير رحمه الله تعالى هذا القول بقوله: «وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية آخر سورة الكهف، والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها، ولا تغير حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه، والله أعلم»^(١). وقد عد السيوطي رحمه الله تعالى هذا القول من غريب ما ورد في ذلك^(٢).

قلت: ولعل ابن كثير رحمه الله تعالى سها عن أن هذه الآية مما لا يدخله النسخ، لأنها أمر بالعمل الصالح، ونهي عن الشرك، ومثل هذا لا يمكن أن يدخله نسخ، فلا يصح أن يحمل قصد معاوية رضي الله عنه على أنها لم تنسخ، بل يحمل على أنه أراد أنها آخر آية في سورة الكهف كما مر بنا في آخر سورة التوبة، والله أعلم.

هذه هي أهم الأقوال الواردة في آخر ما نزل من القرآن، وهناك أقوال أخرى يوردها كثير من المهتمين في هذا المبحث مع أنها لا تدخل هنا وإنما في مبحث أوائل وأواخر مخصوصة.

إشكال ودفعه:

قد يشكل فهم قوله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٣).

فإن لم تكن هذه الآية هي آخر ما نزل، بل نزل بعدها آيات فكيف يقول: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؟

(١) تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ١٢٢.

(٢) الإتيقان: السيوطي، ج ١، ص ٣٧.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣.

والجواب: أن هذه الآية نزلت على الرسول ﷺ وهو يخطب في يوم عرفة في حجة الوداع في السنة العاشرة، وبالتحديد ظهر يوم الجمعة ١٠/١٢/٩هـ وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام توفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة ١١هـ، فتكون هذه الآية قد نزلت قبل وفاته ﷺ بنحو واحد وثمانين يوماً، وقد مر بنا أن قوله تعالى: ﴿وَأَنقُضْ يَوْمًا تَزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^(١) قد نزلت قبل وفاته عليه الصلاة والسلام بتسع ليالٍ، وبهذا يظهر أن المراد بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية^(٢)، ليس إكمال نزول القرآن أو أن هذه الآية هي آخر ما نزل منه. وقد بين العلماء المراد بإكمال الدين فمن ذلك:

١ - ما رواه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهو الإسلام قال: أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله - عز ذكره - فلا ينقصه أبداً، وقد رضىه فلا يسخطه أبداً^(٣) وفسر قوله: ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بقوله: كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً، فلما نزلت «براءة» فنفى المشركين عن البيت، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين، فكان ذلك من تمام النعمة ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾^(٤).

٢ - أن المراد بإكمال الدين إكمال الحج، والمعنى اليوم أكملت لكم حجكم، فأفردتم بالبلد الحرام تحجونه أنتم أيها المؤمنون دون المشركين، لا يخالطكم في حجكم مشرك^(٥).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

(٣) تفسير الطبري، ج٩، ص ٥١٨.

(٤) المرجع السابق، ج٩، ص ٥٢١-٥٢٢.

(٥) المرجع السابق، ج٩، ص ٥١٩.

٣ - أن المراد بإكمال الدين إعلاء كلمته وظهوره على الدين كله، وفي حجة الوداع ظهرت شوكة هذا الدين وعلت كلمته، فقد كان المشركون يحجون مع المسلمين ويزاحمونهم في المشاعر، فأمر الرسول ﷺ أن لا يحج مشرك، فامتثل المشركون أمره، وأعلى الله كلمته، ولم يجروا أحد منهم على مخالفته.

قال ابن جرير رحمه الله تعالى: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عز وجل أخبر نبيه ﷺ والمؤمنين به، أنه أكمل لهم - يوم أنزل هذه الآية على نبيه - دينهم بإفرادهم البلد الحرام وإجلائه عنه المشركين، حتى حجه المسلمون دونهم لا يخالطونهم المشركون^(١)».

أوائل وأواخر مخصوصة:

وكما بحث العلماء أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، فقد أولوا عنايتهم واهتمامهم في معرفة أوائل ما نزل وأواخر ما نزل في موضوعات خاصة كالقتال، والربا، والخمر، والأطعمة، والأشربة، وغير ذلك.

ونظراً لما في معرفة ذلك من أثر كبير في معرفة الحكم الشرعي، والذي وقع بجهله عدد من العلماء فضلاً عن من دونهم في أخطاء عظيمة، فافتوا بغير علم فضلووا وأضلوا، وأصبح كلامهم حجة عند آخرين، فإني سأبين هنا بشيء من التفصيل بعض هذه الأوائل والأواخر المخصوصة وهي:

١ - أول وآخر ما نزل في الخمر.

٢ - أول وآخر ما نزل في الربا.

٣ - أول وآخر ما نزل في الجهاد.

(١) المرجع السابق: ج ٩، ص ٥٢٠.

أولاً: أول ما نزل وآخر ما نزل في الخمر:

وإنما قدمته ليكون لوضوحه وظهوره ميزاناً نعرف به مقدار الخطأ الذي وقع من بعض العلماء والمفتين في الموضوعين الآخرين الربا والجهاد.

وتظهر في التدرج في تحريم الخمر والمراحل التي مر بها حكمة الله سبحانه وتعالى، فقد كان الخمر ميسراً في الجاهلية لمبتغيه، فالتمر والعنب أصناف لا يخلو منها بيت في أرض الحجاز، فالنخيل من زراعة المدينة وما حولها ولا يزال، والعنب في الطائف ولا يزال، واعتصارهما خمرأً أمر معروف لا يكاد ينكره أحد، وشربه شأن مألوف لا يكاد يتركه أحد. وليس من السهل الامتنال للإقلاع عنه لأول الأمر ما لم يكن وراء ذلك عقيدة راسخة واقتناع تام.

فجاء القرآن الكريم بترسيخ العقيدة وتثبيت أركانها، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام شرع في الحلال والحرام، ومنه حكم الخمر، مراعيأً أحوالهم فيها، واعتيادهم عليها، متخذاً من رسوخ العقيدة والتدرج في التحريم وسيلة حكيمة لعلاج هذا الداء وانتزاعه من جسد هذه الأمة، فجاء تحريمه بالتدرج. وقد وصفت عائشة رضي الله عنها هذا التدرج فقالت: «إنما نزل أول ما نزل من القرآن سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً. لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب ﴿بِلِلسَاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾^(١). وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»^(٢).

(١) القمر: ٤٦.

(٢) صحيح البخاري، ج٦، ص١٠١.

وجاء التدرج في تحريم الخمر على النحو التالي :

المرحلة الأولى : أول ما نزل في الخمر قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾^(١).

وقد ذكر ابن العربي أقوال العلماء في معنى (سكراً) ثم قال : أما هذه الأقاويل فأسدّها قولُ ابن عباس : «أن السكر الخمر»^(٢) وهل نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر أو بعده؟ قال ابن العربي : والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر، فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدني^(٣).

فتقسيم هذه الآية ما يتخذون من الخمر إلى قسمين هما :

١ - سكراً.

٢ - رزقاً حسناً.

فيه إشارة إلى أن السكر ليس من الرزق الحسن، وإذا لم يكن كذلك فهو من الرزق الخبيث، وقد ورد وصف الرسول ﷺ بقوله تعالى : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾^(٤) وإذا كان السكر من الخبائث، والرسول ﷺ يحرم الخبائث، فالخمر حرام. لكن هذا ليس نصاً يوجب الامتناع والكف، لكنه إشارة فهِمَهَا مَنْ فهِمَهَا توطئة لدرجة أعلى في التحريم وهي المرحلة الثانية.

(١) سورة النحل : الآية ٦٧.

(٢) أحكام القرآن : ابن العربي، ج٣، ص ١١٤١.

(٣) أحكام القرآن : ابن العربي، ج٣، ص ١١٤١.

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٥٧.

المرحلة الثانية: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^(١).

كأن السؤال في هذه الآية نتيجة عدم التصريح بالحكم في الآية الأولى، ولهذا روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال لما نزل تحريم الخمر^(٢): اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ...﴾ الآية^(٣).

وتعتبر هذه المرحلة أعلى من المرتبة التي قبلها في التحريم حيث صرحت بالإثم، وصرحت بأن الإثم أكبر من النفع، وفي ذلك إشارة إلى أن العاقل لا يقدم على فعل شيء ضرره أكبر من نفعه، وأن عليه أن يفكر في ذلك، ولهذا جاءت الفاصلة في الآية ﴿لَمَّا كُمُتُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فكان النص على الإثم توطئة للنص على التحريم ولو في أوقات مخصوصة في المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(٤) وهي أول نص في التحريم، وحتى التحريم كان على مرحلتين: تلك المرحلة هي المرحلة الأولى منه، تحريم في أوقات معينة، وهناك أوقات يظل الخمر فيها مباحا، لكن هذه الأوقات

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

(٢) يقتصر بعض الباحثين على ذكر الآيات الثلاث الأخيرة دون الأولى في تحريم الخمر، وقوله في هذا الحديث: إن عمر قال: لما نزل تحريم الخمر. إشارة إلى أنه سبق نزول هذه الآية آية أخرى، وأنها ليست الأولى.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج١، ص٥٣، والترمذي، ج٥، ص٢٥٣، وأبو داود، ج٣، ص٣٢٥.

(٤) سورة النساء: الآية ٤٣.

تضييق حتى لا يكاد مبتغيها يجدها، فإن شرب بعد الظهر فلن يعلم ما يقول قبل العصر، وإن شرب بعد العصر فلن يعلم قبل المغرب، وإن شرب بعد المغرب فلن يعلم قبل العشاء، ويقل الشرب بعد العشاء لمزاحمته وقت النوم، وهم ليسوا أهل سمر وسهر، فمن يسهر سينام في النهار وكيف يكتسب معاشه، وإن نام بعد العشاء وشرب بعد الفجر فكيف سيعمل ويكتسب وهو في هذه الحالة!! ولهذا قال ابن كثير: «وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً، والله أعلم»^(١)، كل هذا كان إرهاباً وتوطئة لتحريم الخمر تحريماً قاطعاً صارماً عاماً شاملاً في المرحلة الرابعة وهي:

المرحلة الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢).

وللمتدبر أن يطيل النظر فيما تحويه هذه الآية وما بعدها من تهئية للتحريم، ومراعاة لواقع القوم وتمكن الخمر منهم، فمزج النص القاطع في تحريمها ببيان آثارها وعواقب شربها الخطيرة، وآثار طاعة الله وعواقب معصيته.

ثم وصف الخمر بأوصاف تكفي لتحريمها بأنها رجس وبأنها من عمل الشيطان، وكفى بهذين الأمرين إشارة للتحريم، ومع هذا فقد صرح بالحكم (فاجتنبوه) وتلكم - والله - أبلغ كلمة نعم إنها أبلغ من (حرام) أو (فاتركوها) أو (لا تشربوها) لأن من لم يشرب الخمر ولكنها وجدت في بيته أو في

(١) تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٥٤٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٩٠.

غرفته لم يخالف النصوص الأخيرة (حرام، فاتركوه، لا تشربوه) لأنه لم يرتكب شيئاً منها لكنه خالف (فاجتنبوه) إذ الاجتناب يقتضي أن تكون في جانب والخمر في جانب آخر غير جانبك، فإن كانت في غرفتك أو في دارك فأنت لم تجتنبها، والخطاب ليس بالإفراد بل بالجمع للمسلمين عامة، فإذا وجد في بيت جارك وجب على المسلمين إتلافه، فإن لم يفعلوا فإنهم لم يجتنبوه لأنه بينهم، بل إن وجد في بلد آخر من بلاد الإسلام ولهم قدرة على إزالته ولم يفعلوا فهم لم يجتنبوه، إن الأمر بالاجتناب يقتضي أن يكون في جانب وبلاد المسلمين في جانب آخر. أرايتم إلى أي مدى وصل التحريم بهذه الكلمة.

تلکم المراحل التي مر بها تحريم الخمر، ولو قال قائل: إن الخمر فيها إثم وفيها منافع، قلنا: تلکم مرحلة في التحريم، وإن قال: إن الخمر محرمة قرب الصلاة، جائزة في غير أوقات الصلاة، قلنا: تلك مرحلة تجاوزها التشريع إلى مرحلة الحسم في التحريم، فإن الحكم الشرعي إذا مر بمراحل فالحكم للمرحلة الأخيرة فيه.

أقول: هذا توطئة للمرحلتين التاليتين اللتين يقع في خطأ فيهما بعض المفتين، وهما مراحل تحريم الربا، ومراحل تشريع الجهاد.

ثانياً: أول ما نزل وآخر ما نزل في تحريم الربا:

وذلك أن تحريم الربا أيضاً مر بمراحل أربع كالمراحل التي مر بها تحريم الخمر وهي:

المرحلة الأولى: أول ما نزل في الربا قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾^(١).

(١) سورة الروم: ٣٩.

وليس في هذه الآية نص على تحريم الربا، وإنما إشارة إلى أن الله يمحى الربا، فلا ينمو ولا يبارك الله فيه بخلاف الزكاة التي يراد بها وجه الله، فإنه سبحانه يضاعف الثواب لصاحبه.

وهي مرحلة شبيهة تماماً بالمرحلة الأولى في تحريم الخمر حيث بين هناك أن السكر ليس بالرزق الحسن.

المرحلة الثانية: قوله تعالى: ﴿فِظْلٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْباطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(١).

وكما بين في المرحلة الثانية من تحريم الخمر أن فيه إثماً وفيه منافع، وأن الإثم أكبر من النفع، فإنه هنا في المرحلة الثانية من تحريم الربا أشار إلى أن من معاصي اليهود أكلهم الربا وقد نهوا عنه، وفي ذلك إشارة إلى أنه إذا كان أكل الربا والتعامل به محرماً على اليهود، فأولى أن يكون كذلك بين المسلمين، وهم خير أمة أخرجت للناس، وهو تحريم بالتلويح والتعريض لا بالنص الصريح^(٢)، وفي هذا توطئة للنص على التحريم في المرحلة التالية.

المرحلة الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣).

فحرم الربا على مرحلتين، كما حرم الخمر على مرحلتين، وإذا كان تحريم الخمر بدأ بتحريمه في أوقات معينة، فإن تحريم الربا بدأ بتحريم

(١) سورة النساء: الآيتان ١٦٠-١٦١.

(٢) منهج القرآن الكريم في تقرير الأحكام: مصطفى الباجقني، ص ٢٧٦.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣٠.

نسبة منه معينة، وهي ما كانت أضعافاً مضاعفة تمهيداً لتحريمه كله في المرحلة الأخيرة.

المرحلة الرابعة: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿١﴾ وكما أنه - سبحانه - غلظ في تحريم الخمر في المرحلة الأخيرة بالأمر باجتنابه، ووصفه بأنه رجس، وأنه من عمل الشيطان، فإنه هنا في تحريم الربا غلظ في تحريمه بالتهديد والوعيد لأصحابه، ووصفهم بأنهم محاربون لله ورسوله، وهل بعد هذا قول أغلظ في التحريم وأبشع في الوصف.

ولعدم إدراك بعض الناس لهذه المراحل التي مر بها تحريم الربا وقعوا في الخطأ في الفتيا، فأباح بعضهم الربا اليسير، وهو الذي لا يصل إلى الأضعاف المضاعفة، جهلاً منه بأن هذا كان في مرحلة من مراحل تحريم الربا، وأنه بهذا كمن يبيح الخمر في غير أوقات الصلاة مستدلاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (٢) ولعله يظهر بهذا أهمية معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل، والله المستعان.

ثالثاً: أول ما نزل وآخر ما نزل في تشريع الجهاد:

وقد مر تشريع الجهاد بمراحل هي:

المرحلة الأولى: وهي المرحلة المكية، حيث لم يشرع الجهاد، وإنما أمروا بالعفو والصفح، فمن الآيات المكية ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ

(١) سورة البقرة: الآيتان ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) سورة النساء: الآية ٤٣.

يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٢) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ الْمُبِينُ﴾ (٣) ﴿وَلَا تِ السَّاعَةَ لِأَنِّيَ فَاصِّفُ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٤) ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (٥) ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (٦) ﴿وَلَنْصَبِرَ عَلَى مَا أَدْثَبْنَاهُ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٧) والآيات المكية في هذا المعنى كثيرة، فلم يؤمروا بالقتال بل بالكف عنه، وقد صرح بهذا الحكم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ (٨).

المرحلة الثانية: بعد نيف وسبعين آية مكية في النهي عن القتال (٩) أذن بالقتال بمعنى إباحته لا وجوبه للمهاجرين منهم خاصة الذين أخرجوا من ديارهم، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (١٠) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (١١).

قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: ولأن الله لما بعث نبيه وأمره بدعوة الخلق إلى دينه لم يأذن له في قتل أحد على ذلك ولا قتاله، حتى هاجر إلى

(١) سورة الزخرف: الآية ٨٩.

(٢) سورة فصلت: الآية ٣٤.

(٣) سورة النحل: الآية ٨٢.

(٤) سورة الحجر: الآية ٨٥.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٦) سورة المزمل: الآية ١٠.

(٧) سورة إبراهيم: الآية ١٢.

(٨) سورة النساء: الآية ٧٧.

(٩) الكشف: الزمخشري، ج ٢، ص ١٥.

(١٠) سورة الحج: الآيتان ٣٩-٤٠.

المدينة، فأذن له وللمسلمين بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلُمًا﴾^(١).

ورجح ابن العربي أن أول آية نزلت آية الحج ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ﴾ ثم نزل ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ﴾^(٢) فكان القتال إذناً ثم أصبح بعد ذلك فرضاً، ثم أمر بقتال الكل فقال: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ...﴾ الآية^{(٣)(٤)}.

وذلك أن قريشاً حتى بعد أن هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة لم تألوا جهداً للإيقاع بالمسلمين، فأذن الله سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام وللمهاجرين معه بالقتال، فكان رسول الله ﷺ يبعث السرايا وكل أفرادها من المهاجرين وليس فيهم من الأنصار أحد^(٥).

وحتى هذا الإذن كان لقتال المشركين وحدهم دون غيرهم، فاليهود في المدينة لم يؤمر بقتالهم مع أذاهم، بل أمر بالعفو والصفح حتى يأتي الله بأمره، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾^(٦) وفترة هذه المرحلة من الهجرة إلى غزوة بدر.

(١) السياسة الشرعية: ابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى، ج ٢٨، ص ٣٤٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

(٣) سورة التوبة: الآية ٥.

(٤) أحكام القرآن: ابن العربي، ج ١، ص ١٠٢.

(٥) السيرة النبوية: ابن هشام، ج ٢، ص ٢٤٥ وص ٢٥٢. وزاد المعاد: ابن القيم، ج ٢، ص ٨٣.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

المرحلة الثالثة: الأمر بالجهاد للدفاع.

وذلك أن قريشاً تضررت من السرايا التي يبعثها الرسول ﷺ للهجوم على قوافل قريش، فجمعت جمعها، واتجهت إلى المدينة لحماية إحدى قوافلها وإرهاب المسلمين، فانتدب الرسول ﷺ أصحابه للدفاع، والتقى الجيشان في بدر، وفرض قتال الذين يقاتلون المسلمين ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْسِدُوا إِيَّاهُ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١).

فأصبح القتال مفروضاً على المسلمين كافة المهاجرين والأنصار للدفاع عن أنفسهم لا للابتداء. قال الطبري رحمه الله تعالى عن هذه الآية: «هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشرك، وقالوا: أمر فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين، والكف عمن كف عنهم»^(٢).

وفي هذه المرحلة ظل القتال قاصراً على مشركي قريش وبعض اليهود، وحدثت فيها عدة غزوات وسرايا، منها غزوة السويق، وأحد، وحمراء الأسد، وإجلاء بني قينقاع وبني النضير، واستمرت حتى غزوة الخندق^(٣) ومن آيات هذه الفترة^(٤) ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٥) و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٦).

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

(٢) تفسير الطبري، جـ ٣، ص ٥٦١.

(٣) انظر منهج القرآن الكريم في تقرير الأحكام: الباجقني، ص ٢٩٤.

(٤) آيات الجهاد في القرآن الكريم: د. كمال سلامة الدقس، ص ٢١٢.

(٥) سورة الأنفال: الآية ٦١.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

المرحلة الرابعة: فرض الجهاد في سبيل الله:

وفي هذه المرحلة فرض الجهاد ابتداء من غير أن يبدأ الكفار بالقتال، قال تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَضْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(١) وقال سبحانه: ﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

وتبدأ هذه المرحلة في السنة الخامسة للهجرة، حيث زحفت جيوش الأحزاب إلى المدينة حين ألبت قريش قبائل الجزيرة العربية ضد المسلمين بمساعدة بعض زعماء اليهود^(٣) ففرض جهاد الكفار كافة ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾^(٤) وهي آخر مراحل تشريع الجهاد.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - ملخصاً مراحل تشريع الجهاد: «وكان محرماً ثم مأذوناً به، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين»^(٥).

وبمعرفة هذه المراحل يظهر خطأ بعض المتصدين للدفاع عن عقيدة الجهاد، فيخطئون تحت وطأة الهزيمة الداخلية، فيزعمون أن الجهاد للدفاع لا للطلب، فيقفون به عند حد المرحلة الثالثة تماماً كأولئك الذين يزعمون أن الربا الحرام هو ما كان أضعافاً مضاعفة، وهؤلاء وأولئك كمن يعتقد

(١) سورة البقرة: الآية ١٩١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٣.

(٣) منهج القرآن في تقرير الأحكام، ص ٢٩٤.

(٤) سورة التوبة: الآية ٣٦.

(٥) زاد المعاد: ابن القيم، ج ٢، ص ٥٨.

إباحة الخمر، وأن تحريمها قرب وقت الصلاة. وبمعرفة ذلك كله يظهر الحق والصواب، والله المستعان.

فوائد معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل:

وتشترك معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل مع معرفة المكي والمدني في فوائد كثيرة منها:

أولاً: تمييز الناسخ من المنسوخ:

وذلك حين ورود آيتين بحكمين مختلفين، فإن معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل تعين على معرفة الناسخ من المنسوخ، ومثال ذلك قوله تعالى في عدة المرأة المتوفى عنها زوجها ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾^(١) فقد بينت هذه الآية أن العدة عام، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَرْبِصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾^(٢) جعل العدة أربعة أشهر وعشراً، وإذا عرفنا أن هذه الآية هي آخر ما نزل عرفنا أنها هي الناسخة.

ثانياً: معرفة تاريخ التشريع الإسلامي وتدرجه الحكيم في التشريع، وقد مر بنا استعراض المراحل التي مر بها تحريم الخمر، وكيف تمت مراعاة أحوالهم حيث اعتادوا شرب الخمر، لا يكاد يخلو منها بيت، وكيف تدرج في علاج هذه المشكلة حتى خرجوا إلى بر الأمان والسلامة والإسلام بحكمة بالغة.

ثالثاً: الاستعانة بمعرفة أول ما نزل وآخر ما نزل في تفسير القرآن التفسير السليم، واستنباط الحكم الصحيح، وقد عرفنا ذلك في معرفة أول

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٤.

وآخر ما نزل في الربا والجهاد، والخطأ الذي وقع فيه بعضهم بسبب جهل معرفة أول وآخر ما نزل.

رابعاً: تذوق أساليب القرآن الكريم والاستفادة من ذلك في أسلوب الدعوة إلى الله تعالى، حيث يكون بأسلوب لتقرير حكم ثم يختلف الأسلوب لتقرير حكم آخر بالوعد مرة والوعيد أخرى، وبالترغيب أو التهيب، أو بالتخير أو الإلزام حسب ما يناسب الحال.

خامساً: معرفة السيرة النبوية وترتيب أحداثها حسب حديث القرآن عنها، ومتابعة أحوال الرسول ﷺ ومواقفه في الدعوة في مكة، وسيرته في الدعوة إلى الله بعد الهجرة، مما يوقف الدعاة خاصة والمسلمين عامة على أصدق حديث عن أفضل سيرة لأحسن قدوة عليه الصلاة والسلام.

سادساً: إظهار عناية الصحابة والعلماء من بعدهم بالقرآن الكريم حتى عرفوا أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن كله، وفي كل حكم من أحكامه الذي لا يمكن الوصول إليه وإدراكه إلا بالجهد الكبير والاهتمام العظيم، مما يوجب على من بعدهم الاقتداء بهم والسير على نهجهم.



إعجاز القرآن الكريم

جرت سنة الله تعالى أن يظهر على يد كل نبي من أنبيائه معجزة يظهر بها على قومه، وتكون دليلاً على صدقه في أنه مرسل من الله تعالى.

وقد كانت معجزة كل نبي من جنس ما برع فيه قومه، حتى يكون تحديه لهم فيما يعرفون وفيما يتقنون، ليكون التحدي أعظم وأشد.

فجاءت معجزة عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى، وهي من جنس ما برع فيه قومه، وهو الطب وإن لم تكن طباً.

وجاءت معجزة موسى عليه السلام العصا واليد وغيرهما، وهي من جنس ما برع فيه قوم فرعون، وهو السحر وإن لم تكن سحراً.

وجاءت معجزة محمد ﷺ وقد تفوق قومه في البيان والفصاحة والبلاغة، فجاءت معجزته عليه السلام من جنس ما برع فيه قومه، فأنزل الله القرآن، وأعجزهم، ولم يستطيعوا ولن يستطيعوا الإتيان بمثله أو بعضه.

وقد بيّن العلماء هذا العجز عن الإتيان بمثله هذا القرآن بدراسة نصوص التحدي، وإثبات العجز وما يتعلق بذلك كله في هذا المبحث (إعجاز القرآن)، بل تجاوز ذلك إلى أن أصبح هذا الإعجاز علماً مستقلاً.

تعريف المعجزة:

لغة: أصلها مأخوذ من (عجز) قال ابن فارس: العين والجيم والزاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء^(١).

(١) معجم مقاييس اللغة: ابن فارس مادة (عجز)، ص ٧٣٨.

وخلاصة كلام أهل اللغة^(١) في ذلك أن كلمة عجز تطلق على:

١ - العجز بمعنى: الضعف تقول: «عجزت عن كذا، أعجز، أي: ضعفت عنه، والعجوز سميت بذلك لعجزها في كثير من الأمور، قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَوْنَيْتَىٰ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾^(٢).

٢ - العجز بمعنى: مؤخر الشيء، والجمع أعجاز، وأعجاز الأمور: أواخرها، وعَجَزُ الشيء وعِجْزُهُ، وعُجْزُهُ وعَجِزُهُ: آخره، وعجز بيت الشعر: آخره، وعجز المرأة وعجيزتها: مؤخرتها، والعِجْزَةُ: آخر ولد الرجل، وأعجاز النخل، وأعجاز الإبل، وأعجاز الليل: أواخرها، والألف تسميه العرب العجوز؛ لأنه آخر الأرقام عندها، وما بعده يكرر فيقال: عشرة آلاف، مائة ألف، ألف ألف.

وصار العجز في التعارف: اسم للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، قال تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْفَرَابِ﴾^(٣).

أما المعجزة في الاصطلاح فهي:

أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة، يجريه الله تعالى على يد نبيه، شاهداً على صدقه.

شرح التعريف:

ونريد بقولنا: «خارق للعادة» أنها مخالفة لأحكام العادة المألوفة كحرارة النار، وبرودة الثلج، وحدود القدرة البشرية المعتادة، فالمعجزة لا

(١) انظر معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، ص ٧٣٨، ولسان العرب: ابن منظور، ج ٥، ص ٣٦٩-٣٧٣، والمفردات: الأصفهاني، ص ٣٢٥.

(٢) سورة هود: الآية ٧٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣١.

تخضع لهذه الأحكام، ونؤكد أنها مخالفة لأحكام العادة وليست مخالفة لأحكام العقل.

ونريد بقولنا: «مقرون بالتحدي» أن يكون مقصوداً بها تحدي القوم وإثارتهم للإتيان بمثلها، حتى تقوم عليهم الحجة عند عجزهم، والتحدي يكون إما بلسان المقال أو بلسان الحال من غير نطق به أو تصريح بالتحدي.

وقد أخطأ بعض الباحثين فأسقط هذا الشرط معتقداً أن بعض المعجزات غير مقرون بالتحدي، لاعتقاده أن التحدي لا بد أن يكون بلسان المقال.

ونريد بقولنا: «سالم من المعارضة» أنه لا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها، ولهذا فإن معجزات الأنبياء لا تتكرر، فلكل نبي معجزاته الخاصة به، لا يأتي أحد بمثلها حتى من إخوانه الأنبياء، وإلا لاشتراك الأنبياء كلهم في نوع واحد من الخوارق لا يأتي به أحد غيرهم يدل على نبوتهم، ولهذا الاختلاف حكم عديدة، وهي صفة يغفل عنها كثير من الباحثين فيقصرون عدم المعارضة على عامة الناس.

ونريد بقولنا: «يجريه الله على يد نبيه» أن المعجزة وإن جاء بها النبي فليست من عنده، وليست في قدرته، ولكنها من الله.

ونريد بقولنا: «شاهداً على صدقه» أن الإتيان بالمعجزة إنما هو لإقامة الدليل على أنه مرسل من ربه، وإقامة الحجة على قومه.

المعجزة في القرآن الكريم:

ورد في القرآن الكريم استعمال مشتقات كلمة (عجز) نحو ست وعشرين مرة، لكنه لم يرد استعمال مصطلح (معجزة) ولا (إعجاز) في القرآن ولا في السنة.

ولم يعرف إطلاق مصطلح (معجزة) على الأمور الخارقة التي تظهر على أيدي الأنبياء عليهم السلام إلا في أواخر القرن الثاني تقريباً^(١).

وأطلق القرآن على المعجزة عدة مسميات منها:

١ - الآية: في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢) وقال تعالى على لسان صالح عليه السلام: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾^(٣) وفرعون يقول لموسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتَ حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا بِآيَةٍ بَيِّنَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٤).

٢ - البينة: قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿قَدْ جِئْتُكَ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(٥) وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾^(٦).

٣ - البرهان: قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾^(٧) وقال سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه موسى عليه السلام بعدما أمره أن يلقي عصاه فإذا هي حية، وأن يخرج يده فإذا هي بيضاء من غير سوء: ﴿فَدَايَكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾^(٨).

(١) مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، ص ١٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٩.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٧٣.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٠٦.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٠٥.

(٦) سورة الأعراف: الآية ٧٣.

(٧) سورة النساء: الآية ١٧٤.

(٨) سورة القصص: الآية ٣٢.

٤ - السلطان: كما قال الكفار لأنبيائهم: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وأجاب الرسل عليهم السلام ﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. ^(١) وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾. ^(٢)

شروط المعجزة:

وللمعجزة شروط منها ^(٣):

١ - أن تكون من الأمور الخارقة للعادة:

سواء كانت كلاماً كالقرآن الكريم، وتسبيح الحصى بين يدي الرسول ﷺ، وحنين الجذع، وكلام الهدد ونحو ذلك. أو كانت فعلاً كانشقاق القمر، وانفجار الماء من بين أصابعه ﷺ، وتكثير الطعام القليل ونحو ذلك. أو كانت ترك فعل كعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام، وعدم إغراق البحر لموسى عليه السلام وقومه، وعدم تأثير السم في جسده ﷺ.

والمعجز هو الأمر الخارق للعادة، ولو فعل النبي أمراً غير خارق للعادة، ولم يستطع الآخرون فعله، فإن الإعجاز ليس في فعله، وإنما في منعهم وحبسهم عن الإتيان بمثل فعله، كما لو رفع الرسول يده أو مد رجله أو تكلم بالكلام المعتاد، ثم تحدى قومه بالإتيان بمثل فعله أو قوله فلم يستطيعوا ذلك، فإن الإعجاز ليس في فعله هذا أو قوله؛ لأنه ليس خارقاً

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ١٠-١١.

(٢) سورة المؤمنون: الآيتان ٤٥-٤٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ج١، ص ٧٠-٧١، وانظر مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، ص ١٥-١٧ ومنهما اقتبست هذا المبحث.

للعادة، وإنما الإعجاز في هذه الحالة في منعهم وصرفهم عن ذلك؛ لكونه هو الأمر غير المعتاد والخارق للعادة.

٢ - أن يكون الأمر الخارق للعادة من الله:

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَلَايْتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١) وقال الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢) وحين قال الكفار للرسول ﷺ: ﴿أَنْتَ يَقْرَأُ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ﴾ أمره الله أن يقول: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْكَ آيٍ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^(٣).

٣ - سلامتها من المعارضة بالإتيان بمثلها:

إذ لو استطاع البشر الإتيان بمثلها لما صلحت علامة على أن صاحبها مرسل من ربه، فلا بد لكونها علامة على صدق صاحبها في أنه مرسل من ربه أن لا يقدر البشر كلهم، بل والجن معهم، على الإتيان بمثلها؛ لأنها من قدرة الله وحده. كما قال تعالى عن القرآن: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(٤).

٤ - أن تقع وفق مقتضى قول صاحبها:

فلا تقع على خلاف قوله. فإذا جاءت على خلاف قوله لم تصلح دليلاً على دعواه، ولا دليلاً على صدقه؛ لمخالفتها لمقتضى كلامه. كما حدث لأدعياء النبوة.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٩.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ١١.

(٣) سورة يونس: الآية ١٥.

(٤) سورة الطور: الآية ٣٤.

وذلك لأمرين: أولهما: إثبات عجز المخاطبين عن الإتيان بمثلها، وعدم إدعائهم أو من بعدهم عدم وجود الداعي للإتيان بمثلها. وثانيهما: إقامة الحجة عليهم عند عجزهم.

ولا يلزم أن يكون التحدي بلسان المقال كما فهمه بعض المعاصرين، وإنما يكون بلسان المقال وبلسان الحال، إذ المقام مقام صراع، وعناد، واحتجاج يغنى فيه الحال عن المقال في بعض المقام.

إذا الغرض من إظهارها إثبات أمرين: أولهما: أنه صادق في دعوى الرسالة. ثانيهما: أنه مرسل من الله لا من غيره، فينبغي أن يكون إظهارها لإثبات ذلك لا لغيره دونهما.

حتى يصح الاستشهاد بها، أما إذا تقدم وقوع الأمر الخارق على دعوى الرسالة فإنه لا يسمى معجزة، وإنما يسمى إرهاباً كتظليل السحابة للرسول ﷺ وهو في سفره إلى الشام قبل البعثة.

لا يشك مؤمن بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون كله صغيره
وكبيره ومدبر شؤونه، وموجد نظامه، والذي يوجد الشيء من العدم أقدر
على تغيير سنة من سننه أو نظام من أنظمته، بل أقدر على إعادة خلقه
﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُعْزِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۚ ﴾ ٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي
أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿ ١ 〉

287

فالذي جعل النار حارة في قدرته أن يجعلها باردة، والذي خلق القمر قادر على أن يقسمه إلى نصفين، والذي خلق في السم خاصية قادر على سلبها منه، والذي خلق الثعبان من العدم قادر على خلقه من العصا، وهكذا في بقية المعجزات. ومن ينكر هذا فقد أساء الظن بربه وقدرته، واعتقد ربوبية إله عاجز عياداً بالله تعالى.

ومما يحز في النفس ظهور بعض من ينكر الخوارق أو بعضها، ويؤولها بتكلف شديد حتى لا تكون من الأمور الخارقة، فيزعم مثلاً أن المرء إذا اعتقد اعتقاداً جازماً في أمر من الأمور، وتيقنه يقيناً قاطعاً أنه يقع وفق اعتقاده، فإذا اعتقدت امرأة بكر لم تتزوج ولم يجامعها أحد أنها حامل وتيقنت ذلك فإن الحمل يقع!!^(١) ويريدون بذلك تعليل حمل مريم بعيسى عليه السلام، فتكلفوا ما هو أغرب من المعجزة، وفروا من خارق إلى آخرق.

وفسروا فلق البحر لموسى عليه السلام بالمد والجزر، والطيور الأبايل^(٢) بالجراثيم والميكروبات.

ونسي أولئك أن الذي يقدر على جعل الماء سائلاً قادر على أن يجعله متجمداً أو صلباً، وما المانع أو المستغرب أن يجعل نوعاً من أنواع الطيور قادراً على حمل حجارة ورميها على أعداء الله ونحو ذلك.

(١) تفسير المنار، ج-٣، ص ٣٠٩-٣١٠.

(٢) حكاية طريفة أسوقها للعة والعبرة طفل صغير سأله والده ماذا حفظت اليوم؟ فقال: سورة العصافير فاستغرب والده وطلب منه قراءتها وحين قرأها وجد أنه فهم من ذكر الطير الأبايل أنها طيور حقيقية وهو لا يعرف من الطيور إلا العصافير فانظر لهذا العقل الفطري وانظر لتأويلات أهل العقول الكبيرة!!

المراد بإعجاز القرآن الكريم:

للعلماء في تعريف الإعجاز أقوال تختلف ألفاظها وتتحد معانيها، منها تعريف الهمداني أن معناه: «أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة، فعل مثله، في القدر الذي اختص به»^(١).

ويمكن تعريفه بقولنا هو: عجز المخاطبين بالقرآن وقت نزوله ومن بعدهم إلى يوم القيامة عن الإتيان بمثل هذا القرآن، مع تمكنهم من البيان وتملكهم لأسباب الفصاحة والبلاغة، وتوفر الدواعي، واستمرار البواعث.

إثبات إعجاز القرآن الكريم:

حين نزل القرآن الكريم لم ينزل بما يوافق معتقدات الجاهلية أو يداريها، بل نزل هادماً لها، مبطلاً لأصولها، منكراً لمبادئها، ساخراً من معتقداتها، وأهلها أهل جاهلية، أهل عناد واستكبار، أهل طغيان وجبروت، أهل أنفة وعزة، لو كان عندهم أدنى قدرة على معارضة القرآن أو الإتيان بمثله، وقد تحداهم واستثارهم لذلك، ما ترددوا وما تلكؤوا، ولكنهم يعلمون من فورهم أن بينهم وبين ذلك بعد ما بين المشرقين، أو قل بعد ما بين السموات والأرضين.

نعم عجزوا وهم أهل اللغة وأهل البيان «أجل، لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن. وما أدراك ما عصر نزول القرآن؟ هو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي»^(٢) جمعوا الحشود في الصحراء، ورفعوا المنابر في الأسواق

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج ١٦، (إعجاز القرآن)، ص ٢٢٦.

(٢) النبأ العظيم: د. عبد الله دراز، ص ٨٣.

وعرضوا فيها أنفس بضائعهم، وأجود صناعاتهم وما البضاعة إلا بضاعة الكلام، وما الصناعة إلا صناعة الشعر والخطابة، يتبارون في عرضها، ويتنافسون في نقدها، «فما هو إلا أن جاء القرآن . . . وإذا الأسواق قد انفضت إلا منه، وإذا الأندية قد صفرت إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه»^(١) كرروا النظر ورجعوا البصر علّهم يجدون فيه فجوة ينفذون منها فعاد إليهم البصر خاسئاً وهو حسير.

«ولم يسد القرآن عليهم باب المعارضة، بل فتحه على مصراعيه، فدعاهم إليه أفراداً أو جماعات، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، متهمكاً بهم، منتزلاً معهم إلى الأخف فالأخف . . . ، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربة فقال: ﴿لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(٢) وقال: ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(٣) فانظر أي إلهاب!! وأي استفزاز، لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ثم هددهم بالنار، ثم سواهم بالأحجار، فوالله لو كان فيهم لسان يتحرك، لما صمتوا عن منافسته، وهم الأعداء الألداء، وأباة الضيم الأجزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سلماً يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما استطاعوا أن يظهروه، وما استطاعوا له نقباً . . . حتى إذا استيأسوا من قدرتهم، واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم: إلا أن ركبوا متن

(١) المرجع السابق: ص ٨٣-٨٤ بتصرف.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٤.

الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف، وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعاً عن نفسه بالقلم واللسان^(١).

سلكوا مع الرسول ﷺ كل سبيل للتوقف عن دعوته، ساوموه بالمال، وعرضوا عليه الملك، وقاطعوه ومن معه حتى يموتوا جوعاً، وتآمروا على قتله، وأخرجوه من بلده، وسلكوا أصعب الطرق، وأعرضوا كل الإعراض عن الطريق الوحيد الذي عرضه عليهم الرسول ﷺ لإبطال دعوته، وهو أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فوجدوا أن كل سبيل أهون من هذا السبيل، وكل مشقة دون هذا المطلب، فأى شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز كل العجز^(٢).

ولو أثر عنهم معارضة للقرآن الكريم، أو محاولة جادة لتطير خبرها في الأجيال، ولتداولتها الألسن وسطرتها الأقلام، ولكن ذلك لم ولن يكون ما دام هناك مسكة من عقل، أو ذرة من كرامة.

عناية العلماء به وأهم المؤلفات فيه :

كان للعلماء - رحمهم الله تعالى - عناية كبيرة واهتمام عظيم بإعجاز القرآن الكريم. وسبق أن ذكرنا أن مصطلح (المعجزة) أو (إعجاز القرآن) لم يرد في الكتاب ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة رضي الله عنهم، وإنما ورد التعبير عن هذا المعنى بالآية.. والبرهان.. والسلطان.. وغير ذلك.

(١) النبأ العظيم، ص ٨٤-٨٥ بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٧-٨٨ بتصرف.

وهي العبارات التي كان يتداولها العلماء في القرنين الأول والثاني الهجريين عند حديثهم عن إعجاز القرآن، وليس هناك تحديد دقيق لتأريخ ظهور مصطلح إعجاز القرآن.

وقد استعمل هذا المصطلح في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث، ويؤيد هذا أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى (ت ٢٤١هـ) استعمل كلمة (معجزة) للأمر الخارق المؤيد للأنبياء ولما استعمل له من بعده مصطلح (الكرامة)^(١).

كما ظهر استعمال هذا المصطلح عند النِّظام (ت ٢٣١هـ) أحد أئمة المعتزلة حين زعم أن إعجاز القرآن كان بالصَّرْفَةِ - كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى - فتصدى له علماء السنة والجماعة، وردوا عليه، وأبطلوا زعمه، فشاع مصطلح المعجزة، وقَلَّ استعمال مصطلح الآية والبرهان والسلطان وغيرها..

وللمعتزلة عناية خاصة بإعجاز القرآن، ولعل عنايتهم تلك نتيجة عدم اعتمادهم في إثبات نبوة محمد ﷺ إلا على معجزة القرآن دون سواها من المعجزات، يقول الهمداني: «لم يعتمد شيوخنا في إثبات نبوة محمد ﷺ على المعجزات^(٢).. ويقول عن المعجزات: «فلا يصح أن يستدل بها على صحة النبوة، ولذلك اعتمد شيوخنا في تثبيت نبوة محمد ﷺ على القرآن»^(٣) ويوضح هذا الأمر فيقول: «إن شيوخنا أثبتوها معجزة ودلالة، لكنهم لم يجوزوا الاعتماد عليها في مكالمة المخالفين»^(٤) ولهذا كثرت مؤلفاتهم في إعجاز القرآن وبلاغته ومناظراتهم ومجادلاتهم وشطحاتهم.

(١) انظر «فكرة إعجاز القرآن»: نعيم الحمصي، ص ٨.

(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل: عبد الجبار الهمداني، ج ١٦، ص ١٥٢.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

أما أول كتاب يحمل هذا المصطلح في عنوانه فهو كتاب «إعجاز القرآن» الذي ألفه محمد بن زيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦هـ^(١) وهو كتاب مفقود. إلا أن أقدم كتاب خاص بإعجاز القرآن وصل إلينا هو «النكت في إعجاز القرآن» لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤هـ)^(٢) وهو من أئمة المعتزلة.

ثم تتابعت المؤلفات بعد ذلك وكثرت كثرة لا تكاد تحصى قديماً وحديثاً، وليس من السهل حصرها كلها، وسأذكر بعض هذه المؤلفات إجمالاً، فمن المؤلفات قديماً:

١ - النكت في إعجاز القرآن: لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤هـ) وهي رسالة مختصرة جاءت جواباً لسؤال عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، وتقع في سبع وثلاثين صفحة طبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٢ - بيان إعجاز القرآن: لأبي سليمان حمّد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٦هـ)، وهي أيضاً رسالة مختصرة تقع في ٤٧ صفحة وطبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٣ - إعجاز القرآن: لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) طبع بتحقيق عماد الدين أحمد حيدر في مجلد واحد يقع في ٣٢٥ صفحة.

٤ - الرسالة الشافية: لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) وهي رسالة موجزة لكنها شاملة، قرر فيها أن الإعجاز ثابت عن طريق عجز

(١) الفهرست: ابن النديم، ص ١٧٢ أو ص ٢٤٥، والأعلام: الزركلي، ج ٦، ص ١٣٢، وانظر فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، ص ٨، وإعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: د. منير سلطان، ص ٥٠.

(٢) مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم ص ٤٣.

العرب عن معارضة القرآن، وقرر أن العبرة بعجز العرب المعاصرين لنزوله دون المتأخرين عن زمانه، ورد على القول بالصَّرْفَة، وتقع هذه الرسالة في حوالي ٤٠ صفحة وطبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٥ - دلائل الإعجاز: وهو أيضاً لعبد القاهر الجرجاني في مجلد طبع أكثر من مرة بتحقيق أحمد مصطفى المراغي، وطبع كذلك بتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي.

٦ - نهاية الإيجار في دراية الإعجاز: للفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) اختصر فيه كتابي «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني، وزاد فيه بعض الفوائد، وبين يدي طبعة مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧هـ.

٧ - البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: لعبد الواحد الزملكاني (ت ٦٥١هـ) طبع بتحقيق د. خديجة الحديثي؛ ود. أحمد مطلوب في بغداد، الطبعة الأولى عام ١٣٩٤هـ، وتقع مع الفهارس في ٤٣٢ صفحة. وللزملكاني أيضاً كتاب «التيان في علم البيان المطلاع على إعجاز القرآن» طبع في بغداد أيضاً عام ١٣٨٣هـ.

٨ - معترك الأقران في إعجاز القرآن: لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) طبع في ثلاثة مجلدات الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

وأما المؤلفات الحديثة فكثيرة جداً في مختلف أوجه الإعجاز أذكر بعض أشهرها:

١ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: للأستاذ مصطفى صادق الرافعي (ت ١٣٥٦هـ) طبع عدة مرات في مصر. وهو بحق من أفضل المؤلفات في موضوعه قديماً وحديثاً.

٢ - النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز (ت ١٣٧٧هـ) وهو كتاب في الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم أحد ثلاثة أنواع من الإعجاز وعد المؤلف بالكتابة عنها، فأتى الأول، وتوفي قبل تمام الباقي، وامتاز بأسلوبه الأدبي المميز، ودقة استنباطه، وسلاسة لفظه. يقع في ٢١٦ صفحة وطبع أكثر من مرة.

٣ - مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم وكتبه مؤلفه لطلاب قسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمادة إعجاز القرآن، وهو كتاب قيم يقع في حوالي ثلاث مئة صفحة.

٤ - فكرة إعجاز القرآن: تأليف نعيم الحمصي، وهو في أصله مقالات نشرها في مجلة المجتمع العلمي العربي بدمشق، ثم جمعها في هذا الكتاب، وصدرت طبعته الأولى عام ١٣٧٤، والثانية ١٤٠٠هـ، ويقع في حوالي خمس مئة صفحة وهو عرض لقضية إعجاز القرآن الكريم منذ البعثة إلى حين تأليفه.

مراحل التحدي بالقرآن:

ورد التحدي بالقرآن الكريم في خمس آيات من خمس سور، هي على ترتيب السور^(١):

١ - في سورة البقرة: الآية ٢٣ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ الآية.

(١) أما على ترتيب النزول فأولها: آية الإسراء وثانيها: آية يونس وثالثها: آية هود. ورابعها: آية الطور (وكلها مكي) ثم نزل خامسها: آية البقرة في المدينة. انظر البرهان: الزركشي ج١، ص ١٩٣. والإتقان: السيوطي، ج١، ص ٢٧ ويرى الزمخشري والبيضاوي والرازي وأبو حيان وابن كثير وابن عاشور والرافعي وغيرهم أن آية هود نزلت قبل آية يونس.

٢ - في سورة يونس: الآية ٣٨ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ الآية.

٣ - سورة هود: الآية ١٣ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾.

٤ - سورة الإسراء: الآية ٨٨ ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾.

٥ - سورة الطور: الآية ٣٣-٣٤ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾.

والتحدي في هذه الآيات كما ترى جاء مرة بالإتيان بمثل القرآن كله، ومرة بعشر سور، ومرة بسورة، ومرة بحديث مثله. فهل جاء التحدي بالقرآن متدرجاً من الأكثر إلى الأقل أم لا؟ للعلماء في مراحل التحدي بالقرآن الكريم أقوال:

القول الأول: وهو قول جمهور علماء التفسير والبلاغة أن التحدي كان متدرجاً بالقرآن كله كما في سورة الإسراء والطور، ثم تحداهم بعشر سور في سورة هود، ثم تحداهم بسورة في سورة يونس، ثم بسورة من مثله في سورة البقرة، ولكن هذا القول لا يساعد عليه ترتيب نزول القرآن الكريم.

القول الثاني: رتب آيات التحدي حسب ترتيب النزول وأنه كان متدرجاً أيضاً، إلا أن التحدي بسورة وقع قبل التحدي بعشر سور، ثم ذهب أصحاب هذا القول يعللون ذلك بتعليلات ليس فيها ما يقنع.

القول الثالث: وهو ما أرى صوابه أن القولين السابقين قاما على تصور أن الإتيان بمثل القرآن أصعب من الإتيان بمثل عشر سور، وأن الإتيان بالعشر أصعب من الإتيان بسورة، وهذا غير صحيح. لأن القرآن كله قليله

وكثيره على حد سواء في الإعجاز، فليس الإتيان بسورة أسهل من الإتيان بالقرآن كله، فالتحدي في القرآن بالكيف لا بالكم، وبالنوع لا بالمقدار، فلا يهم إذاً أن يكون التحدي بسورة جاء قبل التحدي بعشر سور أو قبل التحدي بالقرآن كله.

واستحالة المجيء بمثل سورة من القرآن كاستحالة المجيء بعشر سور، واستحالة المجيء بمثل القرآن كله على حدٍّ سواء، فكل ذلك متعذر، ولذا فلا أثر للاختلاف في ترتيب آيات التحدي ما دام لا يترتب عليه أثر في قوة التحدي، والعجز كان عن الإتيان بجنس القرآن لا عن مقداره.

مقدار المعجز من القرآن الكريم:

ومما يتصل بالحديث عن مراحل التحدي بالقرآن، الحديث عن القدر المعجز من القرآن الكريم، فقد وقع في هذا القدر خلاف أيضاً على أقوال هي: القول الأول: أن الإعجاز متعلق بجميع القرآن لا ببعضه، وهذا القول مردود بالآيات التي تتحدى بعشر سور وبسورة واحدة أو حديث مثله.

القول الثاني: أن الإعجاز متعلق بسورة تامة طويلة أو قصيرة، وهذا رأي الجمهور، وزاد بعضهم أنه يتعلق أيضاً بقدر سورة تامة^(١) من الكلام بحيث يظهر به تفاضل قوى البلاغة، وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر ثلاث آيات، فيكون مقدار هذه السورة من الآيات معجز.

القول الثالث: أن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره لقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(٢) والتحدي بجنس القرآن لا بالمقدار كما مر بنا بيانه، وهذا هو ما نرجحه، والله أعلم.

(١) إعجاز القرآن: الباقلائي، ص ٢٦١.

(٢) سورة الطور: الآية ٣٤.

استمرار التحدي بالقرآن الكريم:

والتحدي في القرآن الكريم ليس خاصاً بأمة دون أمة أو عصر دون عصر، بل هو باق ما بقي القرآن يعلن للناس تحديه، فقوله عز شأنه: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ آلاُئِشُّوَالْحِجْنَ...﴾ الآية^(١). عام يشمل جميع الإنس في جميع العصور.

ولأن القرآن خاتم الكتب، والرسول ﷺ خاتم الرسل، والإسلام خاتم الأديان، فقد اقتضت الحكمة بقاء المعجزة لتكون شاهدة على كل جيل، كما هي شاهدة على الجيل الأول.

ولئن عجز الجيل الأول، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، وأهل البيان والبديع عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بعضه، أو مجرد محاولة ذلك لعلمهم سلفاً بعجزهم عن ذلك، فإن مَنْ بعدهم أعجز وأبعد عن الاستطاعة، فالإعجاز مستمر، والتحدي قائم إلى يوم القيامة.

وجوه الإعجاز في القرآن الكريم:

من المسلم به بين المسلمين عامة أن القرآن معجزة لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله، لكنهم اختلفوا في بيان وجه الإعجاز فيه، وذكروا أقوالاً كثيرة، ومذاهب مختلفة، وهم في هذا بين مصيب ومخطئ، ومحسن ومسيء.

تعددت الأقوال في وجه أو أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، فمنهم من لم يذكر للإعجاز إلا وجهاً واحداً ومنهم من ذكر وجهين أو أكثر، بل قال السيوطي: «أنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين»^(٢) ثم قال: «والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه»^(٣) وذكر هو في كتابه «معترك الأقران في إعجاز

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن: السيوطي، ج١، ص٥.

(٣) المرجع السابق.

القرآن» خمسة وثلاثين وجهاً ضمنها المجلد الأول منه . وذكر غيره وجوهاً أخرى غير ما ذكره السيوطي . والحق أن بين بعض هذه الوجوه تداخل ، وليس مرادنا هنا حصرها أو ذكرها كلها ، فلنذكر بعض هذه الأقوال :

القول الأول : أن الإعجاز كان بالصَّرْفَة :

القول بالصَّرْفَة هو الباعث على نشأة البحث في وجوه الإعجاز للقرآن الكريم ، فقد كان المسلمون مُسَلِّمين بإعجاز القرآن ، وألفوا في ذلك كتباً تشير بصورة غير مباشرة إلى إعجاز القرآن من غير أن يخوضوا أو يتعمقوا في بيان وجهه ، حتى أظهر النَّظَام (ت ٢٣١هـ) مقولته بالصَّرْفَة ، فثار العلماء لإنكار قوله والرد عليه ، ومن ثم تحديد الوجه أو أوجه الإعجاز الصحيحة في القرآن الكريم .

وأول من قال : إن أعجاز القرآن الكريم كان بالصَّرْفَة هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النَّظَام (ت ٢٣١هـ) أحد أئمة المعتزلة ، وصار له مذهب خاص ينسب إليه ، وقلده آخرون في هذه المقولة ، وتشعب القول فيها إلى شعبتين :

١ - القول الأول : للنَّظَام وآخرين أن المراد بالصَّرْفَة أن الله صرف العرب عن الاهتمام بمعارضة القرآن الكريم مع قدرتهم عليها ، ولو توجهوا إليها لقدروا على الإتيان بمثل هذا القرآن .

٢ - والقول الثاني : للمرتضى من الرافضة ، ومراده بالصَّرْفَة أن الله سلب العرب العلوم التي يحتاجون إليها للإتيان بمثل هذا القرآن ، ولو توجهوا للإتيان بمثله لما استطاعوا لسلبهم هذه العلوم .

والفرق بين رأي النظام وأتباعه والمرتضى ومن معه أن النظام يرى أن العرب لو أرادوا الإتيان بمثله لاستطاعوا ، ولكن همتهم لم تتوجه لذلك ، أما

المرتضى فيرى أن العرب لا يستطيعون الإتيان بمثله، ولو أرادوا ذلك، لأنهم لا يملكون العلوم التي تمكنهم من ذلك. فالفرق بينهما أن النظام يرى أن العرب يستطيعون لو أرادوا، والمرتضى يرى عدم استطاعتهم، وكلا القولين غير صحيح.

ونرد على ذلك بثلاثة ردود:

الأول: رد مشترك على القولين لإبطال القول بالصَّرْفَةِ عامة.

والثاني: رد على مذهب النَّظَام.

والثالث: رد على مذهب المرتضى.

أما الرد العام على القول بالصَّرْفَةِ: فإننا نقول: إنه يلزم من القول بالصرفَةِ أن الإعجاز ليس في القرآن ذاته، وإنما في غيره، وهو عدم استطاعتهم، فالقرآن بزعمهم ليس معجزاً، إنما الإعجاز في المنع، وهذا باطل، قال أبو بكر الباقلاني: «ومما يبطل القول بالصَّرْفَةِ، أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه»^(١).

ونقول أيضاً: إن ديوان العرب محفوظ شعره ونثره، وليس فيه قبل أن يسلبوا الاهتمام بالإتيان بمثله، أو تسلب منهم العلوم كما يزعم هؤلاء وأولئك، ما يماثل القرآن أو يدانيه.

أما الرد على النَّظَام ومن معه: فإننا نقول: كيف يصح القول: إن همتهم لم تتجه للإتيان بمثل القرآن، وهم الذين لم يتركوا سبيلاً للقضاء على دعوة محمد ﷺ، وسلخوا كل طريق شاق، حاربوه، وناوؤوه، وقاطعوه، وأذوه مع إبطاله لمعتقداتهم، وإثارته لحفيظتهم، واستفزازه لمشاعرهم، وإلهابه

(١) إعجاز القرآن: أبو بكر الباقلاني، ص ٥٤.

لغيرتهم، وأصاب موضع عزتهم وفخارهم، وقد مكَّنهم من نفسه لو استطاعوا، فدعاهم وتحداهم أن يأتوا بمثل سورة من القرآن، ولو كان فيهم أدنى قدرة، أو عرفوا أحداً يملكها في أقصى الأرض لبعثوا إليه، كما بعثوا لليهود يسألونهم عما يسألون محمداً ﷺ عنه ليخرجوه، فلا يصح بعد هذا أن يقال: إن همتهم لم تتجه للإتيان بمثله.

وأما الرد على المرتضى ومن معه: ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(١).

وفي هذا دليل على أن عجزهم كان مع بقاء قدرتهم، ولو لم يكن عندهم قدرة لما صح تحديهم، إذ لا يصح لأحد أن يتحدى الموتى، إذ ليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره^(٢) كما لا يصح أن يتحدى المبصر الأعمى، وإنما يصح التحدي إذا تحدى مَنْ يملك البصر، أما إذا سلب البصر لم يصح تحدي مثله، كما أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ يدل على وجود القدرة؛ لأن المعاونة والمظاهرة إنما تمكن مع القدرة، ولا تصح مع العجز والمنع^(٣).

القول الثاني: أن وجه الإعجاز في القرآن الكريم هو الأخبار الغيبية فيه:

وذلك أن القرآن الكريم تضمن عدداً من الأخبار الغيبية في الماضي والحاضر والمستقبل؛ وإذا علمنا أن الرسول ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وعلمنا أن أمته أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها علم يذكر في تاريخ

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٢) الإتقان: السيوطي، ج ٢، ص ١٥١.

(٣) المغني في أبواب التوحيد والعدل: عبد الجبار الهمداني، ج ١٦، ص ٣٢٣.

الأمم الماضية، ومع هذا كله فقد ورد في القرآن الكريم الحديث عن الأمم الماضية بما يظهر أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من عند الله الذي يعلم الغيب في السموات والأرض.

والأخبار الغيبية الواردة في القرآن ثلاثة أنواع:

الأول: الأخبار الغيبية الماضية (غيب الماضي):

وهي الأخبار التي تحدثت عن الأمم الماضية والأنبياء السابقين عليهم السلام، وذلك لعدم تلقي الرسول ﷺ لهذه الأخبار عن أحد من البشر، ولم يقرأها في كتاب، فلم يبق إلا أن يكون تلقاها عن طريق الوحي، ولهذا كان القرآن كثيراً ما يشير إلى هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَزَّتْكَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(١)، وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَسُولٌ مِمَّنْ أَنْبَأَهُمُ اللَّهُ مَا تَكُونُونَ﴾^(٢)، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٣)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّهِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْصِمُونَ ﴿٩﴾ إِنَّ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَهِكُمْ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٤) وقوله جل جلاله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾^(٥) وغير ذلك من الآيات.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٤٤.

(٣) سورة يونس: الآية ١٦.

(٤) سورة ص: الآيات ٦٧-٧٠.

(٥) سورة هود: الآية ٤٩.

الثاني : الأخبار الغيبية عما يقع بغير حضرة الرسول ﷺ (غيب الحاضر) :

إذ كثيراً ما تحدث بعض الأحداث وتقع بعض القضايا ولا يشهدها الرسول ﷺ ولا يحضرها، ومع هذا ينزل عليه الوحي والخبر الصادق حتى قبل أن يصل أحد ممن رآها إلى الرسول ﷺ، وحتى كان الكفار يقول بعضهم لبعض : اخفضوا أصواتكم حتى لا يسمعكم إله محمد، ولهذا كان المنافقون يحذرون ذلك، قال تعالى : ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخِرُوا إِنْ كُنْتُمْ مُخْرَجًا مِمَّا تُحَدِّثُونَ﴾^(١).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ...﴾^(٢) وكقوله تعالى عن المنافقين : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(٣) وغير ذلك من الآيات .

الثالث : الأخبار الغيبية عن أمور مستقبلية (غيب المستقبل) :

وكثيراً ما أخبر القرآن عن أمور ستحدث في المستقبل، ووقعت كما جاءت في القرآن، فمن ذلك قوله تعالى عن ظهور الإسلام وسيادته، وقد كان ذلك فيما بعد ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٤) وعن القرآن، أخبر أنهم لن يأتوا بمثله ﴿قُلْ لَيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ

(١) سورة التوبة : الآية ٦٤ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٧٤ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١٠٧ .

(٤) سورة التوبة : الآية ٣٣ .

ومنه قوله تعالى عن أبي لهب: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وعن امرأته ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾^(٧) والخبر الغيبي في هذا أنه أخبر أنهما في النار، ويقتضي هذا موتهما على الكفر، وقد كان ذلك، ومثله عن أبي جهل^(٨) ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾^(٩) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنِّ عَذَابِ الْجَحِيمِ^(١٠) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ^(١١) فمات على كفره، وكذلك

(٩) سورة الدخان: الآيات ٤٧-٤٩.

أبي بن خلف، قال عنه^(١) ﴿كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّا فِي الْخُطْمَةِ﴾^(٢) فمات على الكفر، والنضر بن الحارث^(٣) ﴿كَأَنَّ فِي أذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٤) والوليد بن المغيرة^(٥) ﴿سَأَصْلِيهِ سَفَرًا﴾^(٦).

ومع قوة هذا الوجه من الإعجاز وتحققه في القرآن الكريم، إلا أنه لا يصح الزعم بأنه وجه الإعجاز في القرآن الكريم، لخلو كثير من الآيات القرآنية من الأخبار الغيبية مع تحقق الإعجاز فيها.

الثالث: أن وجه الإعجاز في القرآن الكريم هو: نظمه:

ومن أدلة أصحاب هذا القول قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ﴾^(٧) فحين زعم الكفار أن أخبار القرآن افتراء وكذب، قطع جدلهم بأن طلب منهم على التسليم بأنه مفتري، أن يأتوا بعشر سور في نظمه وأسلوبه لا صدق خبره حسب زعمهم. فالتحدي هنا بالنظم لا بالأخبار فضلاً عن الأدلة الأخرى الكثيرة على إدراك العرب بذوقهم لإعجاز القرآن في نظمه واستيلائه على ألبابهم.

وقال بهذا الإعجاز عدد من أئمة اللغة والبيان، كالواسطي والجاحظ الذي ألف كتاباً عن نظم القرآن، ومنهم الجرجاني والخطابي وغيرهم.

(١) لباب النقول: السيوطي، ص ٢٣٤.

(٢) سورة الهمة: الآية ٤.

(٣) لباب النقول: السيوطي، ص ١٦٩.

(٤) سورة لقمان: الآية ٧.

(٥) لباب النقول: السيوطي، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٦) سورة المدثر: الآية ٢٦.

(٧) سورة هود: الآية ١٣.

وقد فسر الخطابي هذا الوجه بقوله: «وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمر منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون اثلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة.

١ - لفظ حامل.

٢ - ومعنى به قائم.

٣ - ورباط لهما ناظم.

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظاماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرقة في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً.

ثم ذكر بعض ما احتوى عليه القرآن من أحكام التوحيد والعبادة، والتحليل والتحريم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بمحاسن الأخلاق والزجر عن مساوئها، ثم قال: «ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه

قُدِّرْهُمْ، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله»^(١).

الرابع: أن وجه الإعجاز هو بلاغته:

التي فاقت ما عرفته العرب من صور البلاغة، وعجزوا عن الإتيان بمثلها، وقال بهذا القول عدد من أئمة البلاغة والبيان كالعسكري^(٢)، وحازم القرطاجني^(٣)، والسكاكي الذي ذكر أربعة أقوال لوجه الإعجاز في القرآن فردها كلها ثم قال: «فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة، ولا طريق لك إلى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين بعد فضل إلهي»^(٤).

الخامس: أن وجه الإعجاز في القرآن الكريم علومه ومعارفه:

وذهب إلى هذا القول عدد من العلماء قديماً وحديثاً، قال به الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، والفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، والزركشي (ت ٧٩٤هـ)، والسيوطي (ت ٩١١هـ)، ومن المتأخرين: الجوهري والإسكندراني والكواكبي والمراغي ومحمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدي والقاسمي ومصطفى الرافعي ومحمود شكري الألوسي وابن باديس والغمراوي وعبدالرزاق نوفل وغيرهم كثير^(٥)، وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان لهذا الوجه.

(١) بيان إعجاز القرآن: الخطابي، ص ٢٤-٢٥.

(٢) فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، ص ٦٥.

(٣) الإقتان: السيوطي، ج ٢، ص ١٥٢.

(٤) مفتاح العلوم: السكاكي، ص ٢١٦.

(٥) انظر كتابي اتجاهات التفسير في القرآن الرابع عشر، ج ٢، ص ٥٥٠ وما بعدها.

والأقوال في وجه الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة، وكثرتها ناشئة من تكرار بعضها، إذ إن بعض هذه الأوجه داخل في بعض، قال الألوسي: «قد أطال العلماء الكلام على وجه إعجاز القرآن وأتوا بوجوه شتى، الكثير منها خواصه وفضائله»^(١).

والرأي الراجح في وجه الإعجاز في القرآن أن لا يقتصر على وجه واحد، فإعجازه مركب من وجوه عدة، فهو معجز في نظمه، وفي أسلوبه، وفي بلاغته، وفي أخباره، وفي علومه ومعارفه، كما قال الزركشي رحمه الله تعالى وهو يعدد أوجه الإعجاز: «الثاني عشر: وهو قول أهل التحقيق أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال، لا بكل واحد عن انفراده فإنه جمع كَلَّه، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع، بل وغير ذلك مما لم يسبق»^(٢).

وقال الألوسي في ترجيحه: «والذي يخطر بقلب هذا الفقير أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز بالنظر إلى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب وموافقته لقضية العقل ودقيق المعنى، وقد يظهر كلها في آية، وقد يستتر البعض كالأخبار عن الغيب، ولا ضير ولا عيب فما يبقى كافٍ في العرض وافٍ.

نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكب»^(٣) وسنذكر بعد ذلك بعض أوجه إعجاز القرآن الكريم بشيء من التفصيل المناسب للمقام.

(١) روح المعاني: الألوسي، ج١، ص ٢٩.

(٢) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج٢، ص ١٠٦.

(٣) روح المعاني: الألوسي، ج١، ص ٣١، والبيت لأبي الطمحان القيني، انظر الشوارد:

للأستاذ عبد الله بن خميس، ج١، ص ٦٠ والقفافية عنده (كواكبه).

الإعجاز اللغوي:

وهو أبرز وجوه الإعجاز وأظهرها. إذ هو المطابق لأحوال العرب وقت نزول القرآن، فالتحدي يكون بجنس ما برز فيه القوم وتفوقوا، وهم تفوقوا في البيان والبلاغة والفصاحة، ولم يتفوقوا في العلوم والمعارف وأخبار الغيب أو التشريع أو نحو ذلك، فكان الإعجاز بالبيان أظهر وجوه التحدي وأبرزها. والقوم أدركوا أول ما أدركوا إعجازه البياني، فملك منهم الأبواب، واستولى على الأفئدة.

ويطلق على هذا الوجه عدة مصطلحات فيسمى: (الإعجاز اللغوي) و(الإعجاز البياني) و(الإعجاز البلاغي) وتدخل في هذا المعنى أيضاً أقوالهم المختلفة في أن إعجاز القرآن (بلاغته) أو (فصاحته) أو (ما تضمنه من البديع) أو (نظمه) أو (أسلوبه) أو غير ذلك من فروع اللغة العربية. والناظر في هذا القرآن الكريم لا يخلو من حالتين^(١):

الأولى: أن لا يكون ممن أوتوا قوة المعرفة للفصل بين درجات الكلام والتفريق بين البليغ والأبلغ والفصيح والأفصح.
الثانية: أن يكون قد أوتي حظاً من التمييز بين الأساليب ومعرفة درجات البلاغة والفصاحة.

فإن كنت من الفئة الأولى فلا سبيل لك لمعرفة إعجاز القرآن وبلاغته بحسك وذوقك، وإنما سبيلك أن تقنع بشهادة أهل الخبرة والمعرفة، وهم هنا أهل الفصاحة والبلاغة، والبيان والبديع، وأعلمهم بذلك سليقة، وأجودهم فطرة، وأتقنهم تربية وسماعاً هم من نزل عليهم القرآن، وأولئك

(١) لمزيد من التوسع والبيان انظر كتاب النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز، ص ٩٢ وما بعدها، ومنه اقتبست أفكار هذا المبحث وزينته ببعض ألفاظه.

قد أقرؤا بذلك في مشاهد عديدة، وأقوال كثيرة، فهذا الوليد بن المغيرة يقول لمن أنكر عليه سماعه للقرآن وتأثره به: «والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يآثره عن غيره، فنزلت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾^(١)، وقد وصف الله تفكيره بقوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ^{١٨} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ^{١٩} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ^{٢٠} ثُمَّ نَظَرَ^{٢١} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ^{٢٢} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ^{٢٣} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ^{٢٤} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ^(٢)».

قال الدكتور محمد عبد الله دراز: «فانظر تصوير القرآن للجهد العنيف الذي بذله الرجل في إصدار حكمه الثاني حيث يقول: إنه فكر وقدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر ومعنى هذا كله أنه كان يقاوم فطرته، ويستكره نفسه على مخالفة وجدانه، وأنه كان في حيرة وضيق بما يقول.. وأخيراً استطاع أن يقول ما قال نزولاً على إرادة قومه، وانظر الفرق بين هذا الحكم المصطنع وبين حكم البديهة العربية في قوله أول مرة: إنه يعلو وما يعلى، وإنه يحطم ما تحته» هذه شهادة أهل اللغة نفسها، وهي شهادة خصم، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وإذا لم ترَ الهلال فسَلِّمْ لأناس رأوه بالأبصار

(١) سورة المدثر: الآية ١١.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه، ج-٢، ص ٥٠٦-٥٠٧ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٣) سورة المدثر: الآيات ١٨-٢٥.

وإن كنت من الفئة الثانية، وهم الذين أُوتوا حظاً من تذوق البيان، وشيئاً من إدراك الفصاحة والبلاغة، فدونك نصوص البلغاء، وأبيات الشعراء، وكلمات الخطباء، اختر منها ما شئت من أرقى عصور البلاغة، وأعلى صور البيان، ثم انظر في آية من آيات القرآن، ستجد البون شاسعاً، والفرق كما بين الثرى والثريا أو السماء والأرض.

فإن قلت: نعم، لقد نثرت كنانة الكلام بين يدي وعجمت سهامها، فما وجدت كالقرآن أصلب عوداً، ولقد وردت مناهل القول وتذوقت طعومها فما وجدت كالقرآن أعذب مورداً، وقد آمنت أنه كما وصفتموه غير أن الذي أحس به من ذلك معنى يتجمجم في الصدر لا أحسن تفسيره ولا أملك تعليقه، فهل من سبيل إلى عرض شيء من ذلك علينا لتطمئن به قلوبنا، ونزداد إيماناً إلى إيماننا؟

قلنا: إن هذا أمر جسيم، ومرام بعيد لا يمكن رسمه في هذه العجالة ولو طالت، ولعلنا نذكر ما يقرب البعيد ويدنيه، ونتحدث عن أمرين:

أولهما: ألفاظه وهي القشرة البادية.

ثانيهما: معانيه وهي اللائى الكامنة.

فأول ما يلاقيك من ألفاظه خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره.

١ - دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حقّ ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن، لا بنفس تاليه، ثم انتبذ منه مكاناً قصياً لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغُنَّاتها، ووصلها وسكتها ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وستجد اتساقاً واثلاًفاً يسترعي سمعك، لا يعروك منه على كثرة ترداده ملل ولا سأم. هذا الجمال في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب،

فكيف يخفى على العرب أنفسهم . إنه النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوعاً، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط، يساعد على ترجيع الصوت به، وتهادي النَّفس فيه أنا بعد آن .

٢ - وإذا ما قربت أذنك قليلاً قليلاً، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجةً من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وعلاقاتها مع بعضها، فهذا يُنْقَر، وهذا يُصْفَر، وذاك يُهَمَس، وذلك يُجَهَر، وآخر ينزلق عليه النَّفس، وآخر يحتبس عنده النَّفس وهلمَّ جراً، فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤلفة .

من هاتين الصفتين السابقتين تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني، وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة؛ فاقترضت حكمته تعالى أن يصون معاني القرآن الكريم السامية بألفاظ عذبة تغري بطلاوتها، وتكون بمنزلة (الحُداء) يستحث النفوس على السير إليها، ويهون عليها عناء السفر في طلبها، لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل، ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وآذانهم ما دامت فيهم حاسةٌ تذوق، وحاسة تسمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سرّه، وينفذون بها إلى بعيد غوره .

ثانياً: المعاني :

فإن لم يلهك جمال القشرة البادية عن سامي المعاني المستترة، فكشفت الصدفة عن دُرّها، ونفذت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي، تجلّى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيت ما هو أروع وأبدع، ولا تحسبن ذلك الأمر لا يظهر أمره إلا في مجموع القرآن، بل يظهر ذلك في القطعة منه، ويظهر في السورة، وسنعرض لك لمحة سريعة عن هاتين المرتبتين :

أولاً: بيان القرآن في قطعة قطعة منه :

فمن صفاته :

١ - القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى :

وهما طرفان متقابلان . الميل لأحدهما ميل عن الآخر ، فمن أوجز في لفظه لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً ، ومن يعمد إلى الوفاء بالمعنى ، وإبراز كل دقائقه ، لا يجد في قليل اللفظ ما يشفي صدره ، فيسترسل استرسالاً يشعره بتضاؤل قوة نشاطك ، واضمحلال باعثة إقبالك ؛ فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغائتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع ، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم تجد وفاء الألفاظ بحق المعاني ، واحتواء المعاني للألفاظ ، بحيث لا يستغني معنى عن لفظة ، ولا تقصر لفظة عن معنى ، كما قال ابن عطية : «لو نزعنا منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد»^(١) .

٢ - خطاب العامة وخطاب الخاصة :

وهما أيضاً غائتان متباعدتان ، فما تخاطب به الذكي لا تخاطب به الغبي ، وما تخاطب به الطفل لا تخاطب به الكبير ، أدرك العرب ذلك وسدوا عجزهم عنه بعبارات مثل «لكل مقام مقال» ونحو ذلك .

وجاء القرآن الكريم وقد ملك الغائتين فهو قرآن واحد ، يراه البلغاء أوفى كلام وأبلغه ، ويراه العامة أحسن كلام وأوضحه .

٣ - إقناع العقل وإمتاع العاطفة :

وفي كل إنسان قوتان :

(١) المحرر الوجيز : ابن عطية ، ج١ ، ص ٦٠-٦١ .

أ - قوة تفكير .

ب - قوة عاطفة ووجدان .

والقوة الأولى تغوص باحثه عن الحقائق المستترة والمعاني الباطنة،
وأما الثانية فتطفو تبحث عن الجمال الظاهر في القشرة البادية . والنفس
الإنسانية إما أن تغوص مع تلك أو تطفو مع هذه، ولا تستطيع أن تغوص
وتطفو في آن واحد أو لحظة واحدة .

وحين تظهر (قوة الوجدان) تضعف (قوة التفكير) فلا يتقن عقله فكراً
فإن وفى المتكلم بحق العقل بخس حق العاطفة، وإن وفى بحق العاطفة
بخس حق العقل، فإما أن يأتي بكلام علمي مجرد يرضي به عقله، أو بكلام
أدبي منمق يرضي به عاطفته، حتى بات الناس يقسمون الأساليب إلى نوعين
لا ثالث لهما:

أ - أسلوب علمي .

ب - أسلوب أدبي .

وقسمت الدراسة في عصورنا هذه إلى علمية أو أدبية؛ فلا تطمع من
إنسان في أن يهب لك هاتين الطلبتين على سواء، وهو لم يجمعهما في نفسه
على سواء، وما كلام المتكلم إلا نتاج قوته، إما قوة التفكير، وإما قوة
الوجدان، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

حاشا القرآن الكريم الذي جمع (قوة الحقيقة البرهانية) (وقوة المتعة
الوجدانية) تدبروا في آيات القرآن الكريم فسترون أنها في معمعة البراهين
والأحكام لا تنسى نصيب القلب والوجدان، ذلك أنها كلام الله رب العالمين
الذي لا يشغله شأن عن شأن .

٤ - البيان والإجمال :

وهما أيضاً أمران متقابلان لا يكادان يجتمعان في كلام، إن وجد الأول اضمحل الثاني، وإن وجد الثاني تلاشى الأول. فكلام البشر إما أن يكون مجملًا، وإما أن يكون مبينًا، وأنى له أن يكون مجملًا مبينًا في آن واحد.

أما القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى فالأمر غير ذلك، تقرأ الآية القرآنية فتجد فيها من الوضوح والظهور ما يبوئها الدرجة العليا في البيان بأسلوب محكم خال من كل غريب عن الغرض، يسبق معناها إلى نفسك دون كد ذهن، ولا إعادة تلاوة، فإن أعدت النظر مرة أخرى، لاح لك منها معانٍ جديدة، فإن زدت التدبر زاد العطاء، وانكشف لك ما يجعلك توقن أن في الآية (إجمالًا) لمعانٍ عديدة مع بيان ووضوح.

ثانيًا: بيان القرآن في سورة سورة منه :

وهي أيضاً مرتبة من مراتب البيان في القرآن لها صفات وخصائص أهمها :

الكثرة والواحدة :

فالكلام هو مرآة المعنى، فإن ساء نظمه، تبددت معانيه كما تبدد الصورة الواحدة على المرآة المهشمة أو غير المستوية السطح.

ولا بد لإبراز المعنى ووضوحه من إحكام ألفاظه، وإتقان بيانه، وذلك بتمام التقارب بين كلماته، والترابط بين جملته، حتى تتماسك وتتعانق أشد ما يكون التماسك وأقوى ما يكون العناق.

وليس ذلك بالأمر الهين، بل هو مطلب شاق يحتاج إلى مهارة وحذق، ولطف وحس في اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء، أيها أحق أن يجعل أصلاً أو تنمة، وأيها أحق أن يبدأ به أو يختم، ثم اختيار أحسن الطرق للمزج بينها بالإسناد أو التعليق أو بالعطف، وغير ذلك من أسباب الترابط، ذلك حال

المعنى الواحد الذي تتصل أجزأؤه فيما بينها، فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها، كم تحتاج من المهارة والحدق؟ ولهذه المشقة نرى كثيراً من البلغاء حين ينتقل من معنى إلى معنى لا يستغني عن استعمال بعض الأدوات لسد الثغرة التي يحدثها الانفصال بين المعاني، من نحو قولهم: (وبعد) أو (ونعود) أو (نتنقل إلى الحديث عن) أو (وستحدث) أو (بقي علينا) ونحو ذلك . . .

وهذا شأن البلغاء في الحديث الواحد في المجلس الواحد، فكيف لو جاء حديثه في أماكن مختلفة، وأزمان متباعدة، ألا تكون سمات الانفصال وظواهر الانقطاع أقوى وأشد.

حاشا القرآن فقد اشتملت السورة منه على وصف، وقصص، وتشريع، وجدل، وعقائد، وأمر، ونهي، ونزلت السورة في أوقات مختلفة وأزمان متباعدة، ورتبت آياتها بطريقة عجيبة، يرسم مكان الآية ويحدد قبل أن تنزل الآية التي قبلها أو التي بعدها، ثم لا يحدث أن تنقل من موضعها إلى آخر، فإذا نزل ما حولها من الآيات رأيت الترابط والتلازم كأنهن قطعة واحدة، بل رأيتهن مع بقية آيات السورة كأنهن سبيكة واحدة، فلا تجد فرقاً، ولا يستبين لك أمر في معرفة ما نزل من السورة منجماً، وما نزل منهن مفرقاً، فجاءت الكثرة الكاثرة من المعاني في السورة كأنهن معنى واحداً أو آية واحدة محكمة السبك متقنة السرد^{(١)(٢)}.

(١) إن شئت دراسة وافية دقيقة لنموذج تطبيقي لهذا المعنى فانظر ما كتبه الدكتور محمد عبد الله دراز عن الكثرة والواحدة في سورة البقرة في كتابه النبأ العظيم من ص ١٤٢ إلى نهاية الكتاب.

(٢) إلى هنا انتهى ما اقتبسته مما كتبه في هذا الموضوع الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه القيم «النبأ العظيم» من ص ٩٢، ولمزيد بيان انظر ما كتبه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان» ج ٢، ص ٣٢٥-٣٥٣. والأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» ص ٢١٣-٣٠٩.

الإعجاز العلمي :

القرآن الكريم كلام الله، والكون كله من خلق الله، ولا يشك مؤمن في التطابق التام بين كلام الله تعالى وبين حقائق هذا الكون ونظامه.

ولا ريب أن المؤمن حين يقرأ اكتشافاً علمياً جديداً أثبتته العلماء بالبرهان القاطع، ثم يجد ذلك مذكوراً في القرآن أو ما يوافقه، فإنه يشعر بزيادة الطمأنينة القلبية كالتي طلبها إبراهيم عليه السلام، وبفرح وسرور كفرح الرسول ﷺ بحديث الجساسة^(١).

لكن هذه المقارنة أو التوفيق بين النص القرآني الكريم والاكتشاف العلمي الجديد ينبغي أن تكون له ضوابطه، وأن تكون له موازينه. ولهذا وقع الاختلاف بين العلماء في التفسير العلمي للقرآن الكريم بين مؤيد ومعارض.

المراد به :

يراد بالتفسير العلمي : «اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم ومكتشفات العلم التجريبي، والربط بينهما بوجه من الوجوه» وهذا تعريفه بما هو عليه، أما تعريفه بما ينبغي أن يكون عليه فهو : «كشف الصلة بين النصوص القرآنية وحقائق العلم التجريبي».

والفرق بينهما أن في الأول خلطاً بين النظريات والحقائق، بحيث نجد كثيراً من المفسرين يفسرون القرآن بهما من غير تحقيق، وما ينبغي أن يكون هو التمييز بين النظريات والحقائق، والاقتصار على الثانية دون الأولى في تفسير القرآن الكريم.

(١) انظر حديث الجساسة في صحيح مسلم، جـ ٤، ص ٢٢٦١.

أقوال العلماء في الإعجاز العلمي^(١):

مما لا شك فيه أن مثل هذا اللون من التفسير في جدته وتجده سيكون له خصوم، وسيكون له أنصار، يلتمس كل منهم دليلاً، ينصر به رأيه، ويؤيده به، ثم يكر على دليل الخصم فيبطله.

وقد كان هذا الأمر في التفسير العلمي للقرآن الكريم منذ لحظات بزوغه، ونحن وإن كنا لا نعرف هذا الحدث باليوم أو بالسنة، إلا أن العلماء اتفقوا على أن الإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ من أوائل المتكلمين في هذا النوع من التفسير، وعلى هذا فيكون ظهوره على وجه التقريب في أواخر القرن الخامس الهجري، واتفقوا أيضاً على أن الغزالي نفسه أكثر من استوفى بيان هذا القول إلى عهده^(٢).

ومما لا شك فيه أن الغزالي لم يكن وحيداً في الميدان يجول ويصول، فقد نزل معه أنصار ونازله خصوم، وما زالت المعركة قائمة لم يهدأ لها بال، ولم تقعد لها قائمة، وانقسموا إلى فريقين أو ثلاثة:

١ - المؤيدون للتفسير العلمي.

٢ - المعارضون.

٣ - المعتدلون.

(١) نقلت هذا المبحث بتصرف يسير من كتابي اتجاهات التفسير، ج٢، ص: ٥٥٠، وما بعدها.

(٢) انظر مثلاً: التفسير معالم حياته: أمين الخولي، ص٢٠، والتفسير والمفسرون: الذهبي، ج٣ ص١٤٠، ولمحات في علوم القرآن: محمد الصباغ، ص٢٠٣، والتفسير العلمي للقرآن الكريم: عبد الله الأهدل، ص١٨٥، واتجاهات التفسير في العصر الراهن: عبد المجيد المحتسب، ص٢٤٧، وغيرهم.

المؤيدون للتفسير العلمي :

ومن المؤيدين للتفسير العلمي الإمام الغزالي ، الفخر الرازي ، الزركشي ، السيوطي ، البيضاوي ، نظام الدين النيسابوري ، ومن المعاصرين الألوسي ، وطنطاوي الجوهري ، والإسكندراني ، والكواكبي ، ومحمد فريد وجدي ، والرافعي ، والقاسمي وغيرهم .

من أدلة المؤيدين للتفسير العلمي :

استدل المؤيدون للتفسير العلمي بأدلة كثيرة منها^(١) :

١ - الاستدلال بظاهر عموم بعض الآيات :

كقوله تعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾^(٢) وقوله سبحانه : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٣) وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾^(٤) وقوله سبحانه : ﴿ سَرَّيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾^(٥) وغير ذلك من الآيات الداعية إلى التفكير والتدبر في خلق الله عز شأنه .

٢ - الاستدلال بظاهر عموم بعض الأحاديث والآثار :

كحديث : أن رسول الله ﷺ قال : « ستكون فتن قيل : وما المخرج منها؟ قال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم . . . » الحديث^(٦) .

(١) نقلت هذه الأدلة بتصرف من بحث «التفسير بمكتشفات العلم التجريبي» للدكتور محمد الشايع ، مجلة جامعة الإمام ، العدد الرابع ١٤١١هـ ، ص ٣٧-٤٠ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٣٨ .

(٣) سورة النحل : الآية ٨٩ .

(٤) سورة ق : الآية ٦ .

(٥) سورة فصلت : الآية ٥٢ .

(٦) رواه الترمذي ج ٥ ، ص ١٧٢ ، سبق تخريجه ص ٥٢ .

وما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين»^(١).

٣ - وقالوا: إن الله سبحانه وتعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السموات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وكيفية أحوال الضياء والظلام، وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكر هذه الأمور في أكثر السور وكررها وأعادها مرة بعد أخرى، فلو لم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالهم جائزاً لما ملأ الله كتابه منها^(٢).

٤ - أن العلم الحديث قد يكون ضرورياً لفهم بعض المعاني القرآنية، وليس هناك ما يمنع من أن يكون فهم بعض الآيات فهماً دقيقاً متوقفاً على تقدم بعض العلوم، فتكون الحقيقة العلمية من قواعد الترجيح في التفسير إذا كان للآية أكثر من معنى، فيتعين أن يؤخذ بالمعنى الذي تؤيده الحقائق العلمية.

٥ - تحقق فوائد كثيرة ومنافع كبيرة من التفسير العلمي منها^(٣):

أ - إدراك وجوه جديدة للإعجاز في القرآن الكريم بإثبات التوافق بين حقائق القرآن الكريم وحقائق العلم.

ب - استمالة غير المسلمين إلى الإسلام وإقناعهم به ببيان إعجاز القرآن العلمي، وإقامة الحجة عليهم بذلك.

ج - امتلاء النفوس إيماناً بعظمة الله جل جلاله وعظيم سلطانه وقدرته بعد الوقوف على أسرار الكون التي كشفها القرآن.

(١) الإتقان: السيوطي، ج٢، ص١٢٦.

(٢) تفسير الرازي، ج٤، ص١٢١.

(٣) انظر كتابي «اتجاهات التفسير»، ج٢، ص٦٠٢.

المعارضون للتفسير العلمي:

ومن المعارضين للتفسير العلمي أبو حيان الأندلسي، والشاطبي، ومحمود شلتوت، وأمين الخولي، وسيد قطب وغيرهم.
من أدلة المعارضين^(١):

واستدل المعارضون للتفسير العلمي بأدلة منها:

١ - أن للتفسير شروطاً وقيوداً قررها العلماء ينبغي الالتزام بها، فلا يكون تفسير القرآن مباحاً لكل من حصل علماً من العلوم، وغابت عنه علوم أخرى لا بد منها للمفسر. ومن ذلك عدم تحميل ألفاظ القرآن معاني وإطلاقات لم توضع لها ولم تستعمل فيها.

٢ - أن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، وليس بكتاب تفصيل لمسائل العلوم ونظرياته، ودقائق الاكتشافات والمعارف، ومن طلب ذلك من القرآن فقد أساء فهم طبيعة هذا القرآن ووظيفته.

٣ - أن التفسير العلمي مدعاة إلى الزلل لدى أكثر الذين خاضوا فيه من المعاصرين؛ لأن عملية التوفيق تفترض غالباً محاولة للجمع بين موقفين يتوهم أنهما متعاديان ولا عدا، أو يظن أنهما متلاقيان ولا لقاء^(٢).

٤ - أن تناول القرآن بهذا المنهج يضطر المفسر إلى مجاوزة الحدود التي تحملها ألفاظ النص القرآني؛ لأنه يحس بالضرورة متابعة العلم في مجالاته المختلفة، فيتعجل تلمس المطابقة بين القرآن والعلم تعجلاً غير مشروع.

(١) انظر كتابي اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ج٢، ص ٦٠٢-٦٠٣، والتفسير بمكتشفات العلم التجريبي: د. محمد الشايع، ص ٢٨-٣٣.

(٢) معالم الشريعة: د. صبحي الصالح، ص ٢٩٠.

٥ - أن ما يكشف من العلوم إنما هو نظريات وفروض قابلة دائماً للتغيير والتبديل، والتعديل، والنقض، والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب، ومن ثم فلا يصح أن نعلق الحقائق القرآنية النهائية بمثل تلك النظريات؛ حتى لا نقف محرجين عند ثبوت بطلان تلك النظرية.

الرأي المختار^(١):

قبل أن نذكر ما نراه صواباً يجب أن نذكر حقيقة ينبغي إدراكها وهي التفريق بين التفسير العلمي، والإعجاز العلمي. فالأول هو مثار البحث والمناقشة، وأما الثاني فقضية مسلمة لا نزاع فيها.

ذلكم أن المؤيدين للتفسير العلمي والمعارضين له أيضاً كلهم بلا استثناء يقرون ويعترفون أن القرآن الكريم لم ولن يصادم حقيقة علمية.

لم يقولوا هذا عن عاطفة مجردة، ولم يقله أتباع القرآن فحسب، وإنما قاله أولئك، وقاله خصومه أيضاً، بعد أن تناولوا آيات عديدة منه، وقلبوها دراسة وتأملاً، وتدبراً، ونظروا فيما بين أيديهم من النظريات والحقائق العلمية حتى انتهوا إلى ما انتهوا إليه.

وقد يحسب أحد أن السلامة من مصادمة الحقائق العلمية أمر هين، فما على المتكلم إلا أن يتجنب الخوض في مجالاتها، ويحذر من الوقوع في مبهمات العلوم، وعوامض المعارف، وأسرار الكون، وخفايا العلم، وبذا يظفر بهذه السمة.

والأمر حق لو كان القرآن سلك هذا المسلك، لكنه وقد أنزل قبل أربعة عشر قرناً من الزمن عرض لكثير من مظاهر هذا الكون كخلق السموات والأرض وخلق الإنسان، وسوق السحب وتراكمها، ونزول المطر، وجريان

(١) نقلته بتصرف من كتابي اتجاهات التفسير، ج-٢، ص ٦٠٠-٦٠٤.

الشمس، وتحدث عن القمر والنجوم والشهب، وأطوار الجنين. وعن النبات والبحار وغير ذلك كثير، ومع ذلك كله لم يسقط العلم كلمة من كلماته، ولم يصادم جزئية من جزئياته^(١)، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذا بحد ذاته يعتبر إعجازاً علمياً للقرآن، حتى ولو لم يتم الربط بين الآية والاكتشاف العلمي الحديث.

وهذا أمر يدركه ويقره كل العلماء، لا ينكره أحد، فالإعجاز العلمي في القرآن متحقق مدرك ثابت، لا خلاف فيه.

ثم انقسم العلماء بعد ذلك إلى قسمين: فمنهم من قال: ما دام الإعجاز العلمي متحققاً في القرآن وثابتاً فما علينا أن نطبقه بين آياته واحدة واحدة وبين الحقائق العلمية واحدة واحدة. وامتنعت طائفة أخرى عن تطبيقه لا خوفاً عليه من النقص، وليس لخشية على حقائقه، ولكن لعدم الثقة في مداركنا نحن البشر، فقد نحسب نظرية علمية حقيقة علمية، فما تلبث إلا قليلاً حتى تتقوض بعد رسوخ، وتزعزع بعد ثبوت، ولات حين مناص نقع في الحرج الشديد، فيُكذَّبُ القرآن وهو الصادق، فتكون البلية، فالعيب والنقص في مداركنا وليس في حقائق القرآن.

وبهذا ندرك أن الجميع يقول بالإعجاز العلمي في القرآن، لكن منهم من قال بجواز التفسير العلمي، ومنهم من منعه، والذي نراه صواباً هو الوسط بين الفريقين.

فلا رفض ولا إنكار للتفسير العلمي يمنع من إدراك وجوه الإعجاز الجديدة، ويدفع مزاعم القائلين بالعداوة بين الدين والعلم، ويمنع من استمالة غير المسلمين، أو يحث على الانتفاع بقوى الكون.

(١) انظر كتابي «خصائص القرآن الكريم» ص ٧٥-٧٦.

ولا تسليم مطلق للتفسير العلمي لأن إعجاز القرآن ثابت وغني عن أن يسلك في بيانه هذا المسلك، كما أن الدعوة إلى النظر في الكون دعوة لمواضع العبرة والعظة، وليس بالضرورة إلى بيان دقائقها وكشف علومها، ولأن التفسير العلمي مدعاة إلى الزلل لدى أكثر الذين خاضوا فيه، وأن تناول القرآن بهذا المنهج يضطر المفسر إلى مجاوزة الحدود التي تحتملها ألفاظ القرآن، ويحملها ما لا تحتتمل، فضلاً عن أن ما يكشف من العلوم إنما هو فروض ونظريات قابلة دائماً للتغيير والتعديل والنقص والإضافة.

إذاً فلا رفض مطلق، ولا قبول مطلق، بل وسط بين طرفين، وجمع بين حقيقتين: حقيقة قرآنية ثابتة بالنص الذي لا يقبل الشك، وحقيقة علمية ثابتة بالتجربة والملاحظة القطعيين.

لهذا فلا بأس - فيما أرى - من إيراد الحقائق العلمية الثابتة في تفسير القرآن بشروط:

١ - ألا تطغى تلك المباحث على المقصود الأول من القرآن، وهو الهداية.

٢ - أن تذكر تلك العلوم لأجل تعميق الشعور الديني لدى المسلم والدفاع عن العقيدة ضد أعدائها.

٣ - أن تذكر تلك الأبحاث على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة العلمية.

٤ - أن لا تذكر هذه الأبحاث على أنها هي التفسير الذي لا يدل النص القرآني على سواه، بل تذكر لتوسيع المدلول، وللاستشهاد بها على وجه لا يؤثر بطلانها فيما بعد على قداسة النص القرآني. ذلك أن تفسير النص

القرآني بنظرية قابلة للتغيير والإبطال يثير الشكوك حول الحقائق القرآنية في أذهان الناس كلما تعرضت نظرية للرد أو البطلان^(١).

فإذا تحققت هذه الشروط فلا مانع من إيراد الحقائق العلمية في كتب التفسير، والله أعلم.

من المؤلفات في الإعجاز العلمي:

هناك مؤلفات كثيرة في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، أذكر منها:

١ - الجواهر في تفسير القرآن الكريم: طنطاوي جوهري.

٢ - كشف الأسرار النورانية القرآنية: محمد بن أحمد الإسكندراني.

٣ - القرآن ينبوع العلوم والعرفان: علي فكري.

٤ - ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان:

محمود شكري الألوسي.

٥ - التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن: حنفي أحمد.

والمؤلفات في ذلك كثيرة جداً، وهناك محاضرات وأفلام على هذا النحو، كما أنشأت في المملكة العربية السعودية هيئة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة تابعة للمجلس الأعلى للمساجد، تعقد الندوات والمحاضرات، وتطبع الكتب المتعلقة بذلك.

أمثلة للتفسير العلمي:

والأمثلة على الحقائق العلمية والآيات القرآنية التي توافقها ولا تخالفها كثيرة ليس بوسعنا أن نوردتها بالتفصيل، بل نذكر الآية وما تشير إليه بإيجاز شديد، ومن أراد التوسع فدونه كتب الإعجاز العلمي:

(١) مجلة كلية أصول الدين، العدد الثاني ص ٥٨، مقال: نظرات في مدرسة التفسير الحديثة. د. مصطفى مسلم.

١ - في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾^(١) تفريق بين الشمس والقمر ثم أدركه العلماء بعد ذلك.

٢ - في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۚ وَلِجِبَالٍ أَوْتَادًا﴾^(٢) إشارة إلى شكل الجبل الظاهر والباطن، وأدركه العلماء بعد ذلك.

٣ - في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٣) إشارة إلى مراحل خلق الإنسان في الرحم، ولم يدركها العلماء إلا في العصور الحديثة.

٤ - في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۚ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾^(٤) إشارة إلى موضع تكوّن النطفة، وهو أمر لم يدركه العلماء إلا حديثاً.

٥ - في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَن سُوءَ بَنَانُهُ﴾^(٥) في تخصيص البنان بالذكر صفة تميزه عن غيره من أعضاء الجسم لم يكتشفها العلم إلا حديثاً، وهو علم البصمات.

٦ - في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾^(٦) إشارة إلى مركز الحس بالألم في الإنسان وهو الجلد.

(١) سورة يونس: الآية ٥.

(٢) سورة النبأ: الآيتان ٦-٧.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

(٤) سورة الطارق: الآيتان ٥-٧.

(٥) سورة القيامة: الآية ٤.

(٦) سورة النساء: الآية ٥٦.

٧ - في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾^(١) إشارة إلى ضيق صدر من يصعد إلى السماء، وهو أمر لم يكتشفه العلم إلا حديثاً حيث يقل الأوكسجين وينخفض الضغط.

٨ - وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ الْجُومِ﴾^(٢) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ^(٣) إشارة إلى ما اكتشف العلم الحديث بعضه من عظمة هذا الكون واتساعه الذي يقصر عن إدراكه إنسان.

٩ - وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَكُمُ فِي الْآنَعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُؤْذِنُوا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾^(٤) إشارة إلى ما كان مجهولاً من تحديد مصدر اللبن في الأنعام.

١٠ - وفي قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(٥) أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نُطْفَةٌ مِنْ مَنِيٍّ يُنْتَنَى^(٦) إشارة إلى أن الإنسان يخلق من جزء ضئيل جداً (نطفة) من المنى، وهذا ما كشفه العلم الحديث.

وسبحان الذي أحاط بكل شيء علماً...

الإعجاز التشريعي:

والمراد بهذا الوجه ذلكم (التشريع) الذي جاء به القرآن الكريم الشامل الكامل المحكم المتقن.

(شامل) لكافة أوجه التشريع، سواء ما يتعلق منها بالفرد أو في المجتمع، وسواء أكان في العقيدة أو العبادة أو المبادئ والأخلاق، أو

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٥.

(٢) سورة الواقعة: الآيتان ٧٥-٧٦.

(٣) سورة النحل: الآية ٦٦.

(٤) سورة القيامة: الآية ٣٦-٣٧.

الاجتماع، أو الاقتصاد، أو السياسة في السلم أو الحرب، في السفر أو الحضر، في الليل أو النهار.

(كامل) لاستيفائه لدقيق المسائل وجليلها، وصغيرها وكبيرها.

(محكم متقن) لا نقص فيه ولا عيب، ولا قصور ولا خلل.

أحكم تشريع، وأكمل نظام، عجز البشر ولا زالوا عن الإتيان بمثل تشريعه، أو الإتيان بمثل سياسته أو نظامه فحين ننظر في التشريعات البشرية والقوانين الوضعية نرى البون الشاسع بين هذا وذاك مما يكشف لنا وجه الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم.

فهذا التشريع بشموله وكماله وإحكامه أكبر من أن تحيط به العقول البشرية في جيل واحد أو في مجموعة من الأجيال، فضلاً عن أن يحيط به عقل بشري واحد في جيل واحد.

وليس من السهل أن نرسم في أسطر معالم هذا التشريع المعجز، ولكنها إشارة مجرد إشارة بأصبع صغير إلى شيء عظيم. فنشير إلى أن القرآن نزل في مجتمع جاهلي سادت فيه الجاهلية العقدية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وليس من السهل في مثل هذا المجتمع نقد أمر من أمورها فضلاً عن تغييره، أو قلب الأمور كلها، فسلك القرآن مسلكاً عجيباً.

منهج القرآن في التشريع:

يقوم منهج القرآن في التشريع على أسس منها:

أولاً: تربية الفرد:

ومن شأن كل بناء أن يبدأ بالقطع الصغيرة يصفها بعضها إلى بعض حتى يصبح بناء عظيماً، والأفراد هم لبنات المجتمعات، وتهذيب الأفراد وتربيتهم تأسيس لبناء محكم متقن. ومن أسس هذه التربية:

١ - تطهير قلبه من أدران الشرك :

بيان أن هذه الأصنام والأوثان لا تضر ولا تنفع فلا تستحق العبادة،
 ووبخهم وشنع عليهم ﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ
 أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ ﴾ (١)، وقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَجِيعُوا
 لَهُمْ إِنَّ الْذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ
 الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ (٢) وقال سبحانه :
 ﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ
 يَصُورُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَدَى لَا يَسْتَجِيبُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ
 صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الْذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا
 لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ
 أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَأْذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا
 تُنْظَرُونَ ﴾ (٣)، وقال سبحانه : ﴿ قُلْ أَدْعُوا الْذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ
 ظَهِيرٍ ﴾ (٤)، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ (٥)
 وهكذا في آيات كثيرة كشف أحوال هذه الأصنام والأوثان التي يدعونها من
 دون الله، وبسط الأدلة على عدم استحقاقها للعبادة، فطهر قلوبهم من أدران
 الشرك.

(١) سورة الأنعام : الآية ٧١.

(٢) سورة الحج : الآية ٧٣.

(٣) سورة الأعراف : الآيات ١٩١-١٩٥.

(٤) سورة سبأ : الآية ٢٢.

(٥) سورة فاطر : الآية ١٣.

وبعد أن نزع منهم عقيدة الشرك غرس في الأرض الطيبة عقيدة طيبة، وبعد أن نزع من قلوبهم عبادة الأصنام دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، مثبتاً استحقاقه سبحانه للعبادة وحده دون سواه ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝﴾ وهو الذي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْاسٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْاَيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾، وقال سبحانه : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ۝﴾ (٢)، وقوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًفَتٍ وَيَقَظْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ۝﴾ (٣)، وقال سبحانه : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝﴾ (٤).

ثم بين الوجدانية ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝﴾ (٥)، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝﴾ (٦)، ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝﴾ (٧).

وحذر من أن يشرك به ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ۝﴾ (٨)، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

(١) سورة الرعد : الآيتان ٢-٣ .

(٢) سورة الملك : الآية ٣٠ .

(٣) سورة الملك : الآية ١٩ .

(٤) سورة الأعلى : الآيات ١-٤ .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٦٣ .

(٦) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

(٧) سورة الصافات : الآية ٤ .

(٨) سورة النساء : الآية ٤٨ .

بَعِيدًا^(١)، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ﴾^(٢)، ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَضَ مَدُّمُومًا تَخْذُولًا﴾^(٣)، ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾^(٤).

وإذا كان سبحانه إلهاً واحداً لا شريك له فالعبادة حق له سبحانه وحده، ويجب الإذعان والإسلام له ﴿فَالْهُكْمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ فَلَهُ اسْلِمُوا﴾^(٥)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٦)، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(٧)، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(٨)، ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾^(٩).

٣ - التربية بالعبادة:

وانتقل القرآن بالفرد من صحة العقيدة إلى صحة العبادة، فشرع العبادات التي تهذب سلوك الفرد، وتربطه بربه في كل شأن من شؤونه ومنها:

أ - الصلاة:

وهي صلة بين العبد وربه، وتنتهى عن الفحشاء والمنكر، وهي لقاء يومي بين المسلم وإخوانه خمس مرات في اليوم، ولقاء أسبوعي مع آخرين

(١) سورة النساء: الآية ١١٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ٧٣.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٢.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٣٩.

(٥) سورة الحج: الآية ٣٤.

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

(٧) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

(٨) سورة النساء: الآية ٣٦.

(٩) سورة الأنعام: الآية ١٠٢.

منهم في يوم الجمعة، ولقاء سنوي كالعيدين، وهي مدعاة للترابط والشعور بالمسؤولية المشتركة في بعضها كصلاة الكسوف والخسوف والاستسقاء.

وهي علاج لما نلاحظه في عصرنا هذا من تفكك اجتماعي بين الجيران، حيث لا يكاد الجار يعرف جاره حتى اسمه. رأيتم لو كان هؤلاء الجيران يلتزمون بهذه الشعيرة بأدائها في مسجد واحد خمس مرات في اليوم هل سينكر بعضهم بعضاً، أو يقع بينهم هذا التقاطع.

ب - الزكاة:

وهي تطهير للنفس من الشح والبخل أولاً، وكبح للنفس في لهاثها خلف المادة، وتعليم وأي تعليم أن المال وسيلة وليس بغاية، وتربية للنفس على الإحساس بمعاناة إخوانه المسلمين ومواساتهم، وإعانتهم على قضاء حوائجهم.

ج - الصيام:

كبح لجماح النفس عن شهواتها، وتقوية للتحكم في رغباتها، وترويض لها على الصبر على الطاعات، والاعتدال في الملذات، حتى يسهل انقيادها لصاحبها، فلا تجمع به إن رام خيراً، أو تشرذ به إلى الآفات والشرور.

وهو أيضاً تذكير للمسلم بحالة إخوانه الفقراء المحتاجين، فإن كان المانع له عن الأكل والشرب في هذا الشهر هو التعب، فهناك من يمنعهم طول العام مانع آخر هو الفقر.

د - الحج:

وهو عبادة مالية، بدنية، وفي الأولى بذل للمال لركوبه، وزاده، وسكنه، وهديه، وغير ذلك. وفي هذا مثل ما في الزكاة، وفي الثانية تربية للنفس على تحمل المشاق، وترك ما اعتادت في إقامتها من دعة أو سكون، وتعويد

لها على الصبر على حرارة الصيف أو برد الشتاء، وعلى الحلول والارتحال،
وتغيير المبيت، وكثرة التنقل أشبه ما يكون في جيش المجاهدين في سبيل
الله، ولا تخفى آثار ذلك وفوائده.

وهو فوق هذا لقاء سنوي بين جموع المسلمين من شتى أقطار الأرض،
يتفقد فيه بعضهم أحوال بعض، ويعرف بعضهم بعضاً فيشعر بالأخوة
الإسلامية بأبعادها، ويعاني بعض معاناتهم.

٤ - التربية بتهذيب السلوك:

وبعد تنقية القلب من أدران الشرك، وغرس العقيدة الصحيحة، وتوثيق
الصلة بين العبد وربّه، رسم بحكمة العلاقة بين العباد، وجعلها تقوم على
المحبة والمودة، ونهى عن كل ما يؤدي إلى ضعفها أو وهنها. ونرى معالم
هذه التربية في صور منها:

أ - تزكية النفس:

وذلك يكون بإلزامها بالآداب الحميدة والأخلاق الفاضلة، فأمر بالصبر
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا...﴾ الآية^(١)، ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ
وَالصَّلَاةِ...﴾ الآية^(٢)، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣).
وأمر بالصدق ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ...﴾ الآية^(٤)، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ
صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^(٥)، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٦).

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٠٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٤٥.

(٣) سورة الشورى: الآية ٤٣.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٥.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

وأمر بالعدل والإحسان ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾^(١)، ونهى عن الأخلاق السيئة كالتبخر ورفع الصوت ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ ﴾^(٢) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ^(٣).

وأمر بغض البصر وحفظ الفرج ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَنْبَصِهِمْ وَيَحْفَظُوا أَرْوَاحَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾^(٤).

ب - توثيق أواصر الصلة بين العباد:

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾^(٥)، وأمر بالتأخي ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(٦)، وبالتعاون ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾^(٧)، وأمر بأداء الأمانة والعدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾^(٨).

ج - نهى عن كل ما يؤدي إلى الفرقة والاختلاف:

فنهى عن السخرية ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ... ﴾^(٩) الآية^(١٠) ونهى عن سوء الظن والغيبة والتجسس ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا يُحِبُّ

(١) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٨-١٩.

(٣) سورة النور: الآية ٣٠.

(٤) سورة الأحقاف: الآية ١٥.

(٥) سورة الحجرات: الآية ١٠.

(٦) سورة المائدة: الآية ٢.

(٧) سورة النساء: الآية ٥٨.

(٨) سورة الحجرات: الآية ١١.

أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴿١﴾ ونهى عن شهادة الزور وقول الزور ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٢).

وبهذا يكتمل بناء الفرد، ويصبح لبنة صالحة لبناء أسرة صالحة، قائمة على أسس ثابتة، وقواعد راسخة.

ثانياً: بناء الأسرة:

ومن بناء الفرد وتهذيبه، وإصلاحه وتقويمه إلى بناء الأسرة الواحدة المترابطة المتماسكة، وشرع لها نظامها وأسسها فمن ذلك:

أ - الزواج:

وهو الطريق الصحيح إلى بناء الأسرة، والأرض الصلبة التي يقوم عليها البناء، ولأهمية هذا الأمر وضرورته، وحتى يجد الناس كلهم الدافع القوي لذلك جعل غريزة الجنس من أقوى الدوافع لسلوكه، فهدبها بالزواج، وحفظها بالآداب.

وبين ما للزوج على زوجته من حقوق وما للزوجة على زوجها من حقوق ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (٣).

وجعل القوامة للرجل ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (٤) والقوامة هنا لا تعني التسلط، ولو أدركت النساء في عصرنا هذا معنى القوامة حقاً لطالبن الرجال بالقوامة عليهن وأدائها، وأصررن على قيام الرجل بها، وحُقَّ لهن ذلك.

(١) سورة الحجرات: الآية ١٢.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٤) سورة النساء: الآية ٣٤.

ب - تربية الأولاد:

ومن أسس بناء الأسرة حسن تربية الأولاد، فهم أمانة في أعناق الآباء لهم حقوقهم في حسن التربية، والرعاية والنفقة حتى وهو في بطن أمه المطلقة.

ج - بر الوالدين:

وكما أمر الآباء بأداء حق الأولاد، أمر الأبناء أيضاً ببر الوالدين، وأوصى بذلك ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾^(١)، ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٢).

فإذا أدى الزوج حق زوجته، وأدت الزوجة حق زوجها، وأدى الابن حقوق والديه، وأدى الآباء حقوق الأبناء، أصبحت الأسرة متماسكة مترابطة تصلح وأي صلاح لبناء مجتمع قوي.

ثالثاً: بناء المجتمع:

وإذا كان بناء الأسر يقوم على بناء الأفراد وهم لبناته، فإن بناء المجتمعات يقوم على هذه الأسر، وقد رسم القرآن نظام هذا المجتمع ووضع له أسسه ونظامه فشرع لذلك:

١ - الحكومة الإسلامية:

إذ لا يستقيم لمجتمع أن يظل على ترابطه ما لم يكن له حكومة تسوسه وترعاه، وتتفقدته وتحميه وتنظم شؤونه، وترتب أموره، وجعل لهذه الحكومة نظامها وقواعدها فمن ذلك:

(١) سورة الأحقاف: الآية ١٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

أ - الشورى :

وقد أمر الله بذلك نبيه ، ومن باب أولى ولاية الأمر من بعده ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَنْتَهُم ﴾ ^(٢) ولأهمية الشورى سميت سورة كاملة باسمها .

ب - الحكم بما أنزل الله :

ويجب على هذه الحكومة أن تحكم بما أنزل الله ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ^(٣) ، ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ^(٤) ، ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ^(٥) .

ج - العدل :

الذي لا يفرق بين حاكم ومحكوم ، وكبير وصغير ، وغني وفقير ، وعربي وعجمي ، وأسود وأبيض ، إلا بالتقوى ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ^(٦) ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ ^(٧) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٣٨ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٤٤ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٤٥ .

(٥) سورة المائدة : الآية ٤٧ .

(٦) سورة النساء : الآية ١٣٥ .

(٧) سورة النحل : الآية ٩٠ .

حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١﴾ وهو عدل لا يتأثر بغضب أو كره أو حقد ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (٢).

د - المحافظة على الكليات الخمس:

وعلى الحكومة الإسلامية المحافظة على الكليات الخمس، وهي: (النفس، الدين، العرض، المال، العقل) ففي النفس القصاص ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٣)، ﴿وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ (٤).

وفي العرض: ﴿الرَّابِئَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (٥)، ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ (٦).

وفي المال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (٧).

وحرم ما يزيل العقل ولو إلى حين كشرب الخمر، وفي الدين حرم الردة عن دين الله والعياذ بالله، وأوجب الله في هذا وذاك العقوبات الصارمة.

هـ - تنظيم العلاقات الدولية:

وعلى الحكومة الإسلامية أن تنظم علاقات هذا المجتمع الإسلامي بالمجتمعات الأخرى في حالة الحرب والسلم وما يتعلق بذلك من تشريع الجهاد وتنظيمه، والغنائم وأحكامها والمعاهدات وغيرها.

(١) سورة النساء: الآية ٥٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٨.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٧٩.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٥.

(٥) سورة النور: الآية ٢.

(٦) سورة النور: الآية ٤.

(٧) سورة المائدة: الآية ٣٨.

٢ - ومما شرعه القرآن لبناء المجتمع السمع والطاعة لولي الأمر :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(١) وعندما يتدبر المسلم هذه الآية ويكرر تلاوتها، سيجد الإلحاح والحث على الطاعة لما في العصيان والتمرد من أثر سيئ ليس على الفرد بل على بناء المجتمع كله.

٣ - تحريم الخروج على جماعة المسلمين :

وكما حرم الخروج على ولي الأمر ما لم نر كفراً بواحاً حرم الخروج على جماعة المسلمين ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا...﴾ الآية^(٢).

وقال سبحانه : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٣)، وقال سبحانه : ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤) وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية^(٥).

وبهذا كله يتم بناء المجتمع وترابطه، واتحاده وقوته ويصبح للمسلمين قوة ولهم شأن عظيم.

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٠٣ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٠٥ .

(٤) سورة الروم : الآيتان ٣١-٣٢ .

(٥) سورة التوبة : الآية ١٠٧ .

بهذا المنهج التشريعي الحكيم جاء القرآن الكريم، فدرسه العلماء وتدبروه، وتفكروا فيه وخرجوا بنتيجة واحدة هي أن في تشريعه إعجازاً لا يمكن للبشر أن يخترعوه.

ويمكن أن نختم الحديث عن الإعجاز التشريعي بذكر أهم مزاياه فمنها^(١):

١ - أن التشريع مظهر لهداية القرآن:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٢).

٢ - أنه خير تشريع، وأصدق حديث، وأعدل حكم:

قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾^(٣).

٣ - الشمول:

فهو في أحكامه شامل لجميع جوانب الحياة العقيدية والتعبدية، والاقتصادية والسياسية، والاجتماعية وغير ذلك.

٤ - وجوب العمل به:

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٥).

(١) نقلتها بتصرف من كتاب البيان في إعجاز القرآن: د. صلاح الخالدي، ص ٣٢٣-

(٢) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

(٤) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٥) سورة المائدة: الآية ٤٤.

٥ - تحريم أخذ بعضه وترك بعضه :

كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ ^(١) ، وقال سبحانه : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ ^(٢) .

٦ - اليسر :

قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ^(٣) ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ^(٤) ، وقال سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ^(٥) .

٧ - وجوب الإيمان بكمال الشريعة وإحكامه :

لأنه من الله وهو أحكم الحاكمين ﴿ إِنَّا نَسْتَعْلِمُ أَمْرَ اللَّهِ ﴾ ^(٦) والله أعلم .



(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٨٥ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٤) سورة الحج : الآية ٧٨ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٢٨٦ .

(٦) سورة البقرة : الآية ١٤٠ .

القراءات والقراء

القراءات لغة:

القراءات جمع قراءة، والقراءة مصدر سماعي لقراء، تقول: قرأ يقرأ قراءة، وقرآنًا وقرءًا، والقرء في اللغة الجمع والضم، تقول: قرأت الماء في الحوض، إذا جمعته، وسميت القراءة قراءة؛ لأن القارئ يجمع الحرف مع الحرف فتكون الكلمة، والكلمة مع الكلمة فتكون جملة، والجملة مع الجملة. فهو يقرأ يعني يجمع ذلك كله.

القراءات اصطلاحاً:

يخلط كثير من الباحثين بين تعريف القراءات وتعريف علم القراءات، والفرق بين القراءات وعلم القراءات كالفرق بين القرآن الكريم وعلوم القرآن الكريم.

فالقراءة: هي مذهب من مذاهب النطق بالقرآن الكريم؛ يذهب إليه إمام من الأئمة مذهباً يخالف غيره مع اتفاق الروايات والطرق عنه، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها^(١).

ومذهب النطق بالكلمة القرآنية له مسميات هي:

قراءة، رواية، طريق، وجه.

فالقراءة: ما نسب إلى أحد أئمة القراءات إذا اتفقت الروايات والطرق عنه.

(١) مناهل العرفان: الزرقاني، ج١، ص ٤١٠.

والرواية: ما نسب إلى الآخذ عن هذا الإمام ولو بواسطة.

والطريق: ما نسب إلى الآخذ عن الراوي ولو نزل.

والوجه: ما نسب إلى تخير القارئ من قراءة يثبت عليها وتؤخذ عنه^(١).

قال السيوطي: «الخلافاً إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم، واتفقت عليه الروايات والطرق عنه، فهو قراءة، وإن كان للراوي عنه، فرواية، أو لمن بعده فنازلاً فطريق، أو لا على هذه الصفة مما هو راجع إلى تخير القارئ فيه، فوجه»^(٢).

تعريف علم القراءات:

وأما علم القراءات:

فهو: علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية، وطريق أدائها اتفاقاً أو اختلافاً، مع عزو كل وجه لناقله^(٣)، أو «علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزواً لناقله»^(٤).

موضوعه:

كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النطق بها، وكيفية أدائها.

استمداده:

النقول الصحيحة والمتواترة من علماء القراءات إلى رسول الله ﷺ.

(١) إتحاف فضلاء البشر: البناء، ج١، ص ١٠٢.

(٢) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ٩٩.

(٣) البدور الزاهرة: عبد الفتاح القاضي، ص ٥.

(٤) منجد المقرئين: ابن الجزري، ص ٣، لطائف الإشارات: القسطلاني، ص ١٧٠،

وإتحاف فضلاء البشر: البناء، ج١، ص ٦٧.

حكمه :

فرض كفاية تعلماً وتعليماً.

ثمرته وفائده :

العصمة من الخطأ في النطق بالكلمات القرآنية، وصيانتها عن التحريف والتغيير، والعلم بما يقرأ به كل إمام من الأئمة القراء، والتمييز بين ما يُقرأ به، وما لا يُقرأ به.

مكانته :

علم القراءات من أجلّ العلوم قدراً، وأعلاها منزلة، لاتصاله بأشرف الكتب السماوية وأفضلها على الإطلاق، وهو القرآن الكريم^(١)، وشرف العلم من شرف المعلوم.

قال القسطلاني: فإن القرآن ينبوع العلوم ومنشؤها، ومعدن المعارف ومبدؤها، ومبنى قواعد الشرع وأساسه، وأصل كل علم ورأسه، والاستشراق على معانيه لا يتحقق إلا بفهم وصفه ومبانيه، ولا يطمع في حقائقها التي لا تنتهي لغرائبها ودقائقها إلا بعد العلم بوجوه قراءته، واختلاف رواياته، ومن ثم صار علم القراءات من أجلّ العلوم النافعات^(٢).

نشأة علم القراءات :

ليس هناك تاريخ مقطوع به عند العلماء لنزول القراءات، فمن المعلوم أن القرآن الكريم نزل أول ما نزل في غار حراء قبل الهجرة بنحو ثلاث عشرة سنة، أما القراءات نفسها فاختلف العلماء في بدايتها على قولين^(٣):

(١) صفحات في علوم القراءات: عبد القيوم السندي، ص ٢٣.

(٢) لطائف الإشارات لفنون القراءات: القسطلاني، ص ٦.

(٣) انظر صفحات في علوم القراءات: عبد القيوم السندي، ص ٢٨-٣٠.

الأول: أنها نزلت في مكة المكرمة؛ لأن الآيات منها ما هو مكّي ومنها ما هو مدني، وفي المكّي ما في المدني من تعدد القراءات. ولا دليل على نزول القراءات المكيّة في المدينة وانفرادها بالنزول؛ فتبقى على الأصل.

ويدل على ذلك حديث اختلاف عمر مع هشام بن حكيم رضي الله عنهما لأنهما اختلفا في قراءة سورة الفرقان، وهي مكّيّة، فدل على أن نزول القراءات كان في مكة أيضاً.

الثاني: أنها نزلت في المدينة النبويّة؛ لأن القراءات نزلت للتيسير على الأمة؛ بسبب اختلاف اللهجات، ولم تكن الحاجة إليها قائمة إلا بعد الهجرة؛ لدخول القبائل المجاورة والبعيدة في الإسلام، وغموض بعض الألفاظ التي بغير لهجتهم.

ولأن اختلاف الصحابة - رضي الله عنهم - في القراءات كان في المدينة، ولم يثبت شيء من ذلك في مكة.

وهناك من جمع بين القولين؛ بأن بداية نزول القراءات كان بمكة مع بداية نزول القرآن، لكن الحاجة لم تدع إلى استخدامها؛ لوحدة اللغة في مكة وما جاورها (لسان قريش)، واختلاف اللهجات إنما حدث بعد الهجرة في المدينة حين دخلت في الإسلام قبائل متعددة بلهجات مختلفة.

وسواء كان نزول القراءات بمكة أو بالمدينة، إلا أنها مرت بمراحل حتى وصلت إلينا نستطيع أن نرسمها كما يلي:

المراحل التي مرّ بها علم القراءات:

المرحلة الأولى:

تلقى الرسول ﷺ القراءات كما يتلقى سائر القرآن عن طرق جبريل عليه السلام، وأمره الله تعالى أن يقرأه على الناس ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ

إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴿١﴾ ﴿وَقَرَأْنَا لَهُمْ الْبُحُرَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ ﴿٢﴾ .

فبلغه الرسول ﷺ حق التبليغ، وكان يُقرئهم القرآن خمس آيات بالغداة وخمس آيات بالعشي، وربما أقرأ صحابياً بحرف، وأقرأ آخر بحرف آخر، وكان كل صحابي يقرأ بما سمعه من الرسول ﷺ .

وأمر الرسول ﷺ أن يُقرئ بعضهم بعضاً، فكان إذا أسلم رجل دفعه إلى أحد الصحابة ليعلمه القرآن، وكان يرسل بعض أصحابه إلى القبائل لتعليمهم القرآن، وإذا هاجر رجل إلى المدينة دفعه الرسول ﷺ إلى من يحفظه القرآن؛ وبهذا تكونت جماعة من الصحابة عرفت بالقراءة، وحفظ القرآن عدد كبير من الصحابة .

المرحلة الثانية :

بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ارتدت كثير من قبائل العرب، فجهز الخليفة أبو بكر رضي الله عنه الجيوش لقتال المرتدين، وقتل في هذه الحروب عدد كبير من القراءة؛ خشي الصحابة أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته، فجمعوه في مصحف واحد بجميع قراءاته .

المرحلة الثالثة :

بعد القضاء على المرتدين وانتهاء حروب الردة، اتجهت جيوش المسلمين لنشر الإسلام، فدخل في الإسلام أمم مختلفة، وانتشر الصحابة - رضي الله عنهم - في البلدان المفتوحة يعلمون أهلها القرآن، وكان كل صحابي يعلم القرآن حسبما تلقاه عن الرسول ﷺ، ومن ثم اختلف النقل في التابعين وتلاميذهم، وكثرت القراءات وتنوعت، وتلقاها عدد كبير من التابعين .

(١) سورة المائدة: الآية ٦٧ .

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٠٦ .

المرحلة الرابعة :

أن جماعة من التابعين وتابعي التابعين كرسوا حياتهم، وقصروا جهودهم على قراءة القرآن وإقراءه، وتعليمه وتلقيه، وعنوا العناية كلها بضبط ألفاظه، وتجويد كلماته، وتحرير قراءاته، وتحقيق رواياته، وكان ذلك شغلهم الشاغل وغرضهم الهادف، حتى صاروا أئمة يقتدى بهم، ويرحل إليهم، ويؤخذ عنهم، وأجمع المسلمون على تلقي قراءتهم بالقبول، ولم يختلف عليهم اثنان، ولتصديهم للقراءة وجمعهم لها نسبت إليهم^(١).

قال القسطلاني: «ثم لما كثر الاختلاف فيما يحتمله الرسم، وقرأ أهل البدع والأهواء بما لا يحل لأحد تلاوته، وفاقاً لبدعتهم، كمن قال من المعتزلة ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٢) بنصب الهاء، ومن الرافضة ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾^(٣) بفتح اللام، يعنون أبا بكر وعمر، رأى المسلمون أن يجمعوا على قراءات أئمة ثقات تجردوا للاعتناء بشأن القرآن العظيم، فاختراروا من كل مصر وجه إليه مصحف أئمة مشهورين بالثقة، والأمانة في النقل، وحسن الدراية، وكمال العلم، أفنوا عمرهم في القراءة والإقراء، واشتهر أمرهم، وأجمع أهل مصرهم على عدالتهم فيما نقلوا، والثقة بهم فيما قرؤوا ولم تخرج قراءتهم عن خط مصحفهم»^(٤).

(١) انظر مع القرآن الكريم: د. شعبان إسماعيل، ص ٣٩٠، وصفحات في علوم القراءات: السندي، ص ٣٧.

(٢) سورة النساء: الآية ١٦٤.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥١.

(٤) لطائف الإشارات: القسطلاني، ص ٦٦.

قال ابن الجزري: «ونعتقد أن معنى إضافة كل حرف من حروف الاختلاف إلى من أضيف إليه من الصحابة وغيرهم، إنما هو من حيث إنه كان أضبط له، وأكثر قراءة وإقراءً به، وملازمة له، وميلاً إليه، لا غير ذلك. وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراءة ورواتها المراد بها: أن ذلك القارئ، وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة، حسب ما قرأ به فآثره على غيره، وداوم عليه، ولزمه، حتى اشتهر وعرف به، وقصد فيه، وأخذ عنه؛ فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء، وهذه الإضافة: إضافة اختيار، وداوم ولزوم، لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد»^(١).

وكثر عدد القراء في الأمصار واشتهر في كل مصر عدد منهم:

ففي مكة:

مجاهد بن جبر، طاووس بن كيسان، عطاء بن أبي رباح، عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما، ابن أبي مليكة وغيرهم.

وفي المدينة:

سعيد بن المسيب، عروة بن الزبير، عمر بن عبد العزيز، ابن شهاب الزهري، زيد بن أسلم، سليمان وعطاء ابنا يسار، وسالم بن عبد الله بن عمر وغيرهم.

وفي الكوفة:

علقمة بن قيس، سروق بن الأجدع، أبو عبد الرحمن السُّلَمي، والنخعي، والشعبي، وعمرو بن شُرْحَبِيل، والأسود بن يزيد، وسعيد بن جببر، وغيرهم.

(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج ١، ص ٥٢.

وفي البصرة:

الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وقتادة بن دعامة السدوسي، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يَعْمَر، وأبو العالية الرياحي، وجابر بن زيد، وأبو رجاء العطاردي وغيرهم.

وفي الشام:

المغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب عثمان، وخليد^(١) بن سعد صاحب أبي الدرداء، ويحيى بن الحارث الذماري، وعطية بن قيس الكلابي وغيرهم.

وغير ذلك كثير من القراء، حتى أصبحت القراءات وجمعها والعناية بها علماً مستقلاً كعلوم الشريعة الأخرى.

تسبيع السبعة:

وكما رأيت فإن القراء بلغوا المئات بل الآلاف من القراء الحفاظ المتقنين، وقد تصدى عدد من العلماء للكتابة والتأليف عن القراء، فألف أبو عبيدة (ت ٢٢٤هـ) كتاباً جمع فيه قراءات خمسة وعشرين قارئاً. وألف أحمد بن جبير الأنطاكي (ت ٢٥٨هـ) كتاباً جمع فيه قراءات خمسة من القراء، وألف أبو بكر الداجوني (ت ٣٢٤هـ) كتابه الثمانية، وألف ابن جرير الطبري (ت ٣٢٤هـ) كتابه (القراءات) وذكر فيه أكثر من عشرين قارئاً، وألف غيرهم كثير، إلا أن هذه المؤلفات لم تنتشر أو تشتهر.

(١) ورد في الإتيان أن اسمه (خليفة) والصواب ما جاء في «النشر في القراءات العشر» ص ٨، وهو خليل بن سعد السلاماني. انظر ترجمته في «ميزان الاعتدال» ١/ ٣١٠، و«لسان الميزان» ٣/ ٣٧٦ (٢٩٧٤).

فلما ألف أحمد بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) كتابه (السبعة) واقتصر فيه على جمع المتواتر من قراءات سبعة من القراء، وكان هو نفسه حجة في القراءات وإماماً ثقة ثبتاً، اشتهر كتابه وحظي بالقبول، وتداوله العلماء، واشتهر هؤلاء السبعة حتى توهم بعض الناس أن القراء سبعة، وأن القراءات سبع، وزاد التوهم فاعتقد آخرون أن القراءات السبع هي الأحرف السبعة!!

وأخذ بعض العلماء على ابن مجاهد اختياره للسبعة؛ لما في ذلك من الإيهام، فقال أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي «لقد فعل مسجع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كُلِّ مَنْ قَلَّ نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر؛ (أي حديث الأحرف السبعة) وليته إذا اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة»^(١).

وقال القرّاب في «الشافى»: «التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنة، وإنما هو من جمع بعض المتأخرين، فانتشر وأوهم أنه لا تجوز الزيادة على ذلك، وذلك لم يقل به أحد»^(٢).

وقد علل مكى بن أبى طالب (ت ٤٣٧هـ) سر اختيارهم سبعة فقال: ليكونوا على وفق مصاحف الأمصار السبعة، وتيمناً بأحرف القرآن السبعة، ثم قال: على أنه لو جعل عددهم أكثر أو أقل لم يمنع ذلك؛ إذ عدد القراء أكثر من أن يحصى^(٣).

وقد دافع كثير من العلماء عن ابن مجاهد رحمه الله تعالى في ذلك بأنه لم يقتصر على هؤلاء السبعة إلا بعد اجتهد طويل ومراجعة متأنية في الأسانيد

(١) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ١٠٦، والنشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج١، ص ٣٦.

(٢) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ١٠٧.

(٣) الإبانة عن معاني القراءات: مكى بن أبى طالب، ص ٥١.

الطوال، وكان موفقاً في اختياره الذي حظي بموافقة جمهور العلماء والقراء وتأييدهم؛ حيث إن كثرة الروايات في القراءات أدت إلى ضرب من الإضراب عند طائفة من القراء غير المتقنين، فقد حاول بعضهم أن يختار من القراءات لنفسه خاصة فينفرد بها، فقطع ابن مجاهد عليهم الطريق، ودرأ عن القراءات كيدهم، وعن القراء اضطرابهم، ومما يدل على نزاهته - رحمه الله - وحسن قصده أنه لم يسع إلى أن يختار لنفسه قراءة تحمل عنه، وحين سئل عن ذلك أجاب: «نحن أحوج إلى أن نعمل أنفسنا في حفظ ما مضى عليه أئمتنا أحوج منا إلى اختيار حرف يقرأ به من بعدنا»^(١).

وقد أطلت الحديث عن هذه المرحلة لأهميتها، وكثرة المؤلفات والقراء، واتساع علم القراءات فيها.

المرحلة الخامسة: مرحلة التدوين في القراءات:

اختلف العلماء في أول من ألف في علم القراءات، وذهب الكثيرون إلى أن أول من ألف في علم القراءات هو أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، وقال ابن الجزري إنه الإمام أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) وقيل يحيى بن يعمر (ت ٩٠هـ).

ثم ازدادت المؤلفات في القرن الثالث، وبلغت ذروتها في القرنين الرابع والخامس، ثم فتر التأليف بعد ذلك حتى القرن التاسع حيث قل التصنيف وصارت جهود العلماء تكاد أن تنحصر على شرح منظومة الشاطبي (ت ٥٩٠هـ).

(١) معرفة القراء الكبار: الذهبي، ج١، ص ٢١٧، وانظر صفحات في علوم القراءات: السندي، ص ٥١، ٥٤.

ومن أهم المؤلفات في القراءات قديماً وحديثاً:

وهي كثيرة جداً لا يمكن استيفائها ولا يسعنا إلا ذكر النزر اليسير منها:

١ - السبعة: لأبي بكر أحمد بن محمد بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ)، وقد طبع بتحقيق د. شوقي ضيف.

٢ - التذكرة في القراءات الثمان: لابن غلبون (ت ٣٩٩هـ)، طبع بتحقيق أيمن سويد في مجلدين.

٣ - المبسوط في القراءات العشر: لأبي بكر بن مهران (ت ٣٨١هـ)، طبع في مجلد واحد بتحقيق سبيع حمزة حاكمي.

٤ - الكشف عن وجوه القراءات السبع لأبي محمد مكّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ).

٥ - التيسير في القراءات السبع: لأبي عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) طبع في مجلد واحد.

٦ - الإقناع في القراءات السبع: لأبي جعفر ابن الباذش (ت ٥٤٠هـ)، طبع بتحقيق د. عبد المجيد قطامش في مجلدين.

٧ - حرز الأمانى ووجه التهاني المعروفة بـ (الشاطبية)، وهي منظومة للإمام القاسم الشاطبي (ت ٥٩٠هـ) نظم فيها كتاب التيسير للداني، وشرحها عدد من العلماء وطبعت كثيراً.

٨ - الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع: عبد الفتاح القاضي (ت ١٤٠٣هـ).

٩ - معرفة القراء الكبار: لأبي عبد الله الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، طبع في مجلدين بتحقيق محمد سيد جاد الحق.

١٠- غاية النهاية في طبقات القراء: لابن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، طبع في مجلدين، واعتنى به المستشرق ج. برجستراسر.

شروط القراءة الصحيحة:

وضع علماء القراءات شروطاً أو ضوابط للقراءة الصحيحة، جمعها ابن الجزري وحررها، وفصل القول فيها حتى صارت تنسب إليه واقتربت باسمه. قال في الطيبة:

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوٍ وَكَانَ لِلرَّسْمِ اِحْتِمَالاً يَحْوِي
وَصَحَّ إِسْنَادُهُ هُوَ الْقُرْآنُ فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الْأَرْكَانُ
وَحَيْثُمَا يَخْتَلُّ رُكْنٌ أُثْبِتَ شُدُوذَهُ لَوْ أَنَّهُ فِي السَّبْعَةِ^(١)

وفصل القول في ذلك في كتابه «النشر في القراءات العشر»^(٢) فقال:
«كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عن من هو أكبر منهم؛ هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف، صرح بذلك الإمام أبو عمرو الداني، ونص عليه مكي بن أبي طالب، وأبو العباس المهدوي، وأبو شامة. . . وهو مذهب السلف الذي لا يعرف عن أحد منهم خلافاً».

(١) طيبة النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ص ٣٢.

(٢) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج ١، ص ٩، (بتصرف يسير).

وبهذا يظهر أن ضوابط أو شروط القراءة الصحيحة ثلاثة هي :

الأول : موافقة اللغة العربية ولو بوجه من الوجوه .

فلا بد أن توافق القراءة اللغة العربية ، ولا يلزم أن توافق الأفشى في اللغة ؛ بل يكفي أن توافق أي وجه من أوجه اللغة ، قال ابن الجزري «وقولنا في الضابط : «ولو بوجه» نريد وجهاً من وجوه النحو؛ سواء كان أفصح أم فصيحاً مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح؛ إذ هو الأصل الأعظم والركن الأقوم، وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية، فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو، أو كثير منهم، ولم يعتبر إنكارهم، بل أجمع الأئمة المقتدى بهم من السلف على قبولها كإسكان ﴿بَارِئُكُمْ﴾^(١)، و﴿يَأْمُرُكُمْ﴾^(٢)، ونحوه.. وضم، ﴿الْمَلَائِكَةُ أَسْجُدُوا﴾^(٣)، ونصب ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤)، وخفض ﴿وَالْأَرْحَامُ﴾^(٥)، .. ووصل ﴿وَيَنَّ الْيَاسَ﴾^(٦)، وألف ﴿إِنْ هَذَا﴾^(٧).. وغير ذلك. قال أبو عمرو الداني في كتابه «جامع البيان»: «وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة، والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل

(١) سورة البقرة: من الآية ٥٤؛ وهي قراءة أبي عمرو بخلف عن الدوري.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٦٧؛ وهي قراءة أبي عمرو بخلف عن الدوري.

(٣) سورة البقرة: من الآية ٦٧؛ وهي قراءة أبي عمرو بخلف عن الدوري.

(٤) سورة البقرة: من الآية ٣٤؛ وهي قراءة أبي جعفر.

(٥) سورة النساء: من الآية الأولى؛ وهي قراءة حمزة.

(٦) سورة الصافات: من الآية ١٢٣؛ وهي قراءة ابن ذكوان بخلف عنه.

(٧) سورة طه: من الآية ٦٣ وقرأها أبو عمرو بالياء وقرأها الباقر بالألف.

والرواية، وإذا ثبت عنهم لم يردّها قياس عربية، ولا فشو لغة؛ لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها^(١).

الثاني: موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً.

وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم عندما كتبوا القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه تعمّدوا كتابته بطريقة تشتمل على جميع القراءات الثابتة عن الرسول ﷺ إما صراحة أو احتمالاً، وأي قراءة لا توافق رسم المصحف فإن ذلك يعني أن الصحابة لا يعرفونها وإلا لكانوا قد كتبوها، والقراءة التي لا يعرفها الصحابة ليست بقراءة صحيحة، فمن ذا الذي يدعي معرفة قراءة لا يعرفها الصحابة رضي الله عنهم!!

قال ابن الجزري: «ونعني بقولنا بـ»موافقة أحد المصاحف« ما كان ثابتاً في بعضها دون بعض، كقراءة ابن عامر ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾^(٢) بدون واو ﴿وَالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(٣) بزيادة الباء في الاسمين ونحو ذلك، فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي، وكقراءة ابن كثير ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَلْأَنْهَارُ﴾^(٤) في الموضع الأخير من سورة براءة بزيادة (من)، فإن ذلك ثابت في المصحف المكي..

وقولنا بعد ذلك: «ولو احتمالاً» نعني به ما يوافق الرسم ولو تقديراً؛ إذ موافقة الرسم قد تكون تحقيقاً وهو الموافقة الصريحة، وقد تكون تقديراً وهو الموافقة احتمالاً، فإنه قد خولف صريح الرسم في مواضع إجماعاً؛ نحو (السموات والصلحلت، والليل، والصلوة، والزكوة، والربوا).. وقد

(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج ١، ص ١٠-١١ (بتصرف يسير).

(٢) سورة البقرة: الآية ١١٦.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨٤.

(٤) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

توافق بعض القراءات الرسم تحقيقاً ويوافقه بعضها تقديراً نحو ﴿ملك يوم الدين﴾ فإنه كتب بغير ألف في جميع المصاحف. فقراءة الحذف تحتمله تحقيقاً وقراءة الألف محتملة تقديراً.

الثالث: صحة الإسناد.

قال ابن الجزري: «نعني به أن يروي تلك القراءة العدل الضابط عن مثله كذا حتى تنتهي، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له، غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذ بها بعضهم.

وقد شرط بعض المتأخرين التواتر في هذا الركن، ولم يكتف فيه بصحة السند، وهذا مما لا يخفى ما فيه، فإن التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركنين الآخرين من الرسم وغيره؛ إذ ما ثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي ﷺ وجب قبوله، وقطع بكونه قرآناً سواء وافق الرسم أم خالفه، وإذا اشترطنا التواتر في كل حرف من حروف الخلاف انتفى كثير من أحرف الخلاف الثابت عن هؤلاء الأئمة السبعة وغيرهم^(١).

أنواع القراءات:

اشتهر لدى المتأخرين خاصة علماء أصول الفقه تقسيم القراءات إلى نوعين: متواتر وشاذ أو آحاد^(٢)، وقسمها البلقيني إلى ثلاثة أقسام: متواتر وشاذ وآحاد^(٣)، وقد حرر السيوطي من كلام متقن لابن الجزري أن القراءات أنواع هي^(٤):

(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج١، ص ١٣.

(٢) قراءة عبد الله بن مسعود، مكانتها، مصادرها، إحصاؤها: د. محمد أحمد خاطر، ص ٤٧.

(٣) الإتيقان: للسيوطي، ج١، ص ٩٩.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص ١٠٢.

الأول: المتواتر:

وهو ما رواه جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهى السند ومثاله: ما اتفقت الطرق في نقله عن السبعة، وهذا هو الغالب في القراءات وكقوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١) وهي قراءة متواترة قرأ بها عاصم والكسائي ويعقوب وخلف وقرأ الباقر بحذف الألف ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٢).

الثاني: المشهور:

وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة التواتر ووافق الرسم والعربية، واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ. ومثاله ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض.

وأمثلة ذلك كثيرة في فرش الحروف من كتب القراءات كالتواتر، ومثالها: قراءة أبي جعفر ﴿مَا أَشْهَدْنَاهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُخِذُ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾^(٣) بفتح التاء في (وما كنت) وقرأها الباقر (وما كنت)، وبلفظ الجمع في (ما أشهدناهم) وقرأها الباقر بالإفراد (ما أشهدتهم).

الثالث: الأحاد:

وهو ما صح سنده، وخالف الرسم أو العربية، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور، وهذا النوع لا يقرأ به، ولا يجب اعتقاده.

(١) سورة الفاتحة: الآية ٤.

(٢) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: عبد الفتاح القاضي، ص ١٥.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥١.

وعقد الترمذي في «جامعه»^(١) والحاكم في «مستدرکه»^(٢) لذلك باباً
أخرج فيه شيئاً كثيراً صحيح الإسناد.

ومن ذلك ما أخرجه الحاكم في «مستدرکه» من طريق عاصم
الجحدري، عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قرأ (متكئين على رفارف خضر
وعباقرى حسان)^(٣).

وكقراءة ابن عباس رضي الله عنهما (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة
صالحة غصباً) بزيادة صالحة، وأمامهم بدل وراءهم^(٤).

وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه (فصيام ثلاثة أيام متتابعات)^(٥).

واختلف في حكم القراءة بها في الصلاة، والجمهور على منع ذلك،
وأجاز بعض العلماء ذلك فيما لا يجب من القراءة.

أما الاحتجاج بها في الأحكام الشرعية فحكمها حكم أحاديث الآحاد
يحتج بها، ونفاه الشافعي، وأثبت أبو حنيفة واحتج به وبنى عليه وجوب
التتابع في صوم كفارة اليمين بقراءة ابن مسعود وهي آحاد (فصيام ثلاثة أيام
متتابعات)^(٦).

(١) جامع الترمذي: أبواب القراءات، ص ٦٥٨-٦٦٠.

(٢) المستدرک: للحاکم، ج ٢، ص ٢٣٠-٢٥٧.

(٣) المستدرک: ج ٢، ص ٢٥٠، والقراءة المتواترة ﴿مُتَكِيْن عَلَى رَفَافٍ خُضْرٍ وَعَبَاقِرٍ حَسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٦].

(٤) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج ١، ص ١٤، والقراءة المتواترة: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

(٥) معاني القرآن: الفراء، ج ١، ص ٣١٨، وتفسير القرطبي، ج ٦، ص ٢٨٣، والبحر
المحيط: لأبي حيان، ج ٤، ص ١٢، والقراءة المتواترة ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾
[المائدة: ٨٩].

(٦) تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٢٨٣.

الرابع : الشاذ :

وهو : ما لم يصح سنده ، ونقل ابن الجزري عن مكّي بن أبي طالب في تعريف الشاذ أنه : « ما نقله غير ثقة ، أو نقله ثقة ، ولا وجه له في العربية ، وقيل هو : ما صح سنده ووافق العربية ولو بوجه وخالف رسم المصحف ^(١) ، وذلك أن عثمان رضي الله عنه اقتصر في جمعه للقرآن على ما ثبت في العرضة الأخيرة ، فسمى العلماء من بعده ما صح سنده ولو قرأ به النبي ﷺ ، ولم يثبت في العرضة الأخيرة شاذاً » ^(٢) .

والمؤلفات في القراءات الشاذة كثيرة ، ومن أمثلة ما نقله غير ثقة - كما قال ابن الجزري - كثير مما في كتب الشواذ مما غالب إسناده ضعيف ، كقراءة ابن السميع وأبي السمال وغيرهما في ﴿ نُنَجِّكَ بِدَنِكَ ﴾ ننحيك بالحاء المهملة ، ﴿ وَتَكُونُ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾ ^(٣) (خَلَفَكَ) بفتح سكون اللام . . . وكالقراءة المنسوبة إلى أبي حنيفة رحمه الله ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ^(٤) برفع الهاء ونصب الهمزة . . . وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه وتكلف توجيهها ، وإن أبا حنيفة لبريء منها .

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج-١٣ ، ص ٣٩٣-٣٩٤ ، وقد وسع بعض العلماء هذا المدلول حتى شمل كل ما خرج من أوجه القراءات عن أركان القراءة المتواترة فدخل في القراءات الشاذة : ما يسمى بالقراءات الأحاد والضعيفة والموضوعة والمدرجة والمنكرة والغريبة والباطلة ، وبعبارة أخرى فإن كل ما خرج عن القراءات العشر التي يقرأ بها اليوم عن القراء العشرة فهي (القراءة الشاذة) . انظر المرشد الوجيز : أبو شامة المقدسي ص ١٧٨ والتجبير في علم التفسير : السيوطي ص ١٤٢ .

(٢) انظر ص ٩٥-٩٨ من كتابنا هذا .

(٣) سورة يونس : الآية ٩٢ .

(٤) سورة فاطر : الآية ٢٨ .

ومثال ما نقله ثقة، ولا وجه له في العربية، ولا يصدر مثل هذا إلا على وجه السهو والغلط وعدم الضبط، ويعرفه الأئمة المحققون والحفاظ الضابطون وهو قليل جداً، بل لا يكاد يوجد، وقد جعل بعضهم منه رواية خارجة عن نافع (معاش)^(١) بالهمز وما رواه يحيى عن ابن عامر من فتح ياء ﴿أَذْرَيْتَ أَقْرَبُ﴾^(٢) مع إثبات الهمزة^(٣).

الخامس: الموضوع:

وهو الذي لا أصل له، أي ما روي بلا إسناد، وذلك أن القراءات توقيفية، قال ابن الجزري: «وبقي قسم مردود أيضاً، وهو ما وافق العربية والرسم ولم ينقل البتة، فهذا رده أحق، ومنعه أشد، ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكبائر»^(٤). ومثاله قراءة (مَلَكَ يَوْمَ الدين) بصيغة الماضي^(٥).

السادس: المدرج:

وهذا النوع مما أضافه السيوطي إلى أنواع القراءات، ويريد به «ما زيد في القراءات على وجه التفسير»^(٦) كقراءة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ﴾^(٧) (من أم) أخرجها سعيد بن منصور^(٨)، وقراءة ابن عباس رضي الله عنهما ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٩).

(١) سورة الأعراف: الآية ١٠، سورة الحجر: الآية ٢٠.

(٢) سورة العن: الآية ٢٥.

(٣) النشر: ابن الجزري، ج١، ص ١٤، ١٦ (بتصرف يسير).

(٤) المرجع السابق، ج١، ص ١٦.

(٥) البحر المحيط: لأبي حيان، ج١، ص ٢٠، والكشاف: الزمخشري، ج١، ص ٩.

(٦) الإتقان: السيوطي، ج١، ص ١٠٢.

(٧) سورة النساء: الآية ١٢.

(٨) البحر المحيط: لأبي حيان، ج٣، ص ١٩٠، والكشاف: الزمخشري، ج١، ص ٢٥٥.

(٩) سورة البقرة: الآية ١٩٨.

(في مواسم الحج) أخرجها البخاري^(١) وقراءة ابن الزبير ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢) (ويستعينون الله على ما أصابهم) قال عمرو^(٣): فما أدري أكانت قراءته أم فسّر به؟ أخرج سعيّد بن منصور^(٤) وأخرج الأنباري وجزم بأنه تفسير فقال:

«وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير وكلام من كلامه غلط فيه بعض الناقلين فألحقه بالفاظ القرآن»^(٥).

ثم نقل السيوطي عن ابن الجزري قوله: «وربما كانوا يدخلون التفسير في القراءات إيضاحاً وبياناً لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي ﷺ قرآناً فهم آمنون من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتبه معه، وأما من يقول: إن بعض الصحابة كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب»^(٦).

حكم هذه القراءات:

وقد لخص الأستاذ عبد الفتاح القاضي حكم هذه القراءات فأجاد حيث قال:

«والحاصل أن القراءة إن خالفت العربية أو الرسم فهي مردودة إجماعاً، ولو كانت منقولة عن ثقة مع أن ذلك بعيد، بل لا يكاد يوجد».

(١) صحيح البخاري: حديث (١٧٧٠)، كتاب الحج، و(٤٥١٩) كتاب التفسير.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٣) هو: عمرو بن دينار.

(٤) البحر المحيط: لأبي حيان، ج٣، ص٢١، وتفسير الطبري، ج٧، ص٩١-٩٢، تفسير القرطبي، ج٤، ص١٦٥، والإتقان: للسيوطي، ج١، ص١٠٢.

(٥) تفسير القرطبي، ج٤، ص١٦٥.

(٦) الإتقان: السيوطي، ج١، ص١٠٢، وانظر النشر في القراءات العشر: لابن الجزري، ج١، ص٣٢.

وإن وافقت العربية والرسم ونقلت بطريق التواتر فهي مقبولة، إجماعاً.

وإن وافقت العربية والرسم ونقلت عن الثقات بطريق الآحاد فقد اختلف فيها، فذهب الجمهور إلى ردّها وعدم جواز القراءة بها في الصلاة وغيرها. سواء اشتهرت واستفاضت أم لا.

وذهب مكّي بن أبي طالب وابن الجزري إلى قبولها وصحة القراءة بها، بشرط اشتهارها واستفاضتها، أما إذا لم تبلغ حد الاشتهار والاستفاضة فالظاهر المنع من القراءة بها إجماعاً.

ومن هنا يُعلم أن الشاذ عند الجمهور ما لم يثبت بطريق التواتر، وعند مكّي ومن وافقه ما خالف الرسم أو العربية ولو كان منقولاً عن الثقات، أو ما وافق الرسم والعربية ونقله غير ثقة، أو نقله ثقة ولكن لم يتلق بالقبول، ولم يبلغ درجة الاستفاضة والشهرة.

إلى أن قال: وإذ قد علمت أن القراءة الشاذة لا تجوز القراءة بها مطلقاً فاعلم أنه يجوز تعلّمها وتعليمها، وتدوينها في الكتب، وبيان وجهها من حيث اللغة والإعراب والمعنى، واستنباط الأحكام الشرعية منها على القول بصحة الاحتجاج بها، والاستدلال بها على وجه من وجوه اللغة العربية، وفتاوى العلماء قديماً وحديثاً مطبقة على ذلك، والله تعالى أعلم^(١).

قلت: وبقي النوعان الخامس والسادس وهما الموضوع والمدرج، ولا يخفى تحريم القراءة الموضوعية أو العمل بها، أما المدرجة فهي تفسير وليست بقرآن، فلا تقرأ، وإنما تستنبط بها الأحكام على أنها قول صحابي وليست بقرآن.

(١) القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب: عبد الفتاح القاضي، ص ١٠.

القراء :

التعريف : القراء جمع قارئ وهو على ثلاث مراتب :

المبتدئ : وهو من شرع في الأفراد إلى أن يفرد ثلاثاً من القراءات .

المتوسط : إلى أربع أو خمس .

المنتهي : وهو من عرف من القراءات أكثرها وأشهرها^(١) .

أما المقرئ فهو : العالم بالقراءات ، رواها مشافهة ، فلو حفظ الشاطبية مثلاً فليس له أن يقرأ بما فيها ، إن لم يشافه من شُوفه به مسلسلاً ؛ لأن في القراءات شيئاً لا يحكم إلا بالسمع والمشافهة^(٢) .

تاريخ القراء :

يرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصحابة^(٣) رضي الله عنهم ، فقد اشتهر بالإقراء عدد كبير منهم تلقوه مشافهة من الرسول ﷺ وتلقاه عنهم عدد كبير من التابعين بالمشافهة أيضاً .

وذكر الذهبي - رحمه الله تعالى - أن المشتهرين بإقراء القرآن من الصحابة سبعة هم :

١ - عثمان بن عفان رضي الله عنه .

٢ - علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

٣ - أبي بن كعب رضي الله عنه .

(١) لطائف الإشارات : القسطلاني ، ج١ ، ص ١٧١ ، وإتحاف فضلاء البشر : البنا ، ص ٦٨ .

(٢) لطائف الإشارات : القسطلاني ، ج١ ، ص ١٧١ .

(٣) مباحث في علوم القرآن : مناع القطان ، ص ١٧٠ .

٤ - عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

٥ - زيد بن ثابت رضي الله عنه .

٦ - أبو موسى الأشعري رضي الله عنه .

٧ - أبو الدرداء عويمر بن زيد رضي الله عنه .

ثم قال رحمه الله تعالى: «فهؤلاء الذين بلغنا أنهم حفظوا القرآن في حياة النبي ﷺ وأخذ عنهم عرضاً، وعليهم دارت أسانيد قراءة الأئمة العشرة. وقد جمع القرآن غيرهم من الصحابة؛ كمعاذ بن جبل، وأبي زيد، وسالم مولى أبي حذيفة، وعبد الله بن عمر، وعتبة بن عامر، ولكن لم يتصل بنا قراءتهم، فلهذا اقتصرنا على هؤلاء السبعة رضي الله عنهم»^(١).

وأخذ عن هؤلاء الصحابة خلق كثير من التابعين في كل بلد من بلدان المسلمين كما ذكرنا فيما مضى.

واشتهر سبعة من القراء هم الذين ترجم لهم ابن مجاهد في كتابه السبعة، وألحق بهم ثلاثة من القراء وسموا جميعاً بالعشرة، وزاد بعضهم أربعة آخرين حتى صاروا أربعة عشر.

أما السبعة فهم:

١ - ابن عامر (أبو عمران عبد الله بن عامر اليحصبي) (٨-١١٨هـ) تابعي جليل أخذ القرآن عن المغيرة بن أبي شهاب عن عثمان رضي الله عنه، وقيل: إنه قرأ على عثمان نفسه، وهو إمام أهل الشام وقاضيه، وهو قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك، وراوياه هشام وابن ذكوان (بواسطة).

(١) معرفة القراء الكبار: الذهبي، ج١، ص ٣٩.

٢ - ابن كثير (عبد الله بن كثير الداري) (٤٥-١٢٠هـ) إمام القراء بمكة، قرأ على عبد الله بن السائب، وقرأ عبد الله على أبي بن كعب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وراواياه البرقي وقنبل (بواسطة).

٣ - عاصم بن أبي النجود (أبو بكر) (٠٠-١٢٧هـ) انتهت إليه رئاسة الإقراء في الكوفة. قرأ على زر بن حبیش الذي قرأ على عبد الله بن مسعود، وقرأ على أبي عبد الرحمن السلمي الذي قرأ على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وراواياه شعبة وحفص (بلا واسطة).

٤ - أبو عمرو بن العلاء (زبان بن العلاء البصري) (٦٨-١٥٤هـ) ليس في السبعة أكثر شيوخاً منه، قرأ على الحسن البصري، وأبي العالية وسعيد ابن جبیر وعاصم بن أبي النجود وابن كثير المكي، وعكرمة مولى ابن عباس، وابن محيصن، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب وأبي بن كعب رضي الله عنهما، وراواياه الدوري والسوسي (بواسطة).

٥ - نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني (أبو رويم) (٧٠-١٦٩هـ) إمام دار الهجرة، وكان إمام المسجد النبوي. أخذ القراءة عن جماعة من التابعين كأبي جعفر وعبد الرحمن الأعرج، وبلغ شيوخه السبعين، وهم أخذوا عن ابن عباس وأبي بن كعب وأبي هريرة رضي الله عنهم، وراواياه قالون وورش (بلا واسطة).

٦ - حمزة بن حبيب الزيات الكوفي (٨٠-١٥٨هـ) قرأ على الأعمش على يحيى بن وثاب على زر بن حبیش على عثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم، وراواياه خلف وخلاد (بواسطة).

٧ - الكسائي (علي بن حمزة النحوي الكوفي) (١١٩-١٨٩هـ) كان من أعلم الناس بالنحو، أخذ القراءة عن حمزة الزيات وابن أبي ليلى وعيسى الهمداني، وقرأ عيسى على عاصم، وراويه أبو الحارث والدوري (بلا واسطة).

وأما الثلاثة تكملة العشرة فهم:

١ - أبو جعفر (يزيد بن القعقاع) (١٣٠-٠٠هـ) إمام أهل المدينة. أخذ عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم، عن أبي بن كعب، وراويه ابن وردان وابن جمار.

٢ - أبو محمد (يعقوب بن إسحاق) (١١٧-٢١٥هـ) إمام أهل البصرة، وراويه رويس وروح.

٣ - خلف بن هشام (١٥٠-٢٢٩هـ) وقراءته في اختياره لم تخرج عن قراءة الكوفيين، وراويه إسحاق وإدريس.

وأما الأربعة تكملة الأربعة عشر فهم:

١ - ابن محيصة المكي (١٢٣-٠٠هـ).

٢ - اليزيدي (أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي البصري) (١٢٨-٢٠٢هـ).

٣ - الحسن البصري (٢١-١١٠هـ).

٤ - الأعمش أبو محمد سليمان بن مهران الكوفي (٦٠-١٤٨هـ).

حكم هذه القراءات:

للعلماء في هذه القراءات أقوال:

الأول: أن قراءات القراء السبعة متواترة، والقراءات الثلاث المتممة للعشر آحاد، ومثلها ما يكون من قراءات الصحابة، وما بقي فهو شاذ.

الثاني: أن العشر متواترة وغيرها شاذ.

الثالث: أن المعتمد في ذلك هو الضوابط؛ سواء كانت القراءة من السبع أو العشر أو الأربع عشرة، ويريدون بالضابط توفر أركان القراءة الصحيحة التي سبق ذكرها، قالوا: «فإذا اجتمعت هذه الثلاثة في قراءة وجب قبولها، وحرم ردها، سواء كانت عن السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم، من الأئمة المقبولين نص على ذلك الداني والمهدوي، ومكي، وأبو شامة، وغيرهم ممن يطول ذكره»^(١).

وقد لخص البنا في كتابه «إتحاف فضلاء البشر» هذا الخلاف فقال:

«والحاصل: أن السبع متواترة اتفاقاً، وكذا الثلاثة (أبو جعفر) و(يعقوب) و(خلف) على الأصح، بل الصحيح المختار، وهو الذي تلقيناه عن عامة شيوخنا، وأخذنا به عنهم، وبه نأخذ، وأن الأربعة بعدها (ابن محيصة)، و(اليزيدي)، و(الحسن)، و(الأعمش) شاذة اتفاقاً»^(٢).

فوائد تعدد القراءات:

يجب أن يعلم أولاً أن الاختلاف الواقع في القراءات يرجع كله إلى اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، فإن اختلاف التضاد محال أن يكون في كلام الله تعالى قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^{(٣)(٤)}.

(١) لطائف الإشارات: القسطلاني، ص ٦٨-٦٩.

(٢) إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: أحمد بن محمد البنا، ج ١، ص ٧٢.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٤) لمزيد بيان في تقرير هذه المسألة انظر النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج ١، ص ٤٩.

ولهذا الاختلاف بين القراءات فوائد كثيرة أذكر منها^(١):

١ - التخفيف على هذه الأمة وإرادة اليسر بها؛ شرفاً لها، وتوسعة ورحمة، وخصوصية لفضلها.

٢ - ما في ذلك من نهاية البلاغة، وكمال الإعجاز، وغاية الاختصار، وجمال الإيجاز، وتصريف القول؛ إذ كل قراءة بمنزلة الآية، إذ كان تنوع اللفظ بكلمة تقوم مقام آيات ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدتها لم يخف ما كان ذلك من التطويل. ومثال ذلك اختلاف القراءة في كلمة ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾^(٢) بالنصب (وأرجلكم) والخفض (وأرجلكم)، ففي قراءة النصب بيان لحكم غسل الرجل حيث يكون العطف على معمول فعل الغسل ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾^(٣).

وفي قراءة الجر بيان لحكم المسح على الخفين عند وجود ما يقتضيه؛ حيث يكون العطف على معمول فعل المسح ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾^(٤).

فدلت الآية بهاتين القراءتين على حكمين متغايرين، ولو لم يكن كذلك لاحتاج كل حكم إلى آية خاصة لبيانه.

(١) أخذت هذه الفوائد بنصها أحياناً وبتصرف أحياناً أخرى، من النشر في القراءات العشر: لابن الجزري، ج ١، ص ٥٢-٥٤، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص ١٨٠-١٨١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٦.

(٣) سورة المائدة: الآية ٦.

(٤) سورة المائدة: الآية ٦.

٣ - الدلالة على حفظه وصيانيته من التحريف والتغيير؛ إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه، لم يتطرق إليه تضاد، ولا تناقض، ولا تخالف؛ بل كله يصدق بعضه بعضاً، ويبين بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض على خط واحد، وأسلوب واحد. وما ذاك إلا آية بالغة، وبرهان قاطع على صدق من جاء به ﷺ، إذ لا يمكن أن يكون هذا من كلام البشر.

٤ - سهولة حفظه، وتيسير نقله على هذه الأمة؛ إذ هو على هذه الصفة من البلاغة والوجازة، فإن من يحفظ كلمة ذات أوجه أسهل عليه وأقرب إلى فهمه وأدعى لقبوله من حفظه جملاً من الكلام تؤدي معاني تلك القراءات المختلفة، لا سيما فيما كان خطه واحداً، فإن ذلك أسهل حفظاً وأيسر لفظاً.

٥ - بيان ما يحتمل أن يكون مجملاً في قراءة أخرى كقراءة ﴿يَطْهَرْنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ﴾^(١) قرئ بالتشديد (يَطْهَرْنَ) والتخفيف (يَطْهَرْنَ) فقراءة التشديد مبينة لمعنى التخفيف عند الجمهور، فالحائض إذا انقطع دمها طهرت، وإذا اغتسلت تكون قد تطهرت. وإنما تحل لزوجها بالتطهر لا بالطهر وحده.

٦ - تعظيم أجر هذه الأمة؛ من حيث إنهم يفرغون جهدهم ليلغوا قصدهم في تتبع معاني ذلك، واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كل لفظ، واستخراج كمين أسرارها، وخفي إشاراته، وتدبرهم للقرآن بغية الكشف عن التوجيه والتعليل والترجيح.

٧ - بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم، من حيث تلقيهم كتاب ربهم هذا التلقي، وإقبالهم عليه، والبحث عن لفظه، والكشف عن

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

معانيه، وإتقان تجويده، فلم يهملوا تحريكاً، ولا تسكيناً، ولا تفخيماً، ولا ترقيقاً حتى ضبطوا مقادير المدات، وتفاوت الإملات، وميزوا بين الحروف والصفات، مما لم يهتد إليه فكر أمة من الأمم.

٨ - ومنها ما ادخره الله تعالى من المنقبة العظيمة لهذه الأمة الشريفة من إسنادها كتاب ربها واتصال هذا السبب الإلهي بسببها خصيصة الله تعالى هذه الأمة المحمدية وكل قارئ يوصل حروفه بالنقل إلى أصله.

وقال ابن الجزري: «فلو لم يكن من الفوائد إلا هذه الفائدة الجليلة لكفت. ولو لم يكن من الخصائص إلا هذه الخصيصة النبيلة لوفت»^(١).

٩ - ظهور حكمة الله تعالى في توليه سبحانه حفظ كتابه العزيز ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢) حيث لم يخل عصر من الأعصار ولو في قطر من الأقطار من إمام حجة قائم بنقل كتاب الله تعالى، وإتقان حروفه ورواياته، وتصحيح وجوهه وقراءاته.



(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج ١ ص ٥٣.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

الأحرف السبعة

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(١) وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾^(٢) وقال عز شأنه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٣). وقال عز وجل: ﴿فَاقْرَأْ وَآمَّا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾^(٤) وصور تيسير القرآن أكثر من أن تحصى، وتشمل تيسير تلاوته من حيث الكمية والكيفية.

وقد عقد البخاري - رحمه الله تعالى - باباً في صحيحه هو (باب قول الله تعالى: ﴿فَاقْرَأْ وَآمَّا يَسَّرَ مِنْهُ﴾) وذكر حديثاً عن الرسول ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه»^(٥).

قال ابن حجر - رحمه الله تعالى -: «والمراد بالمتيسر منه في الحديث غير المراد به في الآية، لأن المراد بالمتيسر في الآية بالنسبة للقلة والكثرة، والمراد به في الحديث بالنسبة إلى ما يستحضره القارئ من القرآن، فالأول من الكمية، والثاني من الكيفية»^(٦).

(١) سورة القمر: الآية ١٧.

(٢) سورة مريم: الآية ٩٧.

(٣) سورة الدخان: الآية ٥٨.

(٤) سورة المزمل: الآية ٢٠.

(٥) صحيح البخاري، كتاب التوحيد ح (٧٥٥٠).

(٦) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، ج ١٣، ص ٦٤٩.

وبهذا يظهر أن الله يسر القرآن على الأمة كَمَا وكيفاً فيقرؤون ما شاؤوا من المقدار على ما شاؤوا من الأحرف السبعة.

أما المقدار فالمراد به معلوم، وأما الأحرف السبعة فقد أفاض العلماء في الحديث عنها، وتعددت أقوالهم وتنوعت، وأولوها جُلَّ اهتمامهم، وأفردوها بمؤلفات مستقلة أذكر منها:

١ - شرح حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» لابن تيمية (مطبوع).

٢ - الكواكب الدرية فيما ورد في إنزال القرآن على سبعة أحرف من الأحاديث النبوية. تأليف: محمد بن علي بن خلف الحسيني المعروف بالحداد ١٣٥٧هـ.

٣ - الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن: محمد بخيت المطيعي.

٤ - الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها: د. حسن ضياء الدين عتر.

٥ - الأحرف السبعة: مناع القطان.

وغير ذلك من المؤلفات، ولا يكاد كتاب في علوم القرآن الكريم يخلو من باب خاص بالأحرف السبعة، وكذا في كثير من مقدمات المفسرين. ومنها ما هو أكثر تفصيلاً من المؤلفات المستقلة.

الأحرف السبعة لغة:

أما الأحرف فجمع حرف، وله في اللغة عدة معان:

١ - يطلق على الحرف من حروف الهجاء المعروفة اب ت إلخ.

٢ - يطلق على اللغة فيقال: حرف قريش، وحرف ثقيف، أي: لغة قريش ولغة ثقيف.

٣ - يطلق على طرف الشيء، وشفيره، وحده، وجانبه. وفي الحديث «فجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر فقال الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر»^(١) وفي التنزيل ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾^(٢) أي: على جانب السراء دون الضراء. وفي حديث ابن عباس «وكان من أمر أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف»^(٣) أي: على جانب، ويقال: انحرف فلان إذا خرج عن حد الاستقامة.

٤ - يطلق على وجه القراءة فيقال: حرف ابن مسعود، أي: قراءته.

وأما السبعة فهو العدد المعروف بين الستة والثمانية، ويطلق السبعة ويراد به المبالغة في الأحاد، كما تطلق السبعين للمبالغة في العشرات، والسبع مئة للمبالغة في المئات على سبيل المجاز.

الأدلة على نزول القرآن على سبعة أحرف:

حكى العلماء ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام تواتر نزول القرآن على سبعة أحرف، فقال أبو عبيد: «قد تواترت هذه الأحاديث كلها على الأحرف السبعة...»^(٤).

وذكر السيوطي أنها رويت عن واحد وعشرين صحابياً فقال: «ورد حديث «نزل القرآن على سبعة أحرف» من رواية جمع من الصحابة: أبي بن

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم حديث رقم (١٢٢)، ومسلم كتاب الفضائل حديث رقم (٦١٦٣).

(٢) سورة الحج: الآية ١١.

(٣) سنن أبي داود، باب في جامع النكاح (٢١٦٣).

(٤) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص ٨٧.

كعب، وأنس، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن أرقم، وسمرة بن جندب،
وسليمان بن صرد، وابن عباس، وابن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف،
وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، وعمر بن أبي سلمة^(١)، وعمرو بن
العاص، ومعاذ بن جبل، وهشام بن حكيم، وأبي بكرة، وأبي جهيم، وأبي
سعيد الخدري، وأبي طلحة الأنصاري، وأبي هريرة، وأم أيوب^(٢) فهؤلاء
أحد وعشرون صحابياً^(٣).

كما روي حديث الأحرف السبعة عن علي بن أبي طالب، وعبادة بن
الصامت، وزيد بن ثابت^(٤)، رضي الله عنهم.

ونجد السيوطي نفسه يقول في موضع آخر «... وحديث «نزل القرآن
على سبعة أحرف» من رواية سبع وعشرين»^(٥).

ومما يؤكد كثرة الرواة ما أخرجه أبو يعلى في «مسنده» أن عثمان بن
عفان رضي الله عنه قال على المنبر: أذكر الله رجلاً سمع النبي ﷺ يقول:

(١) في كثير من المصادر ورد اسمه (عمرو) والصواب ما أثبتته.

(٢) في كثير من طبعات «الإتقان» ورد: وأبي أيوب، وفي طبعة مؤسسة النداء بتحقيق د.
القيسية، والأتاسي. ٢١٠/١ وهو الصواب: وأم أيوب. وحديثها أخرجه الحميدي
في «مسنده» (٣٤٠)، وأحمد في «مسنده» ٤٣١/٤٥ (٢٧٤٤٣) ط. مؤسسة
الرسالة، والطبري في «تفسيره» ٣٠/١ (٢٠)، ٣١/١ (٢٣)، ٣٢/١ (٢٤) ط. دار
المعارف، وابن كثير في فضائل القرآن: ص ٦١ وفي تفسيره ج ١ ص ٤٠ وانظر
«النشر في القراءات العشر» ٢١/١ وجمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي، ج ٢
ص ٥٤٩.

(٣) الإتقان: السيوطي، ج ١، ص ٦١.

(٤) انظر: حديث الأحرف السبعة: د. عبد العزيز القاري، ص ٩، والأحرف السبعة:
د. حسن عتر ص ١٠٨.

(٥) تدريب الراوي: السيوطي، ج ٢، ص ١٧٩-١٨٠.

«إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها كاف شاف» لَمَّا قام. فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا بذلك. فقال: وأنا أشهد معهم»^(١).

وليس في وسعنا أن نذكر هذه الأحاديث كلها ولذا سأذكر منها:

١ - حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سَلَمَ، فلبَّيته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ، قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئها، فقال رسول الله ﷺ: «أرسله، اقرأ يا هشام» فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت». ثم قال: «اقرأ يا عمر» فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه»^(٢).

٢ - حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»^(٣).

(١) مجمع الزوائد: الهيثمي، جـ ٧، ص ١٥٢ وقال رواه أبو يعلى في الكبير وفيه راو لم يُسَمَّ.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٤٩٩٢)، وصحيح مسلم حديث رقم (١٨٩٩).

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٤٩٩١)، وصحيح مسلم حديث رقم (١٩٠٢).

٣ - حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «إن النبي ﷺ كان عند أضيّة^(١) بني غِفَارٍ، قال: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أُمّتكَ القرآن على حرفٍ فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك» ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أُمّتكَ القرآن على حرفين، فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك» ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أُمّتكَ القرآن على ثلاثة أحرف فقال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك» ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أُمّتكَ القرآن على سبعة أحرف، فأیما حرف قرؤوا علیه فقد أصابوا^(٢).

٤ - حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المراء^(٣) فقال: «إني بعثت إلى أمة أُمّيين منهم الغلام والخادم والشيخ العاسي^(٤) والعجوز» فقال جبريل: فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف^(٥).

٥ - حديث أم أيوب رضي الله عنها قالت: إن النبي ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف أيها قرأت أصبت»^(٦).

(١) أضيّة وجمعها أضاً كحصاة وحصى. الماء المستنقع كالغدير.

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (١٩٠٦).

(٣) موضع بقاء، وقيل: هي قباء.

(٤) العاسي: يقال عسا الشيخ إذا كبر سنه وضعف بصره ويبس جلده وصلب.

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج٥، ص١٣٢، والترمذي حديث رقم (٢٩٤٤)

وقال: «هذا حديث حسن صحيح» وقال أحمد شاكر: وهذا إسناد صحيح (تفسير

الطبري، ج١، ص٣٥).

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج٦، ص٤٣٣، وقال ابن كثير: «وهذا إسناد صحيح

ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة» تفسير ابن كثير، ج١، ص٤٠، وصح

أحمد شاكر إسناده. تفسير الطبري، ج١، ص٣٠-٣١.

والأحاديث - كما ترى - كثيرة جداً، لكنها جاءت على ثلاث صور^(١):

الصورة الأولى: أحاديث حوار بين الرسول ﷺ وجبريل عليه السلام كالحديث الثاني والثالث والرابع هنا.

الصورة الثانية: خلاف بين الصحابة رضي الله عنهم في القراءة، واحتكامهم إلى الرسول ﷺ فيما اختلفوا فيه كالحديث الأول.

الصورة الثالثة: خبر من الرسول ﷺ غير مرتبط بحادثة كالحديث الخامس.

المراد بالأحرف السبعة:

اختلف العلماء كثيراً في المراد بالأحرف السبعة المذكورة في هذه الأحاديث حتى قال ابن حبان: «اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً»^(٢) ثم سرد هذه الأقوال وعقب عليها بقوله: «فهذه خمسة وثلاثون قولاً لأهل العلم واللغة في معنى إنزال القرآن على سبعة أحرف، وهي أقاويل يشبه بعضها بعضاً وكلها محتملة وتحتمل غيرها»^(٣).

أما السيوطي فقال: «اختلف في معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولاً»^(٤).

وقال المراسي: «هذه الوجوه أكثرها متداخلة، ولا أدري مستندها، ولا عمن نقلت»^(٥).

(١) ذكر هذا التقسيم د. إسماعيل الطحان في كتابه (من قضايا القرآن) ص ١٠.

(٢) الاتقان: السيوطي، ج ١، ص ٦٥.

(٣) المرجع السابق، ج ١، ص ٦٦.

(٤) المرجع السابق، ج ١، ص ٦١.

(٥) المرجع السابق، ج ١، ص ٦٦.

ولعلنا - ما دامت الأقوال متداخلة - نقسم أصحابها إلى أربع طوائف^(١):

الطائفة الأولى:

وهم الذين أوَّلوا مدلول الأحرف السبعة ولهم قولان:

القول الأول: أن هذا الحديث من المشكل المتشابه الذي لا يُعلم معناه، وذلك لأن الحرف مشترك لفظي يصدق على معان كثيرة، ولم يعين المراد منها في الحديث، وقال بهذا القول ابن سعدان النحوي^(٢).

ويرد عليهم بأن الرسول ﷺ قد أمرَ بأن يقرئ أمته بهذه الأحرف وقد فعل، وأمرَ أمته أن تقرأ القرآن بهذه الأحرف وقد فعلت، فهي معلومة لديهم، أو لدى كثير منهم، وقد أقرؤوا الناس بها فليست من المتشابه، إلا إن أرادوا أن الصدر الأول قد علموها وقرؤوا بها، ثم اندثر علمها وتعتت من الناس آثارها فله وجه. والعلماء يحاولون الوصول إلى ما كان معلوماً عند الصحابة فليس بمتشابه، أما المتشابه فهو ما خفي على الجميع.

القول الثاني: ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد، وإنما هو رمز إلى ما ألفه العرب من معنى الكمال في هذا العدد، وهو إشارة إلى كمال القرآن في لغته وبيانه ومعانيه وإعجازه.

ويرد على هذا القول بأن في دلالة بعض الأحاديث ما يؤكد على إرادة العدد سبعة، كقوله في حديث ابن عباس: «فلم أزل أستزيده ويزيدني» وقوله في حديث أبي: «إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف» ثم قوله: «على حرفين» ثم «على ثلاثة أحرف» ثم «على سبعة أحرف» وكذا اتفاق الأحاديث كلها على العدد سبعة كل هذا يؤكد إرادة العدد سبعة.

(١) انظر من قضايا القرآن: د. إسماعيل الطحان، ص ٢٥.

(٢) حديث الأحرف السبعة: د. عبد العزيز القاري، ص ٥٥ و ٦٥.

الطائفة الثانية :

رأت أن هذه الأحرف تتعلق بالمعاني وليس بالألفاظ ثم اختلفوا إلى أقوال كثيرة منها :

١ - أن المراد بها سبعة معاني : أمر وزجر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال .

٢ - وقيل : وعد ووعد، وحلال وحرام، ومواعظ وأمثال واحتجاج .

٣ - وقيل : محكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، وخصوص وعموم وقصص، وغير ذلك من الأقوال .

الرد على هذه الطائفة :

وأنكر أكثر العلماء هذا القول وأبطلوه، قال ابن عطية : « وهذا أيضاً ضعيف ؛ لأن هذه لا تسمى أحرفاً ، وأيضاً فالإجماع أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال ، ولا تحليل حرام ، ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة »^(١) . وقال ابن قتيبة : ليس شيء من هذه المذاهب لهذا الحديث بتأويل^(٢) ونقل السيوطي عن قوم قولهم : « إن سياق تلك الأحاديث يأبى حملها على هذا ، بل هي ظاهرة في أن المراد أن الكلمة تقرأ على وجهين وثلاثة إلى سبعة تيسيراً وتهويناً ، والشيء الواحد لا يكون حلالاً حراماً في آية واحدة » ونقل عن غيرهم قوله : « مَنْ أَوَّلَ السبعة الأحرف بهذا فهو فاسد ، لأنه محال أن يكون الحرف منها حراماً لا ما سواه وحلالاً لا ما سواه »^(٣) .

(١) تفسير ابن عطية، ج١، ص ٣٥ .

(٢) تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة، ص ٢٦ .

(٣) الاتقان : السوطي، ج١، ص ٦٤ .

وقال الماوردي: هذا القول خطأ، لأنه ﷺ أشار إلى جواز القراءة بكل واحد من الحروف، وإبدال حرف بحرف، وقد أجمع المسلمون على تحريم إبدال آية أمثال بآية أحكام^(١).

والخلاصة أن هذا القول مردود من وجوه:

- ١ - أن الأحاديث صريحة في أن الاختلاف في القراءة وليس في المعنى.
- ٢ - أن الصحابة رضي الله عنهم احتكموا إلى الرسول ﷺ فاستقرأ كل رجل منهم ثم صوب جميعهم، ولو كان المراد أن قراءة أحدهم دلت على التحريم وقراءة الآخر على التحليل لم يكن الصواب معهما معاً، بل المصيب أحدهما؛ لاستحالة أن يكون الشيء حراماً وحلالاً لما يؤدي إليه ذلك من التناقض في القرآن^(٢).
- ٣ - أن الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف هي التيسير على الأمة والرحمة بهم، ولا وجه لهذا إذا كان المراد بها ما ذكروه من المعاني.
- ٤ - أن لا وجه لتخصيص كل واحد منهم الأحرف السبعة بما ذكره من معان مع أنها كلها موجودة في القرآن^(٣). فهذه الأنواع التي ذكروها موجودة في قراءة عمر كما هي موجودة في قراءة هشام ولا فرق^(٤).

الطائفة الثالثة:

رأت أن المراد بالأحرف السبعة الوجوه التي يقع بها التغاير والاختلاف في الكلمات القرآنية ولا يخرج عنها، وقد اتفقوا على أنها سبعة.

(١) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٢١٧، والإتقان: السيوطي، ج١، ص ٦٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري، ج١، ص ٤٨.

(٣) الإتقان: السيوطي، ج١، ص ٦٦.

(٤) الأحكام: لابن حزم، ج٤، ص ١٧٨.

وقد ذهب إلى هذا القول أبو حاتم السجستاني وابن قتيبة والباقلاني وأبو الفضل الرازي والسخاوي وابن الجزري ومكي بن أبي طالب ومن المعاصرين المطيعي، والخضري الدمياطي والزرقاني وغيرهم.

ثم اختلفوا في تحديدها إلى أقوال منها:

أولاً: قول ابن قتيبة^(١) أن الوجوه السبعة هي:

١ - الاختلاف في إعراب الكلمة بما لا يغير معناها كقوله تعالى: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾^(٢) بالضم والفتح^(٣).

٢ - الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُنَشِّرُهَا﴾^(٤)، وقراءة ﴿كَيْفَ نُنْشَرُهَا﴾^(٥).

٣ - الاختلاف في إعراب الكلمة بما يغير معناها ﴿رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾^(٦)، وقراءة ﴿رَبَّنَا بَاعَدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾^(٧).

٤ - الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة ولا يغير معناها ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾^(٨)، وقراءة (إِلَّا زَقِيَّةً)^(٩).

(١) تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، ص ٢٨.

(٢) سورة هود: الآية ٧٨.

(٣) قراءة الضم متواترة، والفتح شاذة عن سعيد بن جبير والحسن وغيرهما انظر: المحتسب، ج ١، ص ٣٢٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

(٥) بالراء قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب، وقرأ باقي العشرة بالزاي.

(٦) سورة سبأ: الآية ١٩.

(٧) قراءة يعقوب (رَبَّنَا بَاعَدْ) وقراءة ابن كثير وأبي عمرو وهشام (رَبَّنَا بَعْدْ) وقراءة الباقي (رَبَّنَا بَاعَدْ).

(٨) سورة يس: الآية ٢٩.

(٩) قراءة شاذة رويت عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٥ - الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها كقوله تعالى: ﴿وَطَلَّحَ مَنْضُورٌ﴾^(١)، وقراءة (وطلع نضيد)^(٢).

٦ - الاختلاف بالتقديم والتأخير كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾^(٣) وقراءة (وجاءت سكرة الحق بالموت)^(٤).

٧ - الاختلاف بالزيادة والنقصان كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٥)، وقراءة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيَّ الْحَمِيدُ﴾^(٦).

ثانياً: قول أبي الفضل الرازي المقرئ:

١ - اختلاف الأسماء من أفراد وجمع وتأنيث كقوله تعالى: ﴿وَكُنْهٖ﴾^(٧) وقراءة ﴿وكتابه﴾^(٨). وقوله تعالى ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾^(٩)، وقراءة ﴿لا تقبل﴾^(١٠).

٢ - اختلاف تصريف الأفعال من ماضٍ ومضارع وأمر كقوله تعالى ﴿بَعْدَ﴾^(١١)، وقراءة ﴿بَاعَدَ﴾^(١٢).

(١) سورة الواقعة: الآية ٢٩.

(٢) قراءة شاذة رويت عن علي رضي الله عنه.

(٣) سورة ق: الآية ١٩.

(٤) قراءة شاذة رويت عن أبي بكر رضي الله عنه.

(٥) سورة الحديد: الآية ٢٤.

(٦) وهي قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر، وقرأ باقي العشرة بزيادة (هو).

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

(٨) قراءة حمزة والكسائي.

(٩) سورة البقرة: الآية ٤٨.

(١٠) قراءة ابن كثير وأبي عمرو.

(١١) سورة سبأ: الآية ١٩.

(١٢) سبق ذكرها.

٣ - الاختلاف في وجوه الإعراب .

٤ - الزيادة والنقص .

٥ - التقديم والتأخير .

٦ - الإبدال كقوله تعالى : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾^(١) ، وقراءة (فامضوا)^(٢) .

٧ - اختلاف اللغات كالفتح والإمالة كقوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾^(٣) بإخلاص الفتح في موسى وإمالته^(٤) .

ثالثاً : قول ابن الجزري أن الوجوه السبعة هي :

١ - اختلاف الحركات بلا تغير في المعنى والصورة كقوله تعالى :

﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾^(٥) بضم فسكون ، وقراءة ﴿ بِالْبَخْلِ ﴾^(٦) بفتحتين .

٢ - اختلاف الحركات مع تغير في المعنى فقط كقوله تعالى : ﴿ فَلَقَىٰ

ءَادَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾^(٧) ، وقراءة ﴿ فَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾^(٨) .

٣ - اختلاف الحروف بتغير المعنى لا الصورة كقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ

تَبَلَّوْا ﴾^(٩) وقراءة ﴿ تَتَلَّوْا ﴾^(١٠) بتاءين .

(١) سورة الجمعة : الآية ٩ .

(٢) (فامضوا) قراءة شاذة .

(٣) سورة طه : الآية ٩ .

(٤) وهما قراءتان متواترتان .

(٥) سورة النساء : الآية ٣٧ ، سورة الحديد : الآية ٢٤ .

(٦) قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الباء والخاء ، وقرأ باقي العشرة بضم الباء وسكون الخاء .

(٧) سورة البقرة : الآية ٣٧ .

(٨) وهي قراءة ابن كثير ، وقرأ الباقون ﴿ فَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ .

(٩) سورة يونس : الآية ٣٠ .

(١٠) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف ، وقرأ الباقون ﴿ تَبَلَّوْا ﴾ .

٤ - اختلاف الحروف بتغير الصورة فقط كقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾^(١) وقراءة ﴿السراط﴾^(٢) بالسين.

٥ - الاختلاف في المعنى والصورة كقوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا﴾^(٣)، وقراءة (فامضوا)^(٤).

٦ - التقديم والتأخير كقوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾^(٥) ببناء الأول للمعلوم والثاني للمجهول والعكس^(٦).

٧ - الزيادة والنقصان كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّى﴾^(٧) وقراءة ﴿وأوصى﴾^(٨).

ويستدل لهذه الطائفة بأدلة منها:

١ - أن تأويل الحرف المذكور في الحديث بالوجه موافق لما فسر به الحرف في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾^(٩) ولأن يفسر الحديث بما فسرت به الآية أولى من تفسيره بما سواه.

٢ - جاء في بعض الروايات ما يشير إلى أن الأحرف تقرأ قراءة كما جاء في حديث عمر «فاقرؤوا ما تيسر منه» وقول جبريل عليه السلام في بعض

(١) سورة الفاتحة: الآية ٦.

(٢) قراءة قنبل ورويس بالسين، وقراءة حمزة بإشمام الصاد زايًا، وقرأ باقي العشرة بالصاد.

(٣) سورة الجمعة: الآية ٩.

(٤) سبق ذكرها.

(٥) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٦) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الياء الأولى وفتح الثانية، وبعكسه قرأ الباقيون.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٣٢.

(٨) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿وأوصى﴾، وقرأ باقي العشرة ﴿ووصى﴾.

(٩) سورة الحج: الآية ١١.

الروايات «إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف. فأیما حرف قرؤوا علیه فقد أصابوا» وغير ذلك.

٣ - أن هذا المذهب يعتمد على الاستقراء التام لاختلاف القراءات وما ترجع إليه من الوجوه السبعة.

٤ - أن الحكمة من نزول الأحرف السبعة هي التيسير على الأمة وهذا متحقق في اختلاف اللغات أو اللهجات في القراءات كما ذكره الرازي في الوجه السابع عنده كما ذكرناه.

الاعتراضات الواردة على هذا القول^(١):

ومن الاعتراضات المحتملة على هذا القول:

١ - أن هذه الوجوه السبعة المذكورة التي استقرأها أولئك هي وجوه اختلاف القراءات، لكن لا يلزم من ذلك تفسير الأحرف السبعة بها، وتفسير الأحرف بهذه الوجوه إدعاء يستلزم الدليل وليس ثمَّ دليل.

٢ - أن أصحاب هذا القول اختلفوا فيما بينهم في تحديد الأوجه السبعة اختلافاً لا يدع مجالاً للشك بأن في تأويل الأحرف بالأوجه سعة لا تنضبط بها هذه الوجوه، ولا تنحصر في السبعة المذكورة.

٣ - لا تنهض بعض الأوجه المذكورة إلا بأمثلة من القراءات الشاذة أو الضعيفة أو المنكرة، وقد صرح بذلك ابن الجزري حيث قال: «قد تتبعت

(١) انظر هذه الردود في مناهل العرفان: الزرقاني، ج١، ص ١٦٦ وما بعدها والأحرف السبعة: د. حسن عتر، ص ١٦٦ وما بعدها، وحديث الأحرف السبعة: د. عبد العزيز القاري، ص ٧٨ وما بعدها.

صحيح القراءات شاذها وضعيفها ومنكرها فإذا هو يرجع إلى سبعة أوجه لا يخرج عنها»^(١).

٤ - أن الحكمة من تعدد الأحرف السبعة الرخصة لطوائف من الأمة يشق عليها التعلم، ويعسر عليها التحول عما ألفته ألسنها، كالشيخ العاسي والعجوز والغلام والخادم. والعرب لم يكونوا يحسنون الكتابة ولا القراءة، وهذه الوجوه التي ذكروها يتعلق معظمها بطريقة الخط واختلاف صورة الكلمة في الكتابة، كما أنها جميعها لا يتسنى إدراكها إلا بعد بحث عميق واستقراء مع خبرة بأوجه الخط والكتابة، وهذا شأن خواص العلماء، ومن نزلت الرخصة لأجله لا يدرك ذلك ولا يفهمه، ولا يظهر وجه الرخصة لهم بالقراءة على ما تيسر لهم من الأحرف.

ولهذا قال القاسم بن ثابت في الرد على أصحاب هذا القول: إنهم «اخترعوا معنى لم يقل به أحد من السلف ولا أشار إليه، وليس للخلف الخروج عن السلف» ثم قال: «وهذه الأحاديث الصحاح... تضيق عن كثير من الوجوه التي وجهها عليها من زعم أن الأحرف في صورة الكتابة والتقديم والتأخير، والزيادة والنقصان، لأن الرخصة كانت من رسول الله ﷺ والعرب ليس لهم يومئذ كتاب يعتبرونه، ولا رسم يتعارفونه، ولا يقف أكثرهم من الحروف على كتبه، ولا يرجعون منها إلى صورة»^(٢).

الطائفة الرابعة:

رأت أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب ثم اختلفوا إلى أقوال منها:

(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج١، ص ٢٦.

(٢) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص ١٢٨-١٣٢.

القول الأول: أنها سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن بمعنى أن كلمات القرآن لا تخرج عن سبع لغات هي أفصح لغات العرب، وأكثره بلغة قريش، ومنه ما هو بلغة هذيل أو ثقيف أو هوازن أو كنانة أو تيم أو اليمن.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «ليس معناه أن يكون للحرف الواحد سبعة أوجه، هذا لم يسمع به قط، ولكن يقول: هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن، فبعضه نزل بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة أهل اليمن، وكذلك سائر اللغات ومعانيها مع هذا كله واحد»^(١).

وذهب إلى هذا القول أبو عبيد وثعلب وابن سيده والأزهري واختاره ابن عطية، وصححه البيهقي في «الشعب».

واستدلوا بما قاله عثمان رضي الله عنه للأربعة حين أمرهم بنسخ الصحف: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوه بلسان قريش فإن القرآن أنزل بلسانهم»^(٢) ووجه الاستدلال أن الحديث يدل على أن معظم القرآن نزل بلسان قريش، وأن فيه بقية من لغات العرب، ولذلك ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: «باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب قرآناً عربياً بلسان عربي مبين»^(٣).

واعترض على هذا القول بأمور منها^(٤):

١ - مخالفته لحديث عمر وهشام رضي الله عنهما فكلاهما من قريش، ولسانهما واحد، فلو كان المراد بالأحرف اللغة لما وقع بينهما اختلاف.

(١) غريب الحديث: أبو عبيد القاسم بن سلام، ج١، ص ٤٥١.

(٢) تفسير القرطبي، ج١، ص ٤٣-٤٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن.

(٤) انظر: الأحرف السبعة: د. حسن عتر، ص ١٨٢، وحديث الأحرف السبعة:

د. عبدالعزيز القاري، ص ٧٢.

٢ - هذا القول لا تتحقق فيه حكمة التيسير بهذه الأحرف، وليس للقارئ أن يختار منها حرفاً واحداً، بل يلزمه القراءة بها جميعاً حيث يقرأ آية بحرف والثانية بحرف آخر وهكذا.

٣ - أن في هذا زيادة مشقة على كل قارئ، ولو كان بحرف واحد لكان أيسر من هذا التنوع، إذ إن على كل قارئ أن يحيط بكل اللغات السبع حتى يقرأ القرآن.

٤ - اختلاف أصحاب هذا القول في تعيين تلك اللغات وحصرها، ولو كان المراد بالأحرف تلك اللغات لاشتهرت عند الصحابة ومن بعدهم.

القول الثاني: هو ما ذهب إليه أكثر العلماء:

ومنهم سفيان، وابن وهب، وابن جرير الطبري، والطحاوي وغيرهم.

وهو: أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد، على معنى أنه إذا اختلفت لغة العرب في كلمة جاء القرآن بسبع لغات منها.

واختلفوا في تحديد هذه اللغات السبع ف قيل:

١ - قريش، هذيل، تميم، هوازن، كنانة، ثقيف، اليمن.

٢ - قريش، هذيل، تميم، هوازن، الأزد، ربيعة، سعد بن بكر. وقيل غير ذلك.

وممن قال بهذا الرأي القاسم بن ثابت الذي قال: «ونقول - وبالله التوفيق - بالذي صحت به الآثار، وتواطأت عليه الأخبار، وتأولته من أهل التفسير من لا يدفع نقله، ولا يتهم نظره، إن الله تبارك وتعالى بعث نبيه ﷺ والعرب متناؤون في المحال والمقامات، متباينون في كثير من الألفاظ

واللغات، ولكل عمارة لغة ذلت بها ألسنتهم، وفحوى قد جرت عليها عاداتهم، وفيهم الكبير العاسي، والأعرابي القح، ومن لو رام نفي عاداته وحمل لسانه على غير ذريته تكلف منه حملاً ثقيلاً. وعالج منه عبثاً شديداً، ثم لم يكسر غرْبَه، ولم يملك استمراره إلا بعد التمرين الشديد، والمساجلة الطويلة، فأسقط عنهم تبارك وتعالى هذه المحنة، وأباح لهم القراءة على لغاتهم، وحمل حروفه على عاداتهم، وكان الرسول ﷺ يقرئهم بما يفقهون، ويخاطبهم بالذي يستعملون بما طوقه الله من ذلك، وشرح به صدره، وفتق به لسانه، وفضله على جميع خلقه» ثم ذكر بعض الأحاديث وعقب عليها بقوله: «فمعنى قوله: «على سبعة أحرف» يريد - والله أعلم - على لغات شعوب من العرب سبعة، أو من جماهيرها وعمائرها»^(١).

وممن قال بهذا أبو جعفر الطحاوي حيث قال: «كانت هذه السبعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غيرها، لأنهم كانوا أميين، لا يكتبون إلا القليل منهم، فكان يشق على كل ذي لغة منهم أن يتحول إلى غيرها من اللغات، ولو رام ذلك لم يتهياً له إلا بمشقة عظيمة، فوسع لهم في اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقاً»^(٢).

وسئل سفيان بن عيينة عن اختلاف قراءة المدنيين والعراقيين هل تدخل في السبعة الأحرف؟ فقال: لا، وإنما السبعة الأحرف كقولهم: هلم، أقبل، تعال، أي ذلك قلت أجزاءك^(٣).

(١) المرشد الوجيز: أبو شامة، ص ١٢٨-١٣٠.

(٢) المرجع السابق: ص ١٠٦.

(٣) المرجع السابق: ص ١٠٥-١٠٦.

وأشهر من ذهب إلى هذا الرأي الإمام الطبري - رحمه الله تعالى - حتى صار القول ينسب إليه، وأفاض في مقدمة تفسيره في الاحتجاج له واستدل بأمور منها^(١):

١ - أن الصحابة - رضي الله عنهم - تماروا في القرآن فخالف بعضهم بعضاً في نفس التلاوة دون ما في ذلك من المعاني.

٢ - أنهم احتكموا فيه إلى النبي ﷺ فاستقرأ كل رجل منهم ثم صَوَّب جميعهم في قراءتهم على اختلافها... ولو كان اختلافهم فيما دلت عليه تلاوتهم من التحليل والتحريم. والوعد والوعيد وما أشبه ذلك لكان مستحيلاً أن يصوب جميعهم... ولأن ذلك لو جاز أن يكون صحيحاً وجب أن يكون الله جل ثناؤه قد أمر بفعل شيء بعينه وفرضه في تلاوة من دلت تلاوته على فرضه - ونهى عن فعل ذلك الشيء بعينه وزجر عنه في تلاوة الذي دلت تلاوته على النهي والزجر عنه - وفي انتفاء ذلك عن كتاب الله وجوبُ صحة القول الذي قلناه.

٣ - ويؤيد هذا حديث أبي بكرة رضي الله عنهم عن الرسول ﷺ عن الأحرف السبعة «كلها شافٍ كافٍ» وفيه «كقولك: هلم وتعال»^(٢) فقد أوضح نص هذا الخبر أن اختلاف الأحرف السبعة إنما هو اختلاف ألفاظ كقولك: «هلم وتعال» باتفاق المعاني لا باختلاف معاني موجبة اختلاف أحكام.

٤ - ويؤيد هذا ما صح من الأخبار عن جماعة من السلف والخلف كقول ابن مسعود رضي الله عنه: «فإنما هو كقول أحدكم: هلم وتعال» وقوله: «من قرأ على حرف فلا يتحولن منه إلى غيره» فمعلوم أن عبد الله بن

(١) انظر: تفسير الطبري، ج ١، ص ٤٨-٥٥.

(٢) انظر الحديث وتخريجه في تفسير الطبري ج ١ ص ٤٣ رقم ٤٠ و ٤٧.

مسعود رضي الله عنه لم يَغنِ بقوله هذا: من قرأ ما في القرآن من الأمر والنهي فلا يتحولن منه إلى قراءة ما فيه من الوعد والوعيد، ومن قرأ ما فيه من الوعد والوعيد فلا يتحولن منه إلى قراءة ما فيه من القصص والمثل.

ويرد على هذا القول اعتراضات منها^(١):

١ - أنه قصر أحاديث الأحرف السبعة على بعض معانيها فحسب؛ لأنه قصر إنزال القرآن على سبع لغات على ما كان من الألفاظ المتفاوتة الموضوعات لمعنى واحد بين لغات القبائل دون هيئة النطق فإنه اعتبرها خارج الأحرف السبعة، وهذا الإخراج لا دليل عليه لأن ذلك مما تشمله اللغات.

٢ - أن هذا القول لا يسعف في تخريج القراءات وتعليل وجودها واختلافها، والقول بأنها قراءات لحرف واحد فقط يعوزه الدليل على أن كل حرف له قراءات أنزلت من الله سبحانه وتعالى.

٣ - أن هشام بن حكيم قرشي فلا داعي لإنكار عمر عليه لأنه قرشي مثله يقرأ على لغته.

٤ - أن الاختلاف بين لغات العرب ليس بشديد التباين حتى يجهل بعضهم ما عند بعض في الأكثر، وإنما هو أن قريشاً استعملت في عباراتها شيئاً، واستعملت هذيل شيئاً غيره في ذلك المعنى وسعد بن بكر غيره والجميع كلامهم في الجملة ولغتهم^(٢)، ولا يستوجب ذلك أو يستدعي نزول القرآن بلغاتهم كلهم، بل وإذا نزل بلغة بعضهم كقريش كفى.

(١) انظر: الأحرف السبعة: د. حسن عتر، ص ١٨٢-١٨٦.

(٢) تفسير ابن عطية، ج ١، ص ٤٠.

الترجيح:

بادئ ذي بدء ينبغي أن نقر ونعترف بأنه لا يمكن لأحد الجزم بمعنى الأحرف السبعة، وإنما هي اجتهادات لا يسلم كل قول منها على كثرتها من اعتراضات وإشكالات، وقد سئل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - صاحب أضواء البيان - رحمه الله تعالى عما ترجح لديه في معنى حديث الأحرف السبعة فقال: الذي ترجح لدي أنني لا أعرف معناه^(١).

وقبله قال ابن الجزري «لا زلت استشكل هذا الحديث وأفكر فيه، وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة، حتى فتح الله عليّ بما يمكن أن يكون صواباً إن شاء الله»^(٢).

ولذا فلا تطمع أن تجد هنا أكثر من ذلك، أو مثله، لكن هذا لا يعني أن الأقوال كلها على درجة واحدة من القرب أو البعد عن الصواب، فمنها ما هو ظاهر الضعف، وهو ما ذكرناه من أقوال الطائفتين الأولى والثانية، وهي أقوال كثيرة تقارب الثلاثين قولاً.

وإذا علمنا أن أحاديث الأحرف السبعة تدل على أمرين:

الأول: أن الأحرف السبعة في القراءة وليس في المعنى.

الثاني: أن الحكمة منها التخفيف والتيسير على الأمة والرحمة بهم.

ظهر لنا أن الصواب أقرب إلى قول الطائفتين الثالثة والرابعة بل لا يتحقق الأمران إلا في قول أبي الفضل الرازي من الطائفة الثالثة وابن جرير الطبري من الطائفة الرابعة وإنما خصصنا قول الرازي لذكره الوجه السابع وهو اختلاف اللغات ولم يذكره غيره.

(١) حديث الأحرف السبعة: د. عبد العزيز القاري، ص ٥.

(٢) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج ١، ص ٢٦.

وعلى هذا فإن هذين القولين هما الأقرب للصواب، وهما قولان لا يتعارضان بل يتداخلان، وتداخلها يزيدهما قوة وظهوراً.

ولنا أن نقول إن المراد بالأحرف السبعة هو: تغاير الألفاظ مع اتفاق المعنى - كما قال أبو الفضل الرازي - في سبع لغات من لغات العرب - كما قال ابن جرير الطبري.

قال ابن حجر - رحمه الله تعالى - يمكن الجمع بين القولين بأن يكون المراد بالأحرف تغاير الألفاظ مع اتفاق المعنى مع انحصار ذلك في سبع لغات^(١).

وذلك أن اختلاف القبائل العربية فيما مضى كان يدور على اللهجات في كثير من الحالات، والتخفيف على الأمة بنزول القرآن على سبعة أحرف يتحقق بملاحظة اختلاف اللهجات، إذ إن اختلاف اللغة في جوهرها أيسر من اختلاف اللهجة، فقد يسهل على المرء أن ينطق بكلمة من غير لغته، ولا يسهل عليه أن ينطق بكلمة من غير لغته نفسها بلهجة غير لهجته، وطريقة في الأداء غير طريقته^(٢).

أي أن القرشي مثلاً يسهل عليه أن ينطق بلغة هذيل في جوهرها، لكنه يشق عليه أن ينطق لغة هذيل بلهجة أهلها.

ولما كانت الأحرف بمعنى اللغات فإن الوجوه التي ذكرتها الطائفة الثانية ليست إلا الفوارق بين اللغات السبع التي نزل القرآن عليها.

وإن حصر الفروق في سبعة أمر لا موجب له، ولو زادت عن السبعة أو نقصت لما كان مخالفاً لنص شرعي طالما حققنا أن الأحرف هي اللغات

(١) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، ج٩، ص ٢٨.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، ج١، ص ١٦٤.

السبع التي أنزل القرآن وفقها، فلا عبرة عندئذ لعدد الفروق بينها سواء أزدادت عن السبعة أم نقصت^(١).

والخلاصة:

أن المراد بالأحرف السبعة وجوه القراءات المتغايرة في سبع لغات من لغات العرب وليست لغات القبائل على حدّ سواء، بل بعضها أسعد من بعض بهذه الوجوه.

ونختتم هذا بالتأكيد أن هذا ما قلناه ونحن ندرك أن عليه مآخذ وفيه إشكالات تظهر للمتأمل، كغيره من الأقوال، والله أعلم.

ما بقي من الأحرف السبعة:

ينبغي أن نبين قبل ذكر الأقوال في ذلك:

أن الأقوال هنا مبنية على الأقوال في الأحرف السبعة فمن فسرهما برأي ذهب إلى ما يوافق ذلك من بقاء الأحرف كلها أو بعضها.

وبعد هذا نقول: إن للعلماء في ما بقي من الأحرف السبعة ثلاثة أقوال:

الأول: بقاء حرف واحد من الأحرف السبعة:

ذهب الطبري والطحاوي وابن حبان وابن عبد البر وغيرهم إلى أن عثمان رضي الله عنه لما استنسخ الصحف من عند حفصة أمر أن يكون ذلك على حرف واحد لئلا تختلف الأمة في القرآن كما اختلفت اليهود والنصارى، وجمع الأمة على حرف واحد وأمر الناس بترك ما سواه، فتتابع المسلمون على ذلك، وأجمعوا عليه، وبذلك اندثرت الأحرف الستة وعفت آثارها فلا سبيل اليوم إلى

(١) الأحرف السبعة: د. حسن عتر، ص ١٨٠.

القراءة بها^(١). وقال ابن تيمية: إنه قول جمهور العلماء من السلف والأئمة. .
وقال: والأحاديث والآثار المشهورة المستفيضة تدل على هذا القول^(٢). وقال
أبو جعفر الطبري: «لا قراءة للمسلمين اليوم إلا بالحرف الواحد الذي اختاره
لهم إمامهم الشفيق الناصح دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية»^(٣).
إشكال:

وقد أورد الطبري - رحمه الله تعالى - إشكالاً على هذا القول ثم أجاب
عليه فقال:

«فإن قال بعض من ضعفت معرفته: وكيف جاز لهم ترك قراءة
أقرأهموها رسول الله ﷺ وأمرهم بقراءتها؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك لم
يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة»^(٤) وقد سبق بيان
ذلك في جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه.

الثاني: بقي من الأحرف السبعة ما يحتمله رسم المصحف:

قال ابن الجزري: «وهذا القول هو الذي يظهر صوابه؛ لأن الأحاديث
الصحيحة والآثار المشهورة المستفيضة تدل عليه وتشهد له»^(٥).

وقال أيضاً: «فكتبوا المصاحف على لفظ لغة قريش والعرضة
الأخيرة... وجردوا المصاحف عن النقط والشكل لتحتمل صورة ما بقي
من الأحرف السبعة»^(٦).

(١) انظر تفسير الطبري، ج ١، ص ٦٣-٦٤.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ٣، ص ٣٩٥.

(٣) تفسير الطبري، ج ١، ص ٦٤.

(٤) المرجع السابق، ج ١، ص ٦٤.

(٥) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج ١، ص ٣١.

(٦) منجد المقرئين: ابن الجزري، ص ١١١.

٢ - في سورة يونس: الآية ٣٨ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ الآية .

٣ - سورة هود: الآية ١٣ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مَفْتَزِينَ ﴾ .

٤ - سورة الإسراء: الآية ٨٨ ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ .

٥ - سورة الطور: الآية ٣٣-٣٤ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٣٣ ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

والتحدي في هذه الآيات كما ترى جاء مرة بالإتيان بمثل القرآن كله، ومرة بعشر سور، ومرة بسورة، ومرة بحديث مثله. فهل جاء التحدي بالقرآن متدرجاً من الأكثر إلى الأقل أم لا؟ للعلماء في مراحل التحدي بالقرآن الكريم أقوال:

القول الأول: وهو قول جمهور علماء التفسير والبلاغة أن التحدي كان متدرجاً بالقرآن كله كما في سورة الإسراء والطور، ثم تحداهم بعشر سور في سورة هود، ثم تحداهم بسورة في سورة يونس، ثم بسورة من مثله في سورة البقرة، ولكن هذا القول لا يساعد عليه ترتيب نزول القرآن الكريم.

القول الثاني: رتب آيات التحدي حسب ترتيب النزول وأنه كان متدرجاً أيضاً، إلا أن التحدي بسورة وقع قبل التحدي بعشر سور، ثم ذهب أصحاب هذا القول يعللون ذلك بتعليلات ليس فيها ما يقنع.

القول الثالث: وهو ما أرى صوابه أن القولين السابقين قاما على تصور أن الإتيان بمثل القرآن أصعب من الإتيان بمثل عشر سور، وأن الإتيان بالعشر أصعب من الإتيان بسورة، وهذا غير صحيح. لأن القرآن كله قليله

القول الثالث : بقاء الأحرف السبعة كلها :

وذهب إلى ذلك - كما قال السيوطي - جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى اشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة. وبنوا عليه أنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء منها^(١).

الترجيح :

والراجع - والله أعلم - هو القول الثاني ، وهو بقاء ما يحتمله الرسم من الأحرف السبعة ، وهو القول الذي عليه جمهور العلماء ، والقول الأول ينطوي تحت القول الثاني ، وعلى هذا فإن جمع عثمان بن عفان رضي الله عنه :

١ - كان على حرف واحد هو حرف قريش ، وقد كتب مجرداً حتى يحتمل أحرفاً أخرى.

٢ - كان الهدف من جمع القرآن الكريم في عهد عثمان - رضي الله عنه - تجريده مما لم يثبت من القراءات ولذا كانت لجنة جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه «إذا تدارؤوا في شيء أخره» ، قال محمد : فظننت ظناً أنما كانوا يؤخرونها لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبونها على قوله^(٢). وقد أصبح بعض من لا يفقه يخلط في القراءة تفسيرها ، أو يقرأ بقراءة فلان ، ويقرأ الآخر بقراءة فلان مما لم يثبت في العرضة الأخيرة فجمع القرآن على القراءات الثابتة .

٣ - وكان من قصده - أيضاً - ترتيب السور حيث لم تكن كذلك .

٤ - وتأکید الاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته من الآيات أو القراءات .

(١) الإتقان : السيوطي ، ج١ ، ص ٦٦ .

(٢) المصاحف : ابن أبي داود ، ص ٣٣ .

وفي ذلك يقول القرطبي - رحمه الله تعالى - : «وكان هذا من عثمان - رضي الله عنه - بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك، فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت في القراءات المشهورة عن النبي ﷺ وأطراح ما سواها، واستصوبوا رأيه، وكان رأيه سديداً موفقاً، رحمة الله عليه وعليهم أجمعين»^(١).

وقال الباقلاني : «لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، وإنما قصد جَمْعَهُمْ على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع تنزيل، ومنسوخ تلاوة كُتِبَ مع مثبت رسمه، ومفروض قراءته وحفظه، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد»^(٢).

ولا تنس أن الراجح في المراد بالأحرف السبعة هو وجوه القراءات المتغايرة على سبع لغات من لغات العرب. وقد كتب القرآن في عهد عثمان على لسان قریش على وجه يحتمل وجوه القراءات الثابتة، فإن أمكن وإلا كتبت في مصحف بوجه وفي مصحف آخر بوجه آخر فالأحرف الباقية - موجودة في أفراد المصاحف ومجموعها. والله أعلم.

حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف :

أما حِكْمُ نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف فلا تكاد تحصى، ولا تنس أننا قلنا: إن الأحرف هي وجوه القراءات، فتدخل في ذلك فوائد تعدد

(١) تفسير القرطبي، ج ١، ص ٥٢.

(٢) البرهان: الزركشي، ج ١، ص ٢٣٥-٢٣٦.

القراءات، ولهذا نجد كثيراً من المؤلفين يمزج فوائدها تعدد الأحرف مع فوائدها تعدد القراءات^(١).

ومن تلكم الفوائد:

١ - التيسير على الأمة والرحمة بهم:

وهي أظهر الحكَم وأشهرها، والأحاديث صريحة في الدلالة على هذا، ووجه هذه الحكمة أن الأمة التي نزل عليها القرآن الكريم كانت أمة عربية واحدة لكنها كانت قبائل متعددة، وكان بين كل قبيلة وأخرى اختلاف في اللهجات، وطريقة أداء بعض الكلمات، ولا يخفى عليك أن تمكن اللهجة من صاحبها تجعل تحويل لسانه عما ألفه واعتاده في غاية الحرج والمشقة، بل قد يُعْرِضُ عما عُرضَ عليه ويأباه إذا خالف لهجته، ولا يطاوعه لسانه لنطقه.

فكيف يمكن والحالة هذه أن تلهج ألسنتهم بالقرآن، وتقبل قلوبهم عليه إذا اقتصر نزوله على لسان قريش^(٢).

وقد صَوَّرَ ابن قتيبة حالهم فقال: «فكان من تيسيره: أن أمره بأن يقرئ كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم. . . ولو أن كل فريق من هؤلاء أُمرَ أن يزول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات، ومتصرفاً في الحركات»^(٣).

(١) انظر مثلاً مناهل العرفان: الزرقاني، ج١، ص١٤٨، والقراءات القرآنية: عبد الحليم قابه، ص٦٧ وغيرهما كثير.

(٢) الأحرف السبعة: د. حسن عتر، ص٢١٥-٢١٦.

(٣) تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، ص٣٨-٤٠.

ويشهد لهذا قول الرسول ﷺ في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه :
«أن هَوْن على أمتي» وفي حديث آخر «أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا
تطبق ذلك» وفي حديث ثالث : أن رسول الله ﷺ لقي جبريل عليه السلام
فقال : «يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميين منهم العجوز والشيخ الكبير
والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط» قال : يا محمد إن القرآن
أنزل على سبعة أحرف .

قال ابن الجزري - رحمه الله تعالى - : «وأما سبب وروده على سبعة
أحرف فللتخفيف على هذه الأمة وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها شرفاً
لها، وتوسعة ورحمة، وخصوصية لفضلها»^(١) وقال أيضاً : «وكانت العرب
الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى، ويعسر على
أحدهم الانتقال من لغة إلى غيرها، أو من حرف إلى آخر، بل قد يكون
بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج، لا سيما الشيخ والمرأة،
ومن لم يقرأ كتاباً كما أشار إليه ﷺ، فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال
عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا استطاع، وما عسى أن يتكلف المتكلف
وتأبى الطباع»^(٢).

ثانياً : تحقيق انتشار الدعوة الإسلامية :

وذلك أن انتشار الدعوة الإسلامية مرتبط بانتشار القرآن الكريم، ونشره
مرتبط بتمكنهم وقدرتهم على تلاوته، وهذه تكون بمراعاة لغاتهم وألسنتهم
وقد كان ذلك بإنزال القرآن على سبعة أحرف .

(١) النشر في القراءات العشر : ابن الجزري، ج١، ص ٢١-٢٢ .

(٢) المرجع السابق .

ثالثاً: الإيجاز والإعجاز:

وبيان ذلك أن في تعدد الأحرف كمال الإعجاز مع غاية الإيجاز، إذ إن كل حرف بالنسبة إلى الآخر بمنزلة آية مستقلة، ولا يخفى أن تنوع المعاني تابع لتنوع الألفاظ، ولو كان كل حرف آية مستقلة لكان في ذلك إطالة وإطناب يتعارضان مع جمال الإيجاز وبقاء الإعجاز^(١).

رابعاً: الدلالة على مصدر القرآن وأنه وحى من الله تعالى:

وذلك أن تعدد القراءات وتعدد الأحرف واتساق بعضها مع بعض وترابطها، من غير اختلاف فضلاً عن التضاد أو التناقض، يدل على أنه من حكيم خبير، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا إِلَيْهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٢).

خامساً: توحيد لغات العرب ووحدة الأمة الإسلامية:

فقد كان نزول القرآن على سبعة أحرف تمهيداً لتعليم القبائل اللغات الأخرى واعتيادهم على سماعها خاصة في الكلمات التي نزلت على لسان قريش، حتى شاع لسان قريش واعتادته القبائل، وألفته أذانها، واتحدوا عليه بعد ذلك.

سادساً: أن الأحرف السبعة من خصائص أمة محمد ﷺ:

قال ابن الجزري «ومنها بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم من حيث تلقيهم كتاب ربهم هذا التلقي وإقبالهم عليه هذا الإقبال، والبحث عن لفظة لفظة، والكشف عن صيغة صيغة، وبيان صوابه، وبيان تصحيحه، وإتقان تجويده حتى حموه من خلل التحريف، وحفظوه من الطغيان، والتطفيف، فلم يهملوا تحريكاً ولا تسكيناً، ولا تفخيماً ولا ترفيقاً، حتى

(١) انظر القراءات القرآنية: عبد الحليم قابه، ص ٦٨.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٢.

ضبطوا مقدار المدات، وتفاوت الإمالات، وميزوا بين الحروف بالصفات، مما لم يهتد إليه فكر أمة من الأمم، ولا يوصل إليه إلا بإلهام باري النسم»^(١).

سابعاً: أن الأحرف السبعة من خصائص القرآن الكريم:

وبين ذلك الطبري بقوله: «وذلك أن كل كتاب تقدم كتابنا نزوله على نبي من أنبياء الله، صلوات الله عليهم، فإنما نزل بلسان واحد متى حُوِّل إلى غير اللسان الذي نزل به كان ذلك له ترجمة وتفسيراً لا تلاوة له على ما أنزله الله... وأنزل كتابنا بألسن سبعة بأي تلك الألسن السبعة تلاه التالي كان له تالياً على ما أنزل الله لا مترجماً ولا مفسراً»^(٢).

وفي الحديث: «كان الكتاب الأول نزل على حرف واحد ونزل القرآن على سبعة أحرف»^(٣).



(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ج١، ص ٥٣.

(٢) تفسير الطبري، ج١، ص ٧٠-٧١.

(٣) تفسير الطبري، ج١، ص ٧١.

النسخ في القرآن الكريم

كان الناس في الجاهلية يعبدون الأصنام والأوثان، فنزلت الآيات لتقرير العقيدة الصحيحة، والعقيدة لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل لقيامها على الإيمان بأصول ثابتة اتفقت دعوة الرسل عليها. واقتضت حاجة الأمة الجديدة تشريعات تعبدية ومعاملات، واقتضت حكمة الله تعالى - رحمة بالأمة - التدرج في تقريرها، فكانت هذه الأحكام تنزل مفرقة بين حين وآخر، فإذا نزل حكم شرعي وعمل الناس به ارتقى بهم إلى حكم آخر يناسب الحال التي وصلوا إليه ورفع الحكم السابق، وهذا ما يسمى بالنسخ، وقد اعتنى العلماء بدراسة هذا النوع من الآيات وأفردوه بمؤلفات مستقلة أذكر منها:

- ١ - الناسخ والمنسوخ في كتاب الله تعالى: قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧هـ) طبع بتحقيق د. حاتم الضامن.
- ٢ - الناسخ والمنسوخ: ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) طبع بتحقيق د. حاتم الضامن.
- ٣ - الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز: أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت ٢٢٤هـ) طبع بتحقيق محمد بن صالح المديفر.
- ٤ - الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: محمد بن أحمد بن حزم الظاهري (ت ٣٢٠هـ).
- ٥ - الناسخ والمنسوخ: أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) طبع بتحقيق د. محمد عبد السلام محمد.

٦ - الناسخ والمنسوخ من كتاب الله عز وجل : هبة الله بن سلامة بن نصر المقرئ (ت ٤١٠هـ) طبع بتحقيق زهير الشاويش ومحمد كنعان .

٧ - الناسخ والمنسوخ : أبو منصور عبد القاهر البغدادي (٤٢٩هـ) طبع بتحقيق د. حلمي عبد الهادي .

٨ - الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم : أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ) .

٩ - نواسخ القرآن : ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) طبع بتحقيق محمد أشرف الملباري . وله أيضاً المصنفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ : طبع بتحقيق د. حاتم الضامن .

١٠ - النسخ في القرآن الكريم : د. مصطفى زيد ، طبع في مجلدين . والمؤلفات في الناسخ والمنسوخ كثيرة جداً وإنما ذكرت أشهرها ، وأفضل من كتب في ذلك من المتقدمين أبو عبيد القاسم بن سلام ، ومن المتأخرين د. مصطفى زيد^(١) .

تعريفه :

النسخ لغة :

يطلق بمعنى الرفع والإزالة ، يقال : نسخت الشمس الظل ، ونسخت الريح الأثر : إذا أزالته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾^(٢) .

(١) انظر : الآيات المنسوخة في القرآن الكريم : د. عبد الله بن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : ص ٩ .

(٢) سورة الحج : الآية ٥٢ .

ويطلق ويراد به نقل الشيء من موضع إلى موضع، ومنه: تناسخ المواريث؛ لانتقال المال من وارث إلى وارث. وتناسخ الأرواح عند القائلين به، ونسخ الكتاب، ويقال: نسخه الله قرداً بمعنى مسخه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١) والمراد نقل الأعمال إلى الصحف.

النسخ اصطلاحاً:

رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي مترسخ عنه.

والمراد بقولنا: (رفع)، أي: قطع العمل به، وخرج بهذا القيد ما ليس برفع كالتخصيص فإنه لا يرفع الحكم، وإنما يقصره على بعض أفرادهِ^(٢).

وبقولنا: (الحكم الشرعي) خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين، وخرج به رفع البراءة الأصلية، كإيجاب الصلاة والزكاة فإنه رافع للبراءة الأصلية لذمة الإنسان منها قبل ورود الشرع بها، ولا يقال لهذا: نسخ لأنها حكم عقلي لا شرعي.

والمراد بقولنا: (بخطاب شرعي) الكتاب والسنة. وخرج بذلك رفع الحكم الشرعي بدليل عقلي، كسقوط التكليف عن الإنسان بموته أو جنونه، وكذلك خرج به رفع الحكم الشرعي بالإجماع أو القياس.

وخرج بقولنا: (مترسخ عنه) ما كان متصلاً بالحكم، كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾^(٣) فإن قوله ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾ غير ناسخ لإباحة الأكل والشرب، وإنما هو بيان وتتمة للمعنى فلا يعتبر نسخاً.

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٩.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ ٢، ص ١٩١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

شروط النسخ:

ويظهر من التعريف أن شروط النسخ أربعة:

١ - أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً.

٢ - أن يكون الحكم الناسخ خطاب شرعي متراخ عن الخطاب المنسوخ حكمه.

٣ - أن لا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين، وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته، ولا يُعدّ هذا نسخاً^(١).

٤ - أن يكون بين الدليلين تعارض حقيقي بحيث لا يمكن الجمع بينهما أو إعمالهما معاً^(٢).

مذاهب الناس في النسخ:

ولهم في ذلك أربعة مذاهب:

١ - ذهب اليهود إلى إنكار النسخ وزعموا أنه يستلزم البداء على الله، وهو الظهور بعد الخفاء، أو نشأة رأي جديد لم يكن نتيجة تجدد علم كان مجهولاً، وهذا محال على الله تعالى.

واستدلّاهم هذا فاسد، لأن النسخ ليس لتجدد علم الله - تعالى وعز وجل - وإنما لتجدد حاجة الأمة، وتغير أحوالهم وحاجتهم إلى حكم جديد في كل حالة من حالاتهم. فما يناسبهم في حال الضعف في مكة مثلاً قد لا يناسبهم في حال القوة في المدينة، وليس هذا من البداء في شيء.

(١) انظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص ٢٣٢.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، ج ٢، ص ١٩٢ و ١٩٦.

٢ - مذهب الرافضة:

وهؤلاء غالوا في إثبات النسخ بل وأجازوا على الله البدء - الذي نزه اليهود عنه الله تعالى - ووضعوا أحاديث نسبوها إلى علي رضي الله عنه كقوله: «لولا البدء لحدثتكم بما هو كائن إلى يوم القيامة».

٣ - مذهب أبي مسلم الأصفهاني:

وإنما نسب إليه لأنه أول من قال به، وهو من أئمة المعتزلة، حيث قال بجواز النسخ عقلاً وامتناع وقوعه شرعاً، واحتج بقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١). على معنى أن أحكام القرآن لا تبطل أبداً ويحمل آيات النسخ على التخصيص.

ويرد عليه بأن معنى الآية أن القرآن لا يأتيه خلل ولا نقص ولا تحريف ولا تبديل، ولا يمكن أن يتطرق إليه شيء من ذلك، والنسخ ليس من الباطل بل هو من الحق، فالنسخ والمنسوخ كلاهما وحي من الله تعالى، ووحى الله كله حق لا باطل.

٤ - مذهب جمهور علماء المسلمين:

على جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً للنصوص الشرعية الكثيرة الدالة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾^(٣) وغير ذلك من الأدلة في الكتاب والسنة.

(١) سورة فصلت: الآية ٤٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٣) سورة النحل: الآية ١٠١.

ما يقع فيه النسخ :

اعلم أن النسخ لا يكون إلا في (الأوامر) و(النواهي) سواء كانت :
١ - صريحة في الطلب .

كالأمر في قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ
نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ﴾^(١) .

٢ - أو كانت بصيغة الخبر .

كقوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ﴾^(٢) .

وكقوله تعالى : ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ
مُشْرِكٌ﴾^(٣) .

ولا يقع النسخ في :

١ - مسائل العقيدة المتعلقة بذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم
الآخر ؛ لأن العقائد حقائق ثابتة لا تقبل التغيير أو التبديل فلا يدخلها النسخ .
كقوله تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾^(٤) وقوله سبحانه : ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وِرْسُولِهِ
الَّتِي الْاُمِّي الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾^(٥) .

٢ - أصول العبادات والمعاملات فلا يقع النسخ في فرض الصلاة أو
الصيام أو الحج أو البيع أو الشراء أو الزواج ؛ لأن هذا وغيره من الأمور التي

(١) سورة المجادلة : الآية ١٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٣ .

(٣) سورة النور : الآية ٣ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٢ .

(٥) سورة الأعراف : الآية ١٥٨ .

يَشْرِكُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ كُلَّهُمْ ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١) وقال سبحانه: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ (٢) وقوله سبحانه: ﴿ وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (٣).

٣ - الأخلاق والآداب كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ (٤) ونحو ذلك.

٤ - الأخبار المحضة كقصص الأنبياء وما جرى للأمم السابقة.

طرق لمعرفة الناسخ والمنسوخ:

لمعرفة الناسخ والمنسوخ ثلاثة طرق هي:

١ - أن يكون في أحد النصين ما يدل على تعيين المتأخر منهما، كقوله: تعالى: ﴿ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ قَوْمِكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) وكقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا نَارَ فَيْكُمُ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٦) وكقول الرسول ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي

(١) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٥.

(٤) سورة لقمان: الآية ١٨.

(٥) سورة المجادلة: الآية ١٣.

(٦) سورة الأنفال: الآية ٦٦.

فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبذ إلا في سقاء فاشربوا في
الأسقية كلها، ولا تشربوا مسكراً»^(١).

٢ - أن ينعقد إجماع من الأمة في أي عصر من العصور على أن هذا
ناسخ وهذا منسوخ.

٣ - معرفة المتقدم من المتأخر في النزول.

ولا يعتمد في معرفة الناسخ من المنسوخ على:

١ - الاجتهاد من غير سند.

٢ - قول المفسر: هذا ناسخ وهذا منسوخ من غير دليل.

٣ - التعارض بين الأدلة ظاهراً.

٤ - تأخر إسلام أحد الراويين.

قال ابن الحصار: «إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله
ﷺ أو عن صحابي، يقول: آية كذا نسخت كذا. قال: وقد يحكم به عند
وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر. قال:
ولا يُعتمد في النسخ قول عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير
نقل صحيح ولا معارضة بينة، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم
تقرر في عهده ﷺ، والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأي والاجتهاد.
قال: والناس في هذا بين طرفي نقيض، فمن قائل لا يقبل في النسخ أخبار
الآحاد العدول، ومن متساهل يكتفي فيه بقول مفسر أو مجتهد. والصواب
خلاف قولهما»^(٢).

(١) رواه مسلم كتاب الجنائز ح (٢٢٦٠).

(٢) الإتيقان: السيوطي، ج ٢، ص ٣٢.

أقسام النسخ:

والنسخ أربعة أقسام:

الأول: نسخ القرآن بالقرآن:

وأجمع القائلون بالنسخ على جوازه ووقوعه، وهو ثلاثة أنواع سيأتي بيانها إن شاء الله تعالى.

ومن أمثله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لَّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْوَلَدِ﴾^(١) نسخ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِثْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾^(٢).

الثاني: نسخ القرآن بالسنة:

وهو نوعان:

١ - نسخ القرآن بالسنة الأحادية:

وجمهور العلماء على عدم جوازه، لأن القرآن متواتر يفيد اليقين، والسنة الأحادية ظنية ولا يرفع اليقين بالظن.

ومثاله قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٣) قيل: إنها منسوخة بحديث: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»^(٤)

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

(٤) رواه الترمذي برقم (٢١٢١)، وابن ماجه برقم (٢٧١٢).

والصحيح أن الآية منسوخة بآية المواريث^(١)، كما يدل على هذا أول الحديث نفسه «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه».

٢ - نسخ القرآن بالسنة المتواترة:

وأجازه أبو حنيفة ومالك وأحمد في رواية، وقالوا: إن السنة وحي كما أن القرآن وحي، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣) والنسخ نوع من البيان.

ومنعه الشافعي وأحمد في رواية أخرى لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾^(٤) والسنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله.

ويجاب عن ذلك بأن الخيرية في الفضل وليس في وجوب الاتباع والدلالة على الأحكام، فالسنة يجب العمل بها كما يجب العمل بالقرآن سواء بسواء.

ومثاله قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾^(٥) فإن جلد المحصن منسوخ بالرجم كما جاء في السنة المتواترة، والذي أراه أن هذا تخصيص وليس بنسخ، ولم أجد مثلاً آخر^(٦)، ويظهر لي أن هذا النوع جائز عقلاً ولم يقع في القرآن.

(١) البرهان: الزركشي، ج ٢، ص ٣٢.

(٢) سورة النجم: الآيتان ٣-٤.

(٣) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٥) سورة النور: الآية ٢.

(٦) انظر النسخ في القرآن الكريم: د. مصطفى زيد، ج ٢، ص ٨٣٨.

٣ - نسخ السنة بالقرآن :

وأجازه الجمهور، ومثاله التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة كان ثابتاً بالسنة ونسخه قوله تعالى : ﴿ قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾^(١) وصيام عاشوراء ثبت بالسنة ونسخه قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾^(٢).

ومنعه الشافعي - رحمه الله تعالى - في رواية عنه ، وذلك أن الشافعي لا يرى نسخ القرآن بالسنة ولا نسخ السنة بالقرآن . قال رحمه الله تعالى : « حيث وقع نسخ القرآن بالسنة فمعها قرآن عاضد لها ، وحيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمعها سنة عاضدة ليتبين توافق القرآن والسنة »^(٣).

ووصف الزركشي من فهم من هذا النص منع الشافعي لنسخ القرآن بالسنة بأنه لم يفهم مراده ، وقال : « إنما مراد الشافعي أن الكتاب والسنة لا يوجدان مختلفين إلا ومع أحدهما مثله ناسخ له ، وهذا تعظيم لقدر الوجهين وإبانة تعاضدهما وتوافقهما ، وكل من تكلم على هذه المسألة لم يفهم مراده »^(٤).

٤ - نسخ السنة بالسنة :

وتحت أربعة أنواع :

أ - نسخ المتواتر بالمتواتر .

ب - نسخ الأحاد بالأحاد .

ج - نسخ الأحاد بالمتواتر .

وهذه الأنواع الثلاثة جائزة عند الجمهور .

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٤ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن : السيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٤) البرهان في علوم القرآن : الزركشي ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

د - نسخ المتواتر بالآحاد، وفيه الخلاف الوارد في نسخ القرآن باللسنة الأحادية والجمهور يمنعه ولا يجيزه.

أما نسخ كل من الإجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه^(١).

أنواع نسخ القرآن بالقرآن:

وهو القسم الأول من أقسام النسخ في القرآن الكريم. وهو ثلاثة أنواع:

الأول: نسخ التلاوة والحكم معاً:

وأجمع القائلون بالنسخ على وقوعه، ومثاله ما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهي فيما يقرأ من القرآن^(٢). فجملة (عشر رضعات معلومات يحرمن) كانت من القرآن ثم نسخت تلاوتها وحكمها.

وحكى القاضي أبو بكر في «الانتصار» عن قوم: إنكار هذا القسم، لأن الأخبار فيه أخبار آحاد. ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها^(٣).

ويجاب عن ذلك أن التواتر شرط لإثبات لفظ قرآني، أما النسخ فيكفي لإثباته خبر الآحاد، والمقام هنا مقام إثبات نسخ آية لا إثباتها.

(١) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص ٢٣٧.

(٢) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب التحريم بخمس رضعات ح (٣٥٩٧).

(٣) البرهان: الزركشي، ج ٢، ص ٣٩-٤٠.

الثاني: نسخ الحكم وبقاء التلاوة:

وهذا النوع هو أشهر الأنواع، وهو الذي ألفت فيه الكتب، وتفاوت المؤلفون في عدد الآيات المنسوخ حكمها مع بقاء تلاوتها بين أكثر جداً وبين منكر.

والصحيح أن عددها قليل يقارب العشرين يزيد قليلاً أو ينقص كذلك عند المحققين.

ومن أمثله قوله تعالى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰتِكُمْ صَدَقَةٌ﴾^(١) فتلاوتها باقية في المصحف وحكمها منسوخ بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰتِكُمْ صَدَقَتٌ فَإِذَا لُمْتُمْ قَعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٢).

ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْلَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾^(٣) فتلاوتها باقية وحكمها نسخه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾^(٤).

حكمة نسخ الحكم وبقاء التلاوة:

فإن قلت: وما الحكمة من بقاء التلاوة ورفع الحكم؟ قلنا من الحكم:

١ - أن الآية يتعبد بالعمل بها ويتعبد بتلاوتها، ورفع أحدهما لا يلزم منه رفع الآخر، فبقيت تلاوتها للتعبد بها.

(١) سورة المجادلة: الآية ١٢.

(٢) سورة المجادلة: الآية ١٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٤٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٣٤.

٢ - أن النسخ غالباً يكون إلى الأخف كما في المثالين السابقين، فبقاء التلاوة تذكير بنعمة رفع المشقة.

حكمة نسخ الآية قبل العمل بحكمها:

كما هو في آية الصدقة عند النجوى، وحكمة ذلك - والله أعلم - الثواب على مجرد الإيمان والقبول، وعلى نية الطاعة والتوجه إليها^(١).

الثالث: نسخ التلاوة وبقاء الحكم:

وأنكر هذا النوع بعض العلماء وأجازه آخرون، ومن أمثله حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: إنا كنا نقرأ سورة نسبها في الطول والشدة بسورة براءة، فأنسيْتُها، غير أتى قد حفظت منها: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب) وكنا نقرأ سورة كنا نسبها بإحدى المُسَبِّحات فأنسيْتُها، غير أتى قد حفظت منها (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة)^(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلا أدري من القرآن هو أم لا^(٣) وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: - كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾^{(٤)(٥)}.

ومن أمثله حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب على منبر رسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب،

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج٢، ص ٣٩.

(٢) رواه مسلم كتاب الزكاة ح (٢٤١٩).

(٣) رواه البخاري كتاب الرقاق ح (٦٤٣٧).

(٤) سورة التكاثر: الآية ١.

(٥) رواه البخاري كتاب الرقاق ح (٦٤٤٠).

الكتاب، فكان مما أنزل الله عليه آية الرجم، قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده..»^(١) الحديث وفي حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» فقال عمر: لما أنزلت هذه آتيت رسول الله ﷺ فقلت: أكتبنيها^(٢).

وقد يقال: إن الآية والحكم المستفاد منها متلازمان؛ لأن الآية دليل على الحكم، فإذا نسخت تلاوة الآية دون حكمها وقع الناس في لبس. ويجب عن ذلك بأن التلازم بين الآية وحكمها مشروط بانتفاء القرينة والدليل، أما إذا نصب الشارع دليلاً على نسخ التلاوة وبقاء الحكم كما في رجم المحصن فلا لبس ولا إشكال^(٣).

النسخ إلى بدل وإلى غير بدل:

وقد يكون نسخ الحكم إلى بدل وقد يكون إلى غير بدل.

أ - النسخ إلى غير بدل:

كنسخ الصدقة بين يدي نجوى الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَتَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَى صَدَقَةٍ﴾^(٤) فقد نسخت بالعفو عن ذلك إلى غير بدل في قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَى صَدَقَةٍ فَإِذَا لُمَ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٥).

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود ح (٦٨٣٠)، ومسلم، كتاب الحدود ح (٤٤١٨).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٥، ص ١٨٣، ح (٢١٠٨٦).

(٣) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، ج ٢، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٤) سورة المجادلة: الآية ١٣.

(٥) سورة المجادلة: الآية ١٣.

ب - وقد يكون النسخ إلى بدل :

وله أحوال ثلاثة :

١ - النسخ إلى بدل أخف .

كآية الاعتداد بالحول نسختها آية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرا .

٢ - النسخ إلى بدل مماثل .

كنسخ وجوب التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى المسجد الحرام .

٣ - النسخ إلى بدل أثقل .

كنسخ جواز قتال المشركين إلى الوجوب ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾^(١) ونسخ وجوب صوم عاشوراء إلى وجوب صيام شهر رمضان، ونسخ حبس الزانية إلى الجلد للبكر والرجم للثيب .

ولعل حكمة هذا النوع إرادة الخير بالأمة، وزيادة الأجر والثواب ؛ لأن الأجر على قدر المشقة .

حكمة النسخ :

وللنسخ حكم كثيرة منها :

١ - رحمة الله بالأمة ومراعاة مصالحها، فقد يكون الحكم الشرعي في حين خيراً للأمة وغيره خيراً لها في حين آخر، فاقضت حكمة الله تقرير الحكم الشرعي الذي فيه مصلحتها في كل حين .

٢ - تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الأمة حين نزول القرآن، وسبق تفصيل هذه الحكمة في حكم نزول القرآن الكريم منجماً .

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٦ .

٣ - إبتلاء المكلف واختباره بالامتنال وعدمه، حيث إن في تبدل الأحكام وتغيرها امتحاناً للقلوب ليميز الخبيث من الطيب.

٤ - إرادة الخير للأمة والتيسير عليها، وذلك أن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة ثواب، فالأجر على قدر المشقة، وإن كان إلى أخف ففيه التيسير على الأمة مع ثبات الأجر^(١).



(١) انظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص ٢٤٠، ومناهل العرفان: الزرقاني، ج ٢، ص ٢١٠-٢١٣.

القسم في القرآن الكريم

في القرآن الكريم خمس عشرة سورة مبدوءة بالقسم، وجاء القسم في أثناء سور كثيرة من القرآن الكريم.

ويأتي القسم في اللغة العربية لتأكيد المقسم عليه، وتمكينه في النفس، والقرآن يخاطب الناس كافة وفيهم المنكر وفيهم الشاك، وفيهم الخصم الألد، وفيهم المؤمن المصدق، ولكل منهم الأسلوب الذي يناسبه من المؤكدات أو عدمها، فجاء القسم لإقامة الحجة، وتأكيد الخبر، ولتطمئن نفس المؤمن.

المؤلفات فيه:

وقد اعتنى العلماء بدراسة القسم في القرآن الكريم وأفردوه بمؤلفات مستقلة منها:

١ - التبيان في أقسام القرآن: لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، وطبع مرات كثيرة.

٢ - الإمعان في أقسام القرآن: عبد الحميد الفراهي (مطبوع).

٣ - آيات القسم في القرآن الكريم: أحمد كمال محمد المهدي^(١)

تعريفه:

لغة: الحلف واليمين والقسم بمعنى واحد.

(١) تقدم بها لنيل درجة الماجستير من كلية أصول الدين في الأزهر ١٩٦٨ م.

والْحَلْفُ بكسر الحاء: العهد يكون بين القوم، وحالفه، أي: عاهده،
والْحَلْفُ هو اليمين قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلْفٍ مَّهِينٍ﴾^(١) وقال عليه
الصلاة والسلام: «من حَلَفَ على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر وليأت
الذي هو خير»^(٢).

وسمي يميناً؛ لأنهم إذا تحالفوا تصافقوا بأيمانهم، ولا يزال الناس إلى
يومنا هذا يفعلون ذلك أحياناً، ولذلك سمي الحلف يميناً.

وسمي قسماً من قَسَمَ الشيء بمعنى جَزَّأه وفرقه، وذلك أن اليمين تقسم
على أولياء القتل إذا ادعوا على رجل أنه قتل صاحبهم فيحلفون خمسين
يميناً تقسم عليهم، ثم صار اسماً لكل حَلْف، فكأنه كان في الأصل تقسيم
أيمان، ثم صار يستعمل في نفس الحَلْف والأيمان^(٣)، وتسمى هذه المسألة
عند الفقهاء القسامة.

اصطلاحاً:

أما في الاصطلاح فهو: ربط النفس بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه
أو على صحته أو بطلانه بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقاداً^(٤).

أرأيتم ذلك الصحابي الجليل الذي ربط نفسه بسارية المسجد حتى
يتوب الله عليه في حادثة الثلاثة الذين خلفوا^(٥) للدلالة على عزمه وإصراره
على التوبة. فذلك مثل الذي يربط نفسه ربطاً معنوياً لتأكيد عزمه على الشيء

(١) سورة القلم: الآية ١٠.

(٢) رواه مسلم، ج ٢، ص ٢٣ كتاب الأيمان.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني، ص ٦٧٠.

(٤) انظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص ٢٩١.

(٥) هو كعب بن مالك رضي الله عنه، وانظر قصته مع صاحبيه في كتب التفسير للآية
١١٨ سورة التوبة.

بمعنى معظم عنده، سواء كان معظماً حقيقة كالذات الإلهية، أو بمجرد اعتقاده كالكفار الذين يقسمون باللات والعزى وأمثالهم.
صيغته:

وصيغة القسم الأصلية أن يؤتى بالفعل «أقسم» أو «أحلف» متعدياً بالباء إلى المقسم به ثم يأتي المقسم عليه وهو جواب القسم.
ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾^(١).

أركان القسم:

وعلى هذا فأركان القسم أربعة:

الأول: فعل القسم (أقسم) أو (أحلف).

الثاني: أداة القسم، أو حروف القسم وهن (الباء، والواو، والتاء، واللام، ومن). ولم يرد القسم في القرآن إلا بالأحرف الثلاثة الأولى، أما اللام فقال سيبويه: «وبعض العرب يقولون في هذا المعنى: لله، فيجيء باللام، ولا تجيء إلا أن يكون فيها معنى التعجب»^(٢) وأما (من) فقال سيبويه أيضاً: واعلم أن من العرب من يقول: من ربي لأفعلن ذلك... ولا يدخلونها في غير ربي كما لا يدخلون التاء في غير «الله»^(٣) والواو أكثر ما يستعمل في القسم.

الثالث: المقسم به، وهو الله سبحانه وتعالى، ولا يجوز القسم بغير الله، والله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

الرابع: المقسم عليه أو جواب القسم.

(١) سورة النحل: الآية ٣٨.

(٢) الكتاب: سيبويه، ج-٣، ص ٤٩٧. قلت: وقد يرد عند بعض العامة ذلك ولكن في مقام النفي.

(٣) المرجع السابق، ج-٣، ص ٤٩٩.

أنواع القسم:

وهو نوعان:

١ - قسم ظاهر:

وهو ما توافرت فيه أركان القسم الأربعة كما جاء في المثال السابق، أو حذف منه أولها، وهو فعل القسم كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾^(١) وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾^(٢) أو حذف منه جواب القسم إذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه، وهي طريقة القرآن، فإن المقصود يحصل بذكر المقسم به، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز^(٣) كقوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾^(٤) ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾^(٥).

٢ - قسم مضمَر:

وهو ما حذف منه فعل القسم وأداته والمقسم به. وتدل عليه اللام المؤكدة للمقسم، والتي تدخل على جواب القسم، كقوله تعالى: ﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾^(٦) أي: والله، وكقوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾^(٧).

(١) سورة الذاريات: الآية ٢٣.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

(٣) التبيان في أقسام القرآن: ابن القيم، ج ١، ص ٥٨.

(٤) سورة ق: الآية ١.

(٥) سورة ص: الآية ١.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٨٦.

(٧) سورة العلق: الآية ١٥.

المقسم به في القرآن الكريم :

وهو نوعان :

النوع الأول : قسم بالله تعالى :

أقسم الله تعالى بنفسه في خمسة مواضع :

١ - قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ^(١) .

٢ - قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١١﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٢) .

٣ - قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ ^(٣) .

٤ - قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ ^(٤) .

٥ - قوله تعالى : ﴿ فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴾ ^(٥) عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ ^(٥) .

كما ورد القسم بالله على لسان أنبيائه أو أمراً لهم - عليهم السلام - بالقسم في أربعة مواضع :

١ - قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴾ ^(٦) .

(١) سورة النساء : الآية ٦٥ .

(٢) سورة الحجر : الآيتان ٩٢-٩٣ .

(٣) سورة مريم : الآية ٦٨ .

(٤) سورة الذاريات : الآية ٢٣ .

(٥) سورة المعارج : الآية ٤٠-٤١ .

(٦) سورة الأنبياء : الآية ٥٧ .

٢ - وأمره سبحانه لنبيه بالقسم في قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثَ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ﴾ (١).

٣ - وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ (٢).

٤ - وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (٣).

كما جاء القسم بالله في آيات أخرى منها:

١ - كقول إخوة يوسف لأبيهم عليهم السلام: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ (٤).

٢ - وكقوله: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَزْدِينَ﴾ (٥).

٣ - وقوله سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ (٦) وغير ذلك.

النوع الثاني: قسم الله تعالى بمخلوقاته:

وهو كثير في القرآن، والقسم بها لدالاتها على عظمة خالقها وبارئها، وفيه إشارة:

إما لفضيلتها، كقوله سبحانه: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (٧) وقوله:

(١) سورة التباين: الآية ٧.

(٢) سورة سبأ: الآية ٣.

(٣) سورة يونس: الآية ٥٣.

(٤) سورة يوسف: الآية ٨٥.

(٥) سورة الصافات: الآية ٥٦.

(٦) سورة النحل: الآية ٣٨.

(٧) سورة البلد: الآية ١.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾^(١) ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾^(٢) ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدُ إِنَّ الْمَجِيدَ﴾^(٣).

وإما لنفعها، كقوله سبحانه: ﴿وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونِ﴾^(٤).

وإما لكونها من أعظم آياته ومخلوقاته، كقوله سبحانه: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾^(٥) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا﴾^(٥) ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾^(٦) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾^(٦) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَافَى﴾^(٧) وقوله: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٨).

والله سبحانه وتعالى أن يحلف بما شاء من خلقه وليس لأحد غيره أن يحلف بغير الله، وفي الحديث: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»^(٩) وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»^(١٠).

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال «إن الله يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله»^(١١).

(١) سورة التين: الآية ٢.

(٢) سورة التين: الآية ٣.

(٣) سورة ق: الآية ١.

(٤) سورة التين: الآية ١.

(٥) سورة الشمس: الآيتان ٢-٣.

(٦) سورة الطارق: الآية ١.

(٧) سورة الليل: الآيتان ١-٢.

(٨) سورة القيامة: الآية ١.

(٩) رواه الترمذي، أبواب النذور والأيمان، باب ما جاء في أن من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك ح رقم (١٥٣٥).

(١٠) رواه البخاري ح رقم (٦٦٤٦) كتاب الأيمان والنذور، ومسلم في كتاب الأيمان ح (٤٢٥٧).

(١١) الإيتقان: السيوطي، ج ٢، ص ١٧٠.

المقسم عليه في القرآن الكريم:

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمر الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها.

فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها»^(١).

والأمر التي أقسم الله عليها في القرآن الكريم هي أصول الإيمان^(٢) التي يجب على الخلق معرفتها ويمكن إجمالها بـ:

١ - التوحيد:

كقوله تعالى: ﴿وَالصَّغَفَاتِ صَفًا ۝١ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَّحٌ ۝٤﴾.

٢ - أن القرآن حق:

كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَفَسَّمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾^(٤).

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج١٣، ص٣١٥، وانظر التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، ج١، ص٤٦ وكثير من الباحثين ينسب النص لابن القيم رحمه الله تعالى خطأ انظر مثلاً الانتقان للسيوطي، ج٢، ص١٧٠-١٧١.

(٢) في القرآن أقسام كثيرة ليست على أصول الإيمان، لكنها ليست قسماً من الله تعالى، بل من المخلوقين، ولهذا أرى عدم دقة عبارة بعض الباحثين حين يقصرون القسم كله في القرآن على هذه الأصول.

(٣) سورة الصافات: الآيات ١-٤.

(٤) سورة الواقعة: الآيات ٧٥-٧٧.

٣ - أن الرسول ﷺ حق :

كقوله سبحانه : ﴿ يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(١) وقوله سبحانه : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ ^(٢) .

٤ - أن القيامة حق :

كقوله سبحانه : ﴿ وَالذَّارِيَةِ ذَرَوَا ۝ فَالْحَمِلَتِ وِقْرًا ۝ فَالْجَارِيَةِ يُسْرًا ۝ ﴾ ^(٣) وقوله سبحانه : ﴿ فَالْمُقْسِمَةِ أَمْرًا ۝ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الْبَيْنَ لَوَاقِعٌ ۝ ﴾ ^(٤) ^(٥) وقوله : ﴿ وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا ۝ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝ ﴾ ^(٦) .

٥ - بعض أحوال الإنسان وما فطره الله عليه من صفات :

كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ ﴾ ^(٧) وقوله سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝ ﴾ ^(٨) ^(٩) وقوله سبحانه : ﴿ وَالْعَادِيَةِ ۝ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ ﴾ ^(١٠) ^(١١) وقوله سبحانه : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝ ﴾ ^(١٢) ^(١٣) .

(١) سورة يس : الآيات ١-٣ .

(٢) سورة النجم : الآيات ١-٤ .

(٣) سورة الذاريات : الآيات ١-٦ .

(٤) سورة المرسلات : الآيات ١-٧ .

(٥) سورة التين : الآيات ١-٦ .

(٦) سورة الليل : الآيات ١-٤ .

(٧) سورة العاديات : الآيات ١-٦ .

(٨) سورة البلد : الآيات ١-٤ .

(٩) ذكر هذه الأحوال مع أمثلتها ابن القيم في كتابه التبيان في أقسام القرآن ، ج ١ ،

ص ٤٩-٥٦ .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :

ولك أن تتأمل في الحكمة في أن يقسم الله على ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ١ ﴾ بـ ﴿ وَالْعَصْرِ ٢ ﴾ وعلى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلٍ ٣ ﴾ بـ ﴿ وَالضُّحَى ٤ ﴾ وعلى ﴿ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَفْعٌ ٥ ﴾ بـ ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ لِمَ لَمْ يَقْسَمِ عَلَى ٦ ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٧ ﴾ بالضحي مثلاً أو بالصافات أو المرسلات وقل مثل هذا في الأقسام الأخرى .

فإن فعلت فإنك ستدرك في أقسام القرآن وجهاً بلاغياً من أظهر أوجه الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم وهو الصلة بين المقسم به والمقسم عليه .

ومن الأمثلة على ذلك :

١ - قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ٧ ﴾ إِنَّكَ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ٨ ﴾ .^(١)

قال البيضاوي : « ولعل النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السموات في تباعدها واختلاف غاياتها »^(٢) .

٢ - قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ١ ﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٢ ﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ٣ ﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤ ﴾ .^(٣)

والمقسم به هنا النجم الذي يهتدي به السائرون في ظلمة الليل ، والمقسم عليه نفي ضلال الرسول ﷺ ، وإثبات صدقه ونبوته وهدايته للناس ، فكأنه النجم الذي يهتدي به الناس إلى الحق والنجاة .

(١) سورة الذاريات : الآيتان ٧-٨ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : البيضاوي ، ج ٥ ، ص ٩٥ .

(٣) سورة النجم : الآيات ١-٤ .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى. فإن النجوم التي ترمي الشياطين آيات من آيات الله يحفظ بها دينه ووحيه، وآياته المنزلة على رسوله بها ظهر دينه وشرعه وأسماءه وصفاته، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدماً وحرساً لهذه النجوم الهادية»^(١).

٣ - قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَافَىٰ ۝﴾^(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: «فتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: وَدَّعَ مُحَمَّدًا رَبُّهُ.

فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل، على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

وأيضاً فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة فهذان للحس، وهذان للعقل.

وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعاشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها»^(٣).

(١) التبيان في أقسام القرآن: ابن القيم، ج ٢، ص ١٠.

(٢) سورة الضحى: الآيات ١-٣.

(٣) التبيان في أقسام القرآن: لابن القيم، ج ١، ص ١٥٨-١٥٩.

لا النافية للقسم:

وردت (لا) وهي أداة نفي مقترنة مع فعل القسم (أقسم) في سبعة مواضع من القرآن الكريم هي:

- ١ - قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النَّجْوَ﴾^(١).
 - ٢ - قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾^(٢) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ^(٣).
 - ٣ - قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾^(٣).
 - ٤ - قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾^(٤) وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ^(٤).
 - ٥ - قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخَنَاسِ﴾^(٥).
 - ٦ - قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾^(٦).
 - ٧ - قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾^(٧).
- واختلف العلماء في (لا) على أقوال:

١ - أنها نافية للقسم:

ف قيل: إن المعنى أن الأمر من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى قسم فلا أقسم.

(١) سورة الواقعة: الآية ٧٥.

(٢) سورة الحاقة: الآيتان ٣٨-٣٩.

(٣) سورة المعارج: الآية ٤٠.

(٤) سورة القيامة: الآيتان ١-٢.

(٥) سورة التكويد: الآية ١٥.

(٦) سورة الانشقاق: الآية ١٦.

(٧) سورة البلد: الآية ١.

وهذا مردود بقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۖ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّا تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾^(١) فأثبت القسم.

٢ - أنها صلة، أي: زائدة:

ثم اختلفوا في توجيهها:

ف قيل: إن لا زائدة لتوكيد القسم، والمعنى أقسم، قاله ابن خالويه^(٢) والزمخشري^(٣)، وأجازه أبو علي الفارسي^(٤) وغيرهم.

وهذا مردود لأن حكم التوكيد لا يتقدم على المؤكّد بل يتأخر عنه^(٥)، ولا يصح أن يبدأ بجحد ثم يجعل صلة، لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه^(٦).

وقيل: إنها زيدت توطئة وتمهيداً لنفي جواب القسم.

ففي قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾^(٧) يكون المعنى لا أقسم بيوم القيامة لا يتركون سدى^(٨).

وهذا مردود بمثل قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾^(٩) فإن جوابه ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾^(١٠) وهو مثبت وليس بمنفي.

(١) سورة الواقعة: الآيتان ٧٥-٧٦.

(٢) إعراب ثلاثين سورة من القرآن: ابن خالويه، ص ٨٧.

(٣) الكشف: الزمخشري، ج ٤، ص ٥٨.

(٤) المسائل المشكّلة المعروفة بالبغداديات: أبو علي الفارسي، ص ٥٧١.

(٥) انظر: شرح المفصل: ابن يعيش، ج ٨، ص ١٣٦.

(٦) تفسير القرطبي، ج ١٩، ص ٦٠.

(٧) سورة القيامة: الآية ١.

(٨) مغني اللبيب: ابن هشام، ص ٣٢٨-٣٢٩.

(٩) سورة الواقعة: الآية ٧٥.

(١٠) سورة الواقعة: الآية ٧٧.

٣ - وقيل: إنها نافية لمحذوف يناسب المقام لا للقسم:

ومثال ذلك ما قاله القرطبي في قوله تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(١):
«وقال بعضهم: (لا) رد لكلامهم حيث أنكروا البعث فقال: ليس الأمر كما زعمتم. قلت: وهذا قول الفراء»^(٢).

٤ - أن (لا أقسم) صيغة من صيغ القسم:

وذلك أن القسم المسبوق بالنفي عبارة من عبارات القسم، وليست لا نافية للقسم، وليست بصلة، وإنما لتأكيد القسم.

وتأكيد الأمر عن طريق النفي مألوف في لغة العرب، فإنك إذا قلت لصاحبك: لا أوصيك بفلان، فإنما تريد تأكيد التوصية به، وتبالغ في الاهتمام به، فتبلغ بالنفي ما لا تبلغه بالأسلوب الصريح المباشر^(٣).

فإن قلت: إذاً لا يعرف خبر فيه نفي من خبر لا نفي فيه - كما قال القرطبي - قلت: إن دلالة القرينة كافية لمعرفة ذلك والتفريق بينهما، وذلك كقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَقَسِمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾^(٤) بعد قوله سبحانه ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾^(٥).

وكما ترى فإن القولين الثالث والرابع أقوى الأقوال وإن كنت أميل إلى الثالث منها، والله أعلم.

(١) سورة القيامة: الآية ١.

(٢) تفسير القرطبي، ج ١٩، ص ٦٠.

(٣) الكشف والبيان في علوم القرآن: د. سمير شيلوه، ص ٣١٦.

(٤) سورة الواقعة: الآية ٧٦.

(٥) سورة الواقعة: الآية ٧٥.

من فوائد القسم:

١ - تأكيد المقسم عليه .

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها. فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها»^(١).

٢ - لفت الأنظار إلى ما يحويه الكون من أسرار عجيبة، وآيات عظيمة، وما فيه من نظام بديع محكم، والدلالة على عظمة خالقها. ولهذا يتبع المقسم به قوله مثلاً: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾^(٢) وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾^(٣) كما يتبع قوله: ﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ لِآيَتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٤)^(٥) الآيات الكونية، وهذا أمر زائد على جواب القسم.

٣ - إقامة الحجة على المشركين وإثبات صدق الرسول ﷺ، وذلك أن العرب تعتقد أن الأيمان الكاذبة تهلك صاحبها، وقد أكثر الرسول ﷺ من الأيمان ولم يصب بمكروه، بل ارتفع شأنه وعلا ذكره. فكان ذلك دليلاً على صدقه.

٤ - إظهار فضل المقسم به وعظمته:

كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته»^(٦).

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج-١٣، ص ٣١٥.

(٢) سورة الفجر: الآية ٥.

(٣) سورة الواقعة: الآية ٧٦.

(٤) سورة النحل: الآية ١٢.

(٥) وقبلها قوله تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: ١٢].

(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج-١٣، ص ٣١٤.

٥ - امتناع إنكار الخصم في القسم :

وبيان ذلك أن القسم يتكون من جملتين : إنشائية وهي المقسم به ، وخبرية أو إنشائية وهي جواب القسم ، والجملة الإنشائية لا يتطرق إليها التكذيب أو الإنكار ، ولذا نرى في المقسم به حشد من قضايا العقيدة تساق مساق الجملة الإنشائية التي لا يمكن تكذيبها .

بل يحذف - أحياناً - جواب القسم وهو جملة خبرية ، ويكتفي بالمقسم به ليبادرهم بكلام آخر مؤيد لجواب القسم المحذوف ؛ لكيلا يجد الخصم فرصة لتحويل الإنشاء إلى الخبر فينازع فيه ، وكأن المقسم بهذا يهيئ فرصة للسمع وانتظار الجواب ، فيهجم عليه بما يؤيد جواب القسم المحذوف ، كقوله تعالى : ﴿ صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِهِ ﴿ ١ ﴾ فاكتمى بالمقسم به ﴿ وَالْقُرْآنِ ﴾ واستغنى عن الجواب بما ذكره من صفة القرآن ﴿ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ، وفي الوقت الذي ينتظر فيه المخاطب جواب القسم يأتيه ما يؤكد معناه ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِهِ ﴾ فكانه يقول : والقرآن ذي الذكر إنه لحق ولكن الكفار استكبروا عن قبوله .

٦ - بلاغة الإيجاز في القسم :

فهو يجمع بين عدة أدلة متتابعة في جمل قصيرة موجزة كما ترى في القسم في سور الطور والفجر والبلد والشمس والليل والتين ، فذكر في الأخيرة مثلاً التين ، والزيتون ، وطور سينين ، والبلد الأمين .

٧ - حسن المطلع في السور المبدوءة بالقسم :

وهو وجه من أوجه البلاغة ، وذلك أن أسلوب القسم يعطي أوائل السور

(١) سورة ص : الآيتان ١-٢ .

من نضرة بهجتها، ورونق ديباجتها، فتلمع الأقسام في قسّمات السور كالغرة
البارقة، وفي ذلك تهية نفسية لقبول ما بعدها، وشتان بين قولك: ﴿مَا وَدَّعَكَ
رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ وقولك: ﴿وَالضُّحَى﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾^{(١)(٢)}.



(١) سورة الضحى: الآيات ١-٣.

(٢) انظر هذه الفوائد وغيرها في: الإمعان في أقسام القرآن: لعبد الحميد الفراهي
ص ٥٦-٦٣، وجاءت هذه الأغراض بتصرف يسير في: علوم القرآن: د. عدنان زرزور
ص ٣٥٤-٣٥٦، ولغة القرآن الكريم: د. عبد الجليل عبد الرحيم ص ٢٦٧-٢٦٩،
ونقل ذلك عنهما بتصرف د. سامي عطا حسن في بحثه: «أسلوب القسم الظاهر في
القرآن الكريم بلاغته وأغراضه» بحث منشور في العدد ٥٣ مجلة الشريعة والدراسات
الإسلامية، جامعة الكويت، ولم يشر أحد منهم إلى المصدر الأصلي «الإمعان».

فواتح السور وخواتمها

يحرص الأدباء والشعراء وأهل البلاغة على حسن المطلع في كلامهم، سواء كان شعراً أو نثراً، لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان حسناً بليغاً بديعاً أقبل السامع على الكلام ومن ثمّ وعاه، وإلا أعرض عنه، ولو كان ما بعده في غاية الحسن.

لذا ينبغي أن يكون المطلع بأعذب الألفاظ وأجزلها، وأسلسها وأحسنها نظماً وسبكاً، وأصحها معنى وأوضحه، فإذا اشتمل على ذلك كانت (براعة الاستهلال) أو (حسن المطلع).

وكما حرص أولئك على الفواتح حرصوا على الخواتم، إذ هي آخر ما يطرق السمع، وربما بقيت في الذاكرة من بين سائر الكلام لقرب العهد بها، لذا ينبغي أن تكون كالمطلع في غاية الجزالة وحسن النظم مع تضمينها معنى تاماً يؤذن السامع بأنه الغاية والنهاية، وهذا ما يسمى (حسن الخاتمة أو الختام).

وقد تأمل أهل البلاغة وأربابها في فواتح سور القرآن وخواتمها فوقفوا على أحسن الفواتح وأبلغها، وأكمل الخواتم وأفضلها، مع معانٍ بديعة وأسرار عجيبة^(١).

وممن ألف في ذلك ابن أبي الأصبع وكتابه «الخواطر السوانح في أسرار الفواتح» طبع بتحقيق د. حنفي محمد شرف.

(١) انظر من أسرار البلاغة في القرآن: د. محمود السيد شيخون، ص ٢٠١-٢٠٢.

وفي العصر الحديث ظهرت مؤلفات أغلبها إن لم يكن كلها في نوع واحد من أنواع الفواتح وهو الأحرف المقطعة في أوائل بعض السور ومنها:

١ - فواتح سور القرآن: د. حسين نصار.

٢ - براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور: د. محمد بدري عبد الجليل.

٣ - الفواتح الهجائية وإعجاز القرآن: د. السيد عبد المقصود جعفر.

٤ - حروف المعجم في فواتح السور ورد التأويلات الباطلة: د. محمد أحمد إبراهيم أبو فراخ.

٥ - وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور: د. فهد بن عبد الرحمن الرومي.

وهناك مؤلفات كثيرة في الأحرف الهجائية في أوائل السور لا تخلو من أوهام وتأويلات باطلة.

فواتح السور:

من المعلوم أن سور القرآن الكريم مئة وأربع عشرة سورة، وقد قسم العلماء فواتح هذه السور إلى عشر أنواع هي:

أولاً: الاستفتاح بالثناء:

والثناء قسمان:

١ - إثبات صفة مدح: وذلك في سبع سور: خمس مبدوءة بـ ﴿الْحَمْدُ

لِلَّهِ﴾ وهن: الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر. وافتتحت سورتان بـ ﴿تَبَرَّكَ﴾ وهما: الفرقان، والملك.

٢ - تنزيه عن صفات النقص: وذلك - أيضاً - في سبع سور: وكلها بصيغة التسييح:

بالمصدر في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾.

وبالماضي في الحديد، والحشر، والصف: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾.

والمضارع في الجمعة والتغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾.

والأمر في الأعلى: ﴿سَبِّحْ أَسْرَرَتِكَ الْأَعْلَى﴾.

وبهذا استوعب تنزيه الله تعالى وتسييحه كل الأوقات، وجميع جهات الكلمة وهي أربع المصدر والماضي والمضارع والأمر.

وبهذا تكون السور المبدوءة بالثناء أربع عشرة سورة سبع بالمدح وسبع بالتنزيه.

ثانياً: الاستفتاح بحروف التهجي:

وذلك في تسع وعشرين سورة على النحو التالي:

١ - السور المبدوءة بحرف واحد: (٣ سور)

﴿صَّ^ع﴾: ص.

﴿قَّ^ع﴾: ق.

﴿تَّ^ع﴾: القلم.

٢ - السور المبدوءة بحرفين: (٩ سور)

﴿حَمَّ﴾: غافر، فصلت، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

﴿طه^ع﴾: طه.

﴿طسَّ^ع﴾: النمل.

﴿يسَّ^ع﴾: يس.

٣ - السور المبدوءة بثلاثة أحرف : (١٣ سورة)

﴿الْمَ﴾ : البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة .

﴿الرَّ﴾ : يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر .

﴿طسَمَ﴾ : الشعراء، القصص .

٤ - السور المبدوءة بأربعة أحرف : (سورتان)

﴿الْمَصَّ﴾ : الأعراف .

﴿الْمَرَّ﴾ : الرعد .

٥ - السور المبدوءة بخمسة أحرف : (سورتان)

﴿كَهيعَصَّ﴾ : مريم .

﴿حَمَّ - عَسَقَ﴾ : الشورى .

واعلم أن عدد الحروف المقطعة في أوائل السور ٧٨ حرفاً، وبدون التكرار ١٤ حرفاً، أي : نصف الحروف الهجائية ويجمعها قولك : «نص حكيم قاطع له سر» أو «طرق سمعك النصيحة»، أو «صن سراً يقطعك حملة» .

قال الزمخشري : «وإذا تأملت الحروف التي افتتح الله بها السور وجدتها نصف أسامي حروف المعجم، أربعة عشر : الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون، في تسع وعشرين سورة عدد حروف المعجم، ثم تجدها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف المهموسة، والمجهورة، والشديدة، والمطبقة، والمستعلية، والمنخفضة، وحروف القلقلة، ... ف سبحانه الذي دَقَّت في كل شيء حكمته»^(١) .

(١) البرهان : الزركشي، ج١، ص ١٦٥-١٦٦ وقد نقل كلام الزمخشري مختصراً من تفسيره ج١، ص ١٧، وقد ذكرت هذا القول والردود عليه في كتابي «وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور» ص ٣٦-٤٣ .

ومن أحكام هذه الحروف :

١ - أن البصريين لم يعدوا شيئاً منها آية، وأما الكوفيون فمنها ما عدوه آية، ومنها ما لم يعدوه آية. وهو علم توقيفي لا مجال للقياس فيه.

٢ - أنه يوقف عليها جميعاً وقف التمام إن حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده، وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور.

٣ - أنها كتبت في المصحف على صورة الحروف أنفسها (الم) مثلاً لا على صورة أساميها (ألف، لام، ميم).

معاني الأحرف المقطعة في أوائل السور :

وقد اختلف العلماء في معاني الأحرف المقطعة في أوائل السور على قولين :

الأول : أنها علم مستور استأثر الله بعلمه :

قال الشعبي : «إنها من المتشابه، نؤمن بظاهرها، ونكل العلم فيها إلى الله عز وجل»^(١).

وقال أبو حاتم : «لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله جل وعزَّ بها»^(٢).

ونسب القرطبي هذا القول إلى الخلفاء الأربعة وابن مسعود رضي الله عنهم^(٣)، وقاله عامر الشعبي وسفيان الثوري واختاره ابن حبان.

(١) البرهان : الزركشي، ج١، ص ١٧٣.

(٢) تفسير القرطبي، ج١، ص ١٥٤.

(٣) المرجع السابق.

الثاني : أن المراد منها معلوم :

ثم اختلف أولئك في معناها إلى أكثر من عشرين قولاً منها البعيد ومنها القريب ومن ذلك :

١ - أنها حروف مقتضبة من أسماء الله تعالى وصفاته المفتحة بأحرف مماثلة لهذه الحروف المقطعة فالألف إشارة إلى (أحد)، واللام إلى (لطيف)، والميم إلى (ملك) ونحو ذلك .

٢ - أن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه وقال بعضهم : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾^(١) فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه ، ويكون تعجبهم سبباً لاستماعهم ، واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده ، فترق القلوب وتلين الأفئدة^(٢) .

٣ - أنها أسماء للسور .

٤ - أنها من أسماء القرآن .

٥ - أن هذه الحروف ذكرت لتدل على أن القرآن مؤلف من هذه الحروف التي هي « ا ب ت ث . . فجاء بعضها مقطعاً ، وجاء تمامها مؤلفاً ، ليدل القوم الذين نزل القرآن بلغتهم أنه بالحروف التي يعقلونها ، وبينون كلامهم منها »^(٣) .

وقال بهذا القول مجاهد وأبو عبيدة والفراء وقطرب والمبرد وابن تيمية ، والمزي ، وابن القيم وابن كثير ، ومن المعاصرين : الشنقيطي والطاهر بن عاشور وابن عثيمين وغيرهم . وبهذا يظهر أنه أرجح الأقوال ، والله أعلم .

(١) سورة فصلت : الآية ٢٦ .

(٢) البرهان : الزركشي ، ج١ ، ص ١٧٥ .

(٣) المرجع السابق .

ثالثاً: الاستفتاح بالنداء:

وذلك في عشر سور:

خمس منها نداء للرسول ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ في الأحزاب والطلاق والتحريم.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ﴾ في سورة المدثر.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ﴾ في سورة المزمل.

وثلاث منها نداء للمؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في المائدة، والحجرات، والممتحنة.

وفي سورتين نداء للناس:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في النساء، والحج.

رابعاً: الاستفتاح بالجملة الخبرية:

وذلك في ثلاث وعشرين سورة منها:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِنْفَالِ﴾ ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ﴿إِنَّمَا أَمْرُ اللَّهِ﴾ ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ ﴿عَبَسَ﴾.

خامساً: الاستفتاح بالقسم:

وذلك في خمس عشرة سورة:

﴿وَالصَّفَّاتِ﴾ ﴿وَالذَّارِيَةِ﴾ ﴿وَالطُّورِ﴾ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ﴿وَالشَّمْسِ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ﴾ ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَاللَّيْلِ﴾ ﴿وَالْعَدِيدِ﴾ ﴿وَالْعَصْرِ﴾.

سادساً: الاستفتاح بالشرط :

وذلك في سبع سور :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ ﴾ ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ
انْفَطَرَتْ ﴾ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ ﴾ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ .

سابعاً: الاستفتاح بالأمر :

وذلك في ست سور :

﴿ قُلْ أُوْحِي ﴾ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ﴿ قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ
أَحَدٌ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

ثامناً: الاستفتاح بالاستفهام :

وذلك في ست سور :

﴿ هَلْ أَتَى ﴾ ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿ هَلْ أُنْتُكَ ﴾ ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾
﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ .

تاسعاً: الاستفتاح بالدعاء :

وذلك في ثلاث سور :

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ .

عاشراً: الاستفتاح بالتعليل :

وذلك في سورة واحدة : ﴿ لَا يَلْفِيفُ فَرَسِيشٍ ﴾ .

وقد جمعت هذه الأنواع العشرة في بيتين :

أثنى على نفسه سبحانه بشو ت المدح والسلب لما استفتح السورا
والأمر شرط النداء بالتعليل والقسم الـ دعاء حروف التهجي استفهم الخبرا

خواتم السور:

وقد تعددت الخواتم وتنوعت ولم يحصر العلماء أنواعها كما حصروا الفواتح وذلك لاشتمال الخاتمة أحياناً على أكثر من معنى ، وذكروا من أنواع الخواتم:

أولاً: الختام بما يشعر بانتهاء السورة:

ومن أوضحه خاتمة سورة إبراهيم ﴿ هَذَا بَلَدٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [٥٢] وخاتمة سورة الأحقاف ﴿ بَلِّغْ فَهَلْ يُهْلِكَ إِلَّا آلَ الْقَوْمِ الْفَاسِقُونَ ﴾ [٣٥].

ثانياً: الختام بتفصيل جملة المطلوب:

كخاتمة سورة الفاتحة فبعد أن وجه عباده بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [٦] فصل ذلك ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [٧].

ثالثاً: الختام بالدعاء:

كخاتمة سورة البقرة: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [٢٨٦] إلى آخر السورة.

رابعاً: الختام بالوصايا:

كخاتمة سورة آل عمران: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٢٠٠].

خامساً: الختام بالتعظيم لله سبحانه وتعالى:

كخاتمة سورة المائدة: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [١٢٠].

سادساً: الختام بالوعد والوعيد:

كخاتمة سورة الأنعام: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [١٦٥].

المناسبات بين الآيات والسور

سلك القرآن منهجاً خاصاً فريداً في عرضه للقضايا، فلم يلتزم الطريقة المعروفة بتقسيم الكتاب إلى أبواب والأبواب إلى فصول، يتناول كل باب موضوعاً خاصاً، ويعرض كل فصل جانباً من جوانب هذا الموضوع حتى اكتمال الموضوع وتمامه.

والقرآن الكريم ليس كذلك، فهو ينوع في العرض بالترغيب مرة، والترهيب أخرى، وبالموعظة حيناً، والقصة حيناً آخر، ويذكر طرفاً من الموضوع مرة، ثم ينتقل إلى غيره، ثم يعود إلى إتمامه مرة أخرى.

مما جعل العلماء يقبلون على دراسة هذا الأسلوب وأسرار الانتقال من موضوع إلى آخر، ويبيّنون وجه الارتباط بين الآيات ذات الموضوعات المختلفة مع بعض، حتى نشأ علم خاص سموه (علم المناسبات بين الآيات والسور).

وقد اعتنى المفسرون كثيراً ببيان المناسبة بين الآيات والسور في تفاسيرهم، بل حكى الزركشي خلاف العلماء في أيما أولى البداءة بسبب النزول أو بالمناسبة، لأنها المصححة لنظم الكلام، وهي سابقة على النزول. ثم حقق الخلاف بأنه إذا كان وجه المناسبة متوقفاً على معرفة سبب النزول فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب؛ لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد، وإن لم يتوقف على ذلك فالأولى تقديم وجه المناسبة^(١).

(١) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٣٤.

وإذا علمنا أن معرفة المناسبات هو العلم الثاني الذي تحدث عنه الزركشي بعد حديثه عن النوع الأول وهو سبب النزول، علمنا مكانة هذا العلم ودرجته في التفسير.

ولذا فقد أفرده العلماء بمؤلفات كثيرة منها:

١ - البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن، لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) طبع بتحقيق محمد شعباني. كما طبع بتحقيق د. سعيد الفلاح.

٢ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ) وهو تفسير طبع في الهند في اثنين وعشرين مجلداً.

٣ - ألف السيوطي (ت ٩١١هـ) ثلاثة كتب في هذا الموضوع هي «قطف الأزهار في كشف الأسرار» و«تناسق الدرر في تناسب السور» و«مرائد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع» وقد طبعت كلها محققة.

٤ - الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره: د. محمد أحمد يوسف القاسم.

٥ - جواهر البيان في تناسب سور القرآن: عبد الله بن محمد الصديق الغماري.

ومع هذا فقد تحدث العلماء عن المناسبة في أبواب مستقلة من كتبهم المؤلفة في علوم القرآن، واعتنى به المفسرون في تفاسيرهم، ومن أشهر التفاسير التي تظهر فيها العناية ببيان المناسبة «البرهان في متشابه القرآن» للكرماني، و«الكشاف» للزمخشري، و«مفاتيح الغيب» للرازي و«البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي و«في ظلال القرآن» لسيد قطب وغيرهم.

تعريف المناسبة:

لغة: المناسبة: المقاربة والمشاكلة، يقال: فلان يناسب فلاناً، أي: يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب وهو القريب المتصل، ومنه المناسبة في العلة في باب القياس، وهي الوصف المقارن للحكم؛ لأنه إذا حصلت مقارنته للحكم ظُنَّ عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم، كالإسكار في الشراب علة التحريم، والمناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول^(١).

واصطلاحاً: المناسبة هي وجه الارتباط بين الآية والآية التي تليها، والسورة والسورة التي تليها، وفاتحة السورة وخاتمتها ونحو ذلك.

أو هي وجه ارتباط أجزاء القرآن بعضها ببعض.

أهمية هذا العلم ومكانته:

أكد العلماء كثيراً على أهمية هذا العلم ومكانته وفضله، يقول الزركشي: «اعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول»^(٢).

وقال ابن العربي: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم»^(٣).

وقال الرازي: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»^(٤)، وقال: «إن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو

(١) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٣٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الإتيقان: السيوطي، ج١، ص ١٠٨.

(٤) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٣٦.

أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك^(١).

فوائد علم المناسبات :

ولهذا العلم فوائد كثيرة منها :

١ - جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، وبهذا يظهر وجه من أوجه الإعجاز البلاغي.

٢ - إبطال الشبهات وإزالة الشك الحاصل في القلب بسبب خفاء وجه الاتصال بين بعض الآيات، وبالتأمل والتدبر يزول الإشكال.

٣ - إدراك بعض أسرار التشريع وحكمته، والتلازم التام بين أحكام الشريعة فإذا قرأت قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾^(٢) وتعرفت على المناسبة بين الأمر بغض البصر وحفظ الفرج، علمت ما بينهما من التلازم. فحفظ الفرج لا يتم إلا بغض البصر، ومن أطلق بصره في الحرام فحري أن تزل قدمه في الآثام.

٤ - أنه يعين على فهم الآية وتحديد المراد منها، ومثال ذلك خلاف المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾^(٣) حيث قال الجمهور: هي الملائكة، وقال آخرون: هي الطير، والصحيح الأول؛ لأنه ذكر في آخر السورة قول الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافَّاتُ﴾^(٤).

(١) تفسير الرازي، جـ ٧، ص ١٢٨.

(٢) سورة النور: الآية ٣٠.

(٣) سورة الصافات: الآية ١.

(٤) سورة الصافات: الآية ١٦٥.

٥ - كشف حكمة تكرار بعض قصص القرآن، وأن القصة تكرر حسب المناسبة، ولذلك ترى اختلافاً في ترتيب القصة ونظمها ومقدار ما يذكر منها بحسب المناسبة، وإن كانت القصة في أصلها واحدة^(١).

خلاف العلماء في المناسبات:

للعلماء في المناسبات في القرآن الكريم قولان:

الأول: المنع:

وذهب إلى ذلك العز بن عبد السلام - رحمه الله تعالى - حيث قال: «المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر».

قال: «ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يصاب عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض»^(٢) كما ذهب إلى هذا الرأي أيضاً الشوكاني في تفسيره^(٣).

الثاني: الجواز:

وذهب إلى ذلك جمهور العلماء وعامتهم، قال ولي الدين الملوّي: «قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب

(١) انظر في هذه الفوائد «علم المناسبات في القرآن» محمد بن عبد العزيز الخضير، مجلة البيان، العدد ١٤٦، ص ٢٠.

(٢) البرهان: الزركشي، ج ١، ص ٣٧، والإتقان: السيوطي، ج ٢، ص ١٠٨.

(٣) فتح القدير: الشوكاني، ج ١، ص ٧٢-٧٣.

الحكمة ترتيباً وتأصيلاً. فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة
سوره كلها وآياته بالتوقيف»^(١).

ووضح ذلك د. محمد عبد الله دراز فقال عن آيات القرآن الكريم: «إن
كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع،
كمثل بنيان كان قائماً على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه، قدرت
أبعاده، ورقمت لبناته، ثم فُرِّقَ أنقاضاً، فلم تلبث كل لبنة أن عرفت مكانها
المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشد بعضه بعضاً كهيئته أول مرة»^(٢).

أنواع المناسبات:

المناسبات في القرآن الكريم أنواع كثيرة منها:

١ - المناسبة بين الآية والآية التي تليها:

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٣) حيث ذكر
محاسبته على الحسنات فناسب أن يذكر محاسبته على السيئات ﴿وَمَنْ
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٤).

ومنها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾^(٥) جاء بعده
﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾^(٦) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ

فإن قيل: ما وجه الجمع بين الإبل والسماء والجبال والأرض في هذ

الآيات؟

(١) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٣٧، والإتقان: السيوطي، ج٢، ص ١٠٨.

(٢) النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز، ص ١٥٤-١٥٥.

(٣) سورة الزلزلة: الآية ١.

(٤) سورة الزلزلة: الآية ٨.

(٥) سورة الغاشية: الآية ١٧.

(٦) سورة الغاشية: الآيات ١٨-٢٠.

فالجواب : أنه جمع بينها على مجرى الإلف والعادة بالنسبة إلى أهل الوبر ، فإن كل انتفاعهم في معاشهم من الإبل ، فتكون عنايتهم مصروفة إليها ، ولا يحصل إلا بأن ترعى وتشرب ، وذلك بنزول المطر ، وهو سبب تقلب وجوهم في السماء ، ثم لا بد لهم من مأوى يؤويهم ، وحصن يتحصنون به ، ولا شيء في ذلك كالجبال ، ثم لا غنى لهم - لتعذر طول مكثهم في منزل - عن التنقل من أرض إلى سواها ، فإذا نظر البدوي في خياله وجد صورة هذه الأشياء حاضرة ، فيه على الترتيب المذكور^(١) .

٢ - المناسبة بين أول السورة وخاتمتها :

ومثاله أول سورة البقرة : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [٣] وفي آخرها : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ... ﴾ [٢٨٥] .

وأول سورة المؤمنون : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [١] وآخرها : ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [١١٧] .

وأول سورة ص : ﴿ صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [١] وآخرها : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [٨٧] .

وأول سورة ن : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [٢] وآخرها : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ [٥١] .

٣ - المناسبة بين خاتمة السورة وفاتحة السورة التي تليها :

ومثال ذلك آخر سورة الإسراء : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [١١١] وأول سورة الكهف التي تليها : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ [١] .

(١) البرهان : الزركشي ، ج ١ ، ص ٤٥ .

وآخر سورة الطور: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾ [٤٩] وأول سورة النجم التي تليها: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [١].

وآخر سورة الواقعة: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [٩٦] وأول سورة الحديد: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [١].

وجوه المناسبات:

ووجه المناسبة بين الآيات له أنواع كثيرة منها:

١ - التنظير:

فإن إلحاق النظير من شأن العقلاء، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾^(١) بعد قوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾^(٢).

فإن الله تعالى أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير في غزوة بدر وهم كارهون. وذلك أنهم اختلفوا في القتال يوم بدر في الأنفال، وحاجوا النبي ﷺ وجادلوه، وكره كثير منهم تقسيم الغنائم كما كرهوا الخروج، وقد تبين لهم في الخروج خير كثير من الظفر والنصر والغنيمة وعز الإسلام وانتصار المسلمين وهزيمة المشركين، فكذا ما فعله في قسمة الغنائم، فليطيعوا أمره ويتركوا هوى أنفسهم^(٣).

٢ - المضادة:

وذلك كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ

(١) سورة الأنفال: الآية ٥.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤.

(٣) انظر الإتقان: السيوطي، ج ٢، ص ١٠٩، والبرهان: الزركشي، ج ١، ص ٤٧.

لُوطٍ ﴿١﴾. ذكر بعد ذلك ما يضاده ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ءَمْرَاتِ
فِرْعَوْنَ﴾ ﴿٢﴾.

٣ - الاستطراد:

كقوله تعالى: ﴿يَبْنَى ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى
ذَلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿٣﴾.

قال الزمخشري: «هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو
السوءات وخصف الورق عليها، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما
في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن التستر باب
عظيم من أبواب التقوى» ﴿٤﴾.

٤ - الانتقال:

ويراد به الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع، ومثاله: لما انتهى
في سورة ص من الحديث عن الأنبياء عليهم السلام قال سبحانه: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ
وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ﴿٥﴾ فانتقل إلى نوع آخر من الحديث وهو ذكر الجنة
وأهلها، ولما انتهى من الحديث عن ذلك انتقل إلى نوع ثالث فقال: ﴿هَٰذَا
ذِكْرٌ لِلظَّالِمِينَ لَشَرِّ مَآبٍ﴾ ﴿٦﴾ فذكر النار وأهلها.

قال ابن الأثير: (هذا) في هذا المقام من الفصل الذي هو أحسن من
الوصل، وهي علاقة أكيدة بين الخروج من كلام إلى آخر ﴿٧﴾.

(١) سورة التحريم: الآية ١٠.

(٢) سورة التحريم: الآية ١١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

(٤) الكشاف: الزمخشري، ج٢، ص ٧٤.

(٥) سورة ص: الآية ٤٩.

(٦) سورة ص: الآية ٥٥.

(٧) الإتيقان: السيوطي، ج٢، ص ١١٠.

رسم المصحف

الأصل في المكتوب أن يطابق المنطوق^(١)، إلا أنا نجد مخالفة لهذا الأصل ليس في الكتابة العربية فحسب، بل حتى في اللغات الأجنبية، فمن الحروف ما ينطق ولا يكتب، ومنها ما يكتب 'لا ينطق.

وكتابة القرآن في المصاحف نوع من أنواع الكتابة التي يخالف نطقها كتابتها في بعض المواضع.

ولا شك أن الرسم الإملائي كان معروفاً قبل نزول القرآن الكريم، وقد حرص الصحابة رضي الله عنهم على كتابة المصحف بطريقة تمنع من يتلو النص القرآني من الوقوع في اللحن بسبب خلوه من رموز الحركات، واشتراك بعض الحروف في رمز كتابي واحد^(٢) فرمز الباء والتاء والثاء مثلاً هو (ت) بلا نقط.

ويبدو أن الصحابة رضي الله عنهم^١ اخترعوا كتابة جديدة، أو يصطلحوا على طريقة مبتكرة، بل كتبوا أكثر القرآن بالطريقة السائدة للكتابة في عصرهم^(٣)، وتشهد النقوش التي ترجع إلى القرن الأول الهجري أن الكتابة السائدة حينذاك مطابقة للصورة التي نجدها في الرسم العثماني، إلا

(١) يخالف بعض الباحثين في تقرير هذا الأصل. وليس هذا موضع تقريره.

(٢) انظر رسم المصحف: غانم قدوري الحمد، ص ٧٢٩، وقبله فصول في فقه العربية: رمضان عبد التواب، ص ٩٠.

(٣) وهذه مسألة أيضاً يخالف فيها بعض الباحثين ما نراه فيها.

ان اتساع استخدام الكتابة العربية في القرون الهجرية الاولى اظهر الحاجة الماسة إلى تطوير الكتابة لتكون أكثر تحديداً وضبطاً^(١).

فلم يكن الناس عند كتابة المصحف يجدون فرقاً كبيراً بين كتابتهم وما يجدونه في المصحف، وكان الصحابة ومن وافقهم من التابعين وتابعيهم يوافقون الرسم المصحفي في أكثر ما يكتبون، ولو لم يكن قرآناً ولا حديثاً، واستمر الأمر على ذلك إلى أن ظهر علماء اللغة في البصرة والكوفة، وأسسوا لفن الكتابة ضوابط وروابط بنوها على أقيستهم النحوية وأصولهم الصرفية، وسموها علم الخط القياسي أو الاصطلاحي المخترع، وسموا رسم المصحف بالخط المتبع. وكلما تقدم الزمن ازدادت الحاجة إلى توحيد قواعد الكتابة وضبطها^(٢).

إلا أن علماء المسلمين بتوفيق الله لهم أبقوا رسم المصحف على الكتابة الأولى صيانة للقرآن من أن يتعرض للتغيير والتبديل بين حين وآخر، مما قد يؤدي إلى وقوع الخطأ والتحريف والتبديل.

وقد أدى هذا الأمر إلى الاختلاف النسبي بين كتابة المصحف والكتابة الإملائية المعروفة، مما دعا علماء القراءات والرسم إلى تأليف كتب تشرح هذه الاختلافات، وتستنبط قواعد رسم المصحف، وتضبط كيفية كتابة الكلمات، وكانت مؤلفاتهم بين دراسة منهجية عامة تعنى بضبط القواعد والأصول، ودراسة تطبيقية تتبع الكلمات القرآنية حسب ترتيب السور والآيات فتبين طريقة رسمها، فظهر علم رسم المصحف.

(١) انظر رسم المصحف: غانم قدوري الحمد، ص ٧٣٥.

(٢) انظر رسم المصحف: ص ٧٣٠.

تعريفه :

وردت في اللغة العربية عدة كلمات للدلالة على تمثيل الألفاظ برموز مرئية من أشهرها (الكتاب، والهجاء، والخط، والرسم، والإملاء) ولم يكن استخدام هذه المصطلحات على حد سواء تاريخياً، ويظهر أن أولها هو أقدمها ثم استعمل الهجاء والخط في عناوين كثيرة من المؤلفات قديماً في قواعد الكتابة ومصطلحاتها، وفي وقت متأخر استعمل مصطلح الإملاء للدلالة على هذا المعنى، ولا يزال هو الغالب في الاستعمال في عصرنا هذا^(١).

أما الرسم وهو ما نتناوله هنا، فإن معاجم اللغة العربية لا تذكر لمادته أي معنى يتعلق بالخط، فهو في اللغة: بمعنى الأثر، ورسم كل شيء: أثره^(٢).

ثم أطلق هذا المصطلح على رسم المصحف أكثر من إطلاقه على رسم غيره. وربما كان استعمال الرسم للدلالة على خط المصحف إشارة إلى معنى الأثر القديم الذي يحرص المسلمون على المحافظة عليه، فظهر مصطلح (مرسوم الخط) و(مرسوم خط المصاحف) و(الرسم)^(٣).

ويراد بالرسم اصطلاحاً: تصوير كلمة بحروف هجائها، بتقدير الابتداء بها، والوقوف عليها، لتتحول اللغة المنطوقة إلى آثار مرئية^(٤).

(١) انظر مقال: الكتاب العربية: د. غانم قدوري الحمد، مجلة الحكمة، العدد العاشر، ص ٢٠١.

(٢) الجمهرة: ابن دريد، ج ٢، ص ٣٣٦، وتهذيب اللغة: الأزهري، ج ١٢، ص ٤٢٢، والصحاح: الجوهري، ج ٥، ص ١٩٣٢، ولسان العرب: ابن منظور، ج ١٥، ص ١٣٢، وانظر رسم المصحف: د. قدوري، ص ١٥٦، ومجلة الحكمة، عدد ١٠، ص ٢٠١.

(٣) رسم المصحف: د. قدوري، ص ١٥٦.

(٤) صفحات في علم القراءات: لأبي طاهر عبد القيوم السندي، ص ١٦٦.

أما الرسم العثماني . فيراد به : الوضع الذي ارتضاه الصحابة في عهد عثمان رضي الله عنه في كتابة كلمات القرآن الكريم وحروفه .

عناية العلماء به :

اعتنى العلماء قديماً وحديثاً برسم المصحف وليس المقام هنا مقام استيعاب واستيفاء وإنما مقام إشارة وتمثيل فمن أهم المؤلفات :

١ - المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار : لأبي عمرو عثمان ابن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ) ، حققه الأستاذ محمد أحمد دهمان .

٢ - الجامع لما يحتاج إليه من رسم المصحف : ابن وثيق الأندلسي (ت ٦٥٤هـ) ، تحقيق د . غانم قدوري الحمد .

٣ - البديع في معرفة ما رسم في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه : لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن معاذ الجهني (ت ٤٤٢هـ تقريباً) تحقيق د . غانم قدوري الحمد ، ونشره في مجلة المورد م ١٥ العدد الرابع ١٤٠٧هـ .

٤ - عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل : لأبي العباس أحمد بن البناء المراكشي (ت ٧٢١هـ) ، حققته د . هند شلبي .

٥ - عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد : للإمام الشاطبي (ت ٥٩٠هـ) ، وهي قصيدة نظم فيها مسائل المقنع : لأبي عمرو الداني وزاد عليه ست كلمات حيث قال الشاطبي :

وهاك نظم الذي في مقنع عن أبي عمرو وفيه زيادات فطب عُمرًا وعدد أبياتها ٢٩٨ بيتاً وتسمى الرائية وشرحها كثير من العلماء .

٦ - مورد الظمان في رسم وضبط القرآن : لأبي عبد الله محمد بن محمد الشريسي الشهير بالخراز (ت ٧١٨هـ) وهي أيضاً قصيدة جاءت في قسمين :

الأول: في الرسم، والثاني: في الضبط، ويعرف الأول: بمورد الظمان والثاني: بضبط الخراز. وجاءت المنظومة جامعة لما ورد في أمهات مصادر الرسم شاملة للمشهور من أوجه الخلاف بين المصادر فحظيت بالقبول، واعتمدتها اللجنة التي أشرفت على طبع المصحف المشهور بالأميري سنة ١٣٤٢هـ وتعددت شروحها^(١) واعتمدت ضبطه لجنة طبع مصحف المدينة النبوية من إصدار مجمع خدام الحرمين الشريفين الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٧ - رسم المصحف: دراسة لغوية تاريخية ألفها د. غانم قدوري الحمد. وهذا الكتاب من أفضل المؤلفات وأشملها في رسم المصحف لم يعتمد فيه مؤلفه على مجرد النقل، بل كان عماده التحقيق الدقيق.

٨ - جامع البيان في معرفة رسم القرآن: للأستاذ علي إسماعيل السيد هندأوي وضعه وفق ما جاء في مورد الظمان حيث يذكر مضمون الآيات أولاً، ثم يورد الآيات آخرًا، ويعقب كل مبحث بمجموعة من الأسئلة للتدريب والمراجعة.

قواعد رسم المصحف:

لم تكن هذه القواعد منهجاً مرسوماً للصحابة يلتزمونه عند كتابة المصحف، وإنما هي قواعد استنبطها العلماء بعد ذلك عن طريق الاستقراء والتتبع.

كما أن هذه القواعد غير لازمة أو مطردة في كل كلمة قرآنية إذ يخرج عن كل قاعدة عدد من الكلمات أحياناً، وقد يلتزم في كلمة واحدة كتابتها وفق القاعدة في موضع وبخلافها في موضع آخر، فطريق الكتابة للمصحف هو النقل وحده.

(١) رسم المصحف، ص ١٨١.

وقد استنبط العلماء لرسم المصحف في عهد عثمان رضي الله عنه ست قواعد يجمعها قول الناظم:

الرسم في ست قواعد استقل حذف زيادة وهمز وبدل
وما أتى بالوصل أو بالفصل موافقاً للفظ أو للأصل
وذو قراءتين مما قد شهر فيه على إحداهما قد اقتصر^(١)
وهذا بيانها.

القاعدة الأولى: قاعدة الحذف:

والأحرف التي حذفت في بعض المواضع خمسة هي:
الألف، والواو، والياء، واللام، والنون.

أما الألف:

فتحذف لثلاثة أمور^(٢):

١ - حذف إشارة:

والمراد الإشارة بحذف الألف إلى قراءة أخرى محذوفة الألف. مثل
حذفها في ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٣) وكحذفها في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ
أُسْكُرَىٰ تَفْذَوْهُمْ﴾^(٤) فحذف الألف في ﴿أُسْكُرَىٰ﴾ إشارة إلى قراءة حمزة

(١) إيقاظ الأعلام لوجوب اتباع رسم المصحف الإمام: محمد حبيب الله الشنقيطي
ص ٣٥ والأبيات المذكورة لشيخه محمد العاقب.

(٢) انظر دليل الحيران شرح مورد الظمان: للمارغني، ص ٤٤-٤٥، وقد أنكر بعض
الباحثين هذا التقسيم. انظر رسم المصحف: قدوري، ص ٣٠٤-٣٠٥.

(٣) سورة الفاتحة: الآية ٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ٨٥.

حيث قرأها ﴿أَسْرَى﴾ بفتح الهمزة وإسكان السين وبدون ألف بعدها. وأما حذف الألف في ﴿تَفْدُوهُمْ﴾ فإشارة إلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحمزة وخلف حيث قرؤوها ﴿تَفْدُوهُمْ﴾ بفتح التاء وسكون الفاء وبدون ألف بعدها^(١).

٢ - حذف اختصار:

ويراد به حذف الألف من جمع المذكر أو المؤنث السالمين ما تكرر وما لم يتكرر إذا لم يقع بعد الألف تشديد أو همز. مثل ﴿الْعَلَمِينَ﴾^(٢)، ﴿وَالذَّارِبَاتِ﴾^(٣)، ﴿وَالْحَفِظِينَ﴾^(٤)، ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾^(٥) أما إذا وقع بعدها مباشرة حرف مشدد أو مهموز فتثبت مثل ﴿الضَّكَّالِينَ﴾^(٦)، ﴿وَمَا هُمْ بِضَّكَّارِينَ﴾^(٧) ومثل ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾^(٨)، ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾^(٩)، ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾^(١٠).

٣ - حذف اقتصار:

وهو حذف يرد في كلمة دون نظائرها في المواضع الأخرى، ومثاله كلمة الميعاد فتحذف في ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾^(١١) ولا تحذف

(١) جامع البيان: علي هندائي، ص ٤٦.

(٢) سورة الفاتحة: الآية ٢.

(٣) سورة الذاريات: الآية ١.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٥.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٣٥.

(٦) سورة الفاتحة: الآية ٧.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

(٨) سورة البقرة: الآية ١٢٥.

(٩) سورة الحج: الآية ٢٦.

(١٠) سورة الأعراف: الآية ٤.

(١١) سورة الأنفال: الآية ٤٢.

الألف في بقية المواضع، ومثل حذف الألف في ﴿الْقَهْرُ﴾^(١) في سورة الرعد دون غيرها من المواضع.

هذه أقسام حذف الألف، أما مواضع حذف الألف فلا تكاد تنضبط وقد قال ابن وثيق الأندلسي في الفصل الذي عقده لحذف الألف: «اعلم أن هذا الباب كثير الاضطراب ومتشعب، لا يرجع إلى قياس فيحصر»^(٢).

إلا أن العلماء ذكروا ضوابط تقريبية لحذف الألف فمنها:

١ - جمع المذكر أو المؤنث السالمين وما ألحق بهما إذا لم يقع بعد الألف همز أو تشديد. مثل: ﴿الْعَلَمِينَ﴾^(٣) ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾^(٤) ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾^(٥) ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾^(٦).

٢ - ما جاء على وزن فعَّالين وفعَّالون. مثل: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ﴾^(٧) ﴿لِلْأَوَّابِينَ﴾^(٨) ﴿طَوُفُونَ﴾^(٩) ﴿الْفَرَّصُونَ﴾^(١٠) إلا ما استثنى.

(١) سورة الرعد: الآية ١٦.

(٢) الجامع لما يحتاج إليه من رسم المصحف: ابن وثيق الأندلسي، ص ٣١.

(٣) سورة الفاتحة: الآية ٢.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٥.

(٥) سورة الذاريات: الآية ١.

(٦) سورة الممتحنة: الآية ١٠.

(٧) سورة النساء: الآية ١٣٥.

(٨) سورة الإسراء: الآية ٢٥.

(٩) سورة النور: الآية ٥٨.

(١٠) سورة الذاريات: الآية ١٠.

٣ - من كل جمع منقوص إلا ما استثني . والمراد بالمنقوص كل اسم جاء في آخر مفردة ياء لازمة قبلها كسرة مثل ﴿ وَالصَّيِّثِينَ ﴾ ^(١) و ﴿ طٰغِيْنَ ﴾ ^(٢) و ﴿ غَوِيْنَ ﴾ ^(٣) .

٤ - إذا جاءت الألف متوسطة وبعد لام أو بين لامين فتحذف الألف مطلقاً إلا ما استثني . مثل : ﴿ الْإِصْلَاحَ ﴾ ^(٤) و ﴿ عَلَّمَ الْغَيُْوبِ ﴾ ^(٥) و ﴿ أُولَئِكَ ﴾ ^(٦) ومثال الألف المحذوفة بين لامين ﴿ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ ^(٧) ﴿ وَلَا خِلَالٍ ﴾ ^(٨) ﴿ فِي الْكَلَلَةِ ﴾ ^(٩) .

٥ - تحذف الألف من كل لفظ دال على تنبيه أو نداء بشرط أن لا تكون متطرفة . ومثال ذلك : ﴿ هَتَيْنِ ﴾ ^(١٠) و ﴿ هَذَا ﴾ ^(١١) و ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ ^(١٢) .

ومثال حذفها من ياء النداء ﴿ يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ ﴾ ^(١٣) و ﴿ يٰأَيُّهَا ﴾ ^(١٤)

-
- (١) سورة الحج : الآية ١٧ .
 - (٢) سورة القلم : الآية ٣١ .
 - (٣) سورة الصافات : الآية ٣٢ .
 - (٤) سورة هود : الآية ٨٨ .
 - (٥) سورة المائدة : الآية ١٠٩ .
 - (٦) سورة البقرة : الآية ٥ .
 - (٧) سورة الملك : الآية ٩ .
 - (٨) سورة إبراهيم : الآية ٣١ .
 - (٩) سورة النساء : الآية ١٧٦ .
 - (١٠) سورة القصص : الآية ٢٧ .
 - (١١) سورة ص : الآية ٥٥ .
 - (١٢) سورة البقرة : الآية ٣١ .
 - (١٣) سورة الأحزاب : الآية ٣٠ .
 - (١٤) سورة البقرة : الآية ٢١ .

و﴿يَتَّكِدُمْ﴾^(١) و﴿يَكْأِزُّهُمْ﴾^(٢) و﴿يَبْنُوهُمْ﴾^(٣).

وأما الياء:

فتحذف في حالات منها:

١ - إذا اجتمعت الياء مع ياء أخرى سواء كانت الياء صورة للهمزة مثل: ﴿مُتَكِينٌ﴾^(٤) و﴿سَعَاتٍ﴾^(٥)، أو لم تكن صورة للهمزة مثل: ﴿وَالْأَمِينُ﴾^(٦) ﴿النَّيِّبُ﴾^(٧) إلا ما استثني.

٢ - وتحذف ياء المتكلم المضممر المتصل. مثل: ﴿وَحَاقُونَ﴾^(٨) ﴿فَازْهَبُونَ﴾^(٩) ﴿فَاتَّقُونَ﴾^(١٠) ﴿وَاطِيعُونَ﴾^(١١) ﴿فَاسْمَعُونَ﴾^(١٢) إلا ما استثني.

٣ - وتحذف من آخر كل اسم منقوص في موضع رفع أو جر مثل:

(١) سورة البقرة: الآية ٣٣.

(٢) سورة هود: الآية ٧٦.

(٣) سورة طه: الآية ٩٤.

(٤) سورة الكهف: الآية ٣١.

(٥) سورة غافر: الآية ٤٥.

(٦) سورة آل عمران: الآية ٢٠.

(٧) سورة البقرة: الآية ٦١.

(٨) سورة آل عمران: الآية ١٧٥.

(٩) سورة النحل: الآية ٥١.

(١٠) سورة البقرة: الآية ٤١.

(١١) سورة آل عمران: الآية ٥٠.

(١٢) سورة يس: الآية ٢٥.

﴿بَاغٍ﴾^(١) و﴿هَادٍ﴾^(٢) و﴿وَالٍ﴾^(٣) و﴿وَاقٍ﴾^(٤) و﴿الدَّاعِ﴾^(٥) و﴿وَالْبَاءِ﴾^(٦).

وتحذف في حالات أخرى .

وأما الواو :

فتحذف في حالات منها :

١ - تحذف الواو إذا اجتمعت مع واو أخرى سواء كانت صورة للهمزة مثل : ﴿مَسْئُولًا﴾^(٧) و﴿وَلَا يَتُودُّهُ﴾^(٨) و﴿تُؤَيِّدُ﴾^(٩) أو لم تكن صورة للهمزة مثل : ﴿دَاوُدَ﴾^(١٠) و﴿وَلَا تَكْلُوبُ﴾^(١١) و﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾^(١٢).

٢ - وتحذف الواو حملاً للخط على اللفظ مثل : ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَنُ﴾^(١٣) و﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾^(١٤) و﴿سَدَّغُ الزَّيَانَةِ﴾^(١٥) إلا ما استثنى .

(١) سورة الأنعام : الآية ١٤٥ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٧ .

(٣) سورة الرعد : الآية ١١ .

(٤) سورة الرعد : الآية ٣٤ .

(٥) سورة القمر : الآية ٦ .

(٦) سورة الحج : الآية ٢٥ .

(٧) سورة الإسراء : الآية ٣٤ .

(٨) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

(٩) سورة المعارج : الآية ١٣ .

(١٠) سورة النمل : الآية ١٥ .

(١١) سورة آل عمران : الآية ١٥٣ .

(١٢) سورة السجدة : الآية ١٨ .

(١٣) سورة الإسراء : الآية ١١ .

(١٤) سورة الشورى : الآية ٢٤ .

(١٥) سورة العلق : الآية ١٨ .

وأما اللام:

فتحذف إذا وقعت مع لام أخرى في خمس كلمات هي (الليل) و(اللائي) و(التي) و(اللاتي) و(الذي) سواء كان الأخير مفرداً أو مثني أو مجموعاً وما عدا هذه الكلمات الخمس فلا حذف مثل (اللطيف) و(اللوامة) و(اللؤلؤ) و(اللهم) وغيرها.

وأما النون:

فتحذف في موضعين ﴿فَنُجِّيَ مِنْ نَأْشِئٍ﴾^(١) و﴿وَكَذَلِكَ نُشِجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

القاعدة الثانية: قاعدة الزيادة:

والمراد بالزيادة حقيقة، إثبات حرف في الكلمة لا يقرأ وصلًا ولا وقفًا، وقد تكون الزيادة في بعض الأحرف ليست حقيقية فتقرأ في الوقف مثل (لكنا)، أو الابتداء مثل (ابن)، والرسم مبني على الوقف والابتداء وما ثبت في أحدهما لم تكن زيادته حقيقية^(٣).

والأحرف التي تزداد هي: الألف، والواو، والياء.

أما الألف:

فتزداد في حالات منها:

١ - تزداد الألف بعد واو الجماعة إذا لم يتصل بالفعل ضمير. مثل:

(١) سورة يوسف: الآية ١١٠.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٨.

(٣) دليل الحيران شرح مورد الظمان: للمارغني، ص ٢٤٤.

﴿ءَامَنُوا﴾^(١) و﴿كَفَرُوا﴾^(٢) و﴿أَعَدُّوا﴾^(٣) إلا ما استثنى مثل : ﴿فَإِنْ قَاءُوا﴾^(٤) و﴿وَعَتَوْا﴾^(٥) وغيرها .

٢ - وتزاد الألف بعد الواو الأصلية في الفعل المضارع المعتل الآخر بالواو مرفوعا أو منصوبا . مثل : ﴿يَدْعُوا﴾^(٦) و﴿لَيَرْبُوا﴾^(٧) و﴿وَنَبِلُوا﴾^(٨) إلا في موضع واحد هو ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو﴾^(٩) فحذفت فيه .

٣ - وتزاد الألف بعد الواو التي هي علامة الرفع في جمع المذكر السالم أو ما جرى مجراه إذا حذفت نونه للإضافة إلى ظاهر . مثل : ﴿مُرْسِلُوا النَّاقَةَ﴾^(١٠) و﴿كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾^(١١) و﴿صَالُوا النَّارِ﴾^(١٢) .

٤ - وزادوا الألف في مواضع مختلفة لا تندرج تحت قاعدة : فزادوها بعد الواو مثل : ﴿تَفْتُوا﴾^(١٣) و﴿أَتَوَكُّوا﴾^(١٤) و﴿تَظْمُوا﴾^(١٥) .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٦ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٨ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٢٦ .

(٥) سورة الفرقان : الآية ٢١ .

(٦) سورة يونس : الآية ٢٥ .

(٧) سورة الروم : الآية ٣٩ .

(٨) سورة محمد : الآية ٣١ .

(٩) سورة النساء : الآية ٩٩ .

(١٠) سورة القمر : الآية ٢٧ .

(١١) سورة الدخان : الآية ١٥ .

(١٢) سورة ص : الآية ٥٩ .

(١٣) سورة يوسف : الآية ٨٥ .

(١٤) سورة طه : الآية ١٨ .

(١٥) سورة طه : الآية ١١٩ .

قلت : ولعله يقال تزداد الألف بعد الهمزة المتطرفة المرسومة واو .

وزادوها بعد النون مثل : ﴿لَنَكُنَّاهُ اللَّهُ﴾^(١) و ﴿أَلْظُنُونَا﴾^(٢) .

وزادوها بعد الميم مثل : ﴿مَائَةً﴾^(٣) و ﴿مَائَتَيْنِ﴾^(٤) .

وزادوها بعد اللام مثل : ﴿لَا أَذْبَحْنَهُ﴾^(٥) .

وزادوها قبل الياء مثل : ﴿وَلَا تَأْتِسُوا﴾^(٦) و ﴿يَأْتِسُ﴾^(٧) .

وزادوها بعد الجيم مثل : ﴿وَجِئْ﴾^(٨) .

وزادوها بعد الشين مثل : ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَايٍ﴾^(٩) .

أما الواو :

فتزداد في أربع كلمات حيث وقعت وهي ﴿يَتَأُولِي﴾^(١٠) و ﴿أُولُوا﴾^(١١) و ﴿أُولَاءِ﴾^(١٢) و ﴿أُولَتْ﴾^(١٣) باتفاق .

(١) سورة الكهف : الآية ٣٨ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ١٠ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .

(٤) سورة الأنفال : الآية ٦٦ .

(٥) سورة النمل : الآية ٢١ .

(٦) سورة يوسف : الآية ٨٧ .

(٧) سورة يوسف : الآية ٨٧ .

(٨) سورة الزمر : الآية ٦٩ .

(٩) سورة الكهف : الآية ٨٧ .

(١٠) سورة البقرة : الآية ١٧٩ .

(١١) سورة البقرة : الآية ٢٦٩ .

(١٢) سورة آل عمران : الآية ١١٩ .

(١٣) سورة الطلاق : الآية ٦ .

واختلف في كلمتين هما ﴿سَأُورِيكُمْ﴾^(١) والراجح زيادتها،
و﴿وَلَا ضَلِيلَتَكُمْ﴾^(٢) والعمل على عدم زيادتها.

أما الياء :

فالكلمات التي زيدت فيها الياء نوعان :

الأول: ما كانت فيه همزة مكسورة سواء تقدم عليها ألف. مثل:
﴿يَلْقَايَ﴾^(٣) و﴿وَاِيتَايَ﴾^(٤) و﴿وَرَايَ﴾^(٥) أو لم يتقدم عليها ألف مثل:
﴿أَفَايْنَ مَاتَ أَوقِتِلَ﴾^(٦) و﴿أَفَايْنَ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾^(٧).

الثاني: ما لم تكن فيه همزة مكسورة ولا ألف، وزيدت الياء في كلمتين
من هذا النوع: ﴿يَأَيَّتَكُمْ﴾ في سورة القلم [٦] و﴿يَأَيِّرُ﴾ في الذاريات [٤٧].

القاعدة الثالثة: قاعدة البدل:

والحروف التي تبدل ثلاثة: الألف، والنون، وتاء التانيث.

أما الألف: فتبدل إلى حرفين: الياء والواو.

أولاً: تكتب الألف ياء في مواضع منها:

١ - إذا كانت الألف منقلبة عن ياء أي أن أصلها ياء فإنها تكتب ياء.

تنبيهاً على أصلها، وجواز إمالتها. مثل: ﴿هَوْنُهُ﴾^(٨) و﴿هُدَى﴾^(٩)

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٥.

(٢) سورة طه: الآية ٧١.

(٣) سورة يونس: الآية ١٥.

(٤) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٥) سورة الشورى: الآية ٥١.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

(٧) سورة الأنبياء: الآية ٣٤.

(٨) سورة الجاثية: الآية ٢٣.

(٩) سورة البقرة: الآية ٥.

و﴿اَسْتَسْقِنُهُ﴾^(١) و﴿اَعْطَى﴾^(٢) و﴿يَتَأَسَفْنَ﴾^(٣).

والقاعدة التي يعرف بها أصل الألف أن تثني الكلمة إن كانت اسماً مثل (فتى) فتيان. أو تسند إلى تاء الضمير إن كانت فعلاً مثل (رمى) رميت.

٢ - وتكتب الألف ياءً في ما جاء رباعياً. مثل: ﴿الْمَوْنَى﴾^(٤) و﴿وَالسَّلَوَى﴾^(٥) و﴿إِحْدَيْهُمَا﴾^(٦).

٣ - إذا كانت الألف تشبه المنقلبة عن ياء فإنها تكتب ياءً^(٧). مثل: (أتى، يتامى، سكارى، مرضى، متى، بلى، حتى، إلى، أنثى) وما أشبه ذلك إلا ما استثني، وهو كل موضع لو كتبت فيه الألف ياء لاجتمع فيه ياءان^(٨).

ثانياً: تكتب الألف واواً للتفخيم، إذا كان أصلها واواً ما لم تكن مضافة. وجاء ذلك في أربع كلمات مطردة حيث وقع هن: ﴿الصَّلَاةُ﴾^(٩) و﴿الزَّكَاةُ﴾^(١٠) و﴿الْحَيَاةُ﴾^(١١) و﴿الرِّبَا﴾^(١٢).

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٠.

(٢) سورة الليل: الآية ٥.

(٣) سورة يوسف: الآية ٨٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ٧٣.

(٥) سورة طه: الآية ٨٠.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

(٧) انظر الجامع: ابن وثيق ص ٥٧-٥٨.

(٨) المرجع السابق.

(٩) سورة البقرة: الآية ٣.

(١٠) سورة البقرة: الآية ١١٠.

(١١) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

(١٢) سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

وفي أربع كلمات غير مطردة هن: ﴿بِالْعَدُوِّ﴾ في الأنعام [٥٢] والكهف [٢٨] و﴿كَمُشْكُوفٍ﴾ في النور [٣٥] و﴿النَّجْوَةِ﴾ في غافر [٤١] و﴿وَمَنْوَةٍ﴾ في النجم [٢٠].

فإن أضيفت كتبت بالألف ولم ترد الإضافة إلا في كلمتي (الصلاة) و(الحياة) مثل: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾^(١) ﴿قَدَمْتُ لِحَيَاتِي﴾^(٢) واستثني من هذا أربع كلمات رسمت بالواو باتفاق مع أنها مضافة وهي ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾^(٣) و﴿وَصَلَّاتِ الرَّسُولِ﴾^(٤) و﴿أَصَلَّاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾^(٥) و﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(٦) وذلك لتحتمل وجوه القراءات بالإفراد والجمع.

أما النون:

فتكتب ألفاً في مواضع منها:

١ - يرسم التنوين ألفاً في كل اسم منصوب ليس فيه هاء التانيث ولا هو مقصور مثل: ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾^(٧) و﴿مَلَجًا﴾^(٨). وما أشبه ذلك.

٢ - نون التوكيد الخفيفة تكتب ألفاً إذا كان ما قبلها مفتوحاً مثل ﴿وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾^(٩) و﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾^(١٠).

(١) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

(٢) سورة الفجر: الآية ٢٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٠٣.

(٤) سورة التوبة: الآية ٩٩.

(٥) سورة هود: الآية ٨٧.

(٦) سورة المؤمنون: الآية ٩.

(٧) سورة يوسف: الآية ٢٢.

(٨) سورة الشورى: الآية ٤٧.

(٩) سورة يوسف: الآية ٣٢.

(١٠) سورة العلق: الآية ١٥.

٣ - ومما كتبت نونه ألفاً كلمة (إذن). مثل: ﴿إِذَا لَاقَظْنَاكَ﴾^(١) و﴿قَدْ صَلَّيْتُ إِذَا﴾^(٢) و﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣) وإنما كتبت بالألف لإجماع القراء على أن الوقف عليها يكون بالألف.

أما تاء التانيث:

فترسم هاء في الأسماء دون الأفعال. وتقرأ بالتاء في الوصل وبالهاء في الوقف، وهذا هو الأكثر. مثل رحمة في ﴿وَأَنَا لِنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِي﴾^(٤) ونعمة في ﴿وَمَنْ يَبْدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾^(٥) وكلمة في ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٦) وغير ذلك.

واستثني من هذا ثلاث عشرة كلمة هي:

- ١ - ﴿رَحِمْتَ﴾ في البقرة: ٢١٨، والأعراف: ٥٦، والزخرف: ٣٢، وهود: ٧٣، ومريم: ٢، والروم: ٥٠.
- ٢ - ﴿نِعَمْتَ﴾ في البقرة: ٢٣١، وآل عمران: ١٠٣، والمائدة: ١١، وإبراهيم: ٢٨ و٣٤، وفاطر: ٣، ولقمان: ٣١، والنحل: ٧٢، ٨٣، ١١٤، والطور: ٢٩.
- ٣ - ﴿سُنْتَ﴾ في فاطر: ٤٣، والأنفال: ٢٨، وغافر: ٨٥.
- ٤ - ﴿أَبْنَتْ﴾ في التحريم: ١٢.

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٦.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٦.

(٤) سورة هود: الآية ٢٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢١١.

(٦) سورة يونس: الآية ١٩.

٥ - ﴿شَجَرَتْ﴾ في الدخان: ٤٣.

٦ - ﴿أَمْرَأْتُ﴾ في آل عمران: ٣٥، ويوسف: ٣٠، ٥١، والقصص: ٩، والتحريم: ١٠، ١١.

٧ - ﴿قُرْتُ﴾ في القصص: ٩.

٨ - ﴿بَقِيْتُ﴾ في هود: ٨٦.

٩ - ﴿فَطَرْتُ﴾ في الروم: ٣٠.

١٠ - ﴿لَقَنْتُ﴾ في آل عمران: ٦١، والنور: ٧.

١١ - ﴿وَحَنْتُ﴾ في الواقعة: ٨٩.

١٢ - ﴿وَمَعْصَيْتُ﴾ في المجادلة: ٨، ٩.

١٣ - ﴿كَلِمْتُ﴾ في الأنعام: ١١٥، ويونس: ٩٦، وغافر: ٦.

والفرق بين ما كتب بالتاء المفتوحة، والهاء أن ما كتب بالهاء يوقف عليه بالهاء، ويوصل بالتاء.

وأما ما كتب بالتاء المفتوحة فيقرأ بالتاء بالوصل، وبالوقف كذلك عند ضيق نفس، أو مقام تعليم، أو اختبار.

القاعدة الرابعة: قاعدة الهمز:

لا تخلو الهمزة من أن تكون في أول الكلمة، أو وسطها، أو في آخرها.

فإذا كانت الهمزة في أول الكلمة:

فقد اتفق شيوخ النقل على أن الهمزة الواقعة في أول الكلمة تكتب على الألف مطلقاً سواء كانت مكسورة أو مفتوحة أو مرفوعة. وسواء كانت همزة وصل أم قطع، ولو تقدمها حرف زائد فلا يعتد به مثل الباء والسين والفاء إلا أن يكون سقوطها يخل ببنية الكلمة وهذه الأمثلة لذلك:

الهمزة الواقعة في أول الكلمة مكسورة: ﴿إِيَّاكَ﴾^(١) و﴿اتَّخَذُوا﴾^(٢).

الهمزة الواقعة في أول الكلمة مفتوحة: ﴿أَنْعَمْتَ﴾^(٣) و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾^(٤).

الهمزة الواقعة في أول الكلمة مضمومة: ﴿أُولَئِكَ﴾^(٥) و﴿أَدْعُ﴾^(٦).

همزة تقدمها حرف زائد لا يعتد به في رسمها ﴿يَتَّكِدُمْ﴾^(٧) ﴿فَإِذَا﴾^(٨) ﴿سَاصَرِفُ﴾^(٩).

همزة تقدمها حرف زائد يعتد به لأن سقوطه يخل ببناء الكلمة مثل:

﴿تَوَزَّهْهُمْ﴾^(١٠) ﴿يُؤْتِي﴾^(١١) ﴿مُؤْمِنٌ﴾^(١٢).

وإذا كانت الهمزة في وسط الكلمة:

فإنها تكتب بحرف حركة ما قبلها.

(١) سورة الفاتحة: الآية ٥.

(٢) سورة المنافقون: الآية ٢.

(٣) سورة الفاتحة: الآية ٧.

(٤) سورة الفاتحة: الآية ٢.

(٥) سورة البقرة: الآية ٥.

(٦) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٧) سورة البقرة: الآية ٣٣.

(٨) سورة يس: الآية ٨٠.

(٩) سورة الأعراف: الآية ١٤٦.

(١٠) سورة مريم: الآية ٨٣.

(١١) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

(١٢) سورة الإسراء: الآية ١٩.

فإن كان ما قبلها مضموماً كتبت على الواو مثل: ﴿يُؤَفِّكَ﴾^(١).
و﴿مُؤَجَّلًا﴾^(٢).

وإن كان ما قبلها مفتوحاً كتبت على الألف مثل: ﴿يَأْكُلُونَ﴾^(٣).
و﴿سَأَلَ﴾^(٤).

وإن كان ما قبلها مكسوراً كتبت على الياء مثل: ﴿وَيَبْرِئُ﴾^(٥).
و﴿خَاطَبَهُ﴾^(٦).

فإن كانت مكسورة صورت ياء سواء كان ما قبلها مضموماً أو مفتوحاً أو
مكسوراً مثل: ﴿يَيْسُ﴾^(٧) و﴿سُئِلَتْ﴾^(٨) و﴿بَارِيكُمْ﴾^(٩) أو كانت مضمومة
وما قبلها مفتوح فترسم واواً مثل: ﴿يَذَرُوكُمْ﴾^(١٠).

وخلاصة حكم الهمزة المتوسطة أنها تكتب بحرف حركة ما قبلها، إلا
إذا كانت مكسورة فترسم بالياء مطلقاً، وإذا كانت مضمومة وما قبلها مفتوح
فترسم واواً.

(١) سورة الذاريات: الآية ٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٥.

(٣) سورة النساء: الآية ١٠.

(٤) سورة المعارج: الآية ١.

(٥) سورة الحج: الآية ٤٥.

(٦) سورة العلق: الآية ١٦.

(٧) سورة المائدة: الآية ٣.

(٨) سورة التكوين: الآية ٨.

(٩) سورة البقرة: الآية ٥٤.

(١٠) سورة الشورى: الآية ١١.

وإذا كانت الهمزة في آخر الكلمة:

فإنها تكتب بحرف حركة ما قبلها.

فإن كان ما قبلها مفتوحاً كتبت على الألف مثل ﴿أَقْرَأُ﴾^(١) و﴿ذَرَأُ﴾^(٢).

وإن كان ما قبلها مكسوراً كتبت على الياء مثل: ﴿نَبِيٍّ﴾^(٣) و﴿قُرَيْشٍ﴾^(٤).

ولم يرد في القرآن همزة متطرفة ساكنة أو مفتوحة وقبلها ضمة.

وخلاصة حكم الهمزة المتطرفة أنها تكتب بحرف حركة ما قبلها فإن كان ما قبلها ساكناً لم يصور لها صورة مثل: ﴿دِفءٌ﴾^(٥) و﴿الْحَبَاءُ﴾^(٦).

وهذا رسم بياني تقريبي يبين حكم الهمزة في جميع الحالات مع عدم الاستيفاء أو التفصيل:

(١) سورة العلق: الآية ١.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٣٦.

(٣) سورة الحجر: الآية ٤٩.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٠٤.

(٥) سورة النحل: الآية ٥.

(٦) سورة النمل: الآية ٢٥.

القاعدة الخامسة: قاعدة الفصل والوصل :

الأصل في الكتابة فصل الكلمة عن الكلمة لأن كل كلمة تدل على معنى غير معنى الكلمة الأخرى، فكما أن المعنيين متميزان فكذلك اللفظ المعبر عنهما^(١).

وقد نص علماء العربية على أن حق كل كلمة أن تقع مفصولة في الكتاب عما قبلها وما بعدها ليدل كل لفظ على ما وضع له مفرداً^(٢) إلا أنا نجد بعض الكلمات في رسم المصحف ترد مرة موصولة بما بعدها، وترد مفصولة في موضع آخر.

وفي هذه القاعدة يورد علماء الرسم ما يوصل وما يفصل من هذه الكلمات.

ويريدون بالموصول: كل كلمة اتصلت بما بعدها في الرسم.

وبالمفصول: كل كلمة انفصلت عما بعدها في الرسم.

وإذا كانت الكلمة مفصولة عن غيرها جاز الوقف عليها في مقام التعليم أو الاختبار أو في حالة الاضطرار.

وإذا كانت الكلمة موصولة بما بعدها لم يجز الوقف عليها بل على الكلمة الثانية منهما وتنزل الكلمة الأولى مع الثانية منزلة الكلمة الواحدة.

ولعلك تقول: إذا كان الفصل هو الأصل فكان الحق أن لا يذكر علماء الرسم إلا ما خالف الأصل دون ما وافقه، فما بالهم يتناولون هنا الموصول والمفصول جميعاً.

(١) رسم المصحف: د. قدوري، ص ٤٤٨.

(٢) المرجع السابق: د. قدوري ص ٤٤٧-٤٤٨.

وقد علل بعض علماء الرسم ذلك بأنهم تناولوا المفصول اختصاراً لقلته بالنسبة إلى الموصول ولو تعرضوا إلى جميع ما جاء موصولاً على خلاف الأصل لطال الكلام وفات الاختصار^(١).

ومن الكلمات التي تدخل في هذه القاعدة:

١ - (ألا) أصلها أن لا وكتبت موصولة في ﴿الْأَنْزِلُ وَالْزِرَّةُ وَزَرَ أُخْرَى﴾^(٢).

٢ - (بئسما) أصلها بئس ما وكتبت موصولة في ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُونِي﴾^(٣).

٣ - (ويكأن) أصلها وي كأن وكتبت موصولة في ﴿وَيَكَاَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾^(٤).

(١) دليل الحيران شرح مورد الظمان: المراغني، ص ٢٨٥-٢٨٦ ويبدو لي أن هذا التعليل غير مقنع فمن تتبع الكلمات الموصولة والمفصولة كما وردت في دليل الحيران مثلاً سيجد أن الكلمات المفصولة سبع عشرة كلمة والموصولة سبع عشرة كلمة فهما من حيث العدد سواء.

بل وسيجد أن التقسيم غير دقيق فهم يذكرون مثلاً في الكلمات المقطوعة (عن ما)، وأنها تقطع في موضع واحد في الأعراف وتوصل فيما عداها، ومع هذا فإنهم يعدونها في المقطوع، ولو قلبت القضية وعددها في الموصول وقلت: إنها توصل في جميع المواضع إلا موضع الأعراف لصح، واختل بهذا تقسيمهم للكلمات المقطوعة والموصولة، وما قلته في (عن ما) ينطبق على أغلب الكلمات المقطوعة والموصولة. وهذا يؤكد قضية وجوب الاختصار على ذكر ما خالف الأصل وهو القطع، فلا يذكر في هذا الباب إلا ما هو موصول وحقه القطع. إذ لم يرد في القرآن كلمة مقطوعة وحققها الوصل كما لو قلت (مُحَمَّدٌ) أو (الح مد) أو (الس ماء). ولهذا التزمت الاختصار على كلمات وصلت والأصل فيها القطع.

(٢) سورة النجم: الآية ٣٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

(٤) سورة القصص: الآية ٨٢.

٤ - (الَّن) أصلها أن لن وكتبت موصولة في ﴿الَّن يَجْعَ عَظَامُهُ﴾^(١).

٥ - (يَبْنُوم) أصلها يا ابن أُمي وكتبت موصولة في ﴿يَبْنُومَ لَا تَأْخُذْ بِلِحَيَّتِي﴾^(٢).

هذه بعض الكلمات التي وردت في القرآن موصولة والأصل في رسمها الفصل.

القاعدة السادسة: ما فيه قراءتان:

ويدخل تحت هذه القاعدة نوعان من الكلمات:

النوع الأول: كلمات فيها أكثر من قراءة وتدخل تحت إحدى القواعد السابقة:

ففي قاعدة الحذف ترسم ﴿مُلْكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ بحذف الألف لأن في (ملك) قراءتين بالألف (مالك) وهي قراءة عاصم والكسائي ويعقوب وخلف في اختياره وقرأ الباقون بحذفها.

وفي قاعدة الهمز كلمة النشأة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيَّ النَّشْأَةَ الْآخِرَى﴾^(٣) رسمت بإثبات الهمزة مع أن القاعدة أن الهمزة المتحركة إذا كان قبلها ساكن غير ألف تحذف صورة الهمزة فتكتب هكذا (النشئة)، إلا أنها رسمت بإثبات الهمز، وفي ذلك إشارة إلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو (النشأة) بفتح الشين وإثبات ألف بعدها وبعد الألف همزة مفتوحة.

(١) سورة القيامة: الآية ٣.

(٢) سورة طه: الآية ٩٤.

(٣) سورة النجم: الآية ٤٧.

وفي قاعدة البدل كل ما اختلف فيه القراء جمعاً وإفراداً يرسم بالثاء ليحتمل القراءتين ﴿غَيْبَتِ﴾^(١) قرأهما المدنيان بالألف على الجمع والباقون بغير الألف على الأفراد. ومثل ﴿ءَايَتُ لِّلسَّالِينَ﴾^(٢) قرأها ابن كثير بغير الألف على الأفراد والباقون بالألف على الجمع.

أما في الوصل والفصل فقد مر بنا قريباً صلته بالوقف فلا يجوز الوقف على الكلمة الأولى من كلمتين موصولتين، ويجوز الوقف عند الفصل للتعليم أو الاختبار ونحوهما.

والنوع الثاني: كلمات يحتمل رسمها قبل النقط أكثر من قراءة.

ومن أمثلة ذلك:

﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾^(٣) بدون نقط قرأ حمزة والكسائي بالثاء (كثير) وقرأ الباقر بالباء.

﴿نُنَشِّرُهَا﴾^(٤) بدون نقط قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بالزاي والباقر بالراء.

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾^(٥) بدون نقط قرأ حمزة والكسائي وخلف (فتثبتوا) وقرأ الباقر (فتبينوا).

﴿يَقُصُّ الْحَقُّ﴾^(٦) قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وعاصم بالصاد المهملة. وقرأ الباقر بالضاد المعجمة المكسورة وقبلها قاف ساكنة.

(١) سورة يوسف: الآية ١٠.

(٢) سورة يوسف: الآية ٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

(٥) سورة النساء: الآية ٩٤.

(٦) سورة الأنعام: الآية ٥٧.

﴿فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾^(١) قرأها يعقوب (إخوتكم) بكسر الهمزة وسكون الخاء وكسر التاء. وقرأها الباقون بفتح الهمزة والخاء وسكون الياء.

وغير ذلك من الكلمات التي ساعد عدم نقطتها على جمع رسمها لأكثر من قراءة.

فوائد ومزايا رسم المصحف:

ينبغي أن نذكر قبل ذكر الفوائد والمزايا بما قلناه في أول الباب من أن الصحابة رضي الله عنهم لم ي اخترعوا رسماً خاصاً لكتابة القرآن، وإنما كتبوه بالطريقة السائدة للكتابة في عصرهم^(٢)، إلا في مواضع خالفوا فيها هذه الطريقة لحكم وفوائد.

وسنذكر بعض الفوائد والمزايا لرسم المصحف العثماني ومنها:

الفائدة الأولى:

اشتمال هذا الرسم في جملته على القراءات الصحيحة، ولهذا اشترط علماء القراءات لصحة القراءة موافقة الرسم العثماني ولو احتمالاً. وعلى هذا فإذا كان في الكلمة الواحدة أكثر من قراءة فإنها ترسم بوجه يحتمل هذه القراءات أو أكثرها.

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠.

(٢) وقد خالف في هذا بعض الباحثين زاعمين أن الرسم كان بالتوقيف ولا تجوز مخالفته، وهم يخلطون في هذا بين القول بالتوقيف والقول بوجوب التزام الرسم، متوهمين أن الثاني يوجب الأول. والحق أن القول بالتوقيف ظهر في وقت متأخر، أما القول بوجوب التزام الرسم فهو قول جمهور علماء الأمة، ولا يلزم من القول به القول بأن الرسم توقيفي. والله أعلم.

فيكتبون مثلاً ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١) بحذف الألف بعد الميم الأولى ووضع ألف صغيرة للإشارة إلى الألف المحذوفة في قراءة عاصم والكسائي (مالك) وفي حذفها إشارة إلى قراءة الباقيين (مالك).

وكذا ما كان فيه أكثر من قراءتين فإنهم يرسمونه بصورة تحتل هذه القراءات ما أمكنهم ذلك مثل: ﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ﴾^(٢) فقد رسمت في المصحف قبل النقط هكذا (ان هذ) للإشارة إلى القراءات فيها وهي:

١ - ﴿إِنْ هَذَا﴾ وهي قراءة نافع وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي.

٢ - ﴿إِنْ هَذَا﴾ وهي قراءة ابن كثير.

٣ - ﴿إِنْ هَذَا﴾ وهي قراءة حفص عن عاصم.

٤ - ﴿إِنْ هَذِينَ﴾ وهي قراءة أبي عمرو.

وكما ترى فإن رسم هاتين الكلمتين بلا نقط ولا شكل ومن غير ألف ولا ياء بعد الذال يحتمل هذه القراءات كلها.

وإياك أن تفهم أن الصحابة هم الذين حذفوا النقط أو الشكل وإنما نعني أن عدم وجود النقط أولاً وعدم وجود الشكل ثانياً وحذفهم لبعض الأحرف ثالثاً كل هذا ساعد على رسم بعض الكلمات بحيث تصلح لأكثر من قراءة.

وقد أنكر بعض الباحثين هذه الفائدة معللاً دعواه بأن النقط لم يكن معروفاً عند الصحابة رضي الله عنهم حتى يتعمدوا حذفه لهذا الغرض.

ونحن لم نقل: إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعرفون النقط أو الشكل، ولكن نقول: إن عدم وجود النقط والشكل في تلك الفترة ساعد على كتابة الكلمة بطريقة تحتمل أكثر من قراءة.

(١) سورة الفاتحة: الآية ٤.

(٢) سورة طه: الآية ٦٣.

بقي أن نقول: إنه إذا كان في الآية أكثر من قراءة، ولا يمكن كتابتها برسم واحد يحتمل هذه القراءات، فإنهم يكتبون كل قراءة في مصحف ليتفق كل رسم مع القراءة التي يقرأ بها.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(١) كتبت الكلمتان في المصحف الشامي (وبالزبر وبالكتاب المنير) بزيادة باء في الزبر وباء أخرى في الكتاب. وكتبنا في سائر المصاحف بحذف الباءين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٢) كتبت في المصحف المكي (من تحتها) بزيادة (من) وفي بقية المصاحف بدونها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رُودَتْ إِلَى رَبِّهِ لِأَجْدَنَ خَيْرًا مِّنْهَا مَنْقَلَبًا﴾^(٣) كتبت في المصحف المكي والمدني والشامي (منهما) بالثنية وفي بقية المصاحف (منها) بالإفراد^(٤).

الفائدة الثانية:

أن في اختلاف الرسم عن النطق حملاً للناس على تلقي القرآن من أفواه القراء والحفاظ، وعدم الاعتماد على مجرد القراءة من المصحف.

ولا شك في أهمية حفظ القرآن عن طريق التلقي، وقد كان أعلام حفاظ القرآن الكريم يميزون الحفظ بالتلقي، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول:

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٤.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

(٣) سورة الكهف: الآية ٣٦.

(٤) للدكتور محمد محمد سالم محيسن كتاب (الفتح الرباني في بلاغة القراءات بالرسم العثماني) ظهر فيه أثر هذه الفائدة لرسم المصحف. ومنه أخذت بعض الأمثلة.

«حفظت من في رسول الله ﷺ بضعة وسبعين سورة»^(١). وبين عمن أخذ باقيه فقال: «وأخذت بقية القرآن عن أصحابه»^(٢) ولإدراكه رضي الله عنه مكانة التلقي بالمشافهة كان إذا سئل عن سورة لم يكن تلقاها عن الرسول ﷺ صرح لهم بذلك، ودلهم على من تلقاها بالمشافهة عنه ﷺ، فعن معد يكرب قال: «أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ (طسم) المئين»^(٣). فقال: ما هي معي، ولكن عليكم من أخذها من رسول الله ﷺ خباب بن الأرت. قال: فأتينا خباب بن الأرت فقرأها علينا»^(٤).

ولهذا قرر العلماء أنه لا يصح التعويل على المصاحف وحدها، بل لا بد من التلقي عن حافظ متقن، وكانوا يقولون: «من أعظم البلية تشيخ الصحيفة»^(٥) ويقولون: «لا تأخذوا القرآن من مصحفي ولا العلم من صحفي»^(٦) وهو الذي يعلم الناس وينظر إلى رسم المصحف. وكان الشافعي رحمه الله تعالى يقول: «من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام»^(٧).

ولحمل الناس على تلقي القرآن مشافهة مزيتان:

المزية الأولى: التوثق من النطق الصحيح لألفاظ القرآن الكريم، وطريقة الأداء، وحسن الترتيل، وإتقان التجويد، وإخراج الحروف من مخارجها، فإن ذلك كله لا يمكن تحقيقه عن طريق الكتابة وحدها، إذ لا

(١) صحيح البخاري، ج٦، ص١٠٢، ومسلم، ج٤، ص١٩١٢.

(٢) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، ج٩، ص٤٨.

(٣) هي سورة الشعراء.

(٤) مسند الإمام أحمد: ج٦، ص٣٤، بتحقيق أحمد شاکر رقم (٣٩٨٠) وقال: إسناده صحيح.

(٥) تذكرة السامع والمتكلم: ابن جماعة، ص٨٧.

(٦) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف: العسكري، ص١٠.

(٧) تذكرة السامع والمتكلم: ابن جماعة، ص٨٧.

يمكن معرفة الرّؤم، والإشمام، والتسهيل، والتحقيق، والتفخيم والقلقلة، والإدغام، والإخفاء إلا عن طريق السماع الصوتي من معلم متابع مصغ.

المزية الثانية: اتصال السند برسول الله ﷺ، فإذا كان كل مسلم يتلقى القرآن عن معلم، فإن السند سينتهي بالمعلم الأول عليه الصلاة والسلام، عن جبريل، عن ربه.

ولا شك أن اتصال السند برسول الله ﷺ في القرآن كله سورة، وآياته، وكلماته، وحروفه، بهيئاتها وحركاتها، وكيفية نطقها بطريق التواتر خاص بهذا القرآن، وهو من خواص هذا الكتاب الذي امتاز به على سائر الكتب، وخواص هذه الأمة التي امتازت به على سائر الأمم^(١).

طريق معرفة رسم المصحف:

اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في طريق معرفة رسم المصحف هل هو توقيفي أو اجتهادي.

القول الأول: أن رسم المصحف توقيفي:

ويرى أصحاب هذا القول أن رسم المصحف ما هو إلا أمر توقيفي عن الرسول ﷺ، علمه أصحابه، فكتبوا المصحف به كما تعلموه. قال الدباغ: «ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة، وإنما هو توقيف من النبي، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهتدي إليها العقول، وهو سرٌّ من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية، وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز»^(٢)!! واستدلوا على ذلك بعدة أدلة منها:

(١) انظر كتابي خصائص القرآن الكريم، ص ١٧٦-١٧٣.

(٢) الإبريز: أحمد بن المبارك، ص ٥٥-٥٦.

١ - إقرار الرسول ﷺ كَتَّابَ الوحي على هذا الرسم :

وبيان ذلك أن كتاب الوحي كانوا يكتبون القرآن بين يدي الرسول ﷺ ويقرهم عليه .

٢ - أن القرآن كتب في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه بهذا الرسم ولم يغير فيه أو يبدل، وكذلك في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه .

٣ - اتفاق الصحابة على التزام هذا الرسم وإقرارهم لرسم المصحف في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم .

٤ - اتفاق التابعين وتابعيهم على ذلك وعدم تجويزهم لمخالفته .

وهذا كله يدل على أن رسم المصحف توقيفي، ولو كان غير ذلك لجاز لهم تغيير رسمه، فلما لم يفعلوا دل على التوقيف .

٥ - واستدلوا ببعض الروايات غير الثابتة، وبعض الآثار غير الصريحة في الدلالة، كقول زيد رضي الله عنه : كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ وهو يملي علي فإذا فرغت . قال : اقرأ، فأقرؤه، فإن كان فيه سقط أقامه . ثم أخرج به إلى الناس^(١) . وسئل الإمام مالك أكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ قال : لا، إلا على الكتابة الأولى^(٢) . وقال الإمام أحمد : تحرم مخالفة خط المصحف^(٣) . وقال البيهقي : من يكتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف^(٤) . وقال الزمخشري : خط المصحف سنة لا تغير^(٥) .

(١) رواه الطبراني في الأوسط : ج٢، ص ٥٤٤ ورجاله ثقات .

(٢) المقنع : أبو عمرو الداني، ص ٩ .

(٣) البرهان : الزركشي، ج١، ص ٣٧٩، والإتقان : السيوطي، ج٢، ص ٢١٣ .

(٤) الإتقان : السيوطي، ج٢، ص ٢١٣ .

(٥) الكشف : الزمخشري : ج٣، ص ٨٢ .

قالوا: وهذه الروايات والآثار تدل على أن رسم المصحف توقيفي لا تجوز مخالفته.

القول الثاني: أن رسم المصحف اصطلاحى:

ويرى أصحاب هذا القول أن رسم المصحف اصطلاحى لا توقيفى، كتبه الصحابة رضي الله عنهم بالطريقة التي كانوا يكتبون بها سائر كتبهم من غير نص من الرسول ﷺ.

وقال بهذا الرأي عدد من العلماء كابن خلدون والباقلاني وابن قتيبة وغيرهم.

قال الباقلاني^(١): «وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً، إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطّاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجه عليهم وترك ما عداه»، وقال: «إن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً، ولا نهى أحداً عن كتابته، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال» ثم قال: «وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة، وكان الناس قد أجازوا ذلك، وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته وما هو أسهل وأشهر وأولى من غير تأنيث ولا تنكير، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حدّ محدود مخصوص كما أخذ عليهم في القراءة والأذان، والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أي صورة كانت.

(١) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، ج ١، ص ٣٧٣-٣٧٤، والإبريز: أحمد بن المبارك، ص ٥٥.

الرأي الرابع :

والذي نراه أن رسم المصحف اصطلاحى وليس بتوقيفى ؛ لأن القول بالتوقيف يحتاج إلى دليل ، وليس ثمَّ دليل من الكتاب ولا من السنة ولا من أقوال الصحابة على ذلك ، ولم يقل به أحد من علماء السلف بل هو لبعض المتأخرين .

وأما ما روي من روايات فهي إما غير صحيحة ، أو لا تدل على المراد من القول بالتوقيف ، بل تدل على وجوب التزام الرسم ، وليس هذا هو موضع الخلاف هنا ، واحترام الرسم العثماني واستحسانه والتزامه لا يلزم منه القول بأنه توقيفى .

حكم التزام الرسم العثماني :

اختلف العلماء في حكم التزام الرسم العثماني إلى ثلاثة أقوال :

القول الأول : وجوب التزام الرسم العثماني وتحريم مخالفته^(١) :

وهو مذهب جمهور العلماء من السلف والخلف ، بل حكى بعضهم الإجماع على ذلك ، وأقوال العلماء ونصوصهم في ذلك كثيرة ، ومنها : أن الإمام مالك رحمه الله تعالى سئل : هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا ، إلا على الكتب الأولى .

(١) وقد ألف عدد من العلماء رسائل خاصة في وجوب التزام الرسم العثماني ومنع كتابته بالرسم الإملائي أو بالأحرف اللاتينية ومنها :

١ - الفتوى المحمدية على الأسئلة الهندية عن المرسومات القرآنية : محمد قنديل الرحمانى .

٢ - إيقاظ الأعلام لوجوب اتباع رسم المصحف الإمام : محمد حبيب الجكنى .

٣ - كتابة القرآن بالرسم الإملائي أو الحروف اللاتينية اقتراحان مرفوضان : عبد الحى الفرماوى .

وقال أشهب: سئل مالك فقليل له: أرأيت من استكتب مصحفاً اليوم أترى أن يكتب على ما أحدث الناس من الهجاء اليوم؟ فقال: لا أرى ذلك. ولكن يكتب على الكتابة الأولى. قال أبو عمرو الداني: «ولا مخالف له في ذلك من علماء الأمة وبالله التوفيق»^(١).

وقال أشهب: سئل مالك عن الحروف تكون في القرآن، مثل الواو والألف أترى أن تغير من المصحف إذا وجدت فيه كذلك؟ قال: لا. قال أبو عمرو الداني: يعني الواو والألف الزائدتين في الرسم لمعنى المعدومتين في اللفظ...»^(٢).

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «تَحْرَمُ مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك»^(٣).

وقال البيهقي في «شعب الإيمان»: «من يكتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيه، ولا يغير مما كتبوه شيئاً، فإنهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً، وأعظم أمانةً مِنَّا، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم»^(٤).

بل قال الجعبري في شرح العقيلة: «إن ذلك هو مذهب الأئمة الأربعة»^(٥).

وقال الزمخشري في تفسيره: «خط المصحف سنة لا تغير»^(٦).

(١) المقنع: لأبي عمرو الداني، ص ٩-١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨.

(٣) البرهان: الزركشي، ج ١، ص ٣٧٩، والإتقان: السيوطي، ج ٢، ص ٢١٣.

(٤) المرجع السابق.

(٥) رسم المصحف: د. غانم قدوري الحمد، ص ١٩٩.

(٦) الكشف: الزمخشري، ج ٣، ص ٨٢.

وقد صدرت فتوى هيئة كبار العلماء بالرياض رقم ٧١ وتاريخ ١٠/٢١/١٣٩٩ «بأن المحافظة على كتابة المصحف بهذا الرسم (يعني الرسم العثماني) هو المتعين اقتداء بعثمان وعليّ وسائر الصحابة وعملاً بإجماعهم».

وقد أيد هذه الفتوى مجلس المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة كما أيدتها دار الإفتاء بمصر^(١).

القول الثاني: جواز كتابة القرآن الكريم بالرسم الإملائي الحديث:

وممن ذهب إلى هذا القول الباقلاني وابن خلدون وعدد من المعاصرين واستدلوا بأدلة منها^(٢):

١ - أن هذه الخطوط والرسوم ليست إلا علامات وأمارات فكل رسم يدل على الكلمة ويفيد وجه قراءتها فهو رسم صحيح وكاتبه مصيب.

٢ - أن كتابة المصحف على الرسم العثماني قد توقع الناس في لبس وحيرة، ومشقة وخرج، ولا تمكنهم من القراءة الصحيحة السليمة وكتابة القرآن بالرسم الحديث فيه تيسير على الناس ورفع للخرج والمشقة.

٣ - ليس في الكتاب ولا في السنة ولا في إجماع الأمة ما يوجب التزام الرسم العثماني.

القول الثالث: جواز كتابته بالرسم الإملائي للعامة وللتعليم مع الإبقاء على الرسم العثماني في المصاحف والمحافظة عليه للعلماء والخاصة.

ومال إلى هذا الرأي الشيخ العز بن عبد السلام والزرکشي رحمهما الله تعالى، فقد عقب الزرکشي على ما قاله الإمامان مالك وأحمد رحمهما الله

(١) انظر تحريم كتابة القرآن الكريم بحروف غير عربية: صالح علي العود، ص ٥٦-٦٣.

(٢) تاريخ المصحف الشريف: عبد الفتاح القاضي، ص ٤٩-٥٠، وهذه الأدلة مقتبسة من كلام الباقلاني، وقد سبق نقله عند القول بأن رسم المصحف اصطلاحاً لا توقيفياً.

تعالى بقوله: «قلت: وكان هذا في الصدر الأول، والعلم حي غض، وأما الآن فقد يخشى الإلباس. ولهذا قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: «لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الأولى باصطلاح الأئمة لئلا يوقع في تغيير من الجهال» ولم يرتض الزركشي هذا البعد في الجواز للرسم الإملائي فعقب على كلام العز بقوله: «ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه، لئلا يؤدي إلى دروس العلم، وشيء أحكمته القدماء لا يترك مراعاته لجهل الجاهلين، ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة»^(١).

الرأي الرابع:

والراجع من هذه الأقوال فيما أرى هو أولها إذ نص علماء السلف على وجوب التزام رسم المصحف وتحريم مخالفته ونستدل على ذلك بما يلي:

١ - أن القرآن كتب بهذا الرسم في عهد عثمان، وفيه كبار الصحابة، فتلقوه هم وبقية الصحابة حينذاك وعددهم لا يقل عن اثني عشر ألفاً بالقبول، ولم يعترض أحدهم على زيادة حرف أو نقصانه، وتلقاه من بعدهم التابعون ومن بعدهم. فلا يترك هذا الرسم مراعاة لجهل الجاهلين، وتقصير المقصرين.

٢ - أن الكتابة كغيرها من العلوم والمعارف تتغير وتتبدل، وتتطور من عصر إلى عصر ومن بلد إلى بلد، فلو كتب في عصرنا هذا على طريقتنا في الكتابة لاحتاج من في المغرب العربي إلى كتابته بصورة أخرى، واحتاج من في الهند وباكستان إلى كتابة ثالثة، ولاحتاجت الأجيال من بعدنا إلى تغيير وتبديل يعرض النص القرآني في كل مرة إلى الخطأ أو التحريف والتغيير.

(١) البرهان: الزركشي، ج١، ص ٣٧٩. وقد خلط بعض الباحثين بين كلامه وكلام العز وحسبه كلاماً واحداً مع ظهور الاختلاف. وممن وقع في الخلط الزرقاني في مناهله، ج١، ص ٣٧٨، ود. صبحي الصالح في مباحث في علوم القرآن: ص ٢٨٠، ونقل كثير من المؤلفين العبارة عن الزرقاني من غير إدراك للخلط، وقد نبه إلى ذلك د. غانم قدوري الحمد في كتابه رسم المصحف: ص ٢٠١.

٣ - أن تغيير رسم المصحف كلما هبت الريح أو أشرقت شمس أو آذنت بغروب يعرض المصحف للامتهان، ويمس قداسته، ويغض من هيئته، ويقلل من احترامه، فتعتاد النفوس، ويتبلد الإحساس، وتخدم الغيرة على النص القرآني.

٤ - أن أجازة كتابته بالرسم الإملائي، وانتشاره بذلك، واعتياد الناس لذلك، يمهّد للدعوة إلى تغيير الأحرف العربية، وكتابة اللفظ بالأحرف اللاتينية ما دام النطق هو النطق، واللفظ هو اللفظ. بل الدعوة قائمة الآن إلى كتابة القرآن بالأحرف اللاتينية.

٥ - أن للرسم العثماني فوائده وحكمه، ومزاياه التي يضمنها الالتزام بالرسم العثماني ولا تتحقق في سواه.

٦ - أن تعليم القرآن وحفظه لا يكون من المصحف، وإنما عن طريق المشافهة عن حافظ متقن، ومن سلك هذا الطريق لم يشكل عليه رسم، وإنما الإشكال ممن لم يلتزم الطريق الصحيح وقرأ من المصحف وحده، فالخطأ من قبله هو أتي.

٧ - أن الاحتجاج بتعليم الصبيان غير مُسلّم، فها نحن نراهم يتعلمون اللغات الأجنبية بحروفها ولغاتها ويتقنونها، وينكرون كل الإنكار كتابة الكلمات لهم بالأحرف العربية، بل يوجبون قراءة اللغة الأجنبية بأحرفها الأجنبية مع الاختلاف الكلي بين اللغتين، بينا الاختلاف بين الرسم العثماني والإملائي ليس إلا في كلمات معدودة ورسم محدودة.

٨ - أن تعليم الصبيان لا يكون بالمساس بالنص الديني، وإنما يكون برفع مستوى الأذهان، والتهيئة النفسية لذلك.

وعلينا إن كنا حريصين - حقاً - على تعليم أبنائنا للقرآن الكريم أن نعوّدهم القراءة في المصحف، ففي التعود على قراءته تأليف لأذهانهم على رسم

المصحف، وترويض لمداركهم على مصطلحاته، وسيدرك أولئك أن الصعوبة التي تواجههم بادئ الأمر قد تحولت بعد زمن يسير إلى سهولة ووضوح.

وإنما تصعب تلاوة القرآن وإتقانه على الذين يهجرونه دهرًا طويلاً ثم يعودون لتلاوته دقائق معدودة، فأولئك سيواجهون - حتماً - الصعوبة، وسيحملون تقصيرهم - جوراً وظلماً - على رسم المصحف وما هو من الرسم، ولكنه من تفريطهم بالتلاوة، وهجرهم للقرآن، والله المستعان^(١).

٩ - أن في الالتزام برسم المصحف ضمان قوي للنص القرآني من التحريف والتبديل، ولو تم تغييره في كل حين، والتصرف في كتابته في كل عصر، لأدى ذلك إلى تعريض المصحف للتغيير، والتبديل، والتحريف.

١٠ - أن الذين دعوا إلى كتابة المصاحف بالرسم الإملائي ليسوا من القراء، ولا من العلماء المختصين بالرسم، وإنما عمادهم الرأي المجرد، بل إن بعضهم من المشهورين بالإلحاد وسوء المعتقد، وفيهم من دعا إلى ذلك بحسن نية، لكنها دعوة ينقصها العلم الشرعي، والله المستعان.

ونحن حين نورد هذه الأدلة لا نستجدي موافقة أو نلتمس تأييداً^(٢) لإبقاء رسم المصحف العثماني، فهو أمر حسمه علماء السلف رحمهم الله تعالى، ولا خيار للمخالف، ولكننا نخشى أن يغتر ببريق هذه الدعوة مغتر، أو تنطلي شبهاً هذه الدعوة على من لا يعلم الحكم الشرعي فيغرق في أحوالها.

(١) من كتابي خصائص القرآن الكريم، ص ١٨٧.

(٢) أقول هذا لأنني رأيت فيما كتبه بعض المعارضين للرسم الإملائي فتوراً وليناً، وتنازلاً وكأن في الأمر مقايضة.

نقط المصحف وشكله وتجزئته :

من المعلوم أن المصاحف في عهد الصحابة رضي الله عنهم لم تكن منقوطة ولا مضبوطة بالشكل . وقد كان ذلك لأنهم كانوا عرباً خالصاً يقرؤون بفهمهم أكثر أو مثل ما يقرؤون بالحروف الماثلة أمامهم .

ولما اتسعت الفتوحات الإسلامية واختلط العرب بالعجم، دخل اللحن في لسان الأحفاد، وأخطر ما يكون اللحن وأشدّه حين يقع في القرآن الكريم . وأكثر من يدرك فشو اللحن وانتشاره من يقيم في بلاد العجم السابقة كالعراق بلاد الفرس .

وحين رأى زياد بن عبيد الله والي البصرة (٤٤-٥٣هـ) في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ظهور اللحن خشي أن ينال القرآن منه شيء، فبعث إلى أبي الأسود الدؤلي وقال له: يا أبا الأسود إن هذه الحمراء - يعني العجم - قد كثرت، وأفسدت من ألسن العرب، فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم، ويعربون به كتاب الله تعالى . فأبى ذلك أبو الأسود، وكره إجابة زياد إلى ما سأل هيبة للقرآن وإجلالاً أن يضع فيه ما ليس منه، حتى سمع أبو الأسود رجلاً يقرأ قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾^(١) بكسر اللام من ورسوله فاستعظم أبو الأسود ذلك وقال: عزَّ وجه الله أن يبرأ من رسوله . ثم رجع إلى زياد وأجابه إلى طلبه ووضع علامات الإعراب^(٢) .

(١) سورة التوبة: الآية ٣ .

(٢) المحكم: للداني، ص ٣-٤، والفهرست: لابن النديم، ص ٦٠، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء: لابن الأنباري، ص ٢٠ .

وكانت علامات الإعراب التي وضعها هي :

١ - نقطة فوق الحرف للفتح .

٢ - نقطة بين يدي الحرف للضم .

٣ - نقطة تحت الحرف للكسر .

٤ - نقطتين للحرف المنون .

ثم وبعد أن أمن الناس من اللحن أو كادوا بعد وضع علامات الإعراب ، ظهر نوع آخر من الخطأ وهو التمييز بين الحروف التي تتحد صورتها بدون نقط كالباء والتاء والثاء ، وكالجيم والحاء ، وكالذال والذال ، ونحوها ، وشق على السواد منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين حروف المصحف وكلماته وهي غير معجمة . مما دعا الخليفة عبد الملك بن مروان إلى أن يأمر الحجاج بن يوسف الثقفي واليه في العراق أن يختار من العلماء من يقوم بهذا العمل .

واختار الحجاج بن يوسف لهذا العمل عالمين هما :

١ - يحيى بن يعمر العدواني ت قبل (٩٠هـ) .

٢ - نصر بن عاصم الليثي ت (٩٠هـ) .

فقاما بإعجام الحروف بوضع النقاط المعروفة إلى يومنا هذا^(١) ، ثم ولثلا يقع خلط بين نقط الإعجام ونقط الإعراب قام الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) بتغيير نقط الإعراب إلى علامات الإعراب المعروفة الآن حتى لا يقع خلط بين نقط الإعراب ونقط الإعجام على النحو التالي :

١ - (َ) فوق الحرف للفتح .

٢ - (ُ) فوق الحرف للضم .

(١) لمعرفة أقوال العلماء في علل إعجام الحروف (يعني علة وضع نقطة تحت الباء واثنين فوق التاء وثلاث للثاء ونقطة للجيم . . إلخ) انظر المحكم : للداني ص ٣٥-٤١ .

٣ - (-) تحت الحرف للكسر .

٤ - (ˆ) فوق الحرف للتشديد وهي رأس ش من شديد .

٥ - (ˆ) فوق الحرف للسكون وهي رأس خـ من (خفيف) .

ووضع الخليل أيضاً الهمزة، والتشديد، والروم، والإشمام، وهو أول من صنف في النقط وذكر علله^(١) .

وهكذا تتابع العلماء وازدادت عنايتهم في تحسين رسم المصحف حتى إذا كانت نهاية القرن الثالث الهجري بلغ الرسم ذروته، وتنافس العلماء في اختيار الخط، وابتكار العلامات المميزة^(٢) .

تجزئة المصحف :

فقاموا بتجزئة المصحف . ولعل مستند التجزئة هو تيسيره للتلاوة والحفظ، ويرجع هذا إلى حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : « قلت : يا رسول الله في كم أقرأ القرآن ؟ قال : اختمه في شهر . قلت : إني أطيق أفضل من ذلك . قال : اختمه في عشرين . قلت : إني أطيق أفضل من ذلك . قال : اختمه في خمسة عشر . قلت : إني أطيق أفضل من ذلك . قال : اختمه في عشر . قلت : إني أطيق أفضل من ذلك . قال : اختمه في خمس . قلت : إني أطيق أفضل من ذلك . قال : فما رخص لي » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه^(٣) . فقاموا بتجزئة القرآن إلى ثلاثين جزءاً وقسموا الجزء إلى حزبين والحزب إلى أربعة أرباع والربع إلى عشرين .

(١) المقنع : للداني ، ص ١٢٥ ، والمحكم : له أيضاً ص ٩٠ ، ٩١ .

(٢) مباحث في علوم القرآن : د . صبحي الصالح ، ص ٩٤ .

(٣) رواه الترمذي ، ج ٥ ، ص ١٩٦ .

وقاموا بوضع علامات مختلفة كالخاء فوق كل آية خامسة أو مضاعفاتهما .
والعين فوق كل آية عاشرة أو مضاعفاتهما . ووضعوا رقماً لكل آية أو علامة
على نهايتها .

ووضعوا ديباجة في أول كل سورة يذكرون فيها اسم السورة وعدد آياتها
ومكية هي أو مدنية .

ووضعوا بين الآيات أو فوقها علامات الوقف بأنواعه اللازم والممنوع
والجائز بأنواعه (المستوى الطرفين، والجائز مع كون الوصل أولى، والجائز
مع كون الوقف أولى) وتعانق الوقف بحيث إذا وقف على أحدهما لم يقف
على الآخر .

ووضعوا علامات سجدة التلاوة وزاد بعضهم فيذكر القائلين بالسجدة
في كل موضع .

حكم هذه الزيادات :

للعلماء في نقط المصاحف مذهبان :

١ - المنع :

ويستدلون على ذلك بأدلة منها :

١ - قول الرسول ﷺ : « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ومن كتب عني
شيئاً سوى القرآن فليمححه »^(١) .

٢ - ما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « جردوا
القرآن ، ولا تخلطوه بشيء »^(٢) وما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه :
« جردوا القرآن »^(٣) .

(١) رواه مسلم ، ج ٤ ، ص ٢٢٩٨ .

(٢) المحكم : الداني ، ص ١٠ .

(٣) المرجع السابق .

٣- ما روي عن الحسن وابن سيرين أنهما كانا يكرهان نقط المصاحف^(١).

٢- الجواز:

ويستدلون على ذلك بأدلة منها:

١- ما روي عن أئمة السلف في جوازه فقد سئل الحسن عن نقط المصاحف فقال: «لا بأس به ما لم تبغوا» وقال ثابت بن معبد: العَجْمُ نور الكتاب، وقال الحَذَاء: «كنت أمسك على ابن سيرين في مصحف منقوط» وسئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن شكل القرآن في المصحف فقال: لا بأس به. وقال الليث: لا أرى بأساً أن ينقط المصحف بالعربية. وقال الإمام مالك: أما هذه المصاحف الصغار فلا أرى بأساً وأما الأمهات فلا. وقال أبو يوسف: كان ابن أبي ليلى من أنقط الناس لمصحف^(٢)، وقال الأوزاعي سمعت يحيى بن أبي كثير يقول: كان القرآن مجرداً في المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء وقالوا: لا بأس به. هو نور له^(٣).

والراجح:

هو جواز ذلك لأن النقط لا ينافي الأمر بالتجريد، ولأنه - كما قال الحليمي: «ليس له صورة فيتوهم لأجلها ما ليس بقرآن قرآناً، وإنما هي دلالات على هيئة المقروء فلا يضر إثباتها لمن يحتاج إليها»^(٤) وقال النووي رحمه الله تعالى: «قال العلماء: ويستحب نقط المصحف وشكله، فإنه صيانة من اللحن فيه والتصحيف» وقال: «وأما كراهة الشعبي والنخعي النقط

(١) المرجع السابق، ص ١٢-١٣.

(٢) المحكم: الداني، ص ١٢-١٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٥.

(٤) الإتيقان: السيوطي، ج ٢، ص ٢١٩.

فإنما كرهاه في ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه ، وقد أُمنَ ذلك اليوم فلا منع ، ولا يمتنع من ذلك لكونه محدثاً فإنه من المحدثات الحسنة فلم يمنع منه»^(١).

حكم التجزئة وعلامات الوقف :

والخلاف في حكمها أقوى من الخلاف في النقط .

فقلت طائفة : بالمنع .

والمنع فيه أظهر من المنع في النقط .

فقد روى عن النخعي كراهة النقط والعواشر والفواتح وتصغير المصحف وأن يكتب فيه سورة كذا وكذا^(٢) وروى عنه أنه أتى بمصحف مكتوب فيه سورة كذا وكذا آية فقال : امح هذا فإن ابن مسعود كان يكره هذا^(٣) ، وعن ابن سيرين أنه كان يكره أن يكتب في المصاحف هذه العواشر والفواتح^(٤) ، وعن أبي العالية أنه كان يكره الجمل في المصحف وفاتحة سورة كذا وخاتمة سورة كذا^(٥) وقال الحلبي : «تكره كتابة الأعشار والأخماس وأسماء السور وعدد الآيات فيه لقوله : «جردوا القرآن»^(٦) .

وقال البيهقي : «من آداب القرآن أن يفخم فيكتب مُفَرَّجاً بأحسن خط فلا يصغر ولا تقرمط حروفه ، ولا يخلط به ما ليس منه كعدد الآيات والسجديات والعشرات ، والوقوف ، واختلاف القراءات ، ومعاني الآيات»^(٧) .

(١) التبيان : النووي ، ص ٢٧٥ .

(٢) المصاحف : ابن أبي داود ، ص ١٥٣-١٥٤ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق : ص ١٥٧ .

(٥) المرجع السابق : ص ١٥٣-١٥٤ .

(٦) الإتيقان : السيوطي ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

(٧) المرجع السابق .

وقالت طائفة بالجواز :

معللين ذلك بأمن اللبس ، وتحقق الفائدة ، وأن الخلط بين النص القرآني وهذه المصطلحات بعيد كل البعد .

والراجع :

أن الحق وسط بين الإفراط والتفريط ، وقد جاء في التقرير العلمي عن مصحف المدينة النبوية أن اللجنة المشكلة لذلك درست المعلومات التي جرت العادة بإضافتها إلى المصحف دراسة دقيقة وافية ، نوقشت فيها سائر الآراء والاتجاهات فتوصلت إلى أنها تنقسم إلى قسمين :

قسم : يضاف عادة أثناء النص القرآني وفي نطاقه وهو : أسماء السور ، وعدد آياتها ، والمكي والمدني ، وما يستثنى من الآيات من ذلك . وبعضهم يزيد وقت نزول السورة ، كل ذلك في فواتح السور ، ورموز الوقوف وذلك في النص .

وقسم : يضاف في حواشي الصفحات إما في أعلى الصفحة كاسم السورة ورقم الجزء ، أو في جانب الصفحة كرموز الأجزاء والأحزاب والأرباع والأعشار والأخماس ، ورموز السجديات ، والسكتات ، وبعضهم يذكر خلاف الفقهاء في بعض السجديات .

أما (القسم الأول) : فلم نتردد في حذفه واستبعاده من المصحف ما عدا أسماء السور لأنه يذكر في موضع خطرٍ هو محل تحذير السلف وهو نطاق النص القرآني ، ولأن هذه المعلومات محل ذكرها كتب التفسير وعلوم القرآن . . . ولا يتحمل هذا النص القطعي المتواتر أن نثبت خلاله ما يحتمل الخطأ والصواب إلى أن قالوا : وهذا ينطبق على أسماء السور أيضاً إلا أننا لم نتجاسر على حذفها لشدة الحاجة إليها ، ولأنه لا خلاف فيها ، فأبقينا عليها مع أن النفس تميل إلى حذفها جرياً على قاعدة (التجريد) .

أما رموز الوقف وهي ألصق بالنص مما سبق فإن الكلام فيها كالكلام في النقط والشكل.

أما (القسم الثاني): وهو المعلومات التي تذكر خارج نطاق النص القرآني في حواشي الصفحات من أعلى أو من جانبها فإن المحذور فيها أهون، والخوف منها أقل، لبعدها عن مجال النص فأثبتنا أكثرها مع تصرف في الإخراج الطباعي يجعل التمييز بينها وبين النص واضحاً - قدر الإمكان - إلا ما يشار إليه عادة من خلاف الفقهاء في بعض السجديات فلم نتردد في حذفه لما فيه من التماذي في إثقال صفحات المصحف بما هو أجنبي عنه، ولما فيه من جرأة على كتاب الله بحشر خلاف البشر في صفحاته وإن كان هذا الخلاف معتبراً لكن مع ذلك لا ينبغي ذكره في المصحف^(١).

مرحلة طباعة المصحف:

ظهرت آلات الطباعة وبدأ استعمالها سنة (٨٣٥هـ - ١٤٣١م) في البلاد الأوروبية ولا شك أن للطباعة أثرها الكبير في انتشار المطبوعات.

وكانت الطباعة في بدايتها تقوم على تنضيد الحروف وليس على تصوير المکتوب، لذا فقد كانت الطباعة في تلك الفترة على الرسم الإملائي لتعذر الالتزام بالرسم العثماني.

وظهرت أول طبعة للقرآن الكريم في البندقية في إيطاليا في حدود سنة (٩٣٧هـ - ١٥٣٠م) ولكن السلطات الكنسية أصدرت أمراً بإعدامه حال ظهوره^(٢).

(١) التقرير العلمي عن مصحف المدينة النبوية، ص ٣٥-٤٠.

(٢) مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح، ص ٩٩.

ثم قام هنلكمان Hinkelmann بطبع القرآن في مدينة هامبورج في ألمانيا سنة (١١٠٦هـ - ١٦٩٤م)^(١) ثم تلاه مراكي Marracci بطبعه في مدينة بادو في إيطاليا سنة (١١١٠هـ - ١٦٩٨) وليس لهذه الطبعات الثلاث أثر يذكر في العالم الإسلامي^(٢). وظهر فيها أخطاء فاحشة^(٣).

أما في العالم الإسلامي فقد ظهرت أول طبعة إسلامية للقرآن في سانت بطرسبرج في روسيا سنة (١٢٠١هـ - ١٧٨٧م) وهي التي قام بها مولاي عثمان. ثم ظهرت في إيران طبعتان حجريتان الأولى في طهران سنة (١٢٤٤هـ - ١٨٢٨م) والثانية في تبريز سنة (١٢٤٩هـ - ١٨٣٣م).

وأصدر المستشرق فلوجل طبعة خاصة سنة (١٢٥٠هـ - ١٨٣٤م) في مدينة ليبزيغ في ألمانيا وتلقاها الأوربيون بحماس منقطع النظير بسبب إملائها الحديث الميسر. ولم تحظ بعناية المسلمين لمخالفتها رسم المصحف^(٤).

وظهرت طبعة جديدة للقرآن في قازان عاصمة التتار سنة (١٢٩٥هـ - ١٨٧٧م) وفي آخرها تصويب للأخطاء المطبعية، ومع طبعها بطريقة صف الحروف إلا أن فيها التزاماً في بعض المواضع لرسم المصحف^(٥).

وظهرت طبعات للقرآن الكريم في الهند أيضاً - ثم طبع في الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية في تركيا سنة (١٢٩٥هـ - ١٨٧٧م) فطبع على أصل

(١) توجد من هذا المصحف نسخة في مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض ونسخة في دار الكتب المصرية تحت رقم (١٧٦ مصاحف) ومنه نسخة في مكتبة جامعة القاهرة. وهي مليئة بالأخطاء والتحريفات.

(٢) مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح، ص ٩٩.

(٣) رسم المصحف: د. غانم قدوري، ص ٦٠٢.

(٤) مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح، ص ٩٩.

(٥) توجد منه نسخة في مكتبة جامعة القاهرة برقم (٢١٥٤٢).

مصحف مخطوط بقلم الخطاط التركي المشهور حافظ عثمان^(١) (ت ١١١٠هـ) وإذا علمنا أن هذه الطبعة من أفضل الطبعات وأدقها ومع هذا فلم تكن ملتزمة للرسم العثماني التزاماً دقيقاً حتى غلبا بعض النقاد فقال: «لا يجوز إطلاق كلام الله على مصحف حافظ عثمان وإنما يجوز إطلاق بعض كلام الله»^(٢) وقال أيضاً: «إن مصحف حافظ عثمان مشتمل على نقص وزيادة»^(٣)!!! وقال في موضع آخر: «فيجب على كل مسلم أن يتخذ لنفسه مصحفاً من المصاحف التي رسمت على رسم مصاحف أهل السنة والجماعة إن كان يحسن القراءة، وإن كان تحت يده مصحف أو مصاحف برسم حافظ عثمان ونحوه بادر إلى حرقه»^(٤)!!!

إذا كان هذا النقد الحادّ وغير المعتدل لما كتبه حافظ عثمان مع اختلافه عن رسم المصحف في بعض المواضع فكيف سيكون الموقف من الطبعات التي كتبت بطريقة صف الحروف وفيها اختلاف كثير.

ولذا فقد كتب الشيخ رضوان بن محمد الشهير بالمخللاتي (ت ١٣١١هـ) مصحفاً اعتنى فيه بكتابة الكلمات القرآنية على قواعد الرسم القرآني وأضاف إليها بعض الإفادات المتعلقة بالعدّ والوقف وتحرير الرسم والضبط وتاريخ كتابة القرآن وغير ذلك وطبع هذا المصحف في المطبعة البهية في القاهرة سنة (١٣٠٨هـ - ١٨٩٠م) قال الشيخ عبد الفتاح القاضي: «وكان هذا المصحف هو المتداول بين أهل العلم والقراء... المعول عليه عندهم المقدم دون سائر المصاحف لما اشتمل عليه من المزايا السابقة بيد أنه لم يبرز في

(١) في مكتبة جامعة القاهرة برقم (٤٤٠٥) نموذج من هذا المصحف.

(٢) الفرائد الحسان في بيان رسم القرآن: محمد بن يوسف التونسي الشهير بالكافي، ص ٤٧.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق، ص ٥٧.

صورة حسنة تروق الناظر وتنشط القارئ لرداءة ورقه، وسوء طبعه إذ إنه طبع في مطبعة حجرية»^(١).

ثم أصدر الملك فؤاد الأول أمره إلى مشيخة الأزهر بتشكيل لجنة من العلماء للإشراف على طبع مصحف، وقد تم تشكيل لجنة^(٢) قامت بكتابة القرآن كله حسب قواعد الرسم العثماني، وضبطوه الضبط التام على ما ذهب إليه المحققون من العلماء، وأضافوا إليه عدد الآي في كل سورة، وأنها مكية أو مدنية، وأنها نزلت بعد سورة كذا، ورقموا الآيات، وعلامات الوقوف، والأجزاء والأحزاب والأرباع، والسجادات، وقد كتب هذا المصحف بخط رئيس اللجنة وهو الشيخ محمد بن علي بن خلف الحسيني الحداد (ت ١٣٥٧هـ) شيخ المقارئ المصرية حينذاك وانتهت اللجنة من أعمالها عام ١٣٣٧هـ فأمر الملك فؤاد بطبعه فطبع سنة (١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م) ويعرف هذا المصحف بـ (المصحف الملكي) ثم أعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات وفاقته هذه الطبعة كافة الطباعات في الشهرة والقبول مع أنها لا تخلو من ملحوظات^(٣).

وفي عام ١٣٦٨هـ صدر مصحف سمي بمصحف مكة المكرمة وكتبه الخطاط المشهور محمد طاهر بن عبد القادر كردي وراجعته عدد من علماء مكة المكرمة حينذاك.

(١) تاريخ المصحف الشريف: عبد الفتاح القاضي، ص ٥٩-٦٠.

(٢) تشكلت اللجنة من: حفي ناصف، ومصطفى عتاني، وأحمد الإسكندري ورئيسها الشيخ محمد بن علي بن خلف الحسيني المشهور بالحداد.

(٣) أمرت مشيخة الأزهر بتشكيل لجنة لمراجعة هذه الطبعة فكتبت ملحوظاتها وقد أورد هذه الملحوظات أحد أعضاء هذه اللجنة وهو الشيخ عبد الفتاح القاضي في كتابه (تاريخ المصحف الشريف ص ٦٢-٦٥).

ثم توالى الطبعات التجارية في مختلف بلدان العالم الإسلامي وغير التجارية وأصبح عرضة لإهمال الطابعين وتساهل الناشرين عن العناية بتصحيحه ومراجعته توفيراً لتكاليف طبعه.

إنشاء مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف :

ولهذا احتاج الأمر أن يهب الغيورون لحماية المصحف والإنفاق على طبعه الطبعات السليمة فتصدت لهذا الأمر حكومة المملكة العربية السعودية وفقها الله بإنشاء (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف) بالمدينة النبوية وزُود بأحدث وأرقى أنظمة الطباعة وإمكاناتها لإصدار طبعة سليمة ممتازة للمصحف توفر له العناية العلمية اللازمة بتصحيحه ومراجعته، بإشراف عدد من العلماء البارزين المتخصصين ونشر هذا المصحف على أوسع نطاق، وبهذا يتحقق سد حاجة المسلمين لهذا النوع من الطباعة، والحد من تلاعب ضعاف النفوس من الناشرين والطابعين بكتاب الله.

وفي ٢٠/٤/١٤٠٤ تم تشكيل لجنة لاختيار مصحف تجرى طباعته وتكونت اللجنة من خمسة عشر عضواً وروعي في تشكيلها أن تتضمن علماء مختصين في سائر العلوم المتصلة بالمصحف. وتم اختيار المصحف الذي كتبه الخطاط الدمشقي عثمان طه وذلك لجودة خطه ووضوحه وسلاسته ولقلة الأخطاء فيه وقامت اللجنة بمراجعته وفحصه فحصاً دقيقاً آية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، وحركة حركة مع الفحص الدقيق للاصطلاحات والرموز وتم ختم القرآن أثناء المراجعة أكثر من مئتي مرة. وقامت اللجنة بإجراء تعديلاتها وتصحيحاتها حتى جاءت طبعتها أفضل طبعة صدرت للمصحف حتى الآن وألزمها لرسم المصحف، وأقلها خطأ بتوفيق الله عز وجل. واعتمدت لهذا المصحف اسم (مصحف المدينة النبوية).

وقامت حكومة المملكة العربية السعودية بطبع ملايين النسخ^(١) من هذا المصحف بأحجام مختلفة وتوزيعه في سائر أنحاء العالم الإسلامي هدية منها إلى الشعوب الإسلامية في كل مكان، كما تفضلت بسنة حميدة وهي إهداء نسخة من هذا المصحف لكل حاج في جميع منافذ هذه البلاد، ولسلامة هذه البلاد من أخطاء الطباعات الأخرى منعت الحكومة السعودية دخول أي طبعة للقرآن الكريم غير طبعة (مصحف المدينة النبوية)^(٢) وفقها الله إلى كل خير.



(١) بلغ مجموع ما تم توزيعه من مصحف المدينة النبوية منذ بدأ التوزيع سنة ١٤٠٥هـ حتى نهاية شهر شوال ١٤٢٥هـ نحو مئة وثلاثة وتسعين مليون نسخة (١٩٣,٠٠٠,٠٠٠).

(٢) رجعت فيما ذكرت من معلومات عن (مصحف المدينة النبوية) إلى طبعة المصحف نفسه وإلى التقرير العلمي عن مصحف المدينة النبوية الذي أصدرته لجنة المراجع سنة ١٤٠٦ وغير ذلك من النشرات وانظر ص ١١١ من هذا الكتاب.

المحكم والمتشابه^(١)

تختلف قوى البشر ومداركهم العقلية كما تختلف قواهم ومداركهم الجسمية. فهناك من الأعمال ما يستطيع أن يفعله كل البشر، ومنها ما لا يستطيع فعله إلا الأقوياء منهم، ومنها ما لا يستطيع أحد من البشر فعله. وكذا في المدارك العقلية هناك من المعاني ما يفهمه كل البشر، ومنها ما لا يفهمه إلا العلماء، ومنها ما لا يدرك المراد به أحد من البشر ولا يعلمه إلا الله.

ومن معاني القرآن الكريم ما هو ظاهر الدلالة، واضح المعنى، ومنه ما خفيت دلالته، وغمض معناه. وتدبر العلماء في معاني الآيات القرآنية ودرسوا هذين النوعين في باب المحكم والمتشابه.

وينقسم المحكم والمتشابه إلى قسمين:

الأول: الإحكام والتشابه العام.

الثاني: الإحكام والتشابه الخاص.

(١) في هذه المباحث الأصولية التالية أعني (المحكم والمتشابه) و(العام والخاص) و(المطلق والمقيد) و(المنطوق والمفهوم) بعض المسائل العلمية الدقيقة التي لا يحتاجها بعض الطلاب والطالبات في بعض المقررات لذا اقترح الاختصار على المسائل الرئيسة وحذف ما يشكل منها تيسيراً للمادة ومراعاة للمستوى العلمي لهم. والله أعلم.

أولاً: الإحكام والتشابه العام:

أ - الإحكام العام:

دليله: وردت آيات كثيرة تصف القرآن الكريم كله بأنه محكم منها قوله تعالى: ﴿الرَّ كَنُتْ أُنُكُتْ ءَايُنُهُ ثُمَّ فُصِلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾^(٢) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾^(٣) ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾^(٤) ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾^(٥). ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾^(٦) ﴿يَسَّ ۖ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۖ﴾^(٧) وغير ذلك.

معناه:

الإحكام بكسر الهمزة له معان متعددة ترجع كلها إلى معنى واحد، هو «المنع» عن الفساد، ولا يعتبر المنع عن الإصلاح إحكاماً، بل هو خاص بالمنع عن الفساد ومنه:

قولهم: أحكم الأمر، أي: أتقنه ومنعه من الفساد.

وقولهم: أحكمه عن الأمر، أي: منعه منه.

وقولهم: حكم نفسه وحكم الناس، أي: منع نفسه ومنع الناس عما لا

ينبغي.

(١) سورة هود: الآية ١.

(٢) سورة يونس: الآية ١.

(٣) سورة الرعد: الآية ٣٧.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٣٩.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٥٨.

(٦) سورة يونس: الآية ١.

(٧) سورة يس: الآيتان ١-٢.

وقولهم: أحكم الفرس، أي: جعل له «حَكْمَةً» وهي ما أحاط بالحنك من لجام الفرس «تمنعه» من الاضطراب^(١).

وقول جرير^(٢):

أبني حنيفة أَحْكُمُوا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبها
ومنه سميت «الحكمة» وهي إصابة الحق لمنعها صاحبها من الوقوع في الباطل، ولذا سُمي الحكيم حكيماً لمعرفته الحكمة.

وعلى هذا فالقرآن الكريم كله محكم، أي: متقن يمتنع عنه الخلل والنقص في ألفاظه ومعانيه، ولهدايته إلى الحق والطريق المستقيم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٣) ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٤).

ب - التشابه العام:

دليله: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾^(٥).

معناه: التشابه في الأصل هو التماثل بين شيئين فأكثر حتى يشق التمييز بينهما، ثم أطلق بعد ذلك على كل ما فيه غموض والتباس في تحديد معناه أو حقيقته.

ومن الأول: قولك: فلان يشبه فلاناً، أي: يماثله ويقاربه، سواء كان في الصفات الحسية كالجسم أو الوجه، أو في الصفات المعنوية كالأخلاق والآداب.

(١) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، ج ٢، ص ٢٨٩.

(٢) ديوان جرير: ص ٤٧.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٤) سورة فصلت: الآية ٤٢.

(٥) سورة الزمر: الآية ٢٣.

ومن الثاني: قولهم: «شُبَّهَ عليه الأمر» إذا التبس، وقولهم: «فلان مشبوه» إذا التبست براءته من الجريمة باقترافه لها.

«وذلك أن التشابه والتماثل قد يكون سبباً للعجز عن التمييز بين الأشياء مما يؤدي إلى الالتباس والغموض، ولذلك سمي هذا الالتباس أو الغموض متشابهاً من باب إطلاق السبب على المسبب»^(١).

ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مَّتَشَبِهَاتٍ﴾^(٢) أي: يشبه بعضه بعضاً، وقوله عن بني إسرائيل: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾^(٣) أي: اختلط أمره علينا، والتبس المقصود منه، وقوله سبحانه: ﴿تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾^(٤) أي: تماثلت في الغي والجهالة.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الحلال بَيْنٌ، وإن الحرام بَيْنٌ، وبينهما أمور مشتبهاً، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه» الحديث^(٥) أي: أمور تشبه على كثير من الناس هل هي من الحلال أم من الحرام^(٦).

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾^(٧) أي: يشبه بعضه بعضاً في الفصاحة والإعجاز وعدم تناقضه، وإيداع ألفاظه، واستخراج حكمه^(٨) وهذا هو التشابه العام بين آيات القرآن.

(١) المحكم والمتشابه: د. عبد الرحمن المطرودي، ص ١٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٧٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ١١٨.

(٥) متفق عليه.

(٦) جامع العلوم والحكم: ابن رجب، ص ٥٨.

(٧) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٨) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي، ج ٢، ص ١٢٩٧.

ثانياً: الإحكام الخاص والتشابه الخاص:

وإذا كان القرآن الكريم كله محكم بمعنى: أنه متقن لا يتطرق إليه الخلل والنقص، وهو كله متشابه بمعنى: أن آياته يشبه بعضها بعضاً في الإعجاز والفصاحة، فإنه قد وردت آية قرآنية تصف القرآن بأن بعضه محكم وبعضه متشابه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾^(١)، فلا بد أن يكون للإحكام والتشابه هنا معنى غير المعنى الأول، وهو خاص ببعض الآيات دون بعض، ولهذا وقع الاختلاف بين العلماء في تعريف المحكم والمتشابه هنا.

أقوال العلماء في المحكم والمتشابه:

للعلماء في تعريف المحكم الخاص والمتشابه الخاص أقوال كثيرة منها:

الأول: المحكم ما عرف المراد منه، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المقطعة في أوائل السور، وينسب هذا القول إلى أهل السنة.

الثاني: المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما احتمل أكثر من وجه، وهو قول الأصوليين، ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الثالث: المحكم الذي يعمل به، والمتشابه الذي يؤمن به، ولا يعمل به، وروي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وقتادة^(٢).

الرابع: المحكم هو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه ويحتاج إلى بيان، وهو قول الإمام أحمد.

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) الإتقان: السيوطي، ج ٢، ص ٤.

الخامس: المحكم ما اتضح دليله، والمتشابه ما يحتاج إلى تدبر، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾^(١) فأولها محكم، وآخرها متشابه، وهو قول الأصم^(٢).

السادس: المحكم ما تضمن حكماً، والمتشابه ما تضمن أخباراً وقصصاً.

السابع: المحكم هو الناسخ، والمتشابه هو المنسوخ، وقيل: المحكم ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، والمتشابه: منسوخه ومقدمه، ومؤخره، وأمثاله، وأقسامه وهو قول ابن عباس ومجاهد^(٣) وقتادة.

الثامن: المحكم ما كانت دلالاته راجحة كالنص، والظاهر، والمتشابه ما كانت دلالاته غير راجحة، أي: أن دلالة اللفظ عليه وعلى غيره متساوية كالمجمل والمؤول والمشكل^(٤).

أقسام المتشابه:

والتشابه في بعض آيات القرآن الكريم ثلاثة أنواع:

الأول: التشابه من جهة اللفظ.

الثاني: التشابه من جهة المعنى.

الثالث: التشابه من جهة اللفظ والمعنى.

(١) سورة الزخرف: الآية ١١.

(٢) تفسير الرازي، جـ ٧، ص ١٧٠-١٧١.

(٣) الإيتقان: السيوطي، جـ ٢، ص ٤.

(٤) تفسير الرازي، جـ ٧، ص ١٧٠-١٧١.

الأول: التشابه من جهة اللفظ:

وهو ما كان خفاء معناه ناشئاً من جهة اللفظ وهو نوعان:

أ - تشابه لفظي يرجع إلى المفردات:

إما لغرابتها وقلة استعمالها مثل ﴿وَفَكَهَأَ وَأَبَأَ﴾^(١) وكقوله: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونُ﴾^(٢) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٣) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ﴾^(٤) كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا أدري ما الأواه وما الغسلين»^(٥).

وإما لجهة الاشتراك اللفظي كالقرء في قوله: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٦)؛ حيث يطلق على الحيض والطمهر، ومثل ﴿عَسَسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّيْلٌ إِذَا عَسَسَ﴾^(٧) فإنه يطلق على إقبال الليل وإدباره.

ب - تشابه لفظي يرجع إلى التركيب للألفاظ وهي الجمل:

وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: لاختصار الكلام كقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمْنِ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتْنً وَثَلَاثَ وَرُبْعٌ﴾^(٨) والمعنى ألا تقسطوا في اليتامى إذا تزوجتموهن.

(١) سورة عبس: الآية ٣١.

(٢) سورة الصافات: الآية ٩٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ١١٤.

(٤) سورة الحاقة: الآية ٣٦.

(٥) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ج٣، ص ١٥٩.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٧) سورة التكوين: الآية ١٧.

(٨) سورة النساء: الآية ٣.

ثانيها: بسط الكلام. كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١) ففي ذكر الكاف بسط للكلام، ولو قال: ليس مثله شيء لظهر المعنى، فاشتبه المراد بذكرها مع ظهور المعنى بدونها.

ثالثها: نظم الكلام كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾^(٢) فجاءت جملة ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ فاصلة بين الصفة والموصوف وأصل الكلام: أنزل على عبده الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً. وكقوله ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْوِهِ لَقَادِرٌ﴾^(٣) يوم تبلى السرائر^(٤) فصل بين المصدر ومعموله وأصل الكلام وإنه على رجعه يوم تبلى السرائر لقادر.

الثاني: التشابه من جهة المعنى:

ويتعلق هذا النوع بالغيبيات؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يتصور ما غاب عن حواسه على حقيقته، فالتخيل والتصور عنده لا يتعد عن المحسوسات، فلا تدرك^(٥) صفات الله تعالى ولا ما في الجنة من النعيم، ولا ما في النار من عذاب إلا على سبيل التقريب.

الثالث: التشابه من جهة اللفظ والمعنى:

وهو خمسة أنواع:

الأول: من جهة الكمية كالعموم والخصوص نحو ﴿فَأَقْضُوا الْفِتْنَةَ﴾^(٥).

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) سورة الكهف: الآيتان ١-٢.

(٣) سورة الطارق: الآيتان ٨-٩.

(٤) المفردات: الأصفهاني، ص ٢٥٥ عمدة الحفاظ: السمين، ج ٢، ص ١٢٩٩ وانظر

المحكم والمتشابه: د. عبد الرحمن المطرودي، ص ٦٩.

(٥) سورة التوبة: الآية ٥.

الثاني: من جهة الكيفية كالوجوب والندب، كقوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتْنًى وَتِلْكَ وَرِثَةُ﴾^(١).

الثالث: من جهة الزمان؛ كالناسخ والمنسوخ؛ نحو قوله تعالى: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾^(٢).

الرابع: من جهة المكان؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ إِلِيرُ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ الآية^(٣) وكقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾^(٤) فإن من لا يعرف عادة أهل الجاهلية في ذلك يتعذر عليه تفسير هذه الآية.

الخامس: من جهة الشروط التي يصح بها الفعل أو يفسد كشروط الصلاة والنكاح^(٥).

قال الراغب الأصفهاني: بعد ذكره لهذه الأقسام «وهذه الجملة إذا تصورت، عُلِمَ أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم»^(٦).
معرفة المتشابه^(٧):

اختلف العلماء في المتشابه؛ هل يمكن معرفته أم لا؟ والحقيقة أنه ينقسم من حيث إمكانية معرفته وعدمها إلى ثلاثة أنواع هي:

(١) سورة النساء: الآية ٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

(٤) سورة التوبة: الآية ٣٧.

(٥) انظر المفردات: الأصفهاني، ص ٢٥٤-٢٥٥، وعمدة الحفاظ: السمين، ج ٢، ص ١٢٩٨-١٣٠٠، والمحكم والمتشابه: المطرودي، ص ٦٥-٧٠.

(٦) المفردات: الأصفهاني، ص ٢٥٥.

(٧) المرجع السابق: نفس الموضع. والموافقات: الشاطبي، ج ٣، ص ٩١-٩٣.

الأول: المتشابه الحقيقي:

وهذا النوع لا يعلمه أحد من البشر، ولا سبيل للوقوف عليه؛ كوقت قيام الساعة، وحقيقة الروح وغير ذلك من الغيبات التي اختص الله بعلمها.

الثاني: المتشابه الإضافي:

وهو ما اشتبه معناه لاحتياجه إلى مراعاة دليل آخر، فإذا تقصى المجتهد أدلة الشريعة وجد فيها ما يبين معناه؛ كالألفاظ الغريبة، والأحكام الغلظة، والتي تحتاج إلى استنباط وتدبر، وبعض مسائل الإعجاز العلمي^(١).

الثالث: المتشابه الخفي:

وهو ضرب متردد بين الأمرين، يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم، ويخفى على من دونهم، وهو الضرب المشار إليه في دعوة الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما. «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

سبب الاختلاف في معرفة المتشابه:

ويرجع بعض الباحثين السبب في الاختلاف في معرفة المتشابه إلى الاختلاف في الوقف في قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾^(٢) وهذا ليس بصحيح؛ إذ إن الوقف أو الوصل مبني على الاختلاف في معنى التأويل. فسبب الاختلاف إذاً في معرفة المتشابه هو الاختلاف في المراد بالتأويل في قوله سبحانه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، وفيه ثلاثة أقوال:

(١) انظر التحرير والتنوير، ج ٣، ص ١٥٧ و ١٥٩ لبيان وجه كون الإعجاز العلمي من المتشابه عند قوم ومحكم عند من بعدهم.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

الأول: أن التأويل بمعنى التفسير:

وعلى هذا فالتأويل يعلمه الراسخون في العلم، ومنه دعوة الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^(١) وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا ممن يعلم تأويله»^(٢) وقول مجاهد: «الراسخون في العلم يعلمون تأويله»^(٣) وقول ابن جرير الطبري: «واختلف أهل التأويل في هذه الآية» وقوله: «القول في تأويل قوله تعالى...» وهو أيضاً المعنى الذي قصده ابن قتيبة وأمثاله ممن يقول: إن الراسخين في العلم يعلمون التأويل ومرادهم به التفسير^(٤).

وهو قول متقدمي المفسرين وابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، ومحمد بن جعفر بن الزبير، وابن إسحاق، وابن قتيبة، والربيع بن أنس، والضحاك، والنووي، وابن الحاجب^(٥).

وعليه فإن الوقف يكون على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد^(٦).

القول الثاني: أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الخطاب:

وهي نفس الحقائق التي أخبر الله عنها.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: ج١، ص ٢٦٦، والطبراني في المعجم الكبير (١٠٦١٤) و(١٢٥٠٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره، ج٦، ص ٢٠٣، رقم (٦٦٣٢).

(٣) تفسير مجاهد، ج١، ص ١٢٢.

(٤) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، ج٥، ص ٣٨١-٣٨٢.

(٥) انظر درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، ج١، ص ٢٠٥. والقطع والاثنايف:

النحاس، ص ٢١٥، والإتقان: السيوطي، ج٢، ص ٤.

(٦) تفسير ابن كثير، ج٢، ص ١١.

فتأويل ما أخبر به عن اليوم الآخر هو نفس ما يكون في اليوم الآخر، وتأويل ما أخبر به عن نفسه هو ذاته المقدسة الموصوفة بصفاته العلية.

وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله، ولهذا كان السلف يقولون: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول» فيثبتون العلم بالاستواء، وهو التأويل الذي بمعنى التفسير، وهو معرفة المراد بالكلام حتى يُدبر، ويُعقل، ويُفقه، ويقولون: الكيف مجهول، وهو التأويل الذي انفرد الله بعلمه، وهو الحقيقة التي لا يعلمها إلا هو»^(١).

وعليه فإن الوقف يكون على لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، والواو للاستئناف، والراسخون مبتدأ، ويقولون: خبره. وقال بهذا القول نيف وعشرون رجلاً من الصحابة والتابعين والقراء والفقهاء وأهل اللغة، فمن الصحابة: عائشة وابن عباس وابن مسعود، وابن عمر، وأبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، رضي الله عنهم. فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «بلغ رسوخهم في العلم إلى أن قالوا: آمنا به» وفي رواية «ولم يعلموا تأويله» وما أخرجه الشيخان وغيرهما عن عائشة. رضي الله عنها. قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ﴾، قالت: قال رسول الله ﷺ فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم». وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - يقرأ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَيَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ آمَنَّا بِهِ﴾. وهي قراءة على التفسير وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه (وإن تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به) أخرجه ابن أبي داود في «المصاحف».

(١) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، ج ٥، ص ٣٨٢.

وقال به من التابعين ثلاثة: الحسن وابن نهيك والضحاك، وقال به من الفقهاء مالك بن أنس، ومن القراء ثلاثة: نافع ويعقوب والكسائي، ومن النحويين: الأخفش وسعيد، والفراء وسهل بن محمد، ويروى عن عمر بن عبد العزيز وعروة بن الزبير وأبي عبيد، وابن جرير، وأبي إسحاق، وابن كيسان، والسدي^(١).

ويدل على ذلك «أن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه، ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله وسلموا إليه، كما مدح الله المؤمنين بالغيب»^(٢).

وقال ابن تيمية عن هذا المعنى: أنه هو معنى التأويل في القرآن والمراد به في مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ سَوَّاهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ﴾^(٣) وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٤) وقال يوسف: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾^(٥) ^(٦). وقال عن هذا المعنى: إنه لغة القرآن التي نزل بها.. فتأويل الأحاديث التي هي رؤيا المنام هي نفس مدلولها التي تؤول إليه كما قال يوسف: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾.. وقال

(١) القطع والائتناف: النحاس، ص ٢١٢-٢١٣، ودرء تناقض العقل والنقل: ابن تيمية:

ج ١، ص ٢٠٥، والائتناف: السيوطي، ج ٢، ص ٤، وانظر تفسير ابن جرير الطبري،

ج ٦، ص ٢٠٢-٢٠٤، وفتح القدير: الشوكاني، ج ١، ص ٣١٥.

(٢) الإتناف: السيوطي، ج ٢، ص ٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٥٣.

(٤) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٥) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

(٦) درء تناقض العقل والنقل، ج ١، ص ٢٠٦.

الله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا^(١) قالوا: أحسن عاقبة ومصيراً، فالتأويل هنا تأويل فعلهم، الذي هو الرد إلى الكتاب والسنة، والتأويل في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا، والتأويل في الأعراف ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [٥٣] ويونس ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [٣٩] تأويل القرآن، وكذلك في سورة آل عمران.

وقال تعالى في قصة موسى والعالم: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(٢) إلى قوله: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(٣) فالتأويل هنا تأويل الأفعال التي فعلها العالم من خرق السفينة بغير إذن صاحبها، ومن قتل الغلام، ومن إقامة الجدار، فهو تأويل عمل لا تأويل قول، وإنما كان كذلك؛ لأن التأويل مصدر أوله يؤوله تأويلاً، . . . وقولهم: آل يؤول، أي: عاد إلى كذا ورجع إليه، ومنه «المآل» وهو ما يؤول إليه الشيء، ويشاركه في الاشتقاق الأكبر «الموئل» فإنه من وَّأَل، وهذا من أَوَّل، والموئل المرجع، قال تعالى: ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا﴾^{(٤)(٥)}.

القول الثالث:

وهو اصطلاح طوائف من المتأخرين قالوا: إن التأويل هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترب به.

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٢) سورة الكهف: الآية ٧٨.

(٣) سورة الكهف: الآية ٨٢.

(٤) سورة الكهف: الآية ٥٨.

(٥) مجموع فتاوي ابن تيمية: جـ ١٣، ص ٢٩٠-٢٩١ باختصار وتصرف يسير.

ويريدون بذلك صرف الألفاظ القرآنية عن معانيها الحقيقية إلى معانٍ باطلة ليؤيدوا بها مذاهبهم وآراءهم المنحرفة، فهو اعتقدوا رأياً ثم حملوا نصوص القرآن عليه لتوافق ما ذهبوا إليه.

وهؤلاء - كما قال ابن تيمية. رحمه الله تعالى - صاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون الأخبار والأوامر، وما بين صابئة وفلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء، وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء في اليوم الآخر، وفي آيات القدر، ويتأولون آيات الصفات، وقد وافقهم بعض متأخري الأشعرية على ما جاء في بعض الصفات، وبعضهم في بعض ما جاء في اليوم الآخر، وآخرون من أصناف الأمة وإن كان تغلب عليهم السنة، فقد يتأولون أيضاً مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه^(١).

وذكر في موضع آخر أمثلة لهذه التأويلات فقال: «كتأويل من تأوّل استوى بمعنى استولى ونحوه، فهذا عند السلف والأئمة باطل لا حقيقة له، بل هو من باب تحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد في أسماء الله وآياته.

فلا يقال في مثل هذا التأويل: لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم، بل يقال فيه ﴿قُلْ أَتُنبِئُوكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) كتأويلات الجهمية والقرامطة الباطنية، كتأويل من تأوّل الصلوات الخمس بمعرفة أسرارهم، والصيام: بكتمان أسرارهم، والحج بزيارة شيوخهم، والإمام المبين بعلي بن أبي طالب، وأئمة الكفر بطلحة والزبير، والشجرة الملعونة في القرآن ببني أمية، واللؤلؤ والمرجان، بالحسن والحسين، والتين والزيتون وطور

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية، جـ ١٣، ص ٢٨٧.

(٢) سورة يونس: الآية ١٨.

سينين وهذا البلد الأمين بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، والبقرة بعائشة، وفرعون بالقلب، والنجم والقمر والشمس بالنفس والعقل ونحو ذلك.

فهذه التأويلات من باب تحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد في آيات الله، وهي من باب الكذب على الله وعلى رسوله وكتابه، ومثل هذه لا تجعل حقاً حتى يقال: إن الله استأثر بعلمها، بل هي باطل، مثل شهادة الزور، وكفر الكفار، يعلم الله أنها باطل، والله يُعَلِّم عباده بطلانها بالأسباب التي بها يعرف عباده، من نصب الأدلة وغيرها^(١).

وهذا التأويل هو الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف، فإذا قال أحدهم: هذا الحديث، أو هذا النص مؤول، أو هو محمول على كذا، قال الآخر: هذا نوع تأويل، والتأويل يحتاج إلى دليل... وهو أيضاً التأويل الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات إذا صنف بعضهم في إبطال التأويل، أو ذم التأويل أو قال بعضهم: آيات الصفات لا تؤول، وقال الآخر: بل يجب تأويلها، وقال الثالث: بل التأويل جائز... إلخ^(٢).

وبهذا يظهر بطلان القول الثالث وانحرافه وأنه ليس من أقوال السلف.

وأما القولان الأول والثاني:

فإن الأول: هو معنى التأويل عند الصحابة والتابعين.

والثاني: هو معنى التأويل في القرآن نفسه.

فمن قال: إن الراسخين في العلم يعلمون تأويله فقد أخذ بالقول الأول وهو أن معنى التأويل التفسير.

ومن قال: إن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله فقد أخذ بالقول الثاني وهو أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، وهذا لا يعلمه إلا الله.

(١) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، جـ ٥، ص ٣٨٢-٣٨٣.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ ١٣، ص ٢٨٨، باختصار.

ولا تعارض بين هذين القولين ولا اختلاف، فالجميع يسلم بأن الراسخين في العلم يعلمون تأويله بمعنى تفسيره، ومن زعم أنهم لا يعلمون تأويله بمعنى تفسيره نازعه فيه عامة الصحابة والتابعين الذين فسروا القرآن كله، وقالوا بأنهم يعلمون معناه^(١)، والراسخون في العلم لا يعلمون تأويله بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، وبهذا يظهر التوافق والتطابق والتكامل بين القولين.

الحكمة من ذكر المتشابهات في القرآن الكريم:

ولأن المتشابه منه ما يمكن علمه للراسخين في العلم، ومنه ما لا يمكن علمه ولا يعلمه إلا الله. فإن لذكر كل نوع حكم خاصة أذكر بعضها:
من حكم ذكر المتشابه الذي يمكن علمه:

أولاً: الحث على زيادة التفكير والتدبر في آيات القرآن الكريم، والبحث عن دقائقه، ولذا كرر القرآن الأمر بالتدبر كثيراً ليظهر في الثانية ما خفي في الأولى.

ثانياً: ظهور التفاضل والتفاوت بين العلماء كل حسب طاقته وقدرته وما بذله من جهد في التفكير والتدبر.

ثالثاً: زيادة الأجر والثواب، لأن الأجر على قدر المشقة، فمعرفة المتشابه أشق وأصعب، وكلما كان الوصول إلى الحق أشق وأصعب، كان الأجر أعظم وأكبر، «وزيادة المشقة توجب زيادة الثواب، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾^{(٢)(٣)}.

(١) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، ج١، ص ٢٠٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٢.

(٣) تفسير الرازي، ج٧، ص ١٧٢.

رابعاً: تحصيل العلوم الكثيرة؛ لأن معرفة المتشابه تحتاج إلى آلات ووسائل ليتمكن بها معرفتها كعلم اللغة والنحو، وأصول الفقه^(١)، وغير ذلك من العلوم والمعارف.

خامساً: حمل الناس على تلقي العلم جثياً على الركب من الراسخين في العلم واضطرارهم لذلك، فإنهم إذا حضروا مجالسهم حَصَلُوا علوماً أخرى، وآداباً أكمل، وعرفوا شأن العلماء، وعلو مقامهم، ووالوهم وزادت محبتهم.

سادساً: بيان فضل العلماء الراسخين في العلم وعلو مقامهم ومكانتهم واختلاف مراتبهم.

سابعاً: تعظيم شأن القرآن وبيان علو معانيه وسموها، واحتياج الناس لمعرفتها إلى التزود بالعلوم والمعارف حتى يرتقوا إلى مداركها، ويحفظوا بمعانيها.

ثامناً: زيادة التعلق بمعاني القرآن، فإن الإنسان إذا حصل الشيء بمشقة كان تمسكه به، ومحافظته عليه، واهتمامه به أكبر.

تاسعاً: بيان رحمة الله وفضله بالأمة، إذ لو كان القرآن كله من هذا النوع لكان في تحصيله مشقة عظيمة على الأمة، فاقتضت رحمة الله أن يجعل من القرآن ما هو محكم يدرك الناس معناه، وهو أكثر القرآن^(٢)، وما يحتاجون إليه في أمور دينهم ضرورة؛ ومنه آخر متشابهات لا يدركها إلا الراسخون في العلم، وتذكر الناس بنعمة الآيات المحكمات. وقريب من

(١) تفسير الرازي، جـ ٧، ص ١٧٢.

(٢) قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «قوله في المحكمات ﴿هُنَّ أَمْ الْكِتَابُ﴾ يدل على أنها المعظم والجمهور، وأم الشيء معظمه وعامته، كما قالوا أم الطريق بمعنى معظمه» الموافقات، جـ ٣، ص ٨٦.

هذا المعنى حكمة نسخ الحكم وبقاء التلاوة إذ إن فيه تذكيراً بالنعمة في رفع المشقة.

من حِكَمِ ذكر المتشابه الذي لا يمكن علمه:

أولاً: رحمة الله بالإنسان الذي لا يطيق معرفة كل شيء، ولو كشف الله الحجب للبشر لعمت الأضرار، وانتفت المصالح، فلو علم الناس حقيقة جهنم وما فيها من ألوان العذاب، ورأوه رأي العين، لقضى عليهم الخوف، وانقطعت قواهم عن العمل رهبة، ولو علم الناس بموعد قيام الساعة لعدوا عن الاستعداد لها، ولو علموا بموعد آجالهم لعم الفساد وانقطع باب العمل الصالح عند كثير من الناس حتى موعد وفاتهم، ولو علموا بما سيرزقون لاتكلوا وانقطعوا عن العمل.

ثانياً: إقامة الحجة على عجز الإنسان وجهله، وقصور قواه ومداركه، فمهما بلغ من العلم والمعرفة، ومهما تقدم في الاكتشافات وجال في الفضاء، وهبط على القمر إلا أنه يبقى حائراً جاهلاً أمام أشياء قريبة منه كل القرب كالروح مثلاً ماهي، وما وقت خروجها، وغير ذلك كثير وليس له إلا أن يقول ما قالته الملائكة: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

ثالثاً: ابتلاء العباد واختبارهم بالوقوف عند ما استأثر الله بعلمه، والإيمان بالغيب، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٢).



(١) سورة البقرة: الآية ٣٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

العام والخاص

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وفي اللغة العربية صيغ عامة تشمل جماعة المخاطبين، وفيها ألفاظ خاصة، وأحياناً يكون اللفظ عاماً ويراد به الخصوص، والعكس كذلك. وفي القرآن الكريم ألفاظ نحت هذا النحو، ففيه صيغ تفيد العموم ويراد بها العموم، وألفاظ تفيد الخصوص ويراد بها الخصوص، وألفاظ تفيد العموم إلا أنه يراد بها الخصوص، وألفاظ تفيد الخصوص إلا أنه يراد بها العموم، والقرائن توضح ذلك وتزيل اللبس، ويبقى بعد ذلك ألفاظ هي موضع خلاف بين العلماء تؤثر في استنباط بعض الأحكام. وهذا يظهر مكانه علم (العام والخاص) وأثره في استنباط الأحكام؛ ولذا نجد بسط مباحثه في كتب أصول الفقه خاصة، ونظراً لتعلق الاستنباط بآيات القرآن فقد درسه أيضاً أرباب العلوم القرآنية، وأفردوه بمباحث خاصة في بطون مؤلفاتهم، وسأعرض لبعض قضاياها المتعلقة بالقرآن، معرضاً عن المباحث الأصولية الخاصة.

العام

العام لغة :

الْعَمَمُ : عِظْمُ الْخَلْقِ فِي النَّاسِ وَغَيْرِهِمْ ، وَالْعَمَمُ : الْجِسْمُ التَّامُ ، . . .
وَأَمْرُ عَمَمٍ : تَامَ عَام . . وَعَمَّهِمُ الْأَمْرُ يَعْمَهُمْ عَمُومًا : شَمَلَهُمْ ، يُقَالُ : عَمَّهُمْ بِالْعَطِيَّةِ ، وَالْعَامَّةُ : خِلَافُ الْخَاصَّةِ^(١) .

(١) لسان العرب : ابن منظور مادة (عمم)، ج ١٢، ص ٤٢٦ .

وفي الاصطلاح:

هو: اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له بحسب وضع واحد، من غير حصر فقولنا: (الرجال) يستغرق جميع ما يصلح له.

ولا يدخل فيه النكرة مثل (رجل)؛ لأنه يصلح لكل واحد من الرجال، لكنه لا يستغرقهم.

ولا التثنية ولا الجمع، لأن لفظ (رجلان) و (رجال) يصلحان لكل اثنين وثلاثة، ولا يفيدان الاستغراق.

وقولنا: «بحسب وضع واحد» للاحتراز من اللفظ المشترك، أو الذي له حقيقة ومجاز، فإن عمومه لا يقتضي أن يتناول مفهوميه معاً.

فإذا قلت: رأيتُ كُلَّ العيون.

فإن في لفظ العيون اشتراك حيث تشمل:

١ - عيون الماء الجارية.

٢ - العيون المبصرة.. وغير ذلك.

وأنت لا تريد كل هذه المعاني، وإنما تريد أحدها. فلا يقتضي العموم أن يشمل كل معاني اللفظ؛ بل بحسب وضع أو معنى واحد من معانيه المختلفة. وقولنا: «من غير حصر» يخرج أسماء الأعداد فهي تدل على كثرة معينة محدودة، فإن كانت الكثرة كثرة معينة بحيث لا يتناول ما بعدها. فهو اسم العدد، وإن لم تكن الكثرة كثرة معينة فهو العام.

وقيل في تعريفه أيضاً:

العام هو: اللفظ الدال على شيئين فصاعداً، من غير حصر.

وقد تعقب القرافي هذا التعريف بأجزائه، وبمجموع حده، ونقضه بأمور منها:

أولاً: جموع التكسير: وهي على قسمين:

١ - جموع للقلة: من الثلاثة إلى العشرة وهي ما جاءت على أوزان:

أ - أَفْعُل: أَفْلَس، وَأَكْلَب.

ب - أفعال: أَحْمَال.

ج - أَفْعَلَة: أَقْفَزَة، وَأَجْرَبَة.

د - فِعْلَة: صِبْيَة، غِلْمَة.

وهذه ألفاظ تدل على أكثر من شيئين وليست عامة.

٢ - جموع الكثرة: وهي موضوعة لما فوق العشرة فيصدق عليها

التعريف.

ثانياً: ومنها ألفاظ نكرات مفردات وضعت لما فوق الاثنين، مع أنها

ليست من العموم إجماعاً، مع صدق الحد عليها؛ نحو كثير، وعدد.

ثالثاً: ألفاظ من هذا النمط؛ مثل طائفة، فرقة، رهط، فإنها تتناول

الثلاثة فصاعداً من غير حصر ولا تفيد العموم^(١).

وهناك تعريفات أخرى كثيرة، وأشمل هذه التعريفات وأصحها هو الأول.

صيغ العموم:

وللعموم صيغ كثيرة تدل عليه، ذكر منها القرافي مئتين وخمسين

صيغة^(٢) ومن هذه الصيغ:

(١) نقلت هذين التعريفين والتعقيب عليهما بتصريف من المحصول: للفخر الرازي،

ج٢، ق٢، ص٥١٣-٥١٦؛ والعقد المنظوم في الخصوص والعموم: شهاب الدين

القرافي، ج١، ص٢٨٣-٢٩٥.

(٢) العقد المنظوم في الخصوص والعموم: القرافي، ج١، ص٤٥٣-٥٤٦.

١ - كل: وهي أقوى صيغ العموم، وتدل عليه؛ سواء كانت للتأسيس،
 مثل ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^(١)، ومثل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^(٢) وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو
 الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ^(٣)، أو للتأكيد مثل: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾^(٤)،
 ومثل ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٥)، ومثلها جميع ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْغَرَةَ فَلِلَّهِ الْغَرَةُ
 جَمِيعًا﴾^(٦) ودياراً ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٧).

٢ - الأسماء الموصولة: مثل: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِيَوْلَدَيْهِ أُفٍّ لَكُمْ﴾^(٨)
 ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾^(٩) و﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا
 كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^(١٠) ﴿وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ
 النَّاسَ﴾^(١١) ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَلَحِشَّةُ مِنْ نِسَائِكَ﴾^(١٢).

٣ - أسماء الشرط: مثل: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ﴾^(١٣)
 ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾^(١٤) ﴿أَيَّامًا تَدْعُوهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(١٥).

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

(٢) سورة الرحمن: الآيتان ٢٦-٢٧.

(٣) سورة ص: الآية ٧٣.

(٤) سورة الزمر: الآية ٦٢.

(٥) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٦) سورة نوح: الآية ٢٦.

(٧) سورة الأحقاف: الآية ١٧.

(٨) سورة النساء: الآية ١٦.

(٩) سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

(١٠) سورة البقرة: الآية ١٦٤.

(١١) سورة النساء: الآية ١٥.

(١٢) سورة النساء: الآية ٩٢.

(١٣) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

(١٤) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

٤ - أسماء الاستفهام: كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ؟﴾^(١) ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ؟﴾^(٢) وَمَنْ تَفِيدُ الْعُمُومَ إِذَا كَانَتْ شَرْطِيَّةً أَوْ اسْتِفْهَامِيَّةً، أَمَا إِذَا كَانَتْ مُوَصُولَةً مِثْلَ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾^(٣) فَإِنَّهَا قَدْ تَكُونُ لِلْعُمُومِ وَقَدْ تَكُونُ لِلْخُصُوصِ، وَالْقَرَائِنُ هِيَ الَّتِي تَفِيدُ الْعُمُومَ أَوْ الْخُصُوصَ.

٥ - الْمُعْرِفُ بِأَلِ الَّتِي لَيْسَتْ لِلْعَهْدِ وَإِنَّمَا لِلْاسْتِغْرَاقِ؛ سَوَاءٌ كَانَ جَمْعًا، مِثْلَ: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٤)، أَوْ مُفْرَدًا مِثْلَ: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الزَّيْوَ﴾^(٥)، وَمِثْلَ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(٦)، أَوْ اسْمَ جِنْسٍ؛ وَهُوَ الَّذِي لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ مِثْلَ النَّاسِ، الْحَيَوَانَ، الْمَاءِ، التُّرَابِ، فَالنَّاسُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(٧) تَفِيدُ الْعُمُومَ، أَوْ مَثْنَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾^(٨)، أَيْ: كُلِّ أُخْتَيْنِ لَا يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا.

وَعَلَامَةُ (أَلِ) الْمُسْتِغْرَقَةِ لِلْجِنْسِ، أَنْ يَصِحَّ حُلُولُ (كُلِّ) مُحَلِّهَا، وَأَنْ يَصِحَّ الْاسْتِثْنَاءُ مِنْ عُمُومِهَا.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٢٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

(٦) سورة المائدة: الآية ٣٨.

(٧) سورة الناس: الآية ١.

(٨) سورة النساء: الآية ٢٣.

٦ - كل ما أضيف إلى معرفة؛ سواء كان مفرداً، أو مثني، أو جمعاً، أو اسم جنس^(١) مثل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾^(٢) ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾^(٣) ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(٤) وفي الاستثناء هنا إشارة إلى عموم اللفظ.

٧ - النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط. مثالها في سياق النفي: قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَتْ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾^(٥) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ﴾^(٦)^(٧) ومثالها في النهي: ﴿وَلَا تَقْصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾^(٨) فإن (أحد) نكرة بعد نهي فتفيد العموم، ومثل: ﴿فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرُهَا﴾^(٩)، ومثالها في الشرط: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾^(١٠).

أما إذا كانت النكرة في سياق الإثبات فلا تفيد العموم، فإذا قلت: ما رأيت رجلاً فهو نفي يفيد العموم، وإذا قلت: رأيت رجلاً فهو إثبات لا يفيد العموم.

(١) انظر إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر: د. عبد الكريم النملة، ج٦، ص ٣٦.

(٢) سورة النور: الآية ٦٣.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٠٣.

(٤) سورة الحجر: الآية ٤٢.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

(٦) سورة الصافات: الآية ٤٧.

(٧) والغول ما يعتري شارب الخمر من الصداع والألم.

(٨) سورة التوبة: الآية ٨٤.

(٩) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

(١٠) سورة التوبة: الآية ٦.

أقسام العام:

وأقسام العام ثلاثة:

١ - العام الذي لا يدخله التخصيص:

وهو العام الذي لا يمكن تخصيصه، وهذا النوع قليل جداً؛ إذ الأصل في العموم أن يقبل التخصيص.

ومع أن البلقيني قال عن هذا النوع: «ومثاله عزيز، إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص»^(١) إلا أن الزركشي قال: «وهو كثير في القرآن»^(٢).

وقد جمع السيوطي بينهما بأن مراد البلقيني أنه عزيز في الأحكام الفرعية، ومراد الزركشي أنه كثير في غير الأحكام الفرعية^(٣).

ومثال هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤) ﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٥) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾^(٦) ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٧) فالعموم هنا لا يمكن تخصيصه.

٢ - العام الذي يدخله التخصيص:

وهو الذي يمكن تخصيصه، ولعل هذا النوع هو أشهر أنواع العموم، والذي ينصرف إليه الذهن عند إطلاق العموم، وهو ميدان الخلاف بين العلماء في تخصيصه أو بقاءه على عمومه.

(١) الإتيان: السيوطي، جـ ٢، ص ٢١.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ ٢، ص ٢١٧.

(٣) الإتيان: السيوطي، جـ ٢، ص ٢١.

(٤) سورة النساء: الآية ١٧٦.

(٥) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٦) سورة النساء: الآية ٢٣.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٨٤.

وأمثله في القرآن كثيرة؛ منها: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(١) فلفظ (الناس) عام خصص بقوله: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٢) فلفظ (أحدكم) يفيد العموم وخصص بقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٣)، فلفظ (المطلقات) عام يشمل الحامل وغير الحامل، وخصص بقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾^(٤) وغير ذلك من الأمثلة.

٣ - العام المراد به الخصوص:

وهو ما دل لفظه على العموم ودلت القرينة على الخصوص، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾^(٥)، والمراد بالناس عبد الله بن سلام فالآية دعوة لليهود إلى أن يؤمنوا كما آمن عبد الله بن سلام^(٦) رضي الله عنه، وقد كان يهودياً، ثم إن الناس لم يؤمنوا كلهم، فدلَّت القرينة على وجوب حمله على فئة منهم.

ومن أمثله أيضاً قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾^(٧) قال الزركشي: «وعموه يقتضي دخول جميع الناس في

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٤) سورة الطلاق: الآية ٤.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٣.

(٦) البرهان: الزركشي، ج٢، ص ٢٢١.

(٧) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

اللفظين جميعاً، والمراد بعضهم؛ لأن القائلين غير المقول لهم، والمراد بالأول: نعيم بن مسعود^(١) والثاني: أبو سفيان وأصحابه قال الفارسي: «ومما يقوي أن المراد بالناس في قوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ واحد، قوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾^(٢) فوقعت الإشارة بقوله: «ذلكم» إلى واحد بعينه، ولو كان المعني به جمعاً لكان إنما أولئك الشياطين^(٣)، فهذه دلالة ظاهرة في اللفظ^(٤)، وإنما وصف نعيم بأنه الناس؛ لقيامه مقام كثير في تشبيطه المؤمنين عن ملاقة أبي سفيان^(٥).

ومن أمثله قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٦) والمراد بالناس هنا رسول الله ﷺ.

ومن أمثله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾^(٧) والمراد إبراهيم عليه السلام. أو العرب من غير قریش.

ومنها: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾^(٨) والمراد بالملائكة جبريل عليه السلام.

(١) في البرهان: نعيم بن سعيد الثقفي والصواب ابن مسعود.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٥.

(٣) في البرهان إنما الشياطين الشياطين، وما أثبت من «الإنقان».

(٤) البرهان: الزركشي، جـ ٢، ص ٢٢٠.

(٥) أصول التفسير وقواعده: خالد العك، ص ٣٨٧.

(٦) سورة النساء: الآية ٥٤.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٩٩.

(٨) سورة آل عمران: الآية ٣٩.

ونستطيع بعد هذا أن نذكر تعريفاً آخر لأقسام العام الثلاثة فنقول :

١ - عام مقيد بالعموم بحيث لا ينفك عن العموم مثل : ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) .

٢ - عام مطلق يمكن أن يبقى على عموميه ويمكن تخصيصه مثل : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٢) فلو لم يقل : ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ لبقى عاماً فهو قابل للعموم والخصوص .

٣ - عام مقيد بالخصوص ، لا يمكن أن يراد به العموم ، ولا ينفك عن الخصوص مثل : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾^(٣) .

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام الذي يدخله التخصيص^(٤) :

وبين العام المراد به الخصوص والعام الذي يمكن أن يدخله التخصيص
فروق منها :

١ - أن العام المراد به الخصوص لا يراد شموله لجميع الأفراد ، ويدرك ذلك من أول وهلة^(٥) ، وأما العام الذي يدخله التخصيص . فأريد به العموم في أول الأمر وشموله لجميع أفرادها ، فلفظ (الناس) في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ الآية^(٦) يدرك السامع لأول وهلة خصوصها ،

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٩٩ .

(٤) انظر الإتقان : السيوطي ، ج ٢ ، ص ٢١-٢٢ .

(٥) قال في لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٧٣٧ : «ولقيته أول وهلةً ووهلةً وواهلةً ؛ أي : أول شيء ، وقيل : هو أول ما تراه ، وفي الحديث فلقيته أول وهلة . أي أول شيء» .

(٦) سورة آل عمران : الآية ١٧٣ .

وأنه لا يمكن أن يراد بها العموم لامتناع ذلك، أما لفظة (الناس) في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ يدرك السامع أن المراد بها جميع الناس، ولا يحوله عن هذا العموم إلا قوله: ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

٢ - الأول مجاز قطعاً؛ لنقل اللفظ عن موضعه الأصلي وهو العموم، واستعماله في بعض أفراد، بخلاف الثاني فاستعمل اللفظ بمعناه الحقيقي، وعليه أكثر الشافعية، وكثير من الحنفية، وجميع الحنابلة، ونقله الجويني عن جميع الفقهاء.

٣ - أن قرينة الأول عقلية لا تنفك عنه، وقرينة الثاني لفظية وقد تنفك عنه.

٤ - أن الأول يصح أن يراد به واحد اتفاقاً، مثل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾^(١) يعني إبراهيم عليه السلام، أما الثاني ففي تخصيص عمومه بحيث لا يراد به إلا واحد بعد العموم خلاف^(٢).

الخاص

الخاص لغة:

يقال: خَصَّه بالشيء يَخُصُّه خَصّاً.. أفرد به دون غيره، ويقال: اختص فلان بالأمر وتخصص له إذا انفرد^(٣).

وفي الاصطلاح:

الخاص هو اللفظ الذي لا يستغرق الصالح له من غير حصر.

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٩.

(٢) انظر تفصيل ذلك في إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر: د. عبد الكريم النملة، ج٦، ص ١٧٩-١٨٢.

(٣) لسان العرب: ابن منظور، ج٧، ص ٢٤.

أما التخصيص فهو: قصر العام على بعض أفرادهِ^(١).

وقيل: إخراج بعض ما تناوله الخطاب عنه^(٢).

والمراد من قولنا: «قصر العام» قصر حكمه، وإن بقي لفظه على عمومهِ، فيكون العموم باللفظ لا بالحكم، وبذلك يخرج العام الذي يراد به الخصوص، فإن ذلك قصر إرادة لفظ العام لا قصر حكمه^(٣).

ومثال التخصيص قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٤) فلفظ المطلقات عام يشمل كل مطلقة، لكن حكمه مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْصَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾^(٥).

حكم تخصيص العموم:

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «اتفق أهل العلم سلفاً وخلفاً على أن التخصيص للعمومات جائز، ولم يخالف في ذلك أحد ممن يعتد به، وهو معلوم من هذه الشريعة المطهرة، لا يخفى على من له أدنى تمسك بها»^(٦).

وهو جائز مطلقاً، سواء كان أمراً مثل: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾^(٧)، أو نهياً مثل: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى

(١) إتحاف ذوي البصائر، ج ٦، ص ٢١١.

(٢) المحصول: الرازي، ج ١، ق ٣، ص ٧.

(٣) إتحاف ذوي البصائر، ج ٦، ص ٢١١.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٥) سورة الطلاق: الآية ٤.

(٦) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص ١٤٣.

(٧) سورة النور: الآية ٣٣.

يُظَهَرُ^(١)، أو خبراً مثل: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ^(٢).

الفروق بين التخصيص والنسخ:

بين التخصيص والنسخ فروق منها^(٣):

- ١ - أن التخصيص يدل على أن ما خرج عن العموم لم يكن مراداً، والنسخ يدل على أن المنسوخ كان مراداً.
- ٢ - أن النسخ يشترط تراخيه عن المنسوخ، والتخصيص يجوز اقترانه كالتخصيص بالصفة والشرط والاستثناء.
- ٣ - أن النسخ رفع الحكم بعد ثبوته، والتخصيص بيان للمحل الذي لم يثبت الحكم فيه؛ بمعنى أن النسخ يثبت فيه الحكم ثم يرفع، أما التخصيص فإن الحكم في المخصوص لم يثبت فيه أصلاً، فلا يحتاج إلى رفع.
- ٤ - أن التخصيص قد يقع بخبر الواحد وبالقياس، والنسخ لا يقع بهما.
- ٥ - أن التخصيص يكون في الأخبار، والنسخ لا يقع فيها.
- ٦ - أن النسخ لا تبقى معه دلالة اللفظ على ما تحته، والتخصيص لا يمتنع معه ذلك. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «التخصيص ترك بعض الأعيان والنسخ ترك الأعيان»^(٤).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٢) سورة الحجر: الآيتان ٣٠-٣١.

(٣) انظر المحصول: الرازي، ج١، ق٣، ص٩-١١ والعقد المنظوم في الخصوص والعموم: القرافي، ج٢، ص١٧٧-١٧٨.

(٤) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٤٢ ونسبه إلى الإسفرائيني.

٧ - أنه لا يجوز تخصيص شريعة بشرعية، أما النسخ فيجوز؛ كما نُسخَت النصرانية بالإسلام.

٨ - أن التخصيص لا يرد إلا على العام، أما النسخ فيرد على العام والخاص.

وبهذا يظهر أن النسخ ليس بتخصيص.

أقسام المخصص:

والمخصص ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: المخصص المتصل:

وهو خمسة أنواع هي:

١ - الاستثناء:

كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(١) وكقوله سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾^(٢).

٢ - الصفة:

والمراد بها الصفة المعنوية على ما حققه علماء البيان، لا مجرد النعت المذكور في علم النحو، قال الجويني: الوصف عند أهل اللغة معناه التخصيص، وقال المازري: «ولا خلاف في اتصال التوابع، وهي النعت والتوكيد والعطف والبدل»^(٣).

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٦.

(٣) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص ١٥٣ (بتصرف).

وعلى هذا فالمراد بالصفة هنا كل ما أشعر بمعنى يتصف به أفراد العام؛ سواء كان الوصف نعتاً، أو عطف بيان، أو حالاً؛ وسواء كان مفرداً، أو جملة، أو شبه جملة^(١).

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾^(٢) فلفظ «فتياتكم» عام يشمل المؤمنات والكافرات، لكنه خصص بوصف «المؤمنات».

ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿وَرَبَّيُّكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾^(٣) فلفظ «نسائكم» يشمل جميع الزوجات المدخول بهن، وغير المدخول بهن ولكن خصص العموم بوصف «اللاتي دخلتم بهن».

٣ - الشرط :

ومن أمثله قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾^(٤) فلفظ «أزواجكم» عام يشمل ذات الولد وغيرها، وخصص بالشرط ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ فالزوجة التي يرث الزوج نصف مالها هي غير ذات الولد.

(١) انظر إتحاف ذوي البصائر: النملة، ج٦، ص ٣٣٩، والعقد المنظوم: القرافي، ج٢، ص ٣٧٦.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٥.

(٣) سورة النساء: الآية ٢٣.

(٤) سورة النساء: الآية ١٢.

ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(١) فقلوه: «أحدكم» عام يوجب الوصية على من ترك مالا وغيره، وخصص بالشرط ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ فأصبحت الوصية واجبة على من ترك مالا دون الآخر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾^(٢) فالاسم الموصول «الذين» يفيد العموم وخصص بشرط ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

٤ - الغاية:

والمراد بها: نهاية الشيء المقتضية لثبوت الحكم قبلها، وانتفائه بعدها ولها لفظان: (حتى) و(إلى).

ومثال الأول: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾^(٣).

ومثال الثاني: ﴿وَأَيِّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾^(٤).

٥ - بدل البعض من الكل:

وذلك كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾^(٥) فقلوه: ﴿عَمُوا وَصَمُوا﴾ يفيد العموم وخصص ببدل البعض ﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٦) فلفظ

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

(٢) سورة النور: الآية ٣٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٤) سورة المائدة: الآية ٦.

(٥) سورة المائدة: الآية ٧١.

(٦) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

﴿النَّاسِ﴾ يفيد العموم وخص بالبدل ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدل بعض من كل، هذه أنواع المخصص المتصل.

القسم الثاني: القسم المنفصل:

وهو أن يكون المخصص في موضع آخر غير متصل باللفظ العام اتصالاً لفظياً.

وهو أنواع منها:

١ - التخصيص بأية:

فقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَقَاتُ يَرَزِقْنَ أَنْفُسَهُنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(١) عام يشمل كل مطلقة، إلا أنه خصَّ الحوامل في قوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾^(٢) كما خص الآيسات من الحيض ﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَجِيزِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾^(٣) وخص غير المدخول بها قال تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾^(٥) يشمل كل مشركة كتابية كانت أو غير كتابية، وجاء التخصيص في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾^(٦) فخص الكتابية من المشركات بجواز الزواج منها.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٤.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٤.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٤٩.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٢١.

(٦) سورة المائدة: الآية ٥.

٢ - التخصيص بالسنة قولاً كان أو فعلاً:

فقوله تعالى بعد أن عدد المحرمات من النساء: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾^(١) مخصوص بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها»^(٢) حيث خص أربع نساء وهن عمّة الزوجة وخالتها، وابنة أخيها، وابنة أختها.

وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِمَتُكُم مِّثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾^(٣) عام يدل على أن جميع الأولاد يرثون من آبائهم، لكنه مخصوص بقول الرسول ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم»^(٤) ويقول ﷺ: «لا يرث القاتل شيئاً»^(٥)، وبما رواه أبو بكر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نورث ما تركناه صدقة»^(٦) فخرج أولاد الأنبياء فإنهم لا يرثون.

وقوله تعالى في المطلقة البائن: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾^(٧) وهذا عام في العقد والوطء، وخصه قول الرسول ﷺ لامرأة رفاعة: «لا، حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك»^(٨).

(١) سورة النساء: الآية ٢٤.

(٢) رواه مسلم كتاب النكاح باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح ج٢، ص ١٠٢٩.

(٣) سورة النساء: الآية ١١.

(٤) رواه البخاري، كتاب الفرائض، ج٨، ص ١١، ومسلم، كتاب الفرائض، ج٣، ص ١٢٣٣.

(٥) رواه أبو داود في سننه، كتاب الديات، باب ديات الأعضاء، ص ٦٩٢.

(٦) رواه البخاري، كتاب الفرائض، ج٨، ص ٣، ورواه مسلم، ج٣، ص ١٣٨١.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٣٠.

(٨) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب ٣٧، ج٦، ص ١٨٢.

وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾^(١) عام يشمل المحصن وغير المحصن وتواتر عنه ﷺ أنه رجم المحصن، وهو فعل.

٣ - التخصيص بالإجماع:

ومذهب جمهور العلماء أن الإجماع من مخصصات العموم المنفصلة، وهناك من يرى أن المخصص هو دليل الإجماع وليس الإجماع نفسه، ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿إِذَا ثَوَدَتْكَ الصَّلَاةُ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٢) وهو عام يشمل الحر والعبد، والذكر والأنثى، وأجمعوا على أنه لا جمعة على عبد ولا امرأة^(٣).

وكقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(٤) فهو عام يشمل كل الأولاد الأحرار والأرقاء، وخص الرقيق بالإجماع؛ لأن الرق مانع من الإرث.

٤ - التخصيص بالقياس:

وذلك في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾^(٥) فهو عام يشمل كل زان؛ حراً أو عبداً، وكل زانية حرة أو أمة، لكن الأمة خصصت بآية أخرى هي قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾^(٦) ولم يرد في العبد نص، فقاسه العلماء على الأمة بجامع الرق في كُلِّ، فيكون حكمه نصف ما على الأحرار من الرجال.

(١) سورة النور: الآية ٢.

(٢) سورة الجمعة: الآية ٩.

(٣) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص ١٦٠.

(٤) سورة النساء: الآية ١١.

(٥) سورة النور: الآية ٢.

(٦) سورة النساء: الآية ٢٥.

وهناك أيضاً أنواع من المخصصات المنفصلة، كالتخصيص بالعقل، وبالحس، وبالعادة، وقرائن الأحوال، وبالمفهوم، وقول الصحابي، وبالسباق، وبقضايا الأعيان^(١).

حكم تخصيص السنة بالقرآن:

إذا كان القرآن الكريم يخصص بالسنة، فهل تخصص السنة بالقرآن؟

الجواب: اختلف العلماء في ذلك وجمهور أهل العلم على جوازه^(٢)، وعد السيوطي أمثلة ذلك من العزيز يعني القليل أو النادر، ثم ذكر أمثلة ذلك^(٣):

كقول الرسول ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»^(٤) فإنه مخصوص بقوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾^(٥).

ونهي الرسول ﷺ عن الصلاة في الأوقات المكروهة عام يشمل النوافل وقضاء الفرائض وهو مخصوص بقوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾^(٦) والمحافظة على الصلوات تقتضي قضاء الفوائت في كل وقت حتى أوقات النهي.

وقول الرسول ﷺ: «ما أبين من حيٍّ فهو ميت»^(٧) عام في تحريم كل ما

(١) انظر إرشاد الفحول: الشوكاني، ص ١٥٥-١٦٢، وإتحاف ذوي البصائر: د. النملة، ج ٦، ص ٢٧٨-٢١٦.

(٢) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص ١٥٧.

(٣) الإيتقان: السيوطي، ج ٢، ص ٢٣.

(٤) رواه البخاري كتاب الزكاة، ج ٢، ص ١١٠، ومسلم كتاب الإيمان، ج ١، ص ٥١.

(٥) سورة التوبة: الآية ٢٩.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٣٨.

(٧) إتحاف السادة المتقين: الزبيدي المرتضى، ج ٢، ص ٥٠٣، ورواه بلفظ «ما قطع من

البهيمة وهي حية فهو ميتة»، أحمد في مسنده ٢١٨/٥، والدارمي ٩٣/٢، وأبو داود =

يقطع من البهيمة وهي حية وخصصه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاوَمْتَعًا إِلَى حِينٍ﴾^(١).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي»^(٢) عام يشمل الأغنياء والأقوياء، وهو مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهِ﴾؛^(٣) حيث يحل لهم الأخذ من الزكاة حتى ولو كانوا أغنياء وأقوياء.

وقوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»^(٤) عام مخصوص بقوله تعالى: ﴿فَقَتِّلُوا آلَ بَنِي﴾^(٥).

عمرم الخطاب وخصوصه:

وتحتة مسائل:

الأولى: الخطاب الخاص بالرسول ﷺ هل يشمل الأمة أم لا؟
كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾^(٦) وقوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ﴾^(٧).

= ٢٧٧/٣ (٢٨٥٨) والترمذي ٧٤/٤، والبيهقي ٢٤٥/٩، والحاكم، ج٤، ص٢٣٩ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه وقال الألباني في غاية المرام ص٤٣: الإسناد صحيح.

(١) سورة النحل: الآية ٨٠.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج٢، ص١٩٢، ٣٨٩، ج٥، ص٣٧٥، والنسائي في سننه، ص٣٦٠، حديث (٢٥٩٨).

(٣) سورة التوبة: الآية ٦٠.

(٤) رواه البخاري، كتاب الإيمان، ج١، ص١٣، ومسلم، كتاب الفتن، ج٤، ص٢٢١٤.

(٥) سورة الحجرات: الآية ٩.

(٦) سورة الأحزاب: الآية ١.

(٧) سورة المائدة: الآية ٤١.

الجواب : للعلماء في ذلك قولان :

الأول : أنه يشمل الأمة ، لأن أمر القدوة أمر لأتباعه معه عرفاً^(١) إلا ما دلّ الدليل على أنه من خواصه ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَأَمْرَةٌ مُّؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) فلو كان الخطاب الخاص بالرسول ﷺ لا يشمل الأمة لما احتاج إلى التخصيص بقوله : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ ﴾ .

الثاني : قول الأصوليين : أنه لا يشمل الأمة ، وذلك لخصوص اللفظ وإن شملهم فبدليل آخر ، لا بمجرد النص المذكور^(٣) .

المسألة الثانية : الخطاب العام بلفظ ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾ و﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ هل يشمل الرسول ﷺ أم لا ؟
الجواب : للعلماء في ذلك أقوال :

الأول : أنه يشمل الرسول ﷺ لعموم الصيغة ، وعليه الأكثرون ، واختاره الغزالي والآمدي وابن الحاجب ، والرازي ، وابن قدامة ، وأبو يعلى وأبو الخطاب الحنبلي .

الثاني : أنه لا يشمل ؛ لما له من الخصائص دون الأمة ، وهو قول الشيرازي .

الثالث : فيه تفصيل : إن كان الخطاب موجهاً لأمته ، مثل ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ الآية^(٤) فلا يدخل . قال بعضهم بلا خلاف^(٥) ، وإن كان

(١) الإتقان : السيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٥٠ .

(٣) المحصول : الرازي ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢٠-٦٢١ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

(٥) إرشاد الفحول : الشوكاني ، ص ١٢٩ .

الخطاب بلفظ يشمل الرسول ﷺ نحو ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ و﴿يَعِبَادِ﴾ فإنه يشملهم .

الرابع : إن سبق الخطاب بلفظ «قل» لم يشملهم ؛ كقوله : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(١) وإلا شمله وهو قول الصيرفي والحليمي .

المسألة الثالثة : الخطاب العام بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هل يشمل الكفار أم لا ؟ وذلك نحو قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) .

الجواب : للعلماء في ذلك قولان :

الأول : أنه يشملهم لعموم الصيغة وهم من الناس . وهو قول الجمهور^(٣) .

الثاني : أنه لا يشملهم لعدم تكليفهم بالفروع .

المسألة الرابعة : الخطاب العام بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ، مثل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾^(٤) وقوله سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾^(٥) هل يشمل الكافر أم لا ؟

الجواب : للعلماء في ذلك قولان :

الأول : أنه لا يشمل الكفار ؛ لأنهم غير مخاطبين بالفروع .

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٨ .

(٢) سورة الحج : الآية ١ .

(٣) إرشاد الفحول : الشوكاني ، ص ١٢٨ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٧٨ .

(٥) سورة المائدة : الآية ٩٠ .

الثاني: أنه يشملهم لعموم التكليف بهذه الأمور واختصاص المؤمنين بالخطاب للتشريف. وقد ثبت تحريم الربا في حق أهل الذمة. قال الزركشي: وفيه نظر، والخلاف يرجع إلى أن الكفار هل هم مخاطبون بالفروع أم لا؟

المسألة الخامسة: صيغة الجمع المذكر التي تفيد العموم هل تشمل النساء أم لا؟

الجواب: في ذلك تفصيل:

١ - إن كان الجمع يتناول الذكور والإناث لغة ووصفاً مثل «الناس» فهذا يشمل الإناث بالاتفاق.

٢ - إن كان الجمع بلفظ لا يبين فيه التذكير والتأنيث؛ مثل أدوات الشرط؛ كقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(١) فإنه يشمل النساء باتفاق.

٣ - إذا كان الجمع خاص بالذكور مثل لفظ «الرجال»، فلا يشمل النساء باتفاق.

٤ - إذا كان الجمع خاص بالإناث مثل «النساء» و«بنات» فلا يشمل الرجال باتفاق.

٥ - إذا كان الجمع بلفظ ظهرت فيه علامة التذكير مثل: «المؤمنون» «الصابرون» «المسلمون» أو ضمير الجمع المذكر مثل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾^(٢) ففيه خلاف:

فقيل: يشمل النساء، وهو مذهب أكثر الحنفية والحنابلة وبعض المالكية والشافعية، واستدلوا بأنه متى اجتمع المذكر والمؤنث غلب التذكير، ولذلك لو قال لمن بحضرته من الرجال والنساء: قوموا واقعدوا تناول جميعهم،

(١) سورة الزلزلة: الآية ٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٣١.

ولو قال: قوموا وقمن واقعدوا واقعدن لعد تطويلاً ولكِنَّه. وبَيَّنَّه قوله تعالى: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾^(١)، وكان ذلك خطاباً لآدم وحواء وإبليس، فلو كانت النساء لا يدخلن لقليل لآدم وإبليس: اهبطا، ولحواء: اهبطي، وأكثر خطاب الله تعالى في القرآن بلفظ التذكير، مثل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٢) و﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(٣) وغير ذلك، والنساء يدخلن في جملة بالإجماع^(٤).

وقيل: لا يشمل النساء، وهو مذهب أكثر الشافعية وأكثر الفقهاء والمتكلمين واستدلوا بأنه ذكر المسلمات بلفظ متميز، فما يذكر بلفظ المسلمين لا يدخلن فيه إلا بدليل.

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

للألفاظ مع أسباب النزول أحوال هي^(٥):

أولاً: عموم اللفظ والسبب:

وذلك كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعِزُّوا نِسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ الآية^(٦)، فلفظها عام لكل النساء وسبب نزولها أيضاً عام؛ فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل

(١) سورة البقرة: الآية ٣٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٤٣.

(٣) سورة النساء: الآية ٣٦.

(٤) إتحاف ذوي البصائر: د. النملة، ج٦، ص ١٥٩-١٦١ (بتصرف يسير).

(٥) انظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص ٨٢-٨٣.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ: «جامعوهن في البيوت، واصنعوا كل شيء إلا النكاح»^(١). وهذا عموم في اللفظ وعموم في السبب.

ثانياً: خصوص اللفظ والسبب:

وذلك؛ كقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ إِلَّا أَثْمَاءً وَجَدَ رِبَّهُ الْأَعْلَى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾^(٢) فإنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، و(أل) في (الأتقى) للعهد وتفيد الخصوص، وليست (أل) الاستغراق التي تفيد العموم؛ لأن (أل) تفيد العموم إذا كانت موصولة، أو معرفة في جمع على الراجح.

وهي هنا ليست موصولة؛ لأنها لا توصل بأفعل التفضيل، والأتقى ليس جمعاً بل مفرد، والعهد موجود، فدل ذلك على أنها للعهد، وليست للاستغراق.

ولذلك قال الواحدي: الأتقى: أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين، عن عروة: أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله؛ بلال، وعامر بن فهيرة، والنهدية وابنتها، وزنيرة، وأم عيسى، وأمة بني المؤمل، وفيه نزلت ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة^(٣) وهذا خصوص في اللفظ وخصوص في السبب.

ثالثاً: عموم اللفظ وخصوص السبب:

واختلف العلماء في هذه الصورة، هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص

السبب:

(١) رواه مسلم جـ ١، ص ٢٤٦؛ وأبو داود كتاب الطهارة، ص ٤٦ ح (٢٥٨).

(٢) سورة الليل: الآيات ١٧-٢١.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: جـ ١٠، ص ٣٤٤١.

١ - ذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(١) فقال الرجل: يا رسول الله: ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم»^(٢).

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: «فهذا الذي أصاب القبلة من المرأة نزلت في خصوصه آية عامة اللفظ، فقال للنبي ﷺ: ألي هذه؟ ومعنى ذلك: هل النص خاص بي لأنني سبب وروده؟ أو هو على عموم لفظه؟ وقول النبي ﷺ له: «لجميع أمتي» معناه أن العبرة بعموم لفظ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ لا بخصوص السبب، والعلم عند الله تعالى»^(٣). ولو كان المراد تخصيصه بالحكم، لكان النص: إن حسناتك تذهب سيئاتك، فدل عمومها على عموم حكمها وعدم اعتبار سببها.

واعتمد هذه القاعدة أكثر علماء الأمة من مفسرين وغيرهم، والمحققون من أهل الأصول، بل حكى الزركشي الإجماع^(٤) على ذلك وطبقها السلف في تفسيرهم^(٥).

(١) سورة هود: الآية ١١٤.

(٢) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة، ج١، ص ١٣٣-١٣٤، ورواه مسلم، كتاب التوبة حديث ٣٩-٤٢، ج٤، ص ٢١١٦.

(٣) أضواء البيان: الشنقيطي، ج٣، ص ٢٥٠.

(٤) البحر المحييط: الزركشي، ج٣، ص ١٩٨.

(٥) انظر قواعد الترجيح عند المفسرين: حسين الحارثي، ج٢، ص ٥٤٥-٥٤٩، باختصار.

ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَمُ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم^(٢).

وروى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن معقل بن مقرن، قال: جلست إلى كعب بن عجرة فسألته عن الفدية فقال: نزلت فيّ خاصة، وهي لكم عامة^(٣).

وأخرج الطبري عن محمد بن كعب القرظي قوله: «إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد»^(٤).

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وقصر عمومات القرآن على أسباب نزولها باطل، فإن عامة الآيات نزلت بأسباب اقتضت ذلك، وقد علم أن شيئاً منها لم يقتصر على سببه»^(٥).

٢ - وذهب جماعة إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ:

وأن اللفظ دليل على صورة السبب الخاص، ولا بد من دليل كالقياس لدخول غير صورة السبب في الحكم.

قلت: ولعل خلافهم لفظي فهم يعممون الحكم على غير من نزلت فيه بالقياس فيصبح الحكم عاماً، فالقول الأول أخذ العموم من اللفظ، والقول الثاني أخذه بالقياس^(٦).

(١) سورة البقرة: الآية ٨.

(٢) جامع البيان: الطبري، ج١، ص ١١٦.

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، ج١، ص ١٥٨؛ ومسلم، كتاب الحج، ج٢، ص ٨٦٢، ح (٨٥).

(٤) جامع البيان: الطبري، ج٢، ص ٣١٣.

(٥) مجموع الفتاوى: ابن تيمية، ج١٥، ص ٣٦٤.

(٦) انظر إتحاف ذوي البصائر: د. النملة، ج٦، ص ١٤١.

الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه :

والمراد به : الاحتجاج بالعام المخصوص فيما عدا المخصوص ولا يخلو من حالتين :

١ - أن يكون الْمُخَصَّصُ مبهماً :

كأن يقول : اقتلوا المشركين إلا بعضهم . فهذا لا يحتج به لأمرين :

أ - لأنه ما من فرد إلا ويجوز أن يكون هو المستثنى .

ب - إخراج المجهول من المعلوم يصيره مجهولاً .

وحكى الإجماع على عدم الاحتجاج به جماعة منهم القاضي أبو بكر، وابن السمعاني والأصفهاني .

ونقل الزركشي مخالفة ابن برهان لذلك وقوله بالإضراب عن المخصص والعمل بالعام في جميع أفراداه لأنه الأصل .

٢ - أن يكون المخصص مبيناً :

ولنضرب للتوضيح مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ إِلَىٰ أَوْلِيَٰهِنَّ بِمَا ضَعَفْنَ عَلَىٰ الْوَلَدِ بِأَنَّهُنَّ كَذَبَتْنَ عَلَىٰ سَعْيٍ ﴾ (١) فلفظ المطلقات هنا عام يشمل ستاً : المدخول بها، وغير المدخول بها، والحامل، وغير الحامل، والتي تحيض، والآيسة من المحيض، وجاء تخصيص ثلاث منهن : الحامل في قوله تعالى : ﴿ وَأُولَٰئِكَ يَرْجِعْنَ إِلَىٰ أَوْلِيَٰهِنَّ بِمَا ضَعَفْنَ عَلَىٰ الْوَلَدِ بِأَنَّهُنَّ كَذَبَتْنَ عَلَىٰ سَعْيٍ ﴾ (٢) والآيسة في قوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي يَبْسُتُ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ (٣) وغير المدخول بها في

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٨ .

(٢) سورة الطلاق : الآية ٤ .

(٣) سورة الطلاق : الآية ٤ .

قوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ﴾^(١) فبقي من الست ثلاث: المدخول بها، وغير الحامل، والتي تحيض فهل يبقى قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ حجة في بيان عدتهن بعد أن خصص منه بعضهن أم لا؟

الجواب: أن للعلماء في ذلك ثلاثة أقوال هي:

الأول: أنه حجة فيما بقي:

وهو قول الجمهور من الفقهاء والأصوليين وقال الشوكاني: «وهو الحق الذي لا شك فيه، ولا شبهة»^(٢).

واستدلوا بأدلة منها:

١ - إجماع الصحابة - رضي الله عنهم - ومن بعدهم على الاحتجاج بالعمومات وأكثرها قد خصص، ومن ذلك:

احتجاج فاطمة رضي الله عنها بعموم قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾^(٣) على طلب حقها من ميراث أبيها ﷺ، ولم ينكر عليها أبو بكر ولا غيره من الصحابة احتجاجها بالآية مع أنها مخصصة بالكافر، والقاتل، والعبد وإنما بين لها أبو بكر رضي الله عنه ما سمعه من الرسول ﷺ أنه قال: «لا نورث ما تركناه صدقة»^(٤).

٢ - أن العام قبل التخصيص حجة في كل أفراد إجماعاً، وإخراج بعضها بمخصص لا يقتضي إلغاء دلالة اللفظ على ما بقي، والأصل بقاء ما

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٩.

(٢) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص ١٣٧.

(٣) سورة النساء: الآية ١١.

(٤) رواه البخاري، كتاب الفرائض، ج ٨، ص ٣٠، ومسلم، ج ٣، ١٣٨١.

كان قبل التخصيص على ما كان عليه إلا أن يوجد له معارض، ولا معارض فوجب ثبوت الحكم وبقاؤه.

٣ - أنه ما من عام إلا وقد خص إلا النادر، ولو قلنا: إنه غير حجة فيما بقي للزم إبطال كل عموم، وغالب أحكام الشريعة إنما يثبت بالعموم إذ يتعذر النص على كل فرد من أفرادها بالحكم، بل يستحيل، ولا تدركه مدارك البشر وقواهم.

الثاني: أنه ليس بحجة فيما بقي:

وذهب إليه عيسى بن أبان وأبو ثور الشافعي. واستدلوا بأن العام قد وضع حقيقة لجميع أفرادها، فإذا أخرج بعضها فإن إطلاق العام على ما بقي، وهو بعض أفرادها، يكون مجازاً، فلم يبق للفهم إلا القرينة، ولا قرينة فيصير مجملاً، ولا يحمل على شيء منها، فلا يصلح للاحتجاج.

الثالث: أنه إن خص بمتصل كالشرط والصفة فهو حجة فيما بقي، وإن خص بمنفصل فليس بحجة، بل يصير مجملاً، وهو قول الكرخي، والبلخي والباقلاني^(١).



(١) انظر إتحاف ذوي البصائر: د. النملة، ج٦، ص ١٦٤-١٧٨، وإرشاد الفحول: الشوكاني، ص ١٣٧-١٣٨، وقد ذكر في المسألة ثمانية أقوال، وانظر المحصول: للرازي، ج١، ق٣، ص ٢٢-٢٩، والعقد المنظوم: القرافي، ج٢، ص ٢٣٧-٢٤٠.

المطلق والمقيد

جاءت بعض الأحكام الشرعية في القرآن الكريم والسنة النبوية مطلقة غير مقيدة بشرط أو وصف أو غير ذلك، وجاء بعضها مقيداً بوصف أو شرط أو غيرهما.

والأصل في المطلق أن يبقى على إطلاقه، إلا إذا صح الدليل على تقييده؛ لأن الإطلاق لحكمة كما أن التقييد لحكمة، وفي كل منها رعاية لمصلحة العباد في الدنيا والآخرة.

والدليل على تقييد المطلق أحياناً يكون بالنص، وهذا ظاهر لا خلاف فيه، وأحياناً لا يصرح بالقيّد، وإنما تدل عليه الأحوال والقرائن من نصوص أخرى جاءت مقيدة، ومن العلماء من يحمل المطلق منها على المقيد، ومنهم من لا يحمله، وعلى هذا قول الشافعي رحمه الله تعالى: «اللفظ بيّن في مقصوده ويحتمل في غير مقصوده»^(١) وهو ما يدرسه العلماء في باب المطلق والمقيد في كتب الأصول وعلوم القرآن والحديث.

تعريف المطلق:

المطلق في اللغة هو المنفك من كل قيد حسيّاً كان أو معنويّاً، تقول: أطلقت الدابة إذا فككت قيدها وسرحتها، وهذا إطلاق حسي، ويقال: طلق الرجل زوجته إذا فك قيدها من الارتباط به، وهذا إطلاق معنوي.

(١) البرهان: الزركشي، جـ ٢، ص ١٨.

المطلق في الاصطلاح:

ذكر العلماء تعريفات كثيرة منها:

المطلق هو: ما دل على الماهية بلا قيد من حيث هي هي^(١).

وقال ابن قدامة هو: «المتناول لواحد لا بعينه باعتبار حقيقة شاملة لجنسه»^(٢).

وقال ابن فارس: «أما الإطلاق: فأن يذكر الشيء باسمه لا يقرن به صفة، ولا شرط، ولا شيء يشبه ذلك»^(٣).

وعند الآمدي: المطلق هو «النكرة في سياق الإثبات»^(٤).

قال القرافي: «كل شيء يقول الأصوليون: إنه مطلق، يقول النحاة: إنه نكرة.. وكل شيء يقول النحاة: إنه نكرة، يقول الأصوليون: إنه مطلق.. فكل نكرة في سياق الإثبات مطلق عند الأصوليين، فما أعلم موضعاً ولا لفظاً من ألفاظ النكرات يختلف فيها النحاة والأصوليون، بل أسماء الأجناس كلها في سياق الثبوت هي نكرات عند النحاة، ومطلقات عند الأصوليين»^(٥).

ومن المعلوم أن النكرة عند النحاة: هي كل اسم شائع في جنسه، لا يختص به واحد دون آخر، مثل رجل، كتاب، فرس^(٦).

(١) البحر المحيط: الزركشي، ج٥، ص٥، وانظر إرشاد الفحول: للشوكاني، ص١٦٤.

(٢) روضة الناظر: ابن قدامة، ص١٣٦.

(٣) الصاحبى: ابن فارس، ص١٦٤.

(٤) الإحكام في أصول الأحكام: الآمدي، ج٣، ص٣.

(٥) العقد المنظوم: القرافي، تحقيق محمد علوي بنصر، ج١، ص٣٠٤.

(٦) المرجع السابق: القرافي، تحقيق د. أحمد الختم، ج١، ص١٨٩ (الهامش).

ولهذا قال الآمدي بعد ذلك: وإن شئت قلت: «هو اللفظ الدال على مدلول شائع في جنسه»^(١).

وعرف ابن الحاجب وغيره من الأصوليين المطلق بأنه: «ما دل على شائع في جنسه»^(٢).

وبهذا يتبين أنه لا فرق بين المطلق والنكرة غير المستغرقة في سياق الإثبات بل هما بمعنى واحد في عرف النحاة والأصوليين^(٣).

ومثال المطلق الرقبة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن سَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحَرِّرْ رَقَبَةً مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾^(٤).

المقيد لغة:

هو ما يقابل المطلق في اللغة، فالقيد هو الربط حسيّاً كان أو معنوياً تقول: قيدت الدابة إذا ربطتها بحبل ونحوه، وهذا قيد حسي، وفي الحديث: «الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن»^(٥) قال ابن منظور: «معناه أن الإيمان يمنع عن الفتك بالمؤمن»^(٦) ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قيدوا العلم بالكتاب»^(٧). قلت: وهذا وذاك قيد معنوي.

(١) الإحكام: الآمدي، ج٣، ص٣.

(٢) بيان المختصر (شرح مختصر ابن الحاجب): لأبي الثناء الأصفهاني، ج٢، ص٣٤٩.

(٣) العقد المنظوم: القرافي، ج١، ص١٨٩ (الهامش).

(٤) سورة المجادلة: الآية ٣.

(٥) مسند الإمام أحمد ج١، ص١٦٦، وسنن أبي داود، ج٣، ص٨٧، مجمع الزوائد:

ج١، ص٩٦، والمستدرک، ج٣، ص٣٥٢، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح

على شرط مسلم ولم يخرجاه، وصححه الألباني في الصحيحة ج١، ص٥٤١

حديث (٢٨٠٢).

(٦) لسان العرب: ابن منظور، ج٣، ص٣٧٢.

(٧) سنن الدارمي، ج١، ص١٣٨.

والمقيد اصطلاحاً:

ذكر العلماء له تعريفات كثيرة وهو ما يقابل المطلق على اختلاف التعريفات:

ف قيل: هو ما دل على الماهية بقيد^(١).

وقيل: هو المتناول لمعين، أو لغير معين موصوف بأمر زائد على الحقيقة الشاملة لجنسه^(٢).

ومثال المقيد الرقبة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ﴾^(٣) فاشتراط في الرقبة أن تكون مؤمنة، وهذا قيد لها، ولو لم يشترط لكانت الرقبة مطلقة.

الفرق بين العام والخاص والمطلق والمقيد:

يبحث الأصوليون المطلق والمقيد في كتاب العام والخاص. قال القرافي: «وإنما وضع الأصوليون حمل المطلق على المقيد في كتاب الخصوص والعموم بسبب أن المطلق هو (قسيم) العام، والتقييد (قسيم) الخاص. وهذه الأقسام تلتبس جداً على كثير من الفضلاء، وربما اعتقدوا المطلق عاماً. . والتبس التقييد بالتخصيص. .»^(٤) وقال في موضع آخر: «إن مدلول المطلق فائت ومتعذر ولم أرَ أحداً تعرض لذلك، بل يسوون في الأصول والفروع بين هذه المثل ويجعلون البحث واحداً، وليس كذلك»^(٥).

(١) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص ١٦٤.

(٢) روضة الناظر: ابن قدامة، ص ١٣٦.

(٣) سورة النساء: الآية ٩٢.

(٤) العقد المنظوم: القرافي، ج ٢، ص ٤٧٠.

(٥) المرجع السابق: ج ٢، ص ٤٨٨.

وقال عن العموم: «اعلم أن مسمى العموم في غاية الغموض والخفاء، ولقد طالبت بتحقيقه جماعة من الفضلاء فعجزوا عن ذلك»^(١).

ومع هذا فقد عقد في كتابه «العقد المنظوم في الخصوص والعموم» باباً خاصاً في الفرق بين العام والمطلق^(٢) إضافة إلى ذكره الفروق بينهما في تعريفه للعام ومن أظهر الفروق:

أن المطلق يقتصر بحكمه على فرد من أفراده دون الجميع، كإعتاق الرقبة، فإنه إذا أعتق رقبة لا يلزمه إعتاق الباقي، أما العموم فإن حكمه يعم جميع أفراده بالتساوي، فإذا قتلنا مشركاً ثم وجدنا آخر وجب قتله أيضاً^(٣).

بمعنى أن الحكم في العام يثبت لكل أفراد، أما المطلق فيثبت لأحد أفراد بلا تخصيص، فإذا قام في أحدها انقطع عن الباقي.
فإن قلت: هذا هو التخصيص.

قلت: لا، فإن التخصيص قبله عموم، ثم خرج بعض أفراد، وأما المطلق فالمراد به بعض أفراد العام من أول الأمر.

فإذا قال رجل: كل زوجة لي فهي طالق، فهذا اللفظ عام يوجب طلاق زوجاته جميعاً.

وإذا قال: كل زوجة لي فهي طالق إلا فلانة، فهذا تخصيص يوجب استثناءها من الطلاق بعد أن كان الحكم يشملها.

وإذا قال: إحدى زوجاتي طالق، فهذا لفظ مطلق يوجب طلاق إحدى زوجاته دون البقية، فإذا طلقت واحدة سلمت الأخريات.

(١) المرجع السابق: ج ١، ص ٢٧٥.

(٢) انظر هذا الباب في ج ١، ص ٢٩٣-٣١٨.

(٣) المرجع السابق: ج ١، ص ٢٨٢.

وإذا قال: زوجتي الوسطى أو الكبيرة أو الصغيرة طالق، فهذا تقييد
يوجب طلاقها بعينها من أول الأمر ومن غير أن يشمل غيرها. والله أعلم.

صور حمل المطلق على المقيد:

إذا ورد الخطاب مطلقاً لا مقيد له، وجب حمله على إطلاقه، وإذا ورد
الخطاب مقيداً لا مطلق له، وجب حمله على تقييده^(١).

وإذا ورد الخطاب مطلقاً في موضع ومقيداً في آخر فله أربع صور:

الصورة الأولى: أن يتحد السبب والحكم:

فقد ورد تحريم (الدم) مطلقاً في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ
وَالْحَمُّ الْخَنِزِيرُ وَمَا أَهْلُ لَيْعٍ لِلَّهِ بِهِ﴾^(٢) وورد تحريمه مقيداً بكونه مسفوحاً في قوله
تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ
دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ﴾^(٣).

والحكم في الآيتين واحد وهو (التحريم)، والسبب واحد، فاتحد الحكم
والسبب، فيحمل المطلق على المقيد باتفاق؛ لأن العمل بالمقيد عمل بالآيتين،
والعمل بالمطلق عمل بإحدى الآيتين دون الأخرى، والعمل بهما أولى من
العمل بإحدهما، وبالعمل بالآيتين يخرج المكلف من العهدة بيقين^(٤).

وكقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾^(٥)
فإنه مطلق وورد القيد في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ

(١) البحر المحيط: الزركشي، ج ٥، ص ٨، وإرشاد الفحول: الشوكاني، ص ١٦٤.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٤٥.

(٤) إرشاد الفحول: الشوكاني، ج ٢، ص ٦، من تعليق المحقق.

(٥) سورة النساء: الآية ١١.

فَلَا تُمِيرُ الثَّلَاثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴿١﴾
 فنصيبه هنا مقيد بأن يكون بعد الوصية والدين، فيحمل المطلق على المقيد
 في جميع الموارِيث، فلا يوزع شيء من التركة على الورثة إلا بعد الوصية
 والدين.

الصورة الثانية: أن يختلف السبب والحكم:

فإذا اختلف السبب والحكم، فلا يحمل المطلق على المقيد باتفاق،
 فقله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(٢) مطلق في الأيدي من
 غير تقييد لأي اليدين، أو إلى أي حد يكون القطع، أما غسل الأيدي في
 قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ
 وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾^(٣) فمقيد إلى المرافق، ولا يصح هنا حمل المطلق
 على المقيد لاختلاف السبب (سرقة في المطلق) و(وضوء في المقيد)
 واختلاف الحكم (قطع في المطلق) و(غسل في المقيد) فلا يحمل المطلق
 على المقيد باتفاق كما قال الشوكاني وحكاه الباقلاني والجويني وإلكيا
 الهراس وابن برهان والآمدي وغيرهم^(٤).

الصورة الثالثة: أن يتحد السبب ويختلف الحكم:

فغسل الأيدي في الوضوء مقيد إلى المرافق في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾^(٥).

(١) سورة النساء: الآية ١١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٨.

(٣) سورة المائدة: الآية ٦.

(٤) إرشاد الفحول: الشوكاني، ج ٢، ص ٩.

(٥) سورة المائدة: الآية ٦.

ومسح الأيدي في التيمم مطلق في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾^(١).

ولو نظرنا في الآيتين لوجدنا سبب الوضوء والتيمم واحد، وهو (الحدث)، ولكن الحكم مختلف، ففي الآية الأولى الحكم (الغسل)، وفي الثانية (المسح).

وفي هذه الصورة لا يحمل المطلق على المقيد، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «لا خلاف في أنه لا يحمل أحدهما على الآخر بوجه من الوجوه سواء كانا مثبتين أو منفيين أو مختلفين، اتحد سببهما أو اختلف، وقد حكى الإجماع جماعة من المحققين آخرهم ابن الحاجب»^(٢).

الصورة الرابعة: أن يختلف السبب ويتحد الحكم:

وإذا كان العلماء في الصور الثلاث السابقة اتفقوا أو كادوا على حكم كل صورة، فإنهم في هذه الصورة قد اختلفوا.

ولهذه الصورة حالتان:

الأولى: أن يكون القيد واحداً:

فالرقبة (مطلقة) في كفارة الظهار في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾^(٣).

ومطلقة في كفارة اليمين في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾^(٤).

(١) سورة المائدة: الآية ٦.

(٢) إرشاد الفحول: الشوكاني، ج ٢، ص ١٢.

(٣) سورة المجادلة: الآية ٣.

(٤) سورة المائدة: الآية ٨٩.

ومقيدة بالإيمان في كفارة القتل الخطأ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾^(١).

وإذا نظرنا إلى أسباب الكفارة في الآيات الثلاث وجدناها مختلفة، فالسبب في الآية الأولى (الظهار)، وفي الثانية (الحنث باليمين)، وفي الثالثة (قتل المؤمن خطأ).

وإذا نظرنا إلى الحكم وجدناه واحداً وهو عتق الرقبة، لكنه في الظهار واليمين مطلق، وفي القتل مقيد، فهل يحمل المطلق في هذه الصورة على المقيد فنوجب في كفارة الظهار واليمين أن تكون الرقبة مؤمنة أيضاً. هذا ما وقع الخلاف فيه بين العلماء.

فذهب الأحناف وأكثر المالكية وروى عن الإمام أحمد إلى أنه لا يحمل المطلق على المقيد، فيجوز في كفارة الظهار واليمين عتق الرقبة الكافرة. ولا يجوز في كفارة القتل إلا الرقبة المؤمنة.

وذهب أكثر الشافعية والحنابلة إلى حمل المطلق على المقيد فيجب أن تكون الرقبة مؤمنة في جميع الكفارات.

الثانية: أن يكون القيد متعدداً:

فالصوم (مطلق) في كفارة اليمين في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾^(٢) وفي قضاء رمضان ﴿فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾^(٣).

(١) سورة النساء: الآية ٩٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ٨٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٤.

ومقيد بالتتابع في كفارة القتل في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾^(١) وكذلك في كفارة الظهار في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾^(٢).

ومقيد بالتفريق في صوم المتمتع بالحج في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾^(٣).

واتفق العلماء على أنه لا يحمل المطلق على المقيد لاختلاف القيد وعدم وجود مرجح لأحد القيود. وحمله على أحدهما دون الآخر بلا دليل: تَحَكُّمٌ، فليس أحدهما بأولى من الآخر^(٤).



(١) سورة النساء: الآية ٩٢.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٦.

(٤) إتحاف ذوي البصائر: د. النملة، ج٦، ص ٣٦٣.

المنطوق والمفهوم

حين تريد نقل معنى من ذهن إلى ذهن، فإن الوسيلة لذلك هي الكلمات والألفاظ، فالألفاظ هي قوالب المعاني، أو الظروف الحاملة للمعاني، فكل لفظ ينقل جزءاً من المعنى حتى يتم نقل المعنى كاملاً.

ودلالة الألفاظ على المعاني، إما أن تستفاد من جهة النطق والتصريح، أو من جهة التعريض والتلويح، ومن التصريح ما يخفى حتى يكاد أن يكون تلويحاً، ومن التلويح ما يظهر حتى يكاد أن يكون تصريحاً، وتحت هذه الحالات يدرس العلماء المنطوق والمفهوم.

المنطوق

وهو ما دل عليه اللفظ في محل النطق^(١)، أو دلالة اللفظ على حكم نُطِقَ به مطابقة أو تضمناً أو التزاماً^(٢).

وينقسم المنطوق إلى قسمين:

الأول: منطوق صريح:

ويراد به دلالة اللفظ على الحكم مطابقة أو تضمناً، وقيل هو ما وضع له اللفظ^(٣) وهو ثلاثة أنواع:

(١) بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب: أبو الثناء الأصفهاني، ج٢، ص ٤٣٢،

وإرشاد الفحول: الشوكاني، ج٢، ص ٥٤.

(٢) بيان المختصر: ج٢، ص ٤٣٣.

(٣) بيان المختصر: ج٢، ص ٤٣٣.

الأول: النص:

وهو ما أفاد بنفسه معنى صريحاً لا يحتمل غيره، وقيل: «ما لا يحتمل التأويل»^(١) وقيل: ما أفاد معنى لا يحتمل غيره^(٢)، ومثاله قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾^(٣) فإن قوله: (عشرة) دفع توهم دخول الثلاثة في السبعة، وقوله: (كاملة) تأكيد لهذا المعنى ودفع لأي احتمال آخر غير العشرة.

وقال قوم بندرة هذا النوع في الكتاب والسنة، ويجاب: بأن هذا إن عَزَّ حصوله بوضع الصيغ رداً إلى اللغة فما أكثره مع القرائن الحالية والمقالية^(٤).

الثاني: الظاهر:

وهو ما أفاد بنفسه معنى صريحاً واحتمل غيره احتمالاً مرجوحاً وقيل: «ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحاً»^(٥).

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾^(٦) فإنه يقال لانقطاع الدم: طهر، وللاغتسال منه: طهر، والثاني أظهر، وهو الراجح.

الثالث: المؤوّل:

وهو ما حمل لفظه على المعنى المرجوح لدليل.

(١) إرشاد الفحول، ج٢، ص ٥٤.

(٢) الإتقان: السيوطي، ج٢، ص ٤١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٦.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾^(١). فالظاهر من كلمة جناح هو جناح الريش، ويستحيل حمله على الظاهر؛ لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة، فيحمل على الخضوع وحسن الخلق^(٢)، وبهذا صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل وهو هنا الاستحالة.

الثاني: منطوق غير صريح:

ويراد به دلالة اللفظ على الحكم التزاماً، وهو نوعان:

الأول: دلالة الاقتضاء:

وهو ما توقفت دلالة اللفظ فيه على إضمار.

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾^(٣) فإن دلالة اللفظ على المعنى تلزم إضمار كلمة (فأفطر) والمعنى فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فأفطر فعدة من أيام أخر؛ لأن قضاء الصوم إنما يجب إذا أفطر وليس لمجرد السفر أو المرض.

وكقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾^(٤) فإن دلالة اللفظ على المعنى تلزم إضمار كلمة (وطء) أو (نكاح)؛ لأن التحريم ليس لأعيان الأمهات، فلزم إضمار فعل يتعلق به التحريم.

وكقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ يَوْمَ أَذَى مِنْ رَأْسِهِ فَعِدَّةٌ﴾^(٥) أي: فحلق ففدية، لأن الفدية إنما تجب إذا حلق، وليس لمجرد المرض أو الأذى.

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٤.

(٢) الإتيان: السيوطي، ج٢، ص٤١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٤.

(٤) سورة النساء: الآية ٢٣.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٩٦.

وهذا النوع من باب إيجاز القصر في علوم البلاغة. وسمي دلالة اقتضاء لاقتضاء الكلام لفظاً زائداً على المنطوق^(١).

الثاني: دلالة الإشارة:

وهو: ما دل لفظه على ما لم يقصد به قصداً أولياً بل من لازمه.

ومثاله: قوله تعالى: ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَاتَّبِعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾^(٢) فإنه يلزم من جواز الأكل والشرب والجماع حتى الفجر بحيث لا يتسع الوقت للغسل من الجنابة أن يصبح الصائم على جنابة، فتكون دلالة اللفظ أشارت إلى جواز إصباح الصائم على جنابة، وهو معنى لم يقصد باللفظ قصداً أولياً بل من لوازمه. قال السيوطي: وحكي هذا الاستنباط عن محمد بن كعب القرظي^(٣).

وكقوله تعالى في بيان مصارف الغنيمة: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾^(٤) ففي وصفهم بأنهم فقراء مع أن لهم أموالاً ودوراً في مكة إشارة إلى تملك الكفار أموالهم بالاستيلاء عليها. وهي دلالة غير مقصودة بالنص؛ لأنها إنما سيقت لبيان مصارف الفيء والغنيمة واستحقاقهم لسهم فيها، لا لبيان أن الكفار يملكون أموال المسلمين بالاستيلاء، لكن

(١) مباحث في علوم القرآن: الشيخ مناع القطان، ص ٢٥٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

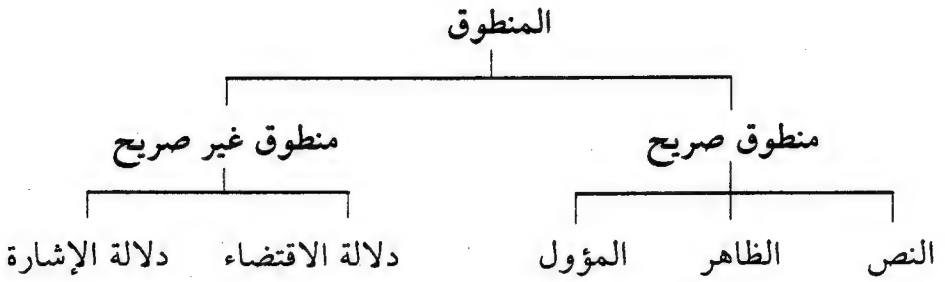
(٣) الإتيقان: السيوطي، ج ٢، ص ٤٢.

(٤) سورة الحشر: ٨.

وقعت الإشارة إليه من حيث إن الله سماهم فقراء مع إضافة الأموال إليهم، فلو كانت أموالهم باقية على ملكهم لما صحت تسميتهم بالفقراء إلا مجازاً، وهو خلاف الأصل^(١).

وقد وقع خلاف بين العلماء في اعتبار دلالة الاقتضاء ودلالة الإشارة من المنطوق أو المفهوم، فجعلهما الآمدي وابن الحاجب والسيوطي وغيرهم من المنطوق، وجعلهما الغزالي في «المستصفى» والبيضاوي والزركشي من المفهوم^(٢).

والخلاصة أن المنطوق خمسة أقسام:



المفهوم

وهو ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق^(٣).

وينقسم إلى قسمين:

١ - مفهوم موافقة.

٢ - مفهوم مخالفة.

(١) البحر المحيط: الزركشي، ج٥، ص ١٢٣-١٢٤ (بتصرف).

(٢) انظر المرجع السابق: ج٥، ص ١٢٣، والإتقان: للسيوطي، ج٢، ص ٤١-٤٢.

(٣) بيان المختصر: الأصفهاني، ج٢، ص ٤٣٢-٤٣٣، والإتقان: السيوطي، ج٢،

ص ٤٢، وإرشاد الفحول: الشوكاني، ج٢، ص ٥٤.

١ - مفهوم الموافقة :

هو ما وافق حكمه حكم المنطوق . وهو نوعان :

النوع الأول : فحوى الخطاب :

وهو ما كان المفهوم فيه أولى بالحكم من المنطوق .

كقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ ^(١) فإن تحريم التأفيف منطوق ، والمفهوم تحريم الضرب وهو أولى بالحكم ، فالضرب أشد حرمة من التأفيف مع أن تحريم التأفيف منطوق وتحريم الضرب مفهوم ، وهو تنبيه بالأدنى على الأعلى .

وكقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُودِّعْ إِلَيْكَ ﴾ ^(٢) فالمنطوق أنه أمين على المبلغ الكثير ، والمفهوم من باب أولى أنه لا يخون في المبلغ القليل ، وهو تنبيه بالأعلى على الأدنى .

النوع الثاني : لحن الخطاب :

وهو ما كان المفهوم فيه مساوياً لحكم المنطوق .

كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ ^(٣) فالمنطوق تحريم أكل مال اليتيم ظلماً ، والمفهوم تحريم إحراقه أو أي استهلاك له بغير حق ، لأن ذلك مساوٍ للأكل في الإلتلاف ^(٤) .

(١) سورة الإسراء : الآية ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٧٥ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٠ .

(٤) الإلتقان : السيوطي ، جـ ٢ ، ص ٤٢ .

٢ - مفهوم المخالفة :

هو ما خالف حكمه حكم المنطوق . أو «دلالة اللفظ على ثبوت حكم للمسكوت عنه مخالف لما دلَّ عليه المنطوق ، لانتفاء قيد من القيود المعتبرة في الحكم»^(١).

والمخالفة بين المنطوق والمفهوم تتنوع بتنوع القيد في الحكم المنطوق ، فقد تكون المخالفة بسبب الشرط في المنطوق دون المفهوم ، أو الصفة أو غير ذلك ، وعلى هذا فمفهوم المخالفة أنواع منها :

١ - مفهوم الصفة :

والمراد بها الصفة المعنوية ، وذلك بأن يكون في المنطوق صفة لا توجد في المفهوم فيختلف الحكم ، سواء كانت هذه الصفة :

نعتاً : كقوله تعالى : ﴿ إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْهُ ﴾^(٢) فالمنطوق أن شهادة الفاسق لا تقبل ، والمفهوم أن شهادة العدل تقبل ، فيجب قبول خبر الواحد الثقة .

حالاً : كقوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعَمَّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾^(٣) فالمنطوق أن الجزاء يجب على من كان متعمداً ، والمفهوم أن غير المتعمد لا يجب عليه شيء .

ظرفاً : زمنياً كقوله تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾^(٤) ومفهومه أن الحج في غير هذه الأشهر لا يصح . أو ظرفاً مكانياً كقوله سبحانه : ﴿ فَأَذْكُرُوا

(١) تفسير النصوص : د. محمد أديب صالح ، ج١ ، ص ٦٠٩ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ٦ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٩٥ .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٩٧ .

اللَّهِ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴿١﴾ ومفهومه أن ذكر الله عند غير المشعر الحرام لا يدخل في هذه الآية.

عدداً: كقوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوهُمَا ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ ﴿٢﴾ فالمنطوق ثمانين جلدة والمفهوم أن لا يجلدوا أقل من الثمانين ولا أكثر منها.

٢ - مفهوم شرط:

وذلك بأن يكون في المنطوق شرط، لا يوجد في المفهوم فيختلف الحكم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْ أُولَئِكَ حَمَلٍ فَانْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ﴿٣﴾ والمفهوم أن غير الحمل لا تجب لها النفقة لعدم وجود الشرط وهو الحمل.

٣ - مفهوم غاية:

وهو أن يكون الحكم في المنطوق مقيداً بغاية، والمفهوم أن الحكم يزول بعدها كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ ﴿٤﴾ فالمنطوق إباحة الأكل والشرب حتى طلوع الفجر، والمفهوم تحريم الأكل والشرب بعد طلوع الفجر.

وكقوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ ﴿٥﴾ فالمنطوق تحريم جماع الحائض قبل الطهر، والمفهوم إباحته بعد الطهر.

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٨.

(٢) سورة النور: الآية ٤.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٦.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

٤ - مفهوم حصر:

وهو أن يكون الحكم محصوراً في صورة المنطوق، والمفهوم أن لا يتحقق الحكم في غير هذه الصورة، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١) فالمنطوق أن العبادة لله والاستعانة بالله، والمفهوم أن لا يعبد غير الله، ولا يستعان بغيره.

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾^(٢) فالمنطوق أن الإله هو الله، والمفهوم أن الألوهية لا تكون لغيره سبحانه.

حكم الاحتجاج بالمفهوم:

أما مفهوم الموافقة فاحتج به الجمهور ولم يخالف في الاحتجاج به إلا الظاهرية.

وأما مفهوم المخالفة فاحتج به الجمهور، وخالفهم في ذلك الحنفية والظاهرية.

واستدل الجمهور على صحة الاحتجاج بمفهوم المخالفة بأدلة منها:

أولاً: لما نزل قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٣) قال الرسول ﷺ: «إني خirt فاخترت، وقد قيل لي: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» فلو أني أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت»^(٤). وفي

(١) سورة الفاتحة: الآية ٥.

(٢) سورة طه: الآية ٩٨.

(٣) سورة التوبة: الآية ٨٠.

(٤) تفسير الطبري، ج ١٤، ص ٤٠٨.

رواية «قد خيرني ربي، فوالله لأزيدن على السبعين»^(١) ففهم الرسول ﷺ أن ما زاد على السبعين بخلاف السبعين^(٢).

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مَنْ فَبَيْنَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ﴾^(٣) فمنطوق الآية أنه يباح لمن لم يستطع الزواج من الحرة أن يتزوج أمة، والمفهوم أن من يستطيع أن يتزوج حرة فلا يجوز له أن يتزوج أمة. وقد أجمع العلماء على ذلك واشتروا لإباحة الزواج من أمة عدم القدرة على الزواج من حرة احتجاجاً بمفهوم المخالفة في هذه الآية^(٤).

ثالثاً: استدلو بما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما من عدم توريث الأخت مع البنت احتجاجاً بمفهوم المخالفة من قوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْرُؤَا هَٰلِكَ لَيْسَ لِمَوْلَدٍ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا مِنْهُ نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾^{(٥)(٦)} فالمفهوم أنه إذا كان له ولد (ابن أو بنت) فإن الأخت لا ترث.

رابعاً: استدلو بما روي أن يعلى بن أمية قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما بالنا نقصر وقد أمنا، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ...﴾^(٧). فقال عمر: لقد عجبت مما عجبت منه

(١) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص ٢٥٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة النساء: الآية ٢٥.

(٤) المهذب: الشيرازي، ج ٢، ص ٤٤-٤٥، وتبيين الحقائق: الزيلعي، ج ٢، ص ١١١، وتفسير النصوص: د. محمد أديب صالح، ج ١، ص ٦٧١.

(٥) سورة النساء: الآية ١٧٦.

(٦) تفسير الطبري، ج ٩، ص ٤٤٣.

(٧) سورة النساء: الآية ١٠١.

فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال لي: «هي صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» فمنطوق الآية أن الصلاة تقصر في حالة الخوف والمفهوم أن لا تقصر في حالة الأمن، وهذا ما فهمه يعلى وفهمه عمر رضي الله عنه قبله. خامساً: ومن الأدلة العقلية^(١):

أنه لو كانت الصلاة تقصر في حالة الأمن وحالة الخوف لما كان في ذكر الخوف في الآية فائدة لأنها تقصر بدونه، فدل ذكره على أن عدمه يؤثر في الحكم تأثيراً مخالفاً، وهكذا في بقية الأمثلة.

واستدل الحنفية ومن وافقهم على عدم الاحتجاج بمفهوم المخالفة بأدلة منها^(٢):

١ - أن فوائد القيود التي يقيد بها اللفظ كثيرة، ولا يلزم أن تكون محصورة بتقييد الحكم، فلا نستطيع أن نحكم أن الفائدة لذلك القيد هي تخصيص الحكم بالمنطوق، ونفيه عما لا قيد فيه.

٢ - لم يعمل بمفهوم المخالفة في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، إذ لو عمل به لأدت هذه النصوص إلى معانٍ فاسدة، أو أحكام تنافي المقرر شرعاً.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾^(٣) لم يكن تخصيص الأربعة بالحرم دليلاً على إباحة الظلم في غيرها من الأشهر.

(١) انظر تفسير النصوص: د. محمد أديب صالح، ج١، ص ٦٧١-٦٧٢.

(٢) أصول الفقه الإسلامي: وهبة الزحيلي، ج١، ص ٣٦٨.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٦.

٣ - لو كان مفهوم المخالفة معتبراً لما احتجج إلى النص عليه صراحة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ (١) وقوله سبحانه: ﴿وَرَبِّبْكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ (٢).

ففي الآيتين نص الله سبحانه على حكم المسكوت عنه، ولم يكف مفهوم المخالفة لمعرفة حكم المسكوت عنه.

والرد على هذا القول ظاهر ببيان الشروط التي ذكرها الجمهور للاحتجاج بمفهوم المخالفة.

شروط الاحتجاج بمفهوم المخالفة:

وقد اشترط العلماء للاحتجاج بمفهوم المخالفة شروطاً منها:

أولاً: أن لا يكون للمسكوت عنه المراد إعطاؤه حكماً مخالفاً لحكم المنطوق دليلٌ خاصٌ يدل على حكمه:

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ (٣) فمفهوم الآية أنه في حالة الأمن لا تقصر الصلاة، والصواب أنه لا يصح الاحتجاج بهذا المفهوم؛ لأن قصر الصلاة في حالة الأمن ورد بنص آخر صريح ومنطوق، وهو أقوى من المفهوم في هذه الآية.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٣.

(٣) سورة النساء: الآية ١٠١.

ثانياً: ألا يكون القيد خرج مخرج الغالب :

وذلك كالقيد بالحجور في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّيْكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾^(١) فالريبة وهي بنت الزوجة تحرم على زوج الأم، ومفهوم المخالفة أنها إذا لم تكن في حجر الزوج لا تحرم عليه، والصحيح أنها تحرم سواء كانت في حجره أم لم تكن، وإنما ذكر القيد لأن الغالب أن بنت الزوجة تعيش عند أمها مع الزوج الجديد، ولا أثر لذلك في الحكم.

ثالثاً: أن لا يكون القيد المذكور لبيان فائدة أخرى غير تقييد الحكم :

كالترغيب، أو الامتنان، أو التنفير، أو التفخيم، أو لبيان الواقع، فإن كان القيد لفائدة أخرى غير تقييد الحكم لم يكن له أثر في تقييد الحكم^(٢).

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي كُنْتُمْ تَكْسِبُ أَصْحَابُكُمْ وَأَمْوَالُهُمْ الَّتِي كُنْتُمْ تَكْسِبُ﴾^(٣) لا يدل على أن الربا لا يحرم إلا إذا كان أضعافاً مضاعفة، فهو يحرم ولو كان قليلاً، وإنما وصف بالأضعاف المضاعفة للتنفير مما كانوا عليه في الجاهلية من الظلم.

وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾^(٤) فالقيد بالطري للامتنان وليس لتحريم غير الطري.



(١) سورة النساء: الآية ٢٣.

(٢) تفسير النصوص: د. محمد أديب صالح، ج١، ص ٦٧٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣٠.

(٤) سورة النحل: الآية ١٤.

الجدل في القرآن الكريم

أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وفي الناس من يطلب الحقيقة ويبحث عن النور فيقتنع بالحجة، ويقبل الأدلة والبراهين. ومنهم مكابر معاند لا تنفع معه حجة، ولا يقنعه برهان، فيثير الشكوك، ويموه الحقائق، ويبث الشبهات، وهذا بحاجة إلى مَنْ ينقض شبهاته، ويكشف حقيقته، ويقارعه الحجة بالحجة حتى لا يلبس على الناس أمور دينهم، آمن هو أم لم يؤمن، لتبقى الحقيقة ناصعة، بلا تمويه وجليه بلا لبس.

لذا جاءت الأدلة والحجج والبراهين في آيات كثيرة وسور عديدة تجادل بالحق وتذب عنه.

وقد أولى علماؤنا عنايتهم لهذا العلم (الجدل في القرآن الكريم) وأفردوه بمؤلفات مستقلة منها:

- ١ - أبو الربيع سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الحنبلي نجم الدين الطوفي (ت ٧١٦)، وكتابه «نشوة الجدل في علم الجدل» مطبوع^(١).
- ٢ - استخراج الجدل من القرآن الكريم تأليف عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي (ت ٦٣٤) تحقيق د. زاهر الألمعي.
- ٣ - مناهج الجدل في القرآن الكريم: د. زاهر عواض الألمعي.
- ٤ - أصول الجدل وآداب المحاجة في القرآن الكريم: محمد علي نوح قوجيل.

(١) انظر: أخبار التراث العربي، عدد ٣٤، ص ٧، سنة ١٩٨٧ م.

٥ - الجدل القرآني بين أساليب الدعوة الإسلامية : د. يوسف عيد.

تعريف الجدل:

لغة: جَدَلَه يَجْدُلُه: أحكم فتله، والجَدَل: اللدد في الخصومة والقدرة عليها.

والجدل: مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة. وجادل مجادلة وجدالاً إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، هذا أصله، ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها، وهو محمود إن كان للوقوف على الحق، وإلا فمذموم^(١).

واصطلاحاً: «الجدل هو احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أهل الكلام.

وقيل هو: المعارضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم.

وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله، كأن كل واحد من المتجادلين يقتل الآخر عن رأيه»^(٢).

والغرض منه: إلزام الخصم وإفهام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان.

أنواع الجدل:

قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(٣) فالجدل من طبيعة الإنسان، وهو كثير الجدل، أي: الخصومة والمنازعة.

(١) انظر تاج العروس: الزبيدي، والقاموس المحيط: الفيروزآبادي، والمصباح المنير: للفيومي. مادة (جدل).

(٢) المفردات: الراغب الأصفهاني، ص ٨٩-٩٠.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥٤.

والجدال ثلاثة أنواع :

الأول : جدال محمود :

كالجدال في قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَالِغَ إِلَى أَحْسَنٍ ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ^(٢) .

الثاني : جدال مباح :

كالجدال في قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ ^(٣) وقوله سبحانه عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ^(٤) وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ^(٥) .

الثالث : جدال مذموم :

كالجدال في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ ^(٦) وقوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ ﴾ ^(٧) وقوله سبحانه : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ^(٨) وغير ذلك .

(١) سورة النحل : الآية ١٢٥ .

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٤٦ .

(٣) سورة المجادلة : الآية ١ .

(٤) سورة هود : الآية ٧٤ .

(٥) سورة النحل : الآية ١١١ .

(٦) سورة الحج : الآية ٣ .

(٧) سورة الحج : الآية ٨ ، وسورة لقمان : الآية ٢٠ .

(٨) سورة غافر : الآية ٤ .

قواعد وآداب الحوار والجدال:

للجدل آداب وقواعد ينبغي على المسلم أن يلتزم بها مستنبطة من توجيهات القرآن ومنها:

١ - البعد عن التعصب:

ينبغي للمجادل أن يكون غرضه طلب الحق، وأن يسمع وجهة النظر الأخرى، ويجتنب التخطئة المباشرة للرأي الآخر مهما ظهر بطلانه، وقد أرشدنا القرآن إلى ذلك حين أمر الرسول ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿وَأَنَا أَوْ يَأْكُم لَعَلِّي هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١) مع وضوح الحق وظهوره، وهذا غاية الابتعاد عن التعصب.

٢ - القول اللين والبعد عن الطعن والسب والشتم، أو الهزاء والسخرية:

وذلك لقوله تعالى: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢) وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾^(٣). والاستثناء بعد النفي يفيد الحصر، وذلك أن لا نجادلهم إلا بهذا الأسلوب دون سواه إلا مع الذين ظلموا منهم.

حتى مع المشركين وقد أمر الله موسى وهارون عليهما السلام حين أرسلهما إلى فرعون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾^(٤). وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(٥).

(١) سورة سبأ: الآية ٢٤.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٤٦.

(٤) سورة طه: الآية ٤٤.

(٥) سورة الأنعام: الآية ١٠٨.

٣ - اعتبار الدليل والإقرار بالصحيح من الأدلة :

فالقرآن يسوق الحجج والبراهين ، ويطالب الخصم بمثلها قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْهَ مَعُ اللَّهُ قُلْ هَآتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١) فانظر كيف ساق براهينه ثم طلب براهين الخصم .

٤ - قبول الدليل الصحيح وترك المكابرة :

فقد ذم القرآن الكريم الكفار حين طلبوا آية فأراهم إياها ، وكان عليهم الإيمان لكنهم كابروا وأعرضوا ﴿ أَفَتَرَبَّيْنَا السَّاعَةَ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ^(٢) مع أنهم هم الذين طلبوا من الرسول ﷺ أن يشق القمر آية له لتعجيزه بزعمهم ، فطلب رسول الله ﷺ من ربه شق القمر فانشق نصفين نصفه شرق جبل أبي قبيس ونصفه الآخر في غربيه ، فلما رآوه قالوا : ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ وهكذا فرعون طلب من موسى عليه السلام آية وحين ألقى عصاه قال : ﴿ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ ^(٣) .

طريقة القرآن في الجدل :

امتاز الجدل في القرآن الكريم بأنه لم يجز على منهج الفلاسفة وطرائقهم في الجدل بأن تذكر فيه المقدمات بطريقتهم الخاصة ثم النتائج ، إذ إن القرآن الكريم لم ينزل للمناطق والفلاسفة وأمثالهم بل نزل لهداية الناس جميعاً ، وما به من أدلة اعتمد فيها على المحسوسات أو البدهيات التي لا تمترى فيها العقول ، ولا تلبس على الأذهان ، وتلقى في النفس القبول وفي القلب اليقين ، سواء في ذلك العامة والخاصة ^(٤) .

(١) سورة النمل : الآية ٦٤ .

(٢) سورة القمر : الآيتان ١-٢ .

(٣) سورة الذاريات : الآية ٣٩ .

(٤) انظر الجدل القرآني : د . يوسف عيد ، ص ١٧٢-١٨٣ .

ولذا جاء الجدل القرآني بأسلوب سلس، وكلمات يسيرة، وقضايا واضحة، وأمثلة ظاهرة، وأدلة قاطعة يفهمها العامة كما يفهمها الخاصة، بخلاف منهج الفلاسفة الذي يكون بكلمات غامضة، وأسلوب مستعص على أذهان العامة، وقضايا معقدة، ودلائل غير حاصرة. ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله تعالى عن المنطق: «إنه لا يحتاج إليه الذكي، ولا يستفيد منه الغبي»^(١) وإنما سمي هؤلاء أهل الكلام لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد، وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما عُلِمَ بالحس^(٢).

بل إن حجج الفلاسفة وبراهينهم لم يقنعوا بها أنفسهم حقيقة، فكثرت فيهم الملاحظة، وهم أكثر الناس شكاً واضطراباً، وأقلهم علماً وتحقيقاً، وأبعدهم عن تحقيق علم موزون^(٣)، وقد أقر من تاب منهم بعد ذلك بهذا فابن رشد الحفيد، وهو من أعلم الناس بمذهب الفلاسفة ومقالاتهم يقول: «لم يقل أحد من الناس في العلوم الإلهية قولاً يعتد به»^(٤).

والغزالي انتهى أمره إلى الوقف والحيرة في الكلام فأعرض عنه، وأقبل على الحديث، ومات وصحيح البخاري على صدره^(٥).

وقال الرازي من أبيات:

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

(١) الرد على المنطقيين: ابن تيمية، ص ٣٧٣-٣٧٤.

(٢) شرح الطحاوية، ابن أبي العز، ص ٢٤٢.

(٣) ابن تيمية: محمد أبو زهرة، ص ٣٤٨-٣٤٩.

(٤) تهافت التهافت: ابن رشد الحفيد، ص ٨٨.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٤٣-٢٤٤.

ثم قال: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. أقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١). ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾^(٢) وأقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٣) ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عِلْمًا﴾^(٤). ثم قال: «ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»^(٥).

وقال أبو المعالي الجويني: «لو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به» وقال عند موته «لقد خضت البحر الخضم، وخلت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنذا أموت على عقيدة أُمِّي، أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور»^(٦) وندم الفخر الرازي على الاشتغال بعلم الكلام، وكان يقول: ليتني لم أشتغل بعلم الكلام ثم يبكي^(٧).

وإذا كان هذا ما توصل إليه أرباب الفلسفة وأعلامها، فكيف يرجى أن تكون وسيلة مقنعة، وحجة ظاهرة.

والخلاصة أن القرآن الكريم لم يسلك مسلك الفلاسفة لأُمور منها:

١ - أن القرآن جاء بلسان العرب وخاطبهم بما يعرفون.

(١) سورة طه: الآية ٥.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) سورة طه: الآية ١١٠.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٤٤.

(٦) المرجع السابق، ص ٢٤٥.

(٧) طبقات المفسرين: الداودي، ج ٢، ص ٢١٥.

وذلك أن الرسول ﷺ رجل أمي، وبعث في أمة أمية، لم يكن للمنطق اليوناني عندهم وزن، ولا يعرفون طرقة وأشكاله، ومع ذلك فقد أتى القرآن بأروع الأدلة، وأحكم البراهين التي تقنع العقل البشري^(١).

٢ - أن ترك الجلي من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفي يعد عجزاً، فإن الإلغاز لا يعد من صور البيان، فلو سلك القرآن الطرق المنطقية والمذاهب الفلسفية في حججه لكان غامضاً في دلائله، ملغزاً في براهينه، لكنه سلك منهجاً فريداً لا تصل إليه مسالكهم، فجاء بنسق بياني بأسلوب عربي مبين، فكان إعجازاً في إعجاز معجزاً في حججه معجزاً في أسلوبه.

٣ - أن الاعتماد في الاستدلال على ما فطرت عليه النفوس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكري عميق أقوى أثراً، وأبلغ حجة، وقد اشتملت أدلة القرآن الكريم وبراهينه على ما فطرت عليه النفوس، وشهدت بصحته العقول، دون إخلال بأحكام الحجة، وروعة البيان، وسلامة المنطق، فهو في تناول الخاصة والعامة يأتي من الحقيقة البرهانية بما يرضي العقول، ومن المتعة الوجدانية ما يهز القلوب ويحرك المشاعر^(٢).

طرق الاستدلال في القرآن الكريم:

للاستدلال في القرآن الكريم طريقتان:

الأول: ما يسوقه الله من الأدلة ابتداءً:

وهو كثير، ومنه ما يذكره الله تعالى من الآيات الكونية المشتملة على الأمر بالتفكير والتدبر لمعرفة الخالق ووحدانيته.

(١) مناهج الجدل في القرآن الكريم: د. زاهر الألمعي، ص ٩٤.

(٢) مناهج الجدل في القرآن: د. زاهر الألمعي، ص ٩٩، وانظر مباحث في علوم القرآن:

مناع القطان، ص ٢٩٩-٣٠٠.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١) وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢) وغير ذلك.

الثاني: ما يردّ به على الخصوم والمعاندين:

وهذا النوع هو ما يسمى بالجدل، وللجدل في القرآن الكريم طرق كثيرة منها:

١ - الاستفهام التقريري:

وهو تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم، وتسلم بها العقول، حتى يعترف بما ينكره، وهذا من أحسن الطرق، فإن الجدل إنما يشترط فيه أن يسلم الخصم بالمقدمات^(٣).

ومن الأمثلة: قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۚ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۚ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ۚ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۚ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩٠.

(٣) انظر: مباحث في علوم القرآن: القطان، ص ٣٠٣، ومناهج الجدل في القرآن الكريم: د. زاهر الألمعي، ص ٦٩.

(٤) سورة يس: الآية ٨١.

(٥) سورة البلد: الآيات ٨-١٠.

هُمْ الْمُصِيطِرُونَ ﴿٢٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٢٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٣٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٣١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ (١).

٢ - قياس الخلف :

«وهو إثبات المطلوب بإبطال نقيضه» وذلك لأن النقيضين لا يجتمعان، ولا يخلو المحل من أحدهما، ويسمى هذا الدليل دليل التمانع.

ومثاله قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ فَسَدَتْ﴾ (٢) فثبت أنه لا إله إلا الله لعدم وقوع الفساد فيهما. لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجري تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على إحكام، ولكان العجز يلحق بهما أو بأحدهما، وذلك أنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته فإما أن تنفذ إرادتهما، وهذا لا يمكن لاستحالة اجتماع الحياة والموت في جسم واحد في آن واحد، وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه والإله لا يكون عاجزاً (٣).

ومن أمثله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٤). فثبت أنه من الله لعدم وجود الاختلاف.

٣ - قياس التمثيل :

وذلك بأن يقيس المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند المخاطب، أو أمر بدهي لا تنكره العقول، وذلك كالاستدلال بالمبدأ على المعاد.

(١) سورة الطور: الآيات ٣٥-٤٣.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

(٣) الإنشقاق: السيوطي، ج ٢، ص ١٧٣.

(٤) سورة النساء: الآية ٨٢.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۚ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾. وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُوَ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿٨٢﴾ وقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٨٣﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٨٤﴾ يَخْرُجُ مِ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٨٥﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ ﴿٨٦﴾.

٤ - السبر والتقسيم:

وذلك بحصر الأوصاف في المحكوم عليه، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم، كما قال ابن الأنباري: «السبر يرجع إلى اختبار أوصاف المحل» (٤).

ومثاله: أن الكفار كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناتها تارة أخرى، فرد الله عليهم بقوله سبحانه: ﴿ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِيُّنِي يَعْلَمُ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ والآية بعدها (٥).

فحصر الأوصاف في الأنعام وهي الذكورة والأنوثة واشتمال الأرحام عليهما، أو لا يُدرى له علة، بل هو تعبدى بأن أخذتم ذلك عن الله إما عن طريق الوحي أو الرسول، وهو معنى قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ

(١) سورة يس: الآيات ٧٨-٨١.

(٢) سورة ق: الآية ١٥.

(٣) سورة الطارق: الآيات ٥-٨.

(٤) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص ٢١٤.

(٥) سورة الأنعام: الآيتان ١٤٣-١٤٤.

وَصَدَّكُمْ اللَّهُ بِهَذَا^(١) فهذه وجوه التحريم لا يخرج عن واحد منها.
 (والأول) يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً. (والثاني) يلزم عليه أن
 تكون جميع الإناث حراماً. (والثالث) يلزم عليه تحريم الصنفين معاً، فبطل
 ما فعلوه من تحريم بعض في حالة، وبعض في حالة، لأن العلة تقتضي
 إطلاق التحريم. (والرابع) وهو أخذهم ذلك عن الله فإن كان بلا واسطة
 فباطل ولم يدعوه، وإن كان بواسطة الرسول فباطل كذلك لعدم مجيء
 رسول إليهم قبل محمد ﷺ، وإذا بطل جميع ذلك ثبت أن تحريمهم لهذه
 الأنعام باطل وإفتراء على الله تعالى.

ولذلك قال بعد هذا مباشرة: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ
 يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ
 لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

٥ - التسليم الجدلي:

وهو أن يسلم وقوع ما ادعوه جدلاً ثم يبطله على تقدير وقوعه.
 ومثاله قوله تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ
 إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾^(٣). فنفى أن يكون
 معه إله ثم سلم جدلاً أنه لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق، وعلا بعضهم
 على بعض فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله والواقع
 خلاف ذلك ففرض إلهين فصاعداً محال لما يلزم منه من المحال^(٤).

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٤٥.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٩١.

(٤) بدائع القرآن: لابن أبي الأصبغ، ص ٢٩٥.

٦ - الانتقال في الاستدلال :

وهو أن ينتقل المستدل من دليل لم يفهمه الخصم أو غالط فيه إلى دليل آخر يؤدي إلى انقطاع الخصم ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

فلما غالط في الدليل الأول انتقل به إبراهيم عليه السلام إلى دليل آخر لا يستطيع أن يغالط فيه فانقطعت حجته وبهت .



(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٨ .

الأمثال في القرآن الكريم

جری الناس على اختلاف مشاربهم على ضرب المثل في أحاديثهم لما يرمز إليه من معان كثيرة وإشارات دقيقة، حتى صارت الأمثال جارية على ألسنة الناس كالحكم، وذلك أن المثل نتيجة تجربة أو تجارب كثيرة وخلاصة فكر عبر العصور وهو في عرفهم صادق في مدلوله^(١).

والقرآن يخاطب الناس بما يعرفون، وبالأساليب التي يدركون، فجاءت الأمثال في القرآن الكريم لغايات وأهداف سامية، ولتكشف للناس العبر بسهولة ويسر، ولتربط الحاضر بالماضي لأخذ العظة والعبرة.

وأقبل العلماء والباحثون يدرسون الأمثال في القرآن ويتدبرونها، ويظهرون للناس معانيها ومراميتها.

ومن أشهر المؤلفات في أمثال القرآن:

١ - الأمثال القرآنية: على بن محمد الماوردي.

٢ - الأمثال في القرآن الكريم: لابن قيم الجوزية وهو جزء من كتابه (إعلام الموقعين) طبع بتحقيق د. ناصر بن سعد الرشيد.

٣ - أمثال القرآن: للجنيد القواريري ت ٢٩٨هـ.

٤ - أمثال القرآن: لمحمد بن الحسين السلمي ت ٤١٢هـ.

٥ - أمثال القرآن: نفطويه.

(١) انظر الأمثال في القرآن الكريم: سميح عاطف الزين، ص ٧.

٦ - الأمثال في القرآن الكريم: سميح عاطف الزين .

٧ - موسوعة الأمثال القرآنية: د. محمد عبد الوهاب عبد اللطيف في

جزئين .

٨ - الأمثال القرآنية: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني .

٩ - ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربوية وآثاره: عبد المجيد

البيانوني . وغير ذلك .

تعريف المثل:

لغة: المَثَل والمِثْل والمَثِيل كالتَّشْبِه والتَّشْبِه والشَّيْبَه لفظاً ومعنى . قال الراغب الأصفهاني: «(مثل) أصل المثل الانتصاب، والمُمَثِّل المَصَوِّر على مثال غيره يقال: مثل الشيء، أي: انتصب وتصور، ومنه قوله ﷺ: «من أحب أن يمثَّل له الرجال فليتبوأ مقعده من النار»^(١)، والتمثال: الشيء المصور، وتمثل كذا: تصور، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^(٢) .

والمثل: عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره، نحو قولهم: «الصيف ضيعت اللبن» فإن هذا القول يشبه «أهملت وقت الإمكان أمرك...»^(٣) .

والمثل عند الأدباء: القول السائر المشبه مضربه بمورده . وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال في القرآن قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم (٩٧٧)، وأبو داود في سننه برقم (٥٢٢٩) واللفظ له وصححه الألباني في الصحيحه .

(٢) سورة مريم: الآية ١٧ .

(٣) المفردات: الراغب الأصفهاني، ص ٤٦٢ مادة (مثل) .

الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١﴾ وعلى هذا شاع إطلاق اسم المثل إذ أطلق ﴿٢﴾.

قال النّظام: «يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة» ﴿٣﴾.

أما المثل في القرآن الكريم: فهو إبراز المعنى في صورة حسية موجزة تكسبه روعة وجمالاً، ولها وقعها في النفس سواء كانت تشبيهاً أو قولاً مرسلًا.

والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد، كما لا يشترط أن يكون مجازاً مركباً ﴿٤﴾.

أنواع الأمثال في القرآن الكريم:

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع ﴿٥﴾:

١ - الأمثال المصرحة:

وهي التي يصرح فيها بلفظ المثل أو بما يدل عليه من تشبيه أو نظير أو سياق أو آية أو غير ذلك. وهذا النوع كثير في القرآن الكريم.

ومن أمثلة ما صرح فيه بلفظ (المثل) قوله تعالى في المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ۚ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٦﴾.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٣.

(٢) زهر الأكم في الأمثال والحكم: الحسن اليوسي، ص ٢٠.

(٣) مجمع الأمثال: الميداني، ج ١، ص ٦.

(٤) انظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص ٢٨٣.

(٥) انظر الإتيان، السيوطي، ج ٢، ص ١٦٧-١٦٩.

(٦) سورة البقرة: الآيتان ١٧-١٨.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (١).

ومن أمثلة التشبيه بحرف الكاف قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ (٣).

ومن أمثلة ما جاء بلفظ الآية قوله تعالى: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَفِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَمْ ذُرْيَةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤).

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله (٥).

(١) سورة الكهف: الآية ٤٥.

(٢) سورة النور: الآية ٣٩.

(٣) سورة النحل: الآية ٩٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٦٦.

(٥) رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة البقرة، ج ١، (٤٥٣٨).

٢ - الأمثال الكامنة :

وهي التي لم يصرح فيها بلفظ المثل ولكنها دلت على معان رائعة موجزة ، ولها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها .

وآيات هذا النوع قريبة الصلة بمعاني أمثال معروفة سائرة فهي أمثال بمعانيها لا بألفاظها ، ومن هنا سميت ألفاظاً كامنة .

ومن أمثلة ذلك ما رواه الماوردي أن مضارب بن إبراهيم سأل الحسين ابن الفضل : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن . فهل تجد في كتاب الله (خير الأمور أوساطها) ؟ قال : نعم . في أربعة مواضع :

أ - قوله تعالى : ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُءُونَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾^(١) .

ب - قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٢) .

ج - قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾^(٣) .

د - قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٤) .

قلت : فهل تجد في كتاب الله : (من جهل شيئاً عاداه) ؟

قال : نعم في موضعين :

أ - قوله تعالى : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾^(٥) .

(١) سورة البقرة : الآية ٦٨ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٦٧ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٢٩ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ١١٠ .

(٥) سورة يونس : الآية ٣٩ .

ب - قوله تعالى : ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ، فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾^(١) .

قلنا : فهل تجد في كتاب الله (احذر شر من أحسنت إليه)؟

قال : نعم قوله تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢) .

قلت : فهل تجد في كتاب الله : ﴿ليس الخبر كالعيان﴾؟

قال : في قوله تعالى : ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾^(٣) .

وذكر أمثلة أخرى^(٤) وهذه كلها آيات قرآنية لم يصرح فيها بلفظ المثل ولكنها موافقة لمعاني أمثال معروفة سائرة .

٣ - الأمثال المرسلة :

وهي آيات من القرآن جرت مجرى المثل .

ومن أمثلة ذلك ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾^(٥) ، ﴿أَلَمْ يَخْصَخْصِ الْحَقُّ﴾^(٦) ،
﴿لَيْسَ الضُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾^(٧) ، ﴿لِكُلِّ بَلَاءٍ مُسْتَقَرٌّ﴾^(٨) ، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا
بِأَهْلِهِ﴾^(٩) ، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾^(١٠) ، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ
شَاكِلَتِهِ﴾^(١١) ، ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾^(١٢) ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

(١) سورة الأحقاف : الآية ١١ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٧٤ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٦٠ .

(٤) الإتيان : السيوطي ، ج ٢ ، ص ١٦٨-١٦٩ .

(٥) سورة النجم : الآية ٥٨ .

(٦) سورة يوسف : الآية ٥١ .

(٧) سورة هود : الآية ٨١ .

(٨) سورة الأنعام : الآية ٦٧ .

(٩) سورة فاطر : الآية ٤٣ .

(١٠) سورة الحشر : الآية ١٤ .

(١١) سورة الإسراء : الآية ٨٤ .

(١٢) سورة البقرة : الآية ٢١٦ .

رَهْنَةً ﴿١١﴾، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ﴾ ﴿١٢﴾، ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿١٣﴾ وغير ذلك كثير.

حكم استعمال الأمثال المرسلة:

جرت عادة بعض الناس على ضرب المثل بالآيات القرآنية في بعض الأحوال، وقد اختلف العلماء في ذلك:

فمنهم من منعه كالرازي وغيره، فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ﴿٤﴾: «جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز، لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل ليتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم» ﴿٥﴾.

وقال الزركشي: «يكراه ضرب الأمثال بالقرآن. وفي كتاب «فضائل القرآن» لأبي عبيد، عن النخعي قال: كانوا يكرهون أن يتلوا الآية عند شيء يعرض من أمور الدنيا. قال أبو عبيد: وكذلك الرجل يريد لقاء صاحبه أو يهيم بحاجته فيأتيه من غير طلب فيقول كالمأزح ﴿جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَمُوسَى﴾ ﴿٦﴾ فهذا من الاستخفاف بالقرآن، ومنه قول ابن شهاب الزهري: لا تناظر بكتاب الله ولا بسنة رسول الله ﷺ، قال أبو عبيد: يقول: لا تجعل لها نظيراً من القول ولا الفعل» ﴿٧﴾.

(١) سورة المدثر: الآية ٣٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٩٩.

(٣) سورة التوبة: الآية ٩١.

(٤) سورة الكافرون: الآية ٦.

(٥) تفسير الرازي، ج ٣٢، ص ١٤٨.

(٦) سورة طه: الآية ٤٠.

(٧) البرهان: الزركشي، ج ١، ص ٤٨٣.

وأجازه آخرون قال محمد الخضر حسين: «ولا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد، كأن يأسف أسفاً شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾^(١). أو يحاور صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه إلى باطله فيقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(٢) والإثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح»^(٣) وهذا الرأي بهذا التفصيل هو الراجح عندي، والله أعلم.

خصائص ومزايا الأمثال القرآنية:

للأمثال في القرآن الكريم خصائص كثيرة منها^(٤):

- ١ - دقة التصريح مع إبراز العناصر المهمة من الصور التمثيلية كقوله تعالى في الكفار الذين لم يستجيبوا لنداء الرسول ﷺ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٥).
- ٢ - التصوير المتحرك الحي الناطق كقوله تعالى في أعمال الكفار: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَٰلُ الْبَعِيدُ﴾^(٦).

(١) سورة النجم: الآية ٥٨.

(٢) سورة الكافرون: الآية ٦.

(٣) بلاغة القرآن: محمد الخضر حسين، ص ٣٣.

(٤) من كتاب الأمثال القرآنية: عبد الرحمن حسن جبنة الميداني، ٨١-١٠٠ (بتصرف واختصار). ولمزيد من التوسع انظر: ضرب الأمثال في القرآن: عبد المجيد

البيانوني، ص ٥١-٥٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٧١.

(٦) سورة إبراهيم: الآية ١٨.

٣ - صدق المماثلة بين الممثل والممثل له . كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ مثل ما ينفقون في هذه الحيوة الدنيا كمثلي ربيع فيها صر أصابت حرّ قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ^(١) .

٤ - كثيراً ما يحذف من المثل القرآني مقاطع اعتماداً على فهم المخاطب . وقد تحذف من الممثل له مقاطع أيضاً ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرًا بِقِيَعٍ يَخْسَبُهُ الظُّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ^(٢) . ففي المثل أبرزت صورة السراب ثم صورة الظامئ الذين ظنه ماءً ، ثم خبيته عند وصوله إليه ، وحذف ما عدا ذلك لإدراك المخاطب له .

وفي الممثل له لم يذكر إلا عمل الذين كفروا وطوى ما عدا ذلك لإدراك المخاطب له . وهذا من بلاغه القرآن .

فوائد الأمثال في القرآن الكريم وأغراضها :

للأمثال في القرآن الكريم أغراض ومقاصد ولها فوائد كثيرة منها :

١ - إظهار المعنى المعقول المجرد في صورة حية ملموسة متحركة .

كالمثل الذي يضرب الله تعالى لمن ينفق ما له رياء الناس بقوله سبحانه : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة آل عمران : الآيتان ١١٦-١١٧ .

(٢) سورة النور : الآية ٣٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٦٤ .

وكقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۖ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ﴾^(١) وقوله سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْشُورًا﴾^(٢).

٢ - قوة الإقناع والحجة:

ففي قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

فالحجة في هذا المثل تثبت أن انفراد المالك الذي تجب طاعته أفضل وأكرم للمملوك من تعدد المالكين، فالأمران ليسا بمتساويين ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾^(٤).

٣ - الترغيب:

كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٥).

٤ - التهيب:

كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(٦).

(١) سورة الواقعة: الآيتان ٢٢-٢٣.

(٢) سورة الإنسان: الآية ١٩.

(٣) سورة الزمر: الآية ٢٩.

(٤) الأمثال القرآنية: عبد الرحمن حبنكه الميداني، ص ٥٤.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٦١.

(٦) سورة النحل: الآية ١١٢.

٥ - المدح :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُوْقُّ أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١).

٦ - التنفير :

كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (٢).

قال الزركشي : « وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة : التذكير والوعظ ، والحث ، والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ، وتقريب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبه للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس .

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر ، وعلى المدح والذم ، وعلى الثواب والعقاب ، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره ، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر ، قال تعالى : ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ (٣) فامتن علينا بذلك لما تضمنت هذه الفوائد (٤).

وقد عد الشافعي رحمه الله تعالى معرفة الأمثال مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن .

(١) سورة إبراهيم : الآية ٢٤-٢٥ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ١٢ .

(٣) سورة إبراهيم : الآية ٤٥ .

(٤) البرهان : الزركشي ، ج ١ ، ص ٤٨٦-٤٨٧ .

وقال الشيخ عز الدين: إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح، أو ذم أو نحوه فإنه يدل على الأحكام^(١).

أثر الأمثال في التربية والتعليم^(٢):

تختلف أمثال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة اختلافاً جذرياً عما يضرب الناس من الأمثال، فهي أمثال حق وصدق، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ولا يدخلها نقص في أي جانب من جوانبها^(٣)، وحق على رجال التربية والتعليم أن يتخذوها نموذجاً تربوياً فريداً، ويستلهموا منها العبر والأساليب التربوية، وليس من السهل في هذه العجالة استيفاء هذه الآثار ولنذكر منها^(٤):

- ١ - شد انتباه السامع وحمله على التفاعل مع الموضوع.
- ٢ - التنوع في أسلوب المتكلم مما يدفع الملل والسآمة، ويجدد النشاط الذهني للطلاب.
- ٣ - تثبيت الفكرة في الأذهان، وسرعة انتشارها وسريانها بين الناس، وذلك أن كلمات المثل قليلة يسهل حفظها وفهمها واستيعابها.

(١) الإتقان: السيوطي، ج٢، ص ١٦٧.

(٢) هناك مؤلفات خاصة بهذا الموضوع منها: ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربوية وآثاره للأستاذ عبد المجيد البيانوني، وكتاب بعض الأبعاد التربوية لعدد من الأمثال في القرآن الكريم للدكتور آمال حمزة المرزوقي.

(٣) ضرب الأمثال في القرآن: عبد المجيد البيانوني، ص ١٠-١١.

(٤) انظر: ضرب الأمثال في القرآن: عبد المجيد البيانوني، ص ٧٣-١٠٠.

٤ - توسيع آفاق الطالب الفكرية والنفسية بتدريبه على ربط المعقولات بالمحسوسات، وقياس الغائب على الشاهد.

٥ - استثمار الانفعالات النفسية عند الطالب الدافعة (كالفرح، والحب، والرغبة في التملك) أو الرادعة (كالرهبة، والخوف، والخشية) وعلى المربي الناجح أن يتعامل مع مزيج متكافئ متوازن من هذه الانفعالات.

فتعامل المربي مع تلميذه بعصا الرهبة وحدّها سبب ظاهر لهلاكه، ودفعه بعامل الفرّح أو الرغبة وحدّها سبب خطير لإفساده. وإنما يصلح سبيل التربية إذا نهض على مزيج معتدل من هذه الأساليب.



قصص القرآن الكريم

لا شك أن القصة من أفضل أساليب التربية والتعليم وهي عامل رئيس من عوامل جذب انتباه المستمعين فهي أسلوب تربوي تعليمي ناجح سلكه المربون والمصلحون والأدباء والمعلمون في كل مكان وزمان.

ولتأثير القصة ومكانتها فإن القرآن يعرض لنا كثيراً من قضايا العقيدة والصراع بين الحق والباطل بأسلوب قصصي مميز للعظة والاعتبار.

تعريف القصة:

لغة: القصُّ: هو تتبع الأثر مادياً كان أو معنوياً.

فالمادي يقال: قصصت أثره، أي: تتبعته، قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾^(١)، أي: رجعا يتبعان أثرهما، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾^(٢)، أي: اتبعي أثره، ومنه القصاص، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾^(٣) لما فيه من تتبع أثر الجاني ومجازاته بمثل فعله، من قتل أو قطع أو جرح، ومنه المقص الذي يقطع به القماش، والقصيصة الزاملة الضعيفة كأنها سميت بذلك لأنها تكون منقطعة عن القافلة وتسير على أثر النوق النجبية، والقصيصة شجرة تنبت في أصل الكمأة سميت بذلك لدلائلها على الكمأة كما يقتص الأثر وغير ذلك^(٤).

(١) سورة الكهف: الآية ٦٤.

(٢) سورة القصص: الآية ١١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٧٩.

(٤) انظر: لسان العرب: لابن منظور، ج-٧، ص ٧٣-٧٥ مادة (قصص).

والمعنوي كتّبع أخبار الأمم الماضية، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢) أي: أخبارهم.

والقصة: الخبر والأمر والحديث^(٣).

وقصص القرآن اصطلاحاً:

أخباره عن أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة^(٤).

أنواع القصص في القرآن الكريم^(٥):

ومن التعريف نستطيع أن نعرف أن أنواع القصص في القرآن الكريم ثلاثة:

النوع الأول: قصص الأنبياء السابقين:

كقصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، التي تضمنت أخبار دعوتهم لقومهم إلى الإسلام، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف أقوامهم منهم، والعقوبات الإلهية التي نزلت بهم.

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٢.

(٢) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٣) لسان العرب: ج٧، ص٧٤.

(٤) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٣٠٦.

(٥) انظر: المرجع السابق: ص٣٠٦.

النوع الثاني: قصص تتعلق بحوادث غابرة وأشخاص لم تثبت نبوتهم: كقصة أهل الكهف، وذوي القرنين، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود وغيرهم.

النوع الثالث: قصص تتعلق بأحداث وقعت في عصر الرسول ﷺ. كغزوة بدر وأحد في (سورة آل عمران)، وحنين وتبوك في (سورة التوبة) والأحزاب في سورتها، والإسراء في سورتها. وغير ذلك.

فوائد القصة في القرآن الكريم:

من أهم فوائد القصة في القرآن الكريم:

١ - تثبيت فؤاد الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَلَا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وذلك أن الرسول ﷺ حين يخبره الله بما جرى للأنبياء عليهم السلام من قبله مع أقوامهم يسلو قلبه ويتجدد عزمه. فيصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

٢ - إيضاح أسس الدعوة إلى الله تعالى واشتراك كل الأنبياء فيها:

فإن الرسل كلهم عليهم السلام يدعون إلى عبادة الله وحده ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٢) فليس هناك دين غير الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٣).

(١) سورة هود: الآية ١٢٠.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٩.

٣ - تأكيد صدق الأنبياء السابقين عليهم السلام:

فالقرآن يصرح برسالتهم ونبوتهم وصدقهم، ويصرح بأسمائهم، ويشهد لهم بالصدق وتبليغ الدعوة، فليس لأحد أن يشك في نبوتهم، ولذا كان الإيمان بالرسول من أركان الإيمان لمجيئه عن طريق القرآن المتواتر.

٤ - إظهار صدق الرسول ﷺ:

فالرسول ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يعرف عنه مجالسة لأخبار اليهود والنصارى، وورود هذه القصص من مثله عليه الصلاة والسلام دليل على رسالته وتلقيه للوحي.

٥ - التهديد والوعيد للكفار والعظما والاعتبار للمؤمنين بأن ما جرى لعصاة الأمم السابقة قد يجري لعصاة هذه الأمة، ولهذا لما أرسلت قريش عتبة بن ربيعة إلى الرسول ﷺ ليطلب منه ترك الدعوة قرأ عليه عليه الصلاة والسلام سورة فصلت حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَنُوحٍ﴾^(١) أمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولما جاءت قريش أخبرهم الخبر وفيه... فأمسكت بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب^(٢).

٦ - والقصة ضرب من ضروب الأدب يصغي إليه السمع، وترسخ عبره في النفس^(٣)، وثبت معانيه، وتدرك مراميهِ ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٤).

(١) سورة فصلت: الآية ١٣.

(٢) تفسير البغوي، ج٤، ص ١١٠.

(٣) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص ٣٠٧.

(٤) سورة يوسف: الآية ١١١.

مزايا القصة القرآنية:

تمتاز القصة في القرآن بمزايا عديدة منها:

١ - ربانية المصدر:

فالقصة تبعاً للقرآن الكريم كله من الله تعالى لها من الخصائص ما للقرآن الكريم نفسه، وليس للرسول ﷺ فيها إلا البلاغ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

٢ - مطابقة الواقع والصدق وأنها حقيقة لا خيال:

وبيان ذلك أن كل ما جاء في القرآن من قصص وأحداث وأخبار واقع حقيقه كما أخبر الله تعالى، وليس نسج خيال.

وإنما يلجأ البشر إلى الخيال حين تعجز قدراتهم العلمية عن الإحاطة بأحداث التاريخ، واستخراج الحدث الذي يحتوي على ما يريدون إظهاره من أفكار وآراء، وهذا شأنهم، وتلك قدرتهم، فيعوضون ذلك العجز بالخيال، وكثيراً ما يتمنى الإنسان بلوغ شيء فيعجز عنه حقيقة، فيلجأ إلى الخيال يصور ماذا سيفعل لو كان، وهذا شأن الأدباء البشر في قصصهم أحياناً.

أما الله سبحانه وتعالى فلا يعجزه شيء وهو العليم الخبير بما كان وما سيكون، فيحكى من أحداث الأمم الماضية الواقعة ما يناسب موضوع السورة.

وقد وصف الله تعالى قصص القرآن بذلك ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾^(٢) و﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾^(٣) ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ

(١) سورة النجم: الآيتان ٣-٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٢.

(٣) سورة الكهف: الآية ١٣.

يَا لَحَقٍّ ﴿١﴾ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ وهكذا
قصص القرآن حق وحقيقة.

٣ - الاختيار للعظة والعبرة:

يختار الله سبحانه وتعالى من القصة أو الحدث أجزاء تناسب أهداف
الموضوع أو السورة ومقاصدها للعظة والاعتبار، يستوي في ذلك قصر
المقطع أو طوله، ولا شك أن ما اختاره منها فيه الوفاء كل الوفاء بالغرض
المراد.

٤ - الإعجاز:

وهذا الإعجاز تبع لإعجاز القرآن الكريم كله، لكن إعجاز القصص
يظهر في أن العرض البشري يكون متأثراً بشخصية الراوي التي غالباً ما تكون
متأثرة بأفكاره وآرائه وتصورات القاصرة، ويحكي منها ما أدركته طاقته
البشرية، وهي محدودة في علمها وقصورها عن الإحاطة بكل الأمور.

أما قصص القرآن فمن الله الذي أحاط بالأحداث كلها، ويعلم ما تخفي
الصدور، وشتان بين صورة واضحة كاملة صادقة، وصورة لا تخلو من نقص
أو قصور أو خطأ في التصور.

٥ - التكرار:

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يعرض من القصة ما يلائم موضوع السورة،
فإن هذا يقتضي تكرار عرض القصة في أكثر من سورة، سواء كان عرضاً
كاملاً مختلفاً عن العرض الأول أو عرضاً جزئياً.

(١) سورة المائدة: الآية ٢٧.

(٢) سورة القصص: الآية ٣.

فوائد تكرار القصة في القرآن الكريم:

ولتكرار القصة في القرآن الكريم فوائد وحكم عديدة منها:

١ - قوة الإعجاز:

كما قال الباقلاني: «وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكرراً، ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بالفاظ لهم تؤدي معناها. . وجعلوها بإزاء ما جاء به، وتوصلوا بذلك إلى تكذيبه وإلى مساواته فيما جاء به، كيف وقد قال لهم: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(١) فعلى هذا يكون المقصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها إظهار الإعجاز على الطريقتين»^(٢).

وقال الزركشي: «كرر ذكر القصة في مواضع إعلماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاؤوا، وبأي عبارة عبروا»^(٣).

ولا شك أن القصة الواحدة حين تكون معجزة بوجه ثم معجزة بوجه آخر فإن هذا يعني قوة في الإعجاز، وزيادة في التحدي.

٢ - بيان بلاغة القرآن الكريم في أعلى مراتبها:

يقول الباقلاني: «إن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة، وتبين فيه البلاغة»^(٤).

(١) سورة الطور: الآية ٣٤.

(٢) إعجاز القرآن: الباقلاني، ج ١، ص ٩٤.

(٣) البرهان: الزركشي، ج ٣، ص ٢٧.

(٤) إعجاز القرآن: الباقلاني، ج ١، ص ٩٤.

من خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صورته المختلفة، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتميز عن الآخر، وتصاغ في قالب غير القالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى^(١).

٣ - أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير، فيجد البليغ - لما فيها من التغيير - ميلاً إلى سماعها؛ لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة^(٢).

٤ - أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً لم يذكره في المرة الأولى. فقد يوجد في ألفاظها زيادة أو نقصان، وتقديم أو تأخير^(٣)، ويذكر في كل منها ما لم يذكر في الأخرى لتنوع الفوائد وتوزيعها.

٥ - الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفس، فإن التكرار من طرق التأكيد وإمارات الاهتمام، بل التكرار أبلغ من التأكيد، فالتكرار تأسيس، والتأكيد فرع، وتكرار التأسيس أقوى من التأكيد.

٦ - اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة، فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتبرز معان أخرى في مقام آخر حسب أهداف السورة وأغراضها^(٤).

(١) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص ٣٠٨.

(٢) البرهان: الزركشي، ج ٣، ص ٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٦-٢٧.

(٤) انظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص ٣٠٨.

كيفية الاستفادة من القصة في مجال التربية والتعليم:

يدرك رجال التربية أن أقوى أساليب التربية نفاذاً إلى القلوب، وتأثيراً في النفوس ما عرض في أسلوب قصصي يحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص والتأثر بالأحداث، والتفاعل مع المواقف.

ومن هنا كان الربط الوثيق بين الوسائل والأهداف في مناهج التربية فبحيوية العرض في القصة الموجهة، وقوة التخيل والتصوير فيها، وتهيئة اللحظة الحاسمة التي تبلغ فيها حرارة الانفعال النفسي درجة الانصهار، يحصل من التأثير بالتوجيه التربوي ما لا يحصل عند إقحام ذلك التوجيه على النفس وهي في راحتها واسترخائها^(١).

ويفيد التحليل النفسي للعادات الفاسدة أنها تبطل وتزول بمجرد اقتلاع العقدة مثل ما يزول المفعول الكهربائي بانقطاع التيار^(٢). فلم يبدأ الرسول ﷺ بنهيهم عن عادة شرب الخمر أو الزنا مثلاً، بل اقتلع من قلوبهم عقدة الشرك فانقادوا لترك تلك العادات السيئة وغيرها^(٣).

لذلك أقام القصص القرآني منهجه على العقيدة بنز عقيدة الشرك وغرس عقيدة الإيمان بالله وحده، وبذلك وحده يقتلع الإنسان من نفسه عاداته الفاسدة وينقاد لمبادئ الإسلام الصحيحة.

(١) سيكولوجية القصة في القرآن: د. التهامي نفرة، ص ٥٤٤.

(٢) علم النفس والأخلاق: هادفيلد، ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزم، ص ٦٤.

(٣) وهذا الأسلوب هو ما سلكه بعض الزعماء في محاربة الدعوة الإسلامية بما وصفوه بـ«تجفيف المنابع» ويعنون به قطع التعليم الديني عن الشباب حتى ينشأ جيل لا يعرف عن الإسلام شيئاً ويسهل توجيهه إلى ما يريدون. ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

ويذكر الإيمان في القرآن متبوعاً في الغالب بعمل الصالحات كنتيجة حتمية له، لأن الإيمان ليس في الحقيقة مجرد شعور عن علم ومعرفة، ولكنه تكيف للإنسان في صلته بربه، وتدبيره لنفسه، وعلاقته بغيره^(١).

فالإيمان سمو بالنفس، واتصال بالله، وتكوين للشخصية المتزنة التي تعمل جميع طاقاتها الجسمية والفكرية والروحية في اعتدال وتوازن، لأن لصاحبها قوة منظمة لاندفاعاته الفطرية، ومُهَذَّبَةٌ لغرائزه الحيوانية، وموجهة إياه نحو المثل العليا.

وتلك هي الشخصية المتكاملة كما يسميها علماء التربية «وهي التي يتسم سلوكها وتصرفاتها ودوافعها بالانتران الانفعالي»^(٢).

والقصص بهذا من أهم وسائل التربية القرآنية توجيهاً وتعليماً وترسيخاً للعقيدة الصحيحة، وقد جاءت التربية في القرآن الكريم ملائمة لعناصر القصة الثلاثة (الأحداث) (الشخصيات) (الحوار) فجاءت التربية بالقصة القرآنية على ثلاثة محاور^(٣).

التربية بالأحداث:

وتعرف هذه التربية بقوة تأثيرها، وشدة سيطرتها على النفس؛ لأنها تثير الانتباه الذي يجمع الفاعلية النفسية حول ظاهرة ما عن طريق الحس وطريق التأمل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْوَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَكَلَّمْ يَكُونُوا يَكُونُوا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شَوْراً﴾^(٤).

(١) سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٥٤٨.

(٢) الصحة النفسية: مصطفى فهمي، ص ٢٨١.

(٣) سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٥٧٢-٥٨٥ (باختصار وتصرف). وقد كتب المؤلف

فصلاً عن الجانب التربوي في قصص القرآن، فأجاد، وحرى بك الرجوع إليه.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٤٠.

كما تثير الخوف من وقوع العقاب المماثل كما مرَّ بنا أن عتبة بن ربيعة وضع يده على فم الرسول ﷺ حين قرأ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾^(١) لعلمه أنه وعيد صادق، فإذا كانت هذه صورة من وقع الإنذار بالأحداث على قلب لم يؤمن، فكيف بوقعه على قلوب المؤمنين؟! .

التربية بالشخصية:

والقصص القرآني يجسد شخصيات مثالية، فالأنبياء جعل منهم القرآن نماذج إنسانية عالية، ومع ذلك كان يشير إلى ما يُلمُّ ببعضهم عليهم السلام من لحظات الضعف البشري دون مداراة حتى لا يغلو بهم أحد إلى مرتبة الألوهية - صنيع بعضهم في عيسى عليه السلام - رغم كمالاتهم، ليعرض النفس البشرية كما هي في قوتها وضعفها.

التربية بالحوار:

وأكثر ما يكون ذلك في القصص الطويلة التي تتسع للجدل، والقرآن يختار من هذا الجدل لقطات من الأقوال الموحية فيصوغها في عبارات موجزة بليغة، تفيض حكمة ورشداً فيما يجري على ألسنة الهداة ودعاة الحق الذين يسلكون في الحوار مسلك الحكماء، أو ضلالاً وزيفاً فيما تنضح به القلوب المريضة والنفوس المنحرفة، كحوارات إبراهيم عليه السلام مع قومه ومع أبيه ومع الملك، وحوار موسى عليه السلام مع فرعون وغير ذلك.

وقد خَرَجَ القرآن بهذه التربية منهجاً فريداً لا يزال قدوة الأمة كلها حتى تقوم الساعة.

(١) سورة فصلت: الآية ١٣.

ولذا حرص المربون والحكماء، والأدباء، والمصلحون... والمفسدون كذلك على سلوك أسلوب القصة؛ لتحقيق أغراضهم وأهدافهم، فحملوها كل ما يعتقدونه من آراء، وما يريدون بثه من أخلاق.

فصاغوها على ألسنة الحيوانات والطيور، أو الصور المتحركة، بل وجسدوها بممثلين وممثلات، ولكل منهم أغراضه وأهدافه، ولا شك أن القصة أسلوب تربوي وتعليمي ناجح، فالقصة تأخذ بمجامع القلوب، وتشد الأذهان، وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر، وتسترسل مع سياقها المشاعر، فلا تمل ولا تكل.

والدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل، ويشق على الناشئة متابعتها، ولا تستوعب عناصرها إلا بصعوبة وشدة وإلى أمد قصير، ولذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعاً وأكثر فائدة^(١).

فعلى المربين أن يوظفوا القصة في مجال التربية والتعليم، لاسيما التهذيب الديني، وفي قصص القرآن الكريم، وسيرة الأنبياء والصالحين، وأخبار الأمم الماضية، والحوادث الواقعة، والقصص الهادفة مجال رحب للإصلاح والتوجيه.



(١) انظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص ٣١٠-٣١١.

ترجمة القرآن الكريم^(١)

أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلسان عربي مبين، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢) وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(٣) وقال سبحانه: ﴿كَتَبْتُ فُصِّلْتُ أَيْتُهُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(٤) وغير ذلك من الآيات.

والرسول ﷺ بعث إلى الناس كافة عربهم وعجمهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعْهَا النَّاسُ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(٥) وقال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٦) وقال عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٧).

وإذا كان الأمر كذلك فإنه يجب تبليغ القرآن إلى العجم كل حسب قدرته وطاقته، كما قال الرسول ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»^(٨) وذلك بترجمته أو ترجمة معانيه.

(١) اقتبست أغلب ما كتبه هنا من كتابي (منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير) وكتابي (نقل معاني القرآن إلى لغة أخرى أترجمة أم تفسير).

(٢) سورة يوسف: الآية ٢.

(٣) سورة طه: الآية ١١٣.

(٤) سورة فصلت: الآية ٣.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٦) سورة يوسف: الآية ١٠٤.

(٧) سورة الفرقان: الآية ١.

(٨) رواه البخاري، ٥٨٢ حديث (٣٤٦١) كتاب أحاديث الأنبياء.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «إنه ليس فهم كل آية من القرآن فرضاً على كل مسلم، وإنما يجب على المسلم أن يعلم ما أمره الله به، وما نهاه عنه بأي عبارة كانت، هذا ممكن لجميع الأمم، ولهذا دخل في الإسلام جميع أصناف العجم من الفرس، والترك، والهند، والصقالبة، والبربر، ومن هؤلاء من يعلم اللسان ومنهم من يعلم ما فرض الله عليه بالترجمة، وقد قدمنا أنه يجوز ترجمة القرآن في غير الصلاة والتعبير. كما يجوز تفسيره باتفاق المسلمين»^(١).

معانى الترجمة لغة:

جاءت كلمة (ترجمة) في العربية لتدل على معان أربعة^(٢):

أولها: تبليغ الكلام لمن لم يسمعه. ومنه قول الشاعر^(٣):

إِنَّ الثَّمَانِيْنَ وَبَلَّغْتَهَا قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجَمَانِ

ثانيها: تفسير الكلام بلغته نفسها، ومنه سمي ابن عباس رضي الله عنهما (ترجمان القرآن).

ثالثها: تفسير الكلام بغير لغته، قال الجوهري: «وفد ترجمه، وترجم عنه: إذا فسر كلامه بلسان آخر»^(٤).

رابعها: نقل الكلام من لغة إلى أخرى، قال الزبيدي: «وقيل: نقله من لغة إلى أخرى»^(٥).

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : ابن تيمية، ج١، ص ١٩٤-١٩٥.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، ٢/٥-٦ (بتصرف).

(٣) هو: عوف بن المُحَلَّم الشيباني.

(٤) تاج العروس: الزبيدي، ٢١١/٨.

(٥) المرجع السابق: نفس الموضع.

ولأن هذه المعاني الأربعة تشترك في أن معناها (البيان) أطلقت الترجمة على كل ما فيه بيان، فقليل: ترجم لهذا الباب بكذا، أي: جعل له عنواناً يُبيّن ما تحته. وترجم لفلان، أي: بيّن تاريخه، وترجمة هذا الباب، أي: بيان المقصود منه ونحو ذلك.

والذي يعيننا من هذه المعاني الثالث والرابع. ويكون المراد بالترجمة هنا أمرين^(١):

الأول: الترجمة الحرفية.

وهي نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجم. ولا بد في الترجمة الحرفية من شرطين:

الأول: وجود مفردات في لغة الترجمة مساوية للمفردات في لغة الأصل. حتى يمكن للمترجم أن يحل كل مفرد من الترجمة محل نظيره من الأصل.

الثاني: تشابه اللغتين في الضمائر المستترة والروابط التي تربط الكلمات بعضها ببعض وتطابق في مواقع أحوال الكلمات كالفاعل والمفعول به، والصفات ونحو ذلك^(٢).

وبهذين الشرطين يكون من المتعذر - بل من المستحيل - ترجمة نص ترجمة حرفية فضلاً عن ترجمة القرآن الكريم، لأن معناه الإتيان بمثل هذا القرآن بلغة أخرى.

(١) التفسير والمفسرون: الذهبي، ج١، ص ٢٣-٢٤.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، ج٢، ص ٢ (بتصرف).

حُكْمُ الترجمة الحرفية:

وإذا كانت الترجمة الحرفية غير ممكنة ومستحيلة، فإن ادعاء القيام بترجمة حرفية للقرآن تؤدي معانيه الأصلية ادعاء باطل. فتحرم، وهذا مما لا خلاف فيه بين علماء المسلمين الثقات.

الثاني: الترجمة المعنوية أو التفسيرية:

وهي شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه.

حكم الترجمة المعنوية أو التفسيرية:

اختلف العلماء في حكمها بين مؤيد ومعارض:

ومن أدلة المؤيدين:

١ - أن الدعوة الإسلامية دعوة عامة لا تختص بجيل دون جيل، أو أمة دون أخرى أو العرب دون العجم، وتحقيق ذلك يقتضي بيان القرآن لتلك الأمم وتوضيح معانيه باللغة التي يفهمونها.

٢ - أن العجمي إذا كان لا يستطيع تذوق نظم القرآن بسبب اختلاف اللغة، فإنه قادر على التفكير في معانيه، والتدبر في أحكامه ودلالاته إذا ترجم القرآن له.

٣ - إذا كان العربي بحاجة إلى من يفسر له القرآن، فإن العجمي أكثر حاجة إلى بيان القرآن له بلغته التي يفهمها.

ومن أدلة المعارضين:

١ - أن ترجمة القرآن ترجمة حرفية متعذرة، والترجمة المعنوية عبارة عن فهم المترجم للقرآن، أو فهم من عساه يعتمد هو على فهمه من

المفسرين، وحيث لا تكون هذه الترجمة هي القرآن، وإنما هي فهم رجل للقرآن يخطئ في فهمه ويصيب^(١).

٢ - أن لنظم القرآن وأسلوبه تأثيراً خاصاً في نفس السامع لا يمكن أن ينقل بالترجمة.

٣ - أن القرآن الكريم هو معجزة الرسول ﷺ الكبرى بل هو الآية الباقية من معجزات الأنبياء والمحافظة عليه تقتضي عدم التغيير والتبديل والتحريف والتصحيح، والترجمة ليست كذلك.

الترجيح:

عند التأمل نجد أن في أصحاب كل قول معتدلين ومغالين، وأنه لا خلاف بين المعتدلين من الفريقين. وإنما الخلاف الشديد بين المغالين من الفريقين.

فمن غلاة أنصار الترجمة من دعا إلى الترجمة بنوعها حرفية ومعنوية، وأجاز الصلاة بالترجمة الحرفية واستنباط الأحكام منها، وأنها تحمل معاني كلام الله^(٢).

ومن غلاة معارضي الترجمة من حرّم أي نوع من أنواع الترجمة، وسدّ كل باب للمعجم لفهم القرآن إلا باب التعلم للغة العربية.

أما المعتدلون من الفريقين فليس بينهما خلاف يذكر، إلا ما دار حول مسمى الترجمة، فسمّاها أنصار الترجمة «ترجمة القرآن» أو «ترجمة معاني القرآن» وسمّاها المعارضون للترجمة «تفسير القرآن» أو «ترجمة تفسير القرآن» وجمع آخرون الاسمين معاً «ترجمة معاني تفسير القرآن الكريم».

(١) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ج٩، ص ٣١٢-٣١٦.

(٢) بحث في ترجمة القرآن الكريم: محمد مصطفى المراغي، ص ٢٢.

والخلاصة أنه كما يباح بالإجماع تفسير القرآن الكريم، فإنه لا ضير أن يفسر القرآن عربي أو يفسره غير عربي متمكن من العربية ومن لغته ما دام أن ما يقوله لا يتجاوز وصفه بـ«التفسير» فكما يصح أن يقال: هذا تفسير القرآن باللغة العربية، فإنه يجوز أن يقال: هذا تفسيره بالفارسية أو الانجليزية أو الفرنسية أو غير ذلك.

وكما يقال هذا تفسير الطبري، وهذا تفسير الرازي، وهذا تفسير ابن كثير فإنه يجوز أن يقال: وهذا تفسير فلان بالأردية، وهذا تفسير فلان بالفارسية، وهذا تفسير فلان بالانجليزية.

لكن ينبغي مراعاة أمور^(١):

١ - أن يكتب النص القرآني باللغة العربية برسم المصحف ومضبوطاً بالشكل في أعلى كل صفحة، ويتلوه باللغة الأجنبية كلمة (التفسير) ثم يكتب تحتها بتلك اللغة ذلك التفسير.

٢ - لا بد من النص على أن هذا ليس هو نص القرآن وليست فيه خصائصه ولا تنطبق عليه أحكامه.

٣ - عدم كتابة كلمات القرآن بحروف غير عربية وقد أفتى علماء المسلمين بتحريم ذلك.

٤ - الاقتصار في الترجمة على معاني النص مباشرة، فينبغي خلوه من المصطلحات العلمية والمباحث الفلسفية والنظريات العلمية.

(١) انظر كتابي: نقل معاني القرآن الكريم إلى لغة أخرى أترجمة أم تفسير: ص ٢٩.

جهود المملكة العربية السعودية في ترجمة القرآن الكريم:

وقد قامت حكومة المملكة العربية السعودية وفقها الله تعالى بإنشاء مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف وخدمة القرآن الكريم، ومن ضمن جهودها ترجمة القرآن الكريم إلى لغات العالم، وقد صدر حتى الآن ٤٥ ترجمة.

كما أنه تم تسجيل معاني سورة الفاتحة وجزء عم بهذه اللغات على الوسائط الصوتية - أشرطة وغيرها - ويجري الآن التسجيل الصوتي لمعاني القرآن الكريم كاملاً بهذه اللغات الواسعة الانتشار. فبارك الله في هذه الجهود والقائمين عليها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



المصادر

- ١ - الإبانة عن معاني القراءات: مكّي بن أبي طالب القيسي، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شليبي، دار نهضة مصر (بدون تاريخ).
- ٢ - ابن تيمية حياته وعصره، آراؤه وفقهه: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي - بيروت، الطبعة الأولى.
- ٣ - اتجاهات التفسير في العصر الراهن: د. عبد المجيد المحتسب، مكتبة النهضة الإسلامية - عمان، الأردن، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.
- ٤ - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، الطبعة الرابعة ١٤٢٣هـ - مكتبة الرشد - الرياض.
- ٥ - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: السيد محمد الحسيني الزبيدي المرتضى، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- ٦ - إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر: د. عبد الكريم النملة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - دار العاصمة - الرياض.
- ٧ - إتحاف فضلاء البشر: أحمد بن محمد البناء، دار الندوة الجديدة، بيروت.
- ٨ - الإنتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، الطبعة الثانية، ١٣٤٣هـ المطبعة الأزهرية بمصر والطبعة الثالثة ١٣٧٠هـ، مصطفى البابي الحلبي. وطبعة مؤسسة النداء، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، تحقيق د. القيسية، والأتاسي الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.
- ٩ - إجمال البيان في مباحث من علوم القرآن: د. عبد الله أحمد عثمان أحمد، جامعة قاريونس، ١٣٩٨هـ.
- ١٠ - الأحرف السبعة: د. حسن عتر، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- ١١ - الإحكام في أصول الأحكام: ابن حزم الظاهري - دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ وطبعة مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٤٥هـ.

- ١٢- الإحكام في أصول الأحكام: سيف الدين أبو الحسن علي الأمدي، تعليق عبد الرزاق عفيفي، مؤسسة النور - الرياض، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ.
- ١٣- أحكام القرآن: أبو بكر بن العربي. تحقيق علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ.
- ١٤- أخلاق أهل القرآن: أبو بكر الآجري: تحقيق محمد عمرو بن عبد اللطيف، دار الباز - مكة المكرمة.
- ١٥- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري - شهاب الدين القسطلاني - دار إحياء التراث العربي - بيروت مصورة عن الطبعة السادسة بالمطبعة الأميرية - ببولاق مصر ١٣٠٤هـ.
- ١٦- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: محمد بن علي الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ وطبعة دار الكتب العلمية - بيروت تحقيق محمد حسن الشافعي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
- ١٧- أسباب النزول: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٨٨هـ. وطبعة دار الإصلاح - الدمام ط ١ سنة ١٤١١هـ.
- ١٨- أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم بلاغته وأغراضه، د. سامي عطا حسن، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت، العدد ٥٣ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ.
- ١٩- أسماء القرآن الكريم في القرآن: د. خمساوي أحمد الخمساوي، دار التحرير - القاهرة.
- ٢٠- الأسماء والصفات: أبو بكر البيهقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٢١- أصول التفسير وقواعده: خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.
- ٢٢- أصول الفقه الإسلامي: د. وهبه الزحيلي، دار الفكر - دمشق ١٤٠٦هـ.
- ٢٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الجكني الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.
- ٢٤- إعجاز القرآن: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ٢٥- إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: د. منير سلطان، منشأة المعارف - الإسكندرية، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م.

- ٢٦- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، الطبعة الثامنة ١٣٨٩هـ.
- ٢٧- إعراب ثلاثين سورة من القرآن: ابن خالويه، المكتبة الثقافية، بيروت ١٤٠٧هـ.
- ٢٨- الأعلام: خير الدين الزركلي دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٧٩م.
- ٢٩- الإعلان بتكميل مورد الظمان: ابن عاشر (ضمن كتاب دليل الحيران شرح مورد الظمان للمارغني التونسي) تحقيق محمد الصادق قمحاوي، مكتبة الكليات الأزهرية.
- ٣٠- الأمثال القرآنية: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم - دمشق - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
- ٣١- الأمثال في القرآن الكريم: سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
- ٣٢- الإمعان في أقسام القرآن: عبد الحميد الفراهي، دار القرآن الكريم - الكويت ١٤٠٠هـ.
- ٣٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين البيضاوي، مؤسسة شعبان - بيروت.
- ٣٤- آيات الجهاد في القرآن الكريم: د. كامل سلامة الدقس، دار البيان - الكويت ١٣٩٢هـ.
- ٣٥- الآيات المنسوخة في القرآن الكريم: د. عبد الله بن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة ومكتبة العلم بجدة.
- ٣٦- إيقاظ الأعلام لوجوب اتباع رسم المصحف الإمام: محمد حبيب الله الشنقيطي، مكتبة المعرفة - سوريا، حمص، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.
- ٣٧- بحث في ترجمة القرآن الكريم: محمد مصطفى المراغي، مطبعة الرغائب، ربيع الثاني ١٣٥٥هـ.
- ٣٨- البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.
- ٣٩- البحر المحيط في أصول الفقه: بدر الدين الزركشي، تحقيق وتقديم د. محمد بن عبد الرزاق الدويش (رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة ١٤٠٦) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وأيضاً طبعة دار الكتبي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ تحقيق لجنة من علماء الأزهر.
- ٤٠- البداية والنهاية: ابن كثير، مكتبة المعارف - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٦.

- ٤١- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: عبد الفتاح القاضي، مصطفى البابي الحلبي - مصر.
- ٤٢- بديع القرآن: ابن أبي الأصبع، تحقيق حفني محمد شرف - نهضة مصر.
- ٤٣- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ.
- ٤٤- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروزآبادي، تحقيق محمد علي التجار، لجنة إحياء التراث الإسلامي - مصر، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.
- ٤٥- بلاغة القرآن: محمد الخضر حسين، الناشر علي الرضا التونسي - دمشق ١٣٩١هـ.
- ٤٦- بيان إعجاز القرآن: أبو سليمان الخطابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف - بمصر.
- ٤٧- بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات وكثرة الطرق والروايات: أبو العباس أحمد ابن عمار المهدي ضمن مجموع بعنوان (أربعة كتب في علوم القرآن: تحقيق د. حاتم الضامن، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ).
- ٤٨- البيان في إعجاز القرآن: د. صلاح الخالدي، دار عمار - الأردن، عمان، الطبعة الثانية ١٩٩١م.
- ٤٩- بيان المختصر (شرح مختصر ابن الحاجب): أبو الثناء الأصفهاني تحقيق د. محمد مظهر بقاء، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ٥٠- تاج العروس: محمد مرتضى الزبيدي، منشورات مكتبة الحياة - بيروت (بدون تاريخ وسنة النشر).
- ٥١- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
- ٥٢- تاريخ التراث العربي: فؤاد سزكين ترجمة د. محمود حجازي ود. فهمي أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م.
- ٥٣- تاريخ المصحف الشريف: عبد الفتاح القاضي، مكتبة الجندي - القاهرة (بدون تاريخ).
- ٥٤- تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث - القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.

- ٥٥- التبيان في آداب حملة القرآن: النووي، تحقيق: عبده الكوشك، مكتبة الإحسان - دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ. وأيضاً الطبعة الأولى دار البيان دمشق ١٤٠٥هـ بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط، والطبعة الأولى لدار النفائس بيروت ١٤٠٤هـ بتحقيق عبد العزيز السيروان.
- ٥٦- التبيان في أقسام القرآن: ابن القيم الجوزية، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض ١٣٨٨هـ وطبعة دار إحياء العلوم - بيروت تحقيق محمد شريف سكر، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- ٥٧- تبين الحقائق شرح كثر الدقائق: فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي، المطبعة الأميرية - ببولاق، الطبعة الأولى ١٣١٣هـ.
- ٥٨- التحبير في علم التفسير: جلال الدين السيوطي تحقيق د. فتحي عبد القادر، دار المنار، القاهرة ١٤٠٦هـ.
- ٥٩- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، عيسى الحلبي - بمصر، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ والنشرة الثانية الدار التونسية للنشر ١٩٧٣م.
- ٦٠- تحرير كتاب القرآن الكريم بحروف غير عربية: صالح علي العود، مركز التربية الإسلامية - باريس ودار الكتاب النفيس - حلب، الطبعة الثانية ١٤١١هـ.
- ٦١- تخريج أحاديث مشكلة الفقر: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي دمشق - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- ٦٢- تدريب الراوي: جلال الدين السيوطي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف (دون ذكر اسم الناشر وتاريخ النشر).
- ٦٣- التذكار في أفضل الأذكار: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق ثروت محمد نافع، دار التوحيد - مصر.
- ٦٤- تذكرة السامع والمتكلم: بدر الدين ابن جماعة، دار الكتب العلمية.
- ٦٥- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) مكتبة النهضة الحديثة بمصر، الطبعة الأولى ١٩٨٤هـ.
- ٦٦- التفسير العلمي بمكتشفات العلم التجريبي: د. محمد بن عبد الرحمن الشايع بحث منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض، العدد الرابع ١٤١١هـ.

- ٦٧- التفسير العلمي للقرآن الكريم: عبد الله الأهدل. رسالة قدمت لنيل درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٢هـ مطبوعة على الآلة الكاتبة.
- ٦٨- التفسير الكبير: فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الرابعة.
- ٦٩- تفسير مجاهد: تحقيق عبد الرحمن السورتي، المنشورات العلمية - بيروت (بدون تاريخ).
- ٧٠- التفسير معالم حياته: أمين الخولي، جماعة الكتاب ١٩٤٤م وطبعة دار الكتاب اللبناني الأولى ١٩٨٢م.
- ٧١- تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار المنار - القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٦٧هـ.
- ٧٢- تفسير النصوص في الفقه الإسلامي: د. محمد أديب الصالح المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.
- ٧٣- التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ.
- ٧٤- التقرير العلمي عن مصحف المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ١٤٠٦هـ.
- ٧٥- التمهيد: ابن عبد البر، تحقيق مصطفى العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، مطبعة فضالة المحمدية - المغرب، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.
- ٧٦- التمهيد في معرفة التجويد: أبو العلاء الحسن بن أحمد الهمداني تحقيق د. غانم قدوري الحمد، عمان، دار عمار، ١٤٢٠هـ.
- ٧٧- التوحيد وإثبات صفة الرب: محمد بن إسحاق بن خزيمة، راجعه محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٣هـ.
- ٧٨- توضيح الأفكار: محمد بن إسماعيل الصنعاني، المكتبة السلفية - المدينة المنورة.
- ٧٩- تهافت التهافت: ابن رشد الحفيد، تحقيق د. سليمان دنيا، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧١م.
- ٨٠- تهذيب اللغة: أبو منصور الأزهري، تحقيق عبد الحليم النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

- ٨١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري، تحقيق وتخريج محمود وأحمد شاكر، دار المعارف بمصر. وطبعة المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر سنة ١٣٢٨هـ.
- ٨٢- جامع البيان في معرفة رسم القرآن: علي إسماعيل هنداي - دار الفرقان - الرياض.
- ٨٣- الجامع الصحيح: أبو عيسى الترمذي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٨٤- جامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي، الناشر مصطفى البابي الحلبي - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٣٨٢هـ.
- ٨٥- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله القرطبي أعاد طبعه دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٩٦٥م.
- ٨٦- الجامع لما يحتاج إليه من رسم المصحف: ابن وثيق الأندلسي، تحقيق د. غانم قدوري الحمد، دار الأنبار، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- ٨٧- الجدل القرآني بين أساليب الدعوة الإسلامية: د. يوسف عيد، دار الطباعة المحمدية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- ٨٨- جمال القراء وكمال الإقراء: علم الدين السخاوي، تحقيق د. علي البواب مكتبة التراث - مكة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- ٨٩- جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير: أحمد ياسوف، دار المكتبي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دمشق.
- ٩٠- الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم: لبيب السعيد، دار الكتاب العربي - القاهرة، ١٣٨٧هـ.
- ٩١- جمهرة اللغة: ابن دريد، دائرة المعارف العثمانية - حيدرآباد، الطبعة الأولى ١٣٤٥هـ.
- ٩٢- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية، مطابع المجد (دون تاريخ ومكان النشر).
- ٩٣- الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم: الشيخ محمد ابن إبراهيم آل الشيخ، مطبعة الحكومة - بمكة المكرمة ١٣٦٩هـ.
- ٩٤- جوامع السيرة: ابن حزم، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر.

- ٩٥- الجواهر المضية في طبقات الحنفية: أبو محمد بن أبي الوفاء، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو - مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٩٨هـ.
- ٩٦- حديث الأحرف السبعة: د. عبد العزيز القاري، دار النشر الدولي - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- ٩٧- حلية الأولياء: أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٩٨- خصائص القرآن الكريم: فهد بن عبد الرحمن الرومي، دار طيبة، الرياض، الطبعة السابعة ١٤١١هـ.
- ٩٩- خطط الشام: محمد كرد علي، مكتبة النوري - دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ.
- ١٠٠- درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.
- ١٠١- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ابن حجر العسقلاني تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة - القاهرة.
- ١٠٢- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي، الناشر: محمد أمين دمج بيروت - مؤسسة الرسالة.
- ١٠٣- دفاع عن الإسلام: لورا فاغليري ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ١٩٦٣م.
- ١٠٤- دلائل النبوة: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تخريج وتعليق د. عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- ١٠٥- دليل الحيران شرح مورد الظمان: إبراهيم بن أحمد المارغني، راجعه محمد الصادق قمحاوي، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة.
- ١٠٦- ديوان جرير: دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٨هـ.
- ١٠٧- الذيل على طبقات الحنابلة: ابن رجب، دار المعرفة - بيروت.
- ١٠٨- رحلة ابن بطوطة: المكتبة التجارية الكبرى - بمصر، ١٣٨٦هـ.
- ١٠٩- رحلة ابن جبير: دار ومكتبة الهلال - بيروت، ١٩٨١م.
- ١١٠- الرد على المنطقيين: ابن تيمية، إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ.

- ١١١- رسم المصحف: د. غانم قدوري الحمد، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.
- ١١٢- الروح: ابن القيم، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٣٨٦هـ.
- ١١٣- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، دار الفكر - بيروت ١٣٩٨هـ، وطبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت عن طبعة إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة.
- ١١٤- روضة الناظر وجنة المناظر: ابن قدامة المقدسي، مطابع الجزيرة - الرياض، ١٣٨٩هـ.
- ١١٥- زاد المعاد: ابن قيم الجوزية، المطبعة المصرية ومكتبتها.
- ١١٦- زهر الأكم في الأمثال والحكم: أبو علي الحسن اليوسي.
- ١١٧- سنن الدارمي: دار الفكر - القاهرة، ١٣٩٨هـ.
- ١١٨- سنن ابن ماجه: دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية.
- ١١٩- سنن أبي داود: تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية.
- ١٢٠- السنن الكبرى: أبو بكر البيهقي، مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند، الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ.
- ١٢١- السنة: ابن أبي عاصم، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
- ١٢٢- سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت (دون تاريخ).
- ١٢٣- سلسلة رسائل ١-٥: للعلامة عبد الرحمن المعلمي، أعدها للنشر ماجد الزيايدي، المكتبة المكية - مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
- ١٢٤- السياسة الشرعية: ابن تيمية (ضمن مجموع فتاوى ابن تيمية) جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، مطابع الرياض، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ.
- ١٢٥- سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي. أشرف على التحقيق شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ١٢٦- سيرة ابن هشام: تحقيق السقا، الأبياري، شلبي، مطبعة مصطفى الحلبي - مصر ١٣٥٥هـ.

- ١٢٧- سيكولوجية القصة في القرآن: د. التهامي نقره، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٤م.
- ١٢٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت (بدون تاريخ).
- ١٢٩- شرح السنة: أبو محمد الفراء البغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
- ١٣٠- شرح صحيح مسلم: النووي، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.
- ١٣١- شرح العقيدة الطحاوية: علي بن أبي العز الحنفي، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض، وطبعة المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ.
- ١٣٢- شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف: الحسن العسكري، تحقيق عبد العزيز أحمد، الناشر - مصطفى الحلبي - مصر، الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ.
- ١٣٣- شرح المفصل: موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية - بمصر (دون تاريخ).
- ١٣٤- شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، المطبعة العزيزية - حيدر آباد - الهند، ١٩٨٣م.
- ١٣٥- الشوارد: عبد الله بن خميس دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض ١٣٩٤هـ.
- ١٣٦- الصاحبي: ابن فارس، المكتبة السلفية - مصر ١٩١٠م.
- ١٣٧- الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.
- ١٣٨- الصحة النفسية: مصطفى فهمي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٥٥م.
- ١٣٩- صحيح البخاري: المكتبة الإسلامية - استنبول - تركيا ١٩٧٩م.
- ١٤٠- صحيح الجامع الصغير: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت.
- ١٤١- صحيح مسلم: تحقيق وتصحيح وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض ١٤٠٠هـ.
- ١٤٢- صفحات في علوم القراءات: عبد القيوم السندي، المكتبة الإمدادية - مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

- ١٤٣- ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربوية وآثاره: عبد المجيد البيانوني، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
- ١٤٤- طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين السبكي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية (بدون تاريخ) وأيضاً طبعة عيسى البابي الحلبي، بتحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ.
- ١٤٥- طبقات المفسرين: جلال الدين السيوطي تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة الطبعة الأولى.
- ١٤٦- طبقات المفسرين: شمس الدين الداودي، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى.
- ١٤٧- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: ابن قيم الجوزية مطبعة الاتحاد الشرقي - دمشق.
- ١٤٨- طيبة النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ضبط وتصحيح محمد تميم الزعبي، دار الهدى - جدة ١٤١٤هـ.
- ١٤٩- العقد المنظوم في الخصوص والعموم: شهاب الدين القرافي، تحقيق محمد علوي بنصر، وزارة الأوقاف المغربية ١٤١٨هـ، وطبعة أخرى بتحقيق د. أحمد الختم عبد الله، المكتبة المكية، دار الكتيب - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
- ١٥٠- علم المناسبات في القرآن الكريم: د. محمد عبد العزيز الخضير (بحث منشور في مجلة البيان - لندن العدد ١٤٦).
- ١٥١- علم النفس والأخلاق: هادفيلد ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزم.
- ١٥٢- علوم القرآن الكريم: د. عدنان زرزور، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.
- ١٥٣- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي، تحقيق عبد السلام التونجي الحلبي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية - ليبيا، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
- ١٥٤- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: البدر العيني، دار الفكر - بيروت.
- ١٥٥- عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، دار ثقيف - الرياض.
- ١٥٦- غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.

- ١٥٧- غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري تحقيق: إبراهيم عطوه عوض - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ.
- ١٥٨- غريب الحديث: أبو عبيد القاسم بن سلام، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ١٥٩- الفتاوى الكبرى: ابن تيمية. قدم له حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة - بيروت (دون تاريخ).
- ١٦٠- فتح الباري: ابن حجر العسقلاني - تصحيح عبد العزيز بن باز، ترقيم محمد عبد الباقي، دار الفكر - تصوير عن الطبعة السلفية.
- ١٦١- الفتح الرباني في علاقة القراءات بالرسم العثماني: د. محمد محمد سالم محيسن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١٥هـ.
- ١٦٢- فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - بمصر، الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ.
- ١٦٣- فتح المغيث شرح ألفية الحديث: شمس الدين السخاوي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
- ١٦٤- الفرائد الحسان في بيان رسم القرآن: محمد بن يوسف التونسي الشهير بالكافي، مطبعة العلوم والآداب - دمشق ١٣٧٥هـ.
- ١٦٥- فصول في فقه العربية: رمضان عبد التواب، دار التراث - القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٧٣م.
- ١٦٦- فضائل القرآن: ابن كثير الدمشقي، دار الأندلس.
- ١٦٧- فضائل القرآن ومعالمه وآدابه: أبو عبيد القاسم بن سلام تحقيق أحمد بن عبد الواحد الخياطي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ١٤١٥هـ. وأيضاً طبعة دار الكتب العلمية - بيروت تحقيق وهبي سليمان غاوجي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
- ١٦٨- فضائل القرآن: ابن الضريس البجلي، تحقيق غزوة بدير، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- ١٦٩- فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.

- ١٧٠- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن: ابن الجوزي، تحقيق حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- ١٧١- الفهرست: ابن النديم، دار الباز - مكة المكرمة.
- ١٧٢- في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك - المكتب المصري الحديث - القاهرة.
- ١٧٣- القاموس المحيط: الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ١٧٤- القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب: عبد الفتاح القاضي، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (بدون تاريخ).
- ١٧٥- القراءات القرآنية: عبد الحليم قابه، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
- ١٧٦- قراءة عبد الله بن مسعود: د. محمد أحمد خاطر، دار الاعتصام - القاهرة (دون تاريخ).
- ١٧٧- القرآن الكريم تاريخه وعلومه: د. محمد البدري، دار القلم - دبي، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
- ١٧٨- قصة عقيدة: د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، مكتبة التوبة - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
- ١٧٩- القطع والانتاف: أبو جعفر النحاس تحقيق د. أحمد خطاب العمر، الطبعة الأولى وزارة الأوقاف العراقية، إحياء التراث الإسلامي ١٣٩٨هـ.
- ١٨٠- قواعد الترجيح عند المفسرين: د. حسين بن علي الحربي، دار القاسم - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
- ١٨١- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ.
- ١٨٢- الكتاب: سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي - مصر، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.
- ١٨٣- كتاب الإبريز: أحمد بن المبارك، المطبعة الأزهرية المصرية، الطبعة الأولى ١٣٠٦هـ.
- ١٨٤- كتاب مناهل العرفان للزرقاني دراسة وتقويم: د. خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان السعودية - الخبر، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
- ١٨٥- كتاب النبي ﷺ: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ.

- ١٨٦- كُتَاب الوحي: د. أحمد عبد الرحمن عيسى، دار اللواء - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
- ١٨٧- الكتابة العربية: د. غانم قدوري الحمد (بحث في مجلة الحكمة - لندن العدد العاشر).
- ١٨٨- كتابة المصحف الشريف وطباعته: د. محمد سالم شديد العوفي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ.
- ١٨٩- الكشف: الزمخشري، طبعة انتشارات آفات - تهران، وطبعة دار المعرفة - بيروت.
- ١٩٠- كشف الأستار عن زوائد البزار: نور الدين علي الهيثمي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.
- ١٩١- كشف الظنون: حاجي خليفة، دار العلوم الحديثة - بيروت.
- ١٩٢- الكشف والبيان في علوم القرآن: د. سمير عبد العزيز شيلوه، مطبعة دار البيان - مصر.
- ١٩٣- لباب النقول في أسباب النزول: جلال الدين السيوطي، دار إحياء العلوم - بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٨م.
- ١٩٤- لسان العرب: ابن منظور، دار صادر - بيروت (دون تاريخ).
- ١٩٥- لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ.
- ١٩٦- لطائف الإشارات لفنون القراءات: شهاب الدين القسطلاني تحقيق وتعليق الشيخ عامر السيد عثمان ود. عبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة ١٣٩٢هـ.
- ١٩٧- لغة القرآن الكريم: عبد الجليل عبد الرحيم، مكتبة الرسالة الحديثة - الأردن - عمان، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.
- ١٩٨- لمحات في علوم القرآن: محمد الصباغ، المكتب الإسلامي - بيروت ١٣٩٤هـ.
- ١٩٩- مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، دار المنارة - جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- ٢٠٠- مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الثامنة ١٤٠١هـ.
- ٢٠١- مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة ١٩٧٤م.

- ٢٠٢- مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤هـ.
- ٢٠٣- مجمع الزوائد: علي الهيثمي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ.
- ٢٠٤- مجموع الفتاوى ابن تيمية: جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، مطابع الرياض، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ.
- ٢٠٥- المحرر الوجيز: ابن عطية الأندلسي، تحقيق الرحالي الفاروق وآخرين، طبع على نفقة أمير دولة قطر، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ الدوحة - قطر.
- ٢٠٦- المحصول في علم أصول الفقه: فخر الدين الرازي، تحقيق طه العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.
- ٢٠٧- المحكم في نقط المصاحف: أبو عمرو الداني، تحقيق د. عزة حسن، مديريه إحياء التراث القديم وزارة الثقافة والإرشاد - دمشق ١٩٦٠م.
- ٢٠٨- المحكم والمتشابه في القرآن العظيم: د. عبد الرحمن المطرودي، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
- ٢٠٩- مخلفات الرسول ﷺ في المسجد الحسيني: د. سعاد ماهر، دار النشر لجامعة القاهرة ١٩٨٩م.
- ٢١٠- مدخل إلى القرآن الكريم: د. محمد عبد الله دراز، دار القلم - الكويت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.
- ٢١١- المدخل لدراسة القرآن الكريم: د. محمد محمد أبو شهبه، الطبعة الثانية.
- ٢١٢- مذاهب التفسير الإسلامي: اجنتس جولد تسيهر، ترجمة د. عبد الحليم النجار، دار اقرأ - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
- ٢١٣- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز: أبو شامة المقدسي، تحقيق طيار قولاچ، دار صادر - بيروت ١٣٩٥هـ. وطبعة دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ٢١٤- المسائل المشككة المعروفة بالبغداديات: أبو علي الفارسي، تحقيق ودراسة صلاح الدين عبد الله الشيكاي، مطبعة العاني - بغداد.
- ٢١٥- المستدرك: الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية.

- ٢١٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، دار صادر - بيروت، مصورة عن طبعة المطبعة الميمنية ١٣١٣هـ، وطبعة دار المعارف بمصر سنة ١٣٧٣هـ، الطبعة الرابعة بتحقيق وتخريج أحمد محمد شاكر. وطبعة مؤسسة الرسالة - بيروت تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.
- ٢١٧- مسند الشهاب: أبو عبد الله القضاعي، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٨٥م.
- ٢١٨- مشاهير علماء نجد وغيرهم: عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ.
- ٢١٩- مشكاة المصابيح: الخطيب التبريزي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٩م.
- ٢٢٠- المصاحف: أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني، دار الباز - مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ. وطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر تحقيق د. محب الدين واعظ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- ٢٢١- المصباح المنير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي، تصحيح مصطفى السقا، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - بمصر، ١٣٦٩هـ.
- ٢٢٢- معالم التنزيل: أبو محمد الحسين البغوي، تحقيق خالد العك، ومروان سوار، دار المعرفة بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ٢٢٣- معالم الشريعة الإسلامية: د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٥م.
- ٢٢٤- معاني القرآن: أبو زكريا الفراء، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.
- ٢٢٥- معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدين السيوطي، تصحيح أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- ٢٢٦- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأخيرة.
- ٢٢٧- المعجم الأوسط: الطبراني، تحقيق د. محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- ٢٢٨- المعجم الكبير: الطبراني، حققه وخرج أحاديثه حمدي السلفي مطبعة الزهراء - العراق، وطبعة الدار العربية للطباعة - بغداد، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.

- ٢٢٩- معجم المفسرين: عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
- ٢٣٠- معجم المقاييس في اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- ٢٣١- معرفة القراء الكبار: شمس الدين أبو عبد الله الذهبي، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى (بدون تاريخ).
- ٢٣٢- مع القرآن الكريم: د. شعبان إسماعيل، دار الاتحاد العربي - القاهرة ١٣٩٨هـ.
- ٢٣٣- مع القرآن الكريم دراسات وأحكام: حيدر قفه، دار الضياء - عمان الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
- ٢٣٤- المغني في أبواب التوحيد والعدل: عبد الجبار الهمداني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، تحقيق مجموعة من الباحثين ١٩٦٦م.
- ٢٣٥- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الباز (بدون تاريخ).
- ٢٣٦- مفتاح السعادة: طاش كبرى زاده، مراجعة وتحقيق كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة - القاهرة.
- ٢٣٧- مفتاح العلوم: أبو يعقوب السكاكي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٥٦هـ.
- ٢٣٨- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، الطبعة الميمية بمصر ١٣٢٤هـ.
- ٢٣٩- مقدمة ابن خلدون: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة (بدون تاريخ).
- ٢٤٠- مقدمة جامع التفاسير: الراغب الأصفهاني، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دار الدعوة - الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- ٢٤١- مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، تحقيق د. عدنان زرزور، دار القرآن الكريم - الكويت، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ.
- ٢٤٢- المقنع: أبو عمرو الداني، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر - دمشق، ١٤٠٣هـ.
- ٢٤٣- من أسرار البلاغة في القرآن: د. محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
- ٢٤٤- مناهج الجدل في القرآن الكريم: د. زاهر عواض الألمعي، مطابع الفرزدق التجارية - الرياض (بدون تاريخ).

٢٤٥- مناهج المفسرين: د. مساعد مسلم آل جعفر، ود. محيي هلال السرحان، وزارة التعليم العالي - العراق، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

٢٤٦- مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة. وطبعة دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٢٤٧- منجد المقرئين: ابن الجزري، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٠هـ.

٢٤٨- من قضايا القرآن: د. إسماعيل الطحان، مكتبة الأقصى - قطر، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

٢٤٩- منهج الفرقان في علوم القرآن: محمد علي سلامة، تحقيق د. محمد سيد أحمد المسير نهضة مصر الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

٢٥٠- منهج القرآن الكريم في تقرير الأحكام: مصطفى الباجقني، المنشأة العامة للنشر والتوزيع - طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

٢٥١- منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الخامسة ١٤٢٣هـ.

٢٥٢- الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي، بشرح عبد الله دراز وترقيم محمد عبد الله دراز، دار المعرفة - بيروت.

٢٥٣- المذهب في فقه الإمام الشافعي: أبو إسحاق الفيروزآبادي الشيرازي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ.

٢٥٤- ميزان الاعتدال: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي وفتحية البجاوي، دار الفكر العربي.

٢٥٥- النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز، دار القلم - الكويت، الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ.

٢٥٦- نزول القرآن الكريم: د. محمد بن عبد الرحمن الشايع، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ (بدون ذكر اسم الناشر).

٢٥٧- نزهة الألباء في طبقات الأدباء: أبو البركات ابن الأنباري، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار - الزرقاء، الأردن، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ.

٢٥٨- النسخ في القرآن الكريم: د. مصطفى زيد، دار الوفاء - المنصورة - مصر، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.

٢٥٩- نسيم الرياض في شرح الشفاء للقاضي عياض: أحمد بن محمد الخفاجي، المطبعة الأزهرية - القاهرة ١٣٢٥هـ.

٢٦٠- النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٦١- نظرات في مدرسة التفسير الحديثة: د. مصطفى مسلم. (بحث منشور في مجلة كلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد الثاني).

٢٦٢- نقل معاني القرآن إلى لغة أخرى أترجمة أم تفسير: د. فهد بن عبد الرحمن الرومي. الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

٢٦٣- النكت والعيون: الماوردي، راجعه وعلق عليه السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، مكتبة المؤيد - الرياض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ^(١).

٢٦٤- نور الثقلين: (عبد علي) الحويزي، دار الكتب العلمية - قم - إيران.

٢٦٥- النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، تحقيق محمود الطناحي، المكتبة الإسلامية.

٢٦٦- والله يعصمك من الناس: أحمد الجدع، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

٢٦٧- وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور: د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، مكتبة التوبة - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٢٦٨- الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا، مطبعة المنار بمصر، الطبعة الثالثة ١٣٥٤هـ.

٢٦٩- الوحي والقرآن الكريم: د. محمد حسين الذهبي مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٢٧٠- الوسيط: علي بن أحمد الواحدي، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، مكتبة دار الباز، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٢٧١- وفيات الأعيان: ابن خلكان، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية.

٢٧٢- الهدى والبيان في أسماء القرآن: صالح بن إبراهيم البليهي، المطابع الأهلية للأوفست - الرياض، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.

(١) هذه الطبعة لهذا التفسير ينبغي أن لا يعتمد عليها بدون كتب التصحيحات الذي أصدرته مكتبة المؤيد بالرياض حيث إن القائم على الطباعة في بيروت قام بتحريف وتزوير تعليقات المحقق كما جاء في الكتيب المذكور. وأضاف زيادات وتعليقات باطلة وتأويلات منحرفة.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
تمهيد	٧
المعجزة الكبرى	٧
١ - تعريف علوم القرآن الكريم:	١٩
تعريف علوم القرآن	١٩
تعريف العلوم	١٩
تعريف القرآن لغة	١٩
تعريف القرآن اصطلاحاً	٢٣
الفروق بين القرآن الكريم والأحاديث القدسية	٢٤
أسماء القرآن الكريم وصفاته	٢٦
تعريف علوم القرآن بالمعنى الإضافي	٣١
تعريف علوم القرآن كفن مدون	٣٢
موضوع علوم القرآن الكريم	٣٢
ثمرة علوم القرآن الكريم	٣٣
٢ - نشأة علوم القرآن الكريم وتطورها: في عهد الرسول ﷺ	٣٤
في عهد الصحابة رضي الله عنهم	٣٤
في عهد التابعين رحمهم الله تعالى	٣٧
بداية التأليف في علوم القرآن الكريم (عهد التدوين)	٣٩
ظهور اصطلاح علوم القرآن الكريم	٤٤

أهم المؤلفات في علوم القرآن الكريم	٤٥
أهم المؤلفات في علوم القرآن كفن مدون (قديمًا)	٤٥
أهم المؤلفات في علوم القرآن كفن مدون (حديثًا)	٤٧
٣ - فضائل القرآن الكريم وآداب تلاوته : فضائله العامة :	٥٠
في القرآن	٥١
في السنة النبوية	٥٢
فضائل بعض سورته وآياته	٥٣
فضل تلاوته	٥٥
فضل استماعه	٥٧
فضل الاجتماع لتدارسه	٥٧
آداب التلاوة والاستماع	٥٨
٤ - خصائص القرآن الكريم :	٦١
أولاً : خصائص تتعلق بفضله وشرفه ومكانته	٦٢
ثانياً : خصائص تتعلق بأسلوبه ولغته	٦٥
ثالثاً : خصائص عامة	٦٧
٥ - جمع القرآن الكريم : أنواعه	٧١
جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور : الدليل عليه	٧١
حكمه	٧٢
فضله	٧٢
حفظ الرسول ﷺ	٧٢
حفظ الصحابة رضي الله عنهم	٧٣
إشكال	٧٥
جواب	٧٦
حفظ التابعين رحمهم الله تعالى	٧٧

٧٧	حفظ القرآن في العصر الحديث
٧٨	خصائص جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور
٧٩	جمع القرآن بمعنى كتابته وتدوينه في عهد الرسول ﷺ
٧٩	كتاب الوحي
٨٠	صفته
٨٠	أدوات الكتابة
٨١	مزاياه
٨٣	في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه سببه
٨٥	تاريخه
٨٥	أسباب اختيار زيد رضي الله عنه لجمعه
٨٥	منهجه في الجمع
٨٧	مميزات هذا الجمع
٨٨	مكانته
٨٩	تسمية المصحف
٩٠	خبر هذا المصحف
٩٠	في عهد عثمان رضي الله عنه
٩٠	سببه
٩١	تاريخه
٩٢	فكرة الجمع
٩٢	اللجنة المختارة
٩٣	المنهج لهذا الجمع
٩٥	مزاياه
٩٧	الفروق بين جمع أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما
٩٩	إنفاذ المصاحف
٩٩	موقف الصحابة من هذا الجمع

الموضوع	الصفحة
عدد المصاحف التي أمر عثمان رضي الله عنه بنسخها	١٠٢
خبر هذه المصاحف	١٠٣
جمعه بمعنى تسجيله تسجيلًا صوتيًا	١٠٦
تعريف المصحف المرتل	١٠٨
المراد به وأدواته	١٠٩
أسبابه ودواعيه	١٠٩
تاريخه	١١٠
بدء الطبع وكيفية التسجيل	١١٠
القرءاء	١١١
مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف	١١١
ترتيب سور القرآن الكريم وآياته	١١٤
سور القرآن الكريم	١١٤
طريق معرفة السورة	١١٥
عدد سور القرآن	١١٥
أسماء السور	١١٥
مصدر التسمية	١١٧
أقسام السور	١١٧
أقوال العلماء في ترتيب السور	١١٩
حكمة تسوير القرآن	١٢٤
آيات القرآن الكريم	١٢٥
تعريف الآية	١٢٥
إطلاق الآية	١٢٦
عدد آيات القرآن الكريم	١٢٧
ترتيب الآيات	١٢٨
طريق معرفة بداية الآيات ونهايتها	١٢٩

فوائد معرفة الآيات	١٣١
فوائد عامة	١٣١
٦ - المكي والمدني	١٣٤
عناية العلماء بالمكي والمدني	١٣٥
أنواع المكي والمدني	١٣٦
السور المكية والسور المدنية	١٣٦
طريق معرفة المكي والمدني	١٣٧
أقوال العلماء في الفرق بين المكي والمدني (تعريف المكي والمدني)	١٣٩
ضوابط السور المكية	١٤١
مميزات السور المكية	١٤٣
ضوابط السور المدنية	١٤٤
مميزات السور المدنية	١٤٥
فوائد معرفة المكي والمدني	١٤٦
٧ - أسباب النزول	١٤٨
عناية العلماء بأسباب النزول	١٤٨
تعريف سبب النزول	١٤٩
طريق معرفة سبب النزول	١٥١
فوائد معرفة سبب النزول	١٥٣
الاستفادة من معرفة سبب النزول في مجال التربية والتعليم	١٦١
٨ - التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي	١٦٣
تعريف التفسير	١٦٣
مناهج التفسير	١٦٤
التفسير بالمأثور وأهم المؤلفات فيه	١٦٥
تعريفه	١٦٥

الموضوع	الصفحة
مكائنه	١٦٥
مصادره	١٦٦
أسباب الاختلاف فيه	١٦٧
حكمه	١٦٩
أهم المؤلفات فيه	١٦٩
أولاً: جامع البيان في تفسير القرآن: للطبري	١٦٩
ثانياً: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير	١٧١
ثالثاً: الدر المنثور: السيوطي	١٧٣
رابعاً: أضواء البيان: الشنقيطي	١٧٣
التفسير بالرأي وأهم المؤلفات فيه	١٧٥
تعريفه	١٧٥
أقسامه	١٧٥
التفسير بالرأي المحمود وحكمه	١٧٥
التفسير بالرأي المذموم وحكمه	١٧٦
أهم المؤلفات في التفسير بالرأي	١٧٧
أولاً: الكشف: الزمخشري	١٧٧
ثانياً: مفاتيح الغيب: الرازي	١٧٨
ثالثاً: تيسير الكريم الرحمن: ابن سعدي	١٨٠
رابعاً: في ظلال القرآن: سيد قطب	١٨١
٩ - شروط المفسر وآدابه	١٨٣
شروط المفسر	١٨٤
آداب المفسر	١٨٥
١٠ - الوحي	١٨٨
حاجة البشر إليه	١٨٨
تعريف الوحي لغة	١٨٨

أنواعه بالمعنى اللغوي	١٩٢
الوحي شرعاً	١٩٤
أنواعه بالمعنى الشرعي	١٩٥
كيفية وحي الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة عليهم السلام	١٩٩
كيفية وحي الله سبحانه وتعالى إلى الرسل عليهم السلام	٢٠١
كيفية وحي الملك إلى الرسول	٢٠٢
إمكانية وقوع الوحي	٢٠٦
أدلة وقوع الوحي	٢٠٨
١١- نزول القرآن الكريم	٢١٠
أدلته	٢١٠
أقوال العلماء في نزول القرآن الكريم	٢١٠
القول الأول	٢١١
القول الثاني	٢١٣
القول الثالث	٢١٤
القول الرابع	٢١٥
الراجح	٢١٦
نزول القرآن جملة	٢١٨
كيفية	٢١٨
دليله	٢١٩
واسطته	٢٢٠
مدته	٢٢٠
حكمته	٢٢١
اختصاص القرآن الكريم بنزوله جملة	٢٢٣
نزول القرآن الكريم منجماً	٢٢٣
كيفية	٢٢٣

الموضوع	الصفحة
واسطته	٢٢٤
دليله	٢٢٤
مقدار ما ينزل في كل مرة	٢٢٤
مدته	٢٢٦
الحكمة في نزول القرآن منجماً	٢٢٧
أولاً: تثبيت قلب الرسول ﷺ	٢٢٧
ثانياً: تيسير حفظه وفهمه	٢٣٤
ثالثاً: مسابقة الحوادث	٢٣٥
رابعاً: التدرج في التشريع وتربية الأمة	٢٤١
خامساً: استمرار التحدي والإعجاز	٢٤٢
سادساً: الدلالة على مصدر القرآن	٢٤٣
الاستفادة من نزول القرآن منجماً في مجال التربية والتعليم	٢٤٥
١٢- أول ما نزل وآخر ما نزل	٢٤٨
أقوال العلماء في أول ما نزل	٢٤٨
أقوال العلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق	٢٤٩
الأول	٢٤٩
الثاني	٢٥٠
الثالث	٢٥٢
الرابع	٢٥٤
أقوال العلماء في آخر ما نزل	٢٥٥
الأول	٢٥٦
الثاني	٢٥٧
الثالث	٢٥٨
الرابع	٢٦٠
الخامس	٢٦٠

٢٦١	السادس
٢٦٣	السابع
٢٦٣	الثامن
٢٦٤	إشكال ودفعه
٢٦٦	أوائل وأواخر مخصوصة
٢٦٧	أولاً: أول ما نزل وآخر ما نزل في الخمر
٢٧١	ثانياً: أول ما نزل وآخر ما نزل في الربا
٢٧٣	ثالثاً: أول ما نزل وآخر ما نزل في الجهاد
٢٧٨	فوائد معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل
٢٨٠	١٣- إعجاز القرآن الكريم
٢٨٠	تعريف المعجزة لغة
٢٨٢	المعجزة في القرآن الكريم
٢٨٤	شروط المعجزة
٢٨٦	جواز وقوع المعجزة
٢٨٨	المراد بإعجاز القرآن الكريم
٢٨٨	إثبات إعجاز القرآن الكريم
٢٩٠	عناية العلماء به، وأهم المؤلفات فيه
٢٩٤	مراحل التحدي بالقرآن الكريم
٢٩٦	مقدار المعجزة من القرآن الكريم
٢٩٧	وجوه الإعجاز في القرآن الكريم
٢٩٨	القول الأول
٣٠٠	القول الثاني
٣٠٢	القول الثالث
٣٠٦	القول الرابع
٣٠٦	القول الخامس

الموضوع	الصفحة
الإعجاز اللغوي	٣٠٨
الإعجاز العلمي	٣١٦
المراد به	٣١٦
أقوال العلماء فيه	٣١٧
المؤيدون للتفسير العلمي	٣١٨
أدلتهم	٣١٨
المعارضون للتفسير العلمي	٣٢٠
أدلتهم	٣٢٠
الرأي المختار	٣٢١
من المؤلفات في الإعجاز العلمي	٣٢٤
أمثلة للتفسير العلمي	٣٢٤
الإعجاز التشريعي	٣٢٦
منهج القرآن في التشريع	٣٢٧
أولاً: تربية الفرد	٣٢٧
ثانياً: بناء الأسرة	٣٣٤
ثالثاً: بناء المجتمع	٣٣٥
مزايا التشريع القرآني	٣٣٩
١٤- القراءات والقراء	٣٤١
القراءات لغة	٣٤١
القراءات اصطلاحاً	٣٤١
تعريف علم القراءات	٣٤٢
موضوعه	٣٤٢
استمداده	٢٤٢
حكمه	٣٤٣
ثمرته وفائدته	٣٤٣

مكانته	٣٤٣
نشأة علم القراءات	٣٤٣
المراحل التي مرّ بها علم القراءات	٣٤٤
من أهم المؤلفات في القراءات	٣٥١
شروط القراءة الصحيحة	٣٥٢
أنواع القراءات	٣٥٥
حكم هذه القراءات	٣٦٠
القراء	٣٦٢
مراتب القراء	٣٦٢
تعريف المقرئ	٣٦٢
تاريخ القراء وأحكام قراءاتهم	٣٦٢
فوائد تعدد القراءات	٣٦٦
١٥- الأحرف السبعة	٣٧٠
الأحرف السبعة لغة	٣٧١
الأدلة على نزول القرآن على سبعة أحرف	٣٧٢
المراد بالأحرف السبعة	٣٧٦
الطائفة الأولى	٣٧٧
الطائفة الثانية	٣٧٨
الطائفة الثالثة	٣٧٩
قول ابن قتيبة	٣٨٠
قول أبي الفضل الرازي المقرئ	٣٨١
قول ابن الجزري	٣٨٢
ما تستدل به هذه الطائفة	٣٨٣
الاعتراضات على هذا القول	٣٨٤
الطائفة الرابعة	٣٨٥

الموضوع	الصفحة
القول الأول	٣٨٦
القول الثاني	٣٨٧
الاعتراضات	٣٩٠
الترجيح	٣٩١
الخلاصة	٣٩٣
أقوال العلماء فيما بقي من الأحرف السبعة	٣٩٣
١ - بقاء حرف واحد من الأحرف السبعة	٣٩٣
٢ - بقي من الأحرف السبعة ما يحتمله رسم المصحف	٣٩٤
٣ - بقاء الأحرف السبعة كلها	٣٩٦
الترجيح	٣٩٦
حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف	٣٩٧
١ - التيسير على الأمة والرحمة بهم	٣٩٨
٢ - تحقيق انتشار الدعوة الإسلامية	٣٩٩
٣ - الإيجاز والإعجاز	٤٠٠
٤ - الدلالة على مصدر القرآن وأنه وحي من الله تعالى	٤٠٠
٥ - توحيد لغات العرب ووحدة الأمة الإسلامية	٤٠٠
٦ - أن الأحرف السبعة من خصائص أمة محمد ﷺ	٤٠٠
٧ - أن الأحرف السبعة من خصائص القرآن الكريم	٤٠١
١٦- النسخ في القرآن	٤٠٢
بعض من ألف في هذا العلم	٤٠٢
النسخ لغة	٤٠٣
النسخ اصطلاحاً	٤٠٤
شروط النسخ	٤٠٥
مذاهب الناس في النسخ	٤٠٥
ما يقع فيه النسخ	٤٠٧

الموضوع	الصفحة
ما لا يقع النسخ فيه	٤٠٧
طرق معرفة الناسخ والمنسوخ	٤٠٨
أقسام النسخ	٤١٠
١ - نسخ القرآن بالقرآن	٤١٠
٢ - نسخ القرآن بالسنة	٤١٠
أ - نسخ القرآن بالسنة الأحادية	٤١٠
ب - نسخ القرآن بالسنة المتواترة	٤١١
٣ - نسخ السنة بالقرآن	٤١٢
٤ - نسخ السنة بالسنة	٤١٢
أنواع نسخ القرآن بالقرآن	٤١٣
١ - نسخ التلاوة والحكم	٤١٣
٢ - نسخ الحكم وبقاء التلاوة	٤١٤
حكمة نسخ الحكم وبقاء التلاوة	٤١٤
حكمة نسخ الآية قبل العمل بحكمها	٤١٥
٣ - نسخ التلاوة وبقاء الحكم	٤١٥
النسخ إلى بدل وإلى غير بدل	٤١٦
حكمة النسخ	٤١٧
١٧ - القسم في القرآن الكريم	٤١٩
المؤلفات فيه	٤١٩
تعريفه لغة واصطلاحاً	٤١٩
صيغته	٤٢١
أركان القسم	٤٢١
أنواع القسم	٤٢٢
المقسم به في القرآن الكريم	٤٢٣
النوع الأول: قسم بالله تعالى	٤٢٣

٤٢٤	النوع الثاني : قسم الله تعالى بمخلوقاته
٤٢٦	المقسم عليه في القرآن الكريم
٤٢٨	المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه
٤٣٠	لا النافية للمقسم
٤٣٣	من فوائد القسم
٤٣٦	١٨- فواتح السور وخواتمها
٤٣٦	المؤلفات في هذا العلم
٤٣٧	فواتح السور
٤٣٧	١ - الاستفتاح بالثناء
٤٣٨	٢ - الاستفتاح بحروف التهجي
٤٤٠	معاني الأحرف المقطعة في أوائل السور
٤٤٢	٣ - الاستفتاح بالنداء
٤٤٢	٤ - الاستفتاح بالجملة الخبرية
٤٤٢	٥ - الاستفتاح بالقسم
٤٤٣	٦ - الاستفتاح بالشرط
٤٤٣	٧ - الاستفتاح بالأمر
٤٤٣	٨ - الاستفتاح بالاستفهام
٤٤٣	٩ - الاستفتاح بالدعاء
٤٤٣	١٠ - الاستفتاح بالتعليل
٤٤٤	خواتم السور
٤٤٥	١٩- المناسبات بين الآيات والسور
٤٤٦	المؤلفات في هذا العلم
٤٤٧	تعريف المناسبة
٤٤٧	أهمية هذا العلم ومكانته
٤٤٨	فوائد علم المناسبات

٤٤٩	خلاف العلماء في المناسبات
٤٥٠	أنواع المناسبات
٤٥٠	١ - المناسبة بين الآية والآية التي تليها
٤٥١	٢ - المناسبة بين أول السورة وخاتمتها
٤٥١	٣ - المناسبة بين خاتمة السورة و فاتحة السورة التي تليها
٤٥٢	وجوه المناسبات
٤٥٢	١ - التنظير
٤٥٢	٢ - المضادة
٤٥٣	٣ - الاستطراد
٤٥٣	٤ - الانتقال
٤٥٤	٢٠ - رسم المصحف
٤٥٦	تعريفه
٤٥٧	عناية العلماء به
٤٥٨	قواعد رسم المصحف
٤٥٩	القاعدة الأولى : قاعدة الحذف
٤٦٥	القاعدة الثانية : قاعدة الزيادة
٤٦٨	القاعدة الثالثة : قاعدة البذل
٤٧٢	القاعدة الرابعة : قاعدة الهمز
٤٧٦	رسم بياني لهذه القاعدة
٤٧٧	القاعدة الخامسة : قاعدة الوصل والفصل
٤٧٩	القاعدة السادسة : ما فيه قراءتان
٤٨١	فوائد ومزايا رسم المصحف
٤٨٥	طريق معرفة رسم المصحف
٤٨٥	القول الأول : أنه توقيفي
٤٨٧	القول الثاني : أنه اصطلاحي

الموضوع	الصفحة
الرأي الراجح	٤٨٨
حكم التزام الرسم العثماني	٤٨٨
القول الأول: وجوب التزامه	٤٨٨
القول الثاني: جواز مخالفته	٤٩٠
القول الثالث: جواز كتابته بالرسم الإملائي للتعليم	٤٩٠
الرأي الراجح	٤٩١
نقط المصحف وشكله وتجزئته	٤٩٤
تجزئة المصحف	٤٩٦
حكم هذه الزيادات	٤٩٧
حكم التجزئة وعلامات الوقف	٤٩٩
مرحلة طباعة المصحف	٥٠١
إنشاء مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف	٥٠٥
٢١- المحكم والمتشابه	٥٠٧
أولاً: الإحكام والتشابه العام	٥٠٨
أ - الإحكام العام	٥٠٨
دليله	٥٠٨
معناه	٥٠٨
ب - التشابه العام	٥٠٩
دليله	٥٠٩
معناه	٥٠٩
ثانياً: الإحكام والتشابه الخاص	٥١١
أقوال العلماء في المحكم والمتشابه	٥١١
أقسام المتشابه	٥١٢
معرفة المتشابه	٥١٥
سبب الاختلاف في معرفة المتشابه	٥١٦

الحكمة من ذكر المتشابهات في القرآن الكريم	٥٢٣
من حكم ذكر المتشابه الذي يمكن علمه	٥٢٣
من حكم ذكر المتشابه الذي لا يمكن علمه	٥٢٥
٢٢- العام والخاص	٥٢٦
العام لغة	٥٢٦
العام اصطلاحاً	٥٢٧
صيغ العموم	٥٢٨
أقسام العام	٥٣٢
الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام الذي يدخله التخصيص	٥٣٥
الخاص لغة	٥٣٦
الخاص اصطلاحاً	٥٣٦
حكم تخصيص العموم	٥٣٧
الفرق بين التخصيص والنسخ	٥٣٨
أقسام المخصص	٥٣٩
الأول: المخصص المتصل وأنواعه	٥٣٩
الثاني: المخصص المنفصل وأنواعه	٥٤٢
حكم تخصيص السنة بالقرآن	٥٤٥
عموم الخطاب وخصوصه وتحت مسائل	٥٤٦
١ - الخطاب الخاص بالرسول ﷺ	٥٤٦
٢ - الخطاب العام بلفظ يا أيها الناس هل يشمل الرسول ﷺ	٥٤٧
٣ - الخطاب العام بلفظ يا أيها الناس هل يشمل الكفار	٥٤٨
٤ - الخطاب العام بلفظ يا أيها الذين آمنوا هل يشمل الكفار	٥٤٨
٥ - صيغة الجمع المذكر هل تشمل النساء	٥٤٩
أحوال الألفاظ مع أسباب النزول من حيث العموم والخصوص	٥٥٠
الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما عدا المخصوص	٥٥٤

٥٥٧	٢٣- المطلق والمقيد
٥٥٧	تعريف المطلق لغة
٥٥٨	تعريف المطلق اصطلاحاً
٥٥٩	تعريف المقيد لغة
٥٦٠	تعريف المقيد اصطلاحاً
٥٦٠	الفرق بين العام والخاص والمطلق والمقيد
٥٦٢	صور حمل المطلق على المقيد
٥٦٧	٢٤- المنطوق والمفهوم
٥٦٧	المنطوق وأقسامه
٥٦٧	الأول: المنطوق الصريح وأقسامه
٥٦٩	الثاني: المنطوق غير الصريح وأقسامه
٥٧١	أقسام المنطوق عامة
٥٧١	المفهوم
٥٧١	أقسامه
٥٧٢	١ - مفهوم الموافقة
٥٧٣	٢ - مفهوم المخالفة
٥٧٥	حكم الاحتجاج بالمفهوم
٥٧٨	شروط الاحتجاج بمفهوم المخالفة
٥٨٠	٢٥- الجدل في القرآن
٥٨٠	المؤلفات في هذا العلم
٥٨١	تعريف الجدل
٥٨١	أنواع الجدل
٥٨٣	قواعد وآداب الحوار والجدال
٥٨٤	طريقة القرآن في الجدل

طرق الاستدلال في القرآن الكريم	٥٨٧
١ - ما يسوقه الله من الأدلة ابتداء	٥٨٧
٢ - ما يرد به على الخصوم والمعادين	٥٨٨
طرق الجدل في القرآن الكريم	٥٨٨
الاستفهام التقريري	٥٨٨
قياس الخلف	٥٨٩
قياس التمثيل	٥٨٩
السبر والتقسيم	٥٩٠
التسليم الجدلي	٥٩١
الانتقال في الاستدلال	٥٩٢
٢٦- الأمثال في القرآن	٥٩٣
المؤلفات في أمثال القرآن	٥٩٣
تعريف المثل	٥٩٤
أنواع الأمثال في القرآن الكريم	٥٩٥
١ - الأمثال المصرحة	٥٩٥
٢ - الأمثال الكامنة	٥٩٧
٣ - الأمثال المرسله	٥٩٨
حكم استعمال الأمثال المرسله	٥٩٩
خصائص ومزايا الأمثال القرآنية	٦٠٠
فوائد الأمثال في القرآن الكريم وأغراضها	٦٠١
أثر الأمثال في التربية والتعليم	٦٠٤
٢٧- قصص القرآن الكريم	٦٠٦
تعريف القصة	٦٠٦
قصص القرآن اصطلاحاً	٦٠٧

الموضوع	الصفحة
أنواع القصص في القرآن الكريم	٦٠٧
فوائد القصة في القرآن الكريم	٦٠٨
مزايا القصة القرآنية	٦١٠
فوائد تكرار القصة في القرآن	٦١٢
كيفية الاستفادة من القصة في مجال التربية والتعليم	٦١٤
التربية بالأحداث	٦١٥
التربية بالشخصية	٦١٦
التربية بالحوار	٦١٦
٢٨- ترجمة القرآن الكريم	٦١٨
معاني الترجمة لغة	٦١٩
الترجمة الحرفية	٦٢٠
حكم الترجمة الحرفية	٦٢١
الترجمة المعنوية أو التفسيرية	٦٢١
حكم الترجمة المعنوية أو التفسيرية	٦٢١
جهود المملكة العربية السعودية في ترجمة القرآن الكريم	٦٢٤
المصادر والمراجع	٦٢٥
فهرس المحتويات	٦٤٥



للمؤلف

* تأليف :

- ١ - منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير (في مجلدين) الطبعة الخامسة
- ٢ - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر (ثلاثة مجلدات) الطبعة الرابعة
- ٣ - خصائص القرآن الكريم الطبعة الحادية عشر
- ٤ - الصلاة في القرآن الكريم الطبعة السابعة
- ٥ - قصة عقيدة الطبعة الأولى
- ٦ - دراسات في علوم القرآن الكريم الطبعة الثالثة عشر
- ٧ - بحوث في أصول التفسير ومناهجه الطبعة السابعة
- ٨ - البدهيات في القرآن الكريم الطبعة الثانية
- ٩ - البدهيات في الحزب الأول من القرآن الكريم الطبعة الثانية
- ١٠ - التفسير الفقهي في القيروان الطبعة الثانية
- ١١ - منهج المدرسة الأندلسية في التفسير الطبعة الثانية
- ١٢ - وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف الهجائية المقطعة الطبعة الثانية
- ١٣ - مسألة خلق القرآن وموقف علماء القيروان منها الطبعة الثانية
- ١٤ - قول الصحابي في التفسير الأندلسي الطبعة الأولى
- ١٥ - تطبيق الحدود الشرعية وأثره على الأمن الطبعة الأولى
- ١٦ - نقل معاني القرآن إلى لغة أخرى أترجمة أم تفسير الطبعة الأولى
- ١٧ - جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين الطبعة الأولى
- ١٨ - تحريف المصطلحات القرآنية الطبعة الأولى

*** تحقيق :**

- ١ - تفسير الفاتحة لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب الطبعة الخامسة
- ٢ - تفسير الفاتحة (مختصر) لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب الطبعة الرابعة
- ٣ - تفسير سورة الفلق لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب الطبعة الرابعة
- ٤ - تفسير سورة الناس لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب الطبعة الثانية
- ٥ - فضائل القرآن الكريم لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب الطبعة الثانية
- ٦ - قصيدة الواعظ الأندلسي في مناقب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الطبعة الأولى

*** بالاشتراك :**

- ١ - طرق تدريس التجويد وأحكام تعلمه وتعليمه الطبعة الخامسة